



جامعـــــة اليرمـــــوك
كليـــــــــة الآداب
قـــــــسم التــــــاريخ

الرسائل الديوانية في عصر دولة المماليك الأولى
(٦٤٨ـ ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ـ ١٣٨٢م)

دراسة تاريخية (سياسية وإدارية)

Diwan Correspondences' During The First Mamluks State
(648- 784 AH/ 1250- 1382 AD)

Historical Studies (Political and Administration)

إعـــداد
هالة نواف يوسف الرفاعي

٢٠٠٨٢٤٠٠٠٧

إشراف الأستاذ الدكتور
محمد ضيف الله بطاينة

٢٠١٥م

الرسائل الديوانية في عصر دولة المماليك الأولى
(٦٤٨ـ ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ـ ١٣٨٢م)
دراسة تاريخية (سياسية وادارية)

Diwan Correspondences' During The First Mamluks State
(648- 784 AH/ 1250- 1382 AD)
Historical Studies (Political and Administration)

إعـــــداد

هالة نواف يوسف الرفاعي

ماجستير تاريخ إسلامي، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٨م

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه تخصص التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، جامعة اليرموك، اربد، الأردن

وافق عليها

أ.د. محمد ضيف الله بطاينة .... رئيساً ومشرفاً

أستاذ التاريخ الإسلامي، جامعة اليرموك

أ.د محمد عبد القادر خريسات .... عضواً

أ.د. سليمان عبد العبدالله خرابشة .... عضواً

أ.د. أحمد محمد الجوارنه .... عضواً

د. محمد محمود عناقرة .... عضواً

تاريخ مناقشة الأطروحة: ٢٠١٥/١١/١٠م

الإهداء

الحمد لله رب العالمين أن أكرمني وهيأ لي أسباب الحصول على هذه الشهادة

.... إلى اللـذين منحوني رضاهـم ودعواتهـم ....

﴿ والدي ... والدتي رحمهما الله ﴾

وإلى إخواني وأخواتي الأعزاء ..... على تشجيعهم تأييدهم ودعمهم الكبير لي

وإلى كل من ساهم ولو بكلمة في إنجاز هذا العمل

الباحثة



اعترافا مـني بالفـضل والعرفـان لا يـسعني إلا أن أتقـدم بجزيـل الـشكر ووافـر التقـدير والامتنان إلى أستاذي الفاضـل الأسـتاذ الـدكتور محمـد ضـيف الله بطاينـة، الـذي تفضّل بقبـول الإشراف على هذه الدراسة، وشملني بعلمه وعطفه ورعايتـه وعنايتـه، وأمـدّني بعلمـه ونـصحه وإرشاده.

كما أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى أساتذتي الأفاضـل: الأسـتاذ الـدكتور أحمـد جوارنـه، والأستاذ الدكتور سـليمان خرابـشة، والأسـتاذ الـدكتور نعمـان جـبران، والـدكتورة فـايزة حجـازي، والدكتور محمد عناقرة.

كما وأتقـدم بجزيـل الـشكر للأسـتاذ الـدكتور الفاضـل محمـد عبـد القـادر خريـسات، الـذي أعطاني من وقته الثمين وعلمه الغزير.

وأتقدم بجزيل الشكر إلى الأخت الدكتورة خلود الأحمدي.

الاختصارات المستخدمة

أشير إلى المصادر والمراجع في الهوامش على النحو الآتي:

١- عندما يرد المؤلف لأول مرة، يشار للمعلومات البيلوغرافية كاملة على النحو الآتي:
الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك (المعروف بتاريخ الأمم والملوك)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٧.

٢- حينما يتكرر استخدام المصدر أو المرجع، يذكر اسم الشهرة للمؤلف، ثم تذكر الكلمة الأولى من عنوان الكتاب، أو الكلمتين الأولى والثانية لنفي الالتباس، ثم الجزء-إن وجد- والصفحة على النحو الآي: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص٦٤٤.

٣- إذا ورد للمؤلف كتابان أو أكثر، ووردا في هامش واحد، يفصل بينهما بواو (.....و.....) ومثال ذلك: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج١، ص ٢٥ وحسن المحاضرة، ص٦٧.

٤- ترمز الحروف الآتية إلى ما يلي:

ت	الوفاة
ه	الهجري
م	الميلادي
ق	القرن
ط	الطبعة
ج	الجزء
ص	الصفحة
د.ط	دون طبعة
د.ت	دون تاريخ نشر
د.ن	دون دار نشر
ع	العدد بالنسبة للدوريات
P.	رقم الصفحة باللغة الإنجليزية
vol.	رقم الجزء باللغة الإنجليزية

قائمة المحتويات

الملخص

الرفاعي، هالة نواف، الرسائل الديوانية في عصر دولة المماليك الأولى (٦٤٨- ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠- ١٣٨٢م) دراسة تاريخية (سياسية وإدارية)، أطروحة دكتوراه، جامعة اليرموك، ٢٠١٥م، (إشراف: أ.د. محمد ضيف الله بطاينة)

مرّت كتابة الرسائل الديوانية بمراحل تاريخية مختلفة؛ تنوعت خلالها أغراض كتابة الرسائل، وتلازم ذلك مع اعتماد جهة خاصة لإصدارها، تمثلت بديوان الرسائل الذي أصبح يعرف بديوان الإنشاء.

فخلال العصور السابقة للعصر المملوكي ترسخت أسس كتابة الرسائل الديوانية؛ ففي المجال السياسي اتضح أثر التطورات السياسية والإدارية في ازدياد الحاجة إلى الرسائل الرسمية وفي تعدد أغراضها، وبالتالي تعدد أنواعها وترسيخ دور ديوان الإنشاء في إصدار هذه الرسائل والتلازم بين دوره الرسمي وبين تحقيق الغرض من كتابة الرسائل الديوانية. وفي المجال الفكري أدى ازدهار الأدب في الدولة الإسلامية إلى السمو بثقافة كتابة الإنشاء، وشكّل نتاج هؤلاء الكتّاب موروثاً أدبياً هاماً وجزءاً من التراث العربي الإسلامي.

وفي العصر المملوكي تبلورت الظواهر التي ميّزت المراحل السابقة لهذا العصر، والمتمثلة بحاجة الدول إلى مراسلات لتنظيم شؤونها الداخلية والخارجية، وحاجتها لجهاز إداري ينظم إصدار هذه المراسلات ويقوم بتوثيقها، فاعتمد المماليك على ديوان الإنشاء الموروث عن الأيوبيين بكادره الإداري المتمثل بكتّاب الإنشاء وعلى رأسهم ابن لقمان والبهاء زهير وبأسسه الأدبية اللازمة لكتابة الرسائل التي نقلت عبر كتب الدساتير التي أُلّفت في العصر الفاطمي ثم في العصر الأيوبي.

وكان التنوع في أغراض الرسائل الديوانية وتعدد أنواعها السمة البارزة لهذه الرسائل خلال العصر المملوكي، فأُعدت رسائل خاصة بالتنظيم السياسي، وأخرى خاصة بالتنظيم الإداري أعدّت وفق أسس أدبية موثقة ومحفوظة في ديوان الإنشاء المملوكي.

وصدر عن ديوان الإنشاء المملوكي رسائل هامة ذات قيمة أدبية وتاريخية، كالمبايعات والعهود والتقاليد الممنوحة للخاصة شكّلت مجالاً خصباً لدراسة التنظيم السياسي الداخلي المتمثل بالخلافة العباسية والسلطنة المملوكية وبعض الأجهزة السياسية والجهات العاملة في الدولة، كما صدرت المهادنات والرسائل السلطانية، فشكّلت مجالاً خصباً لدراسة العلاقات الخارجية للدولة المملوكية.

كما كان يصدر عن ديوان الإنشاء الرسائل المتعلقة بالتعيين في وظائف الدولة، كالتقاليد والتواقيع والتفويضات، والتي ظهرت من خلالها المهام والصلاحيات الممنوحة لمن يُراد تعيينه، وشكّلت تلك الرسائل –مضافاً إليها المناشير والرسائل الخاصة بتعليمات السلاطين– جانباً مهماً يفيد في دراسة التنظيم الإداري لأجهزة الدولة المملوكية.

الكلمات المفتاحية: الدولة المملوكية، الرسائل الديوانية، ديوان الإنشاء.

أهمية الدراسة:

تزخر المكتبات العربية والعالمية بمجموعات من المصادر التي تبحث في تاريخ دولة المماليك، والتي تشمل كتب التاريخ العام وكتب التراجم والمؤلفات الموسوعية (الموسوعات)، ومنذ ما يزيد على قرن من الزمان وظفت هذه المصادر على يد عدد من المؤرخين العرب في الدراسات الحديثة التي تؤرخ للعصر المملوكي، تشمل سير السلاطين للمعارك الفاصلة في العصر المملوكي والحياة الاقتصادية والاجتماعية ونظم الحكم والإدارة، فنهل هؤلاء المؤرخون من هذه الكتب والمخطوطات وقدموا للدارسين مجلدات ضخمة سهلت سبل البحث من جهة، من جهة أخرى فتحت آفاقاً جديدة للبحث والتنقيب في المصادر الأصلية ورصد محتوى هذه المصادر بما يفيد عملية البحث التاريخي.

ويلاحظ من خلال الاطلاع على المصادر الأولية والدراسات الحديثة دور الرسائل الديوانية (كوثائق رسمية) في دراسة جوانب هامة من تاريخ الدولة المملوكية؛ فالرسائل بأنواعها (السلطانية والعهود، والمبايعات، والتقاليد، والتواقيع، والمناشير، والمراسيم) مصدر أساسي لدراسة جوانب هامة في الدولة المملوكية منها الجوانب السياسية؛ فهي لسان حال الدولة الذي يعبر عن سياستها، ويفيد في دراسة النظام السياسي. والرسائل الديوانية كذلك مصدر لدراسة الجوانب الإدارية، وهي مؤشر على تطور الجهاز الإداري في الدولة؛ فقد كانت المراسلات تصدر عن ديوان الإنشاء، الذي صنف كأهم دواوين الدولة وحظي صاحب ديوان الإنشاء بمكانة هامة عند السلاطين المماليك، واتسعت اختصاصاته، وعينت الدولة أعواناً له، مثل كاتب السر وكاتب الدست وغيرهم. وقد احتوت المصادر المملوكية على وصف لهذا الديوان واختصاصاته والرسائل الصادرة عنه. ولعل أبرز هذه المصادر صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي.

ورغم هذه الأهمية لهذه الرسائل الديوانية (كوثائق رسمية) لم تحظَ بالاهتمام بما يتفق ومكانتها كمصدر أساسي لدراسة تاريخ الدولة المملوكية لذا ستقوم هذه الدراسة بتحليل الرسائل الديوانية كوثائق أساسية تساعد في شرح طبيعة النظام السياسي والإداري في العصر المملوكي وفق الخطوات التالية:

١- التعريف بديوان الإنشاء وأهميته في النظام الإداري في العصر المملوكي وقيامه بإنشاء الرسائل الديوانية بأنواعها المختلفة والتعريف بها.

٢- الكشف عن طبيعة الخلافة والسلطنة والعلاقات الخارجية من خلال الرسائل الديوانية من خلال:

- بيان أهمية منصب الخليفة العباسي خلال العصر المملوكي والإجراءات المتبعة في مبايعة الخليفة وتعيين ولي العهد.
- شرح الإجراءات المتبعة في تعيين السلطان المملوكي واستنباط المهام الأساسية للسلطان والظروف المحيطة باختياره.
- دراسة نظام ولاية العهد والإجراءات المتّبعة في إصدار العهد والبحث في مدى استمرارية هذا المنصب.
- دراسة العلاقات الخارجية للدولة المملوكية.

٣- شرح المهام والصلاحيات لكبار موظفي الدولة من خلال الرسائل الديوانية من حيث:

- التعريف بدواوين الدولة المملوكية من حيث مسمياتها واختصاصات كل ديوان.
- دراسة النظام الإداري المعمول به لتسيير شؤون الأقاليم المصرية.
- دراسة التنظيم الإداري لنيابات الشام من حيث التعريف بالنيابات وتعيين النواب، ونواب القلاع.

إشكالية الدراسة:

تحاول هذه الدراسة تحليل الرسائل الديوانية بهدف الخروج بإجابات على التساؤلات التالية:

١- ما المقصود بالرسائل الديوانية؟

٢- ما هي أنواع الرسائل الديوانية خلال العصر المملوكي؟

٣- ما هو الجهاز الإداري المكلف بإصدار الرسائل الديوانية؟ وما أهمية هذا الجهاز في الحياة السياسية والنظام الإداري في العصر المملوكي؟

٤- ما هي المؤشرات النظرية الدالة على حرص المماليك على إحياء الخلافة العباسية؟

٥- ما الإجراءات المتبعة عند مبايعة الخليفة العباسي؟

٦- ما هي الإجراءات المتبعة في تعيين السلاطين المماليك؟

٧- كيف نظر المماليك إلى نظام ولاية العهد؟

٨- ما هي طبيعة العلاقات بين الدولة المملوكية والدول الإسلامية وغير الإسلامية؟

٩- ما هي طبيعة العلاقات مع المغول والفرنجة؟ وما هي دلالات الرسائل الديوانية على ذلك وغيرها من الأحداث الهامة؟

١٠- ما هي دلالة الرسائل الديوانية على أنواع الوظائف في الدولة المملوكية؟

١١- ما هي المهام الموكولة إلى أرباب الوظائف في الدولة المملوكية ؟

١٢- ما هي طبيعة التنظيم الإداري في نيابات الشام؟ وما هي اختصاصات النائب؟

١٣- كيف تمت إدارة القلاع الشامية؟ وما هي المهام التي كُلِفَ بها نواب القلاع؟

١٤- كيف نظمت الدولة المملوكية النيابات من خلال الرسائل الديوانية؟

اقتضت طبيعة الموضوع تقسيمه إلى تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، اعتمدت فيها الباحثة على المنهج التاريخي ودراسة المصادر والدراسات الحديثة، فاشتمل التمهيد على شرح البدايات الأولى

لكتابة الرسائل وتأسيس ديوان الإنشاء في الدولة الإسلامية قبل عصر المماليك، فتم تحديد بداية كتابة الرسائل الرسمية، كما تم الارتكاز على تتبع نشأة ديوان الإنشاء في الدولة الإسلامية بدءاً من تأسيسه تحت مسمى ديوان الرسائل، مروراً باعتماد مسمى ديوان الإنشاء، مع بيان وشرح تطوره في الدولة الإسلامية المتعاقبة حتى نهاية العصر الأيوبي.

أما الفصل الأول فقد تضمن التعريف بالرسائل الديوانية، وبيان أنواعها في شرح مفصل لهذه الأنواع، تبعاً لأغراض كتابتها، فاشتمل على أقسام رئيسة منها: المهادنات وما يتصل بها، والرسائل السلطانية، ورسائل التعيين في وظائف الدولة، والرسائل الخاصة بالتعليمات الصادرة عن السلاطين وغير ذلك من الرسائل، كما تضمن التعريف بالرسائل والأسس المتبعة في صياغتها إضافةً إلى أمثلة حية لحالات إصدارها.

أما الفصل الثاني فقد تناول دراسة وتحليل نصوص الرسائل الديوانية المتعلقة بالتنظيم السياسي الداخلي في مجال الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية، وكذلك العلاقات الخارجية للدولة المملوكية.

وتم من خلال الفصل الثالث تتبّع الرسائل الصادرة من ديوان الإنشاء، والمتعلقة بتعيين كبار موظفي الدولة، وفق التقسيم الشائع في هذا العصر، مع تحليل النصوص الواردة في هذا الشأن، وبيان المهام الرئيسة والصلاحيات الممنوحة لقطاع كبير من موظفي الدولة.

وجاءت الخاتمة لتشتمل على أهم الاستنتاجات التي توصلت إليه الدراسة، كما احتوت على قائمة بالمصادر والمراجع التي تم استخدامها في الدراسة.

تحليل لأهم مصادر الدراسة ومراجعها

أُعِدّتْ هذه الدراسة وفق خصوصية واضحة تتمثل في تحديد أنواع الرسائل، وجمع نصوص متكاملة لها، بالإضافة إلى تتبع مراحل نشأة ديوان الانشاء، بوصفه الجهة الرسميةُ الخاصةُ بإصدار هذه الرسائل. لذا فقد تطلّبت خصوصية الموضوع الاعتماد بشكل أساسي على نوع خاص من المصادر والمراجع، فجاء الاعتماد على الموسوعات التي صُنِّفت من العصر المملوكي من أولى أولويات هذه الدراسة، نظراً للقيمة التاريخية والأدبية لها، ولما اشتملت عليه من نصوص هامة وأُسسٍ أدبيةٍ ونظمٍ إدارية.

كما شكل الاعتماد على الدراسات الحديثة التي تبحث في موضوع الدراسة أمراً بالغُ الأهمية، فمنها ما قامت على أساس فهرسة الرسائل ومنها ما اعتنى ببيان أنواعِها وشرحِ أغراضِ كتابتِها.

وفيما يلي أهم المصادر والمراجع التي أفادت الدراسة:

أ- المصادر

١-كتاب (التعريف بالمصطلح الشريف) لابن فضل الله العمري.

يختص الكتاب بشرح القوانين التي تُراعى من المكاتبات الصادرة من ديوان الإنشاء. ويعدّ من أهم الكتب التي صُنّفت في هذا المجال والتي نظمت مصطلح الكتابة الديوانية في عهد دولة المماليك الأولى، وفيه خلاصة لما وصلتْ إليه بعد مراحلَ من التطورِ في العصرين الفاطمي والأيوبي. وقد اعتمدّتُ على الكتاب في شرح أنواع الرسائل الديوانية، كالمهادنات والمبايعات والعهود. كما أفدْتُ منه في تسليط الضوء على الأعيان والأيمان وأقسامها وأهمية نص "اليمين العامة". كما اعتمدّتُ عليه في شرحِ ملامحِ التنظيم الإداريَّ ومهامَّ موظفي الدولة خلال تحليل نصوص الوصايا التي أوردها، مثل وصية نائب السلطنة والوزير ونائب القلعة والأستادار،

بالإضافة إلى مراتب الموظفين في نيابات الشام وذلك في موضوع مراتب المكاتبات الذي تناولـه ابن فضل الله العمري في القسم الأول من الكتاب.

٢- كتاب (تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف) لإبن ناظر الجيش.

تناول ابن ناظر الجيش القوانين التي تُراعى في المكاتبات وفقَ الأُسس التي أوردها ابن فضل الله العمري في التعريف بالمصطلح الشريف. وقد اعتمدت على الكتاب في شرح أنواع الرسائل الديوانية وفي الربط بين أسس المكاتبات ومراتب موظفي الدولة.

٣- كتاب (صبح الاعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي.

اشتمل كتاب صبح الاعشى بأجزائه الأربعة عشر على مواضيعَ متعددةٍ غاية في الأهمية، أوردها القلقشندي ضمن عشر مقالات، بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة. وقد اعتمدت على الكتاب في شرح جوانبَ عديدةٍ في الدراسة وهي:

- تأسيس ديوان الإنشاء وتطوره، وقد ورد في مقدمة الكتاب.
- أنواع الرسائل الديوانية: وتم استخلاصها من خلال موضوع مقاصد المكاتبات السلطانية، الذي ورد في المقالة الرابعة وموضعها في الجزء الثامن. بالإضافة إلى أنواع أخرى من الرسائل كالمبايعات والعهود، ووردت ضمن المقالة التاسعة. إضافة إلى المسامحات والمطلقات والطرخانيات وموضعها في المقالة السادسة من الكتاب.
- نصوص الوصايا والأيمان.
- صفات كتاب الإنشاء وآدابهم وموضعها في المقدمة في المقالة الأولى من الكتاب.
- أنواع الوظائف اللازمة لدراسة التنظيم الإداري وقمت بتدقيقها من خلال تعريف القلقشندي بأرباب الوظائف في المقالة الثالثة.

٤- كتاب (الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم) للسحماوي.

اشتمل الكتاب على ثلاثة عشر قسماً ضمن معلومات هامة وشاملة حول التكوين العلمي والمهام الوظيفية لكاتب السر والأسس الخاصة بكتابة الرسائل الصادرة عن ديوان الإنشاء، بالإضافة إلى شرحٍ لأنواع الرسائل وأقسام الوظائف في الدولة المملوكية. وهي تتطابق في محتواها مع ما أورده القلقشندي في صبح الأعشى. لذا كان اعتمادي على هذا الكتاب قائماً على تتبع الشروحات والآراء من المصدرين وتوثيقها وفق الخطة المعتمدة في الدراسة.

إضافة إلى ما سبق هناك مصادر تاريخية اعتمدت عليها وهي كتاب الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر وكتاب الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور وللكتابان أهمية كبيرة؛ فالكتاب الأول ألفه محي الدين بن عبد الظاهر الذي تولى رئاسة ديوان الإنشاء في عهد السلطان الظاهر بيبرس فتناول فيه سيرة الظاهر بيبرس وضمّنه نصوصَ رسائلَ ديوانيه هامة كبعض المهادنات التي قام بإعدادها أثناء رئاسته لديوان الإنشاء. أما كتاب الفضل المأثور فقد ألّفه شافع بن علي العسقلاني، الذي عمل في ديوان الإنشاء في عهد السلطان المنصور قلاوون فتناول فيه سيرة المنصور قلاوون وضمنّه رسائل ديوانية هامة، منها مراسلات رسمية بين السلطان المنصور قلاوون وأبناء الظاهر بيبرس إبان تولي المنصور قلاوون السلطنة.

ومن الرسائل الهامة رسالة من نوع التذكرة والتي أوردها العسقلاني كاملةً، وفيها توجيهات من المنصور قلاوون في مدة غيابه عن القاهرة إلى ابنه وولي عهده الصالح علاء الدين علي، وقد اعتمدت على هذه التذكرة في تحديد مهام وصلاحيات ولي العهد بالسلطنة ومهام بعض موظفي الدولة كنائب القلعة ووالي القاهرة.

كما ضمّن شافع بن علي كتابه الفصل المأثور تذكرة وجهها المنصور قلاوون عند سفره خارج القاهرة إلى نائب السلطنة زين كتبغا، واعتمدت عليها في شرح مهام وصلاحيات نائب السلطنة خلال العصر المملوكي.

إضافة إلى ما سبق اعتمدت بشكل رئيسي على كتاب مآثر الأنافة في معالم الخلافة للقلقشندي وأفدت من نصوص المبايعات التي أوردها القلقشندي فيه وكذلك كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي.

كما اعتمدت على عدد من كتب التاريخ العام والتي اعتنى مؤلفوها بإيراد نصوص رسائل ديوانية هامة، منها كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري وكتاب تاريخ ابن الفرات وكذلك كتاب السلوك للمقريزي، والذي ضَمَّنهُ المحقق المرحوم محمد مصطفى زيادة رسائل ديوانية جمعها عن نهاية الأرب للنويري وعن إبن الفرات وأوردها ضمن الملاحق الخاصة بكتاب السلوك.

ب- الدراسات الحديثة

اعتمدت في هذه الدراسة على عدد من الدراسات الحديثة كان أهمها الدراسات التالية:

١-كتاب (الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي) لمحمد ماهر حماده.

يُعدُّ الكتاب من ضمن مؤلفات عدة لمحمد ماهر حمادة، وجمع من خلالها الوثائق الرسمية للعصور الإسلامية المختلفة، وتضمن هذا الكتاب الخاص بالعصر المملوكي دراسةً موجزةً للعصر المملوكي سلّط خلالها الضوء على شؤونِ الخلافةِ وشؤون السلطنةُ والسلاطين وشؤون ولاية العهد. ونيابة السلطنة، وشؤون الوزارة، وشؤون الولايات، بالإضافة إلى شؤون إدارية واقتصادية واجتماعية أخرى.

واشتمل القسم الثاني من الكتاب فهرسةً للوثائق الرسمية بحسب موضوعاتها، ومنها المبايعات بالخلافة والعهود ونصوص التقاليد والبشارات وعدد من الرسائل السلطانية ونصوص متعددة

لمراسيم وتقاليد بنيابة السلطنة والوزارة ونصوص أمانات، بالإضافة إلى نصوص الأيمان ونصوص المهادنات.

وقد اعتمدتُ بشكل أساسي على هذا الكتاب منذ الخطوات الأولى لاختيار موضوع الرسائل الديوانية في العصر المملوكي، كما أفدتُ من التصنيف الذي ورد فيه في الاستدلال على الرسائل الديوانية التي صدرت خلال العصر المملوكي والاستدلال على المصادر التي أوردت نصوص هذه الرسائل.

كما اعتمدت على كتاب ثانٍ لمحمد ماهر حماده، وهو وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي والذي ضمّنَهُ وثائق هامة منذ سنة (٤٨٩- ١٢٠٦هـ/ ١٠٩٦- ١٤٠٤م)، وكانت عنايتي موجهةً نحو الوثائق الخاصة بالحروب الصليبية في العصر المملوكي، وأفدْتُ من النصوص الخاصة في هذه المرحلة في حصر المتطلبات اللازمة من رسائل ديوانية للفصل الثاني من الدراسة، وهو العلاقات الخارجية للدولة المملوكية، وكان خير مرشدٍ لي في تتبع هذه الرسائل وتوفيرها للدراسةِ وسهولةِ تحليلها والإفادةِ منها.

٢-موسوعة (عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي) لمحمود رزق سليم

تناول محمود رزق سليم في القسم الأول من الجزء الثالث من الموسوعة موضوع النثر الفني في عصر المماليك، وتضمّنَ بحثاً في موضوعين رئيسيين، أولهما: الرسائل والجهة المشرفة عليها في العصور الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ وحتى العصر المملوكي، وتتبع فيه بدايات تأسيس ديوان الرسائل والذي عرّف فيما بعد بديوان الإنشاء وملامح دوره في العصور الإسلامية، بالإضافة إلى ملامح عناية الخلفاء بتنظيم العمل فيه وآلية الإشراف عليه.

أما الموضوع الثاني الذي تناوله بالشرح فكان موضوع الرسائل الديوانية، التي عرّفها وبيّن أنوَاعَها.

وكان للشرح المُستفيضِ والمُنظّمِ للرسائلِ ولديوانِ الإنشاء ولأنواعِ الرسائل، والــذي أورده محمود رزق سليم في هذه الموسوعة أعظمُ الأثرِ في هذه الدراسة، فقد أفدْتُ مما تضمنته من مادةٍ علميةٍ في إدراكِ أهميةِ تحليل الرسائلِ الديوانيةِ لشرح جوانب مختلفةٍ في الحياة السياسيةِ والإداريةِ من العصر المملوكي.

تمهيد

بدايات الاهتمام بكتابة الرسائل وتأسيس ديوان الإنشاء في الدولة الإسلامية قبل عصر المماليك

أولاً: البدايات الأولى لكتابة الرسائل

ثانياً: تطور كتابة الرسائل في العصر الأموي وإنشاء ديوان الرسائل

ثالثاً: ديوان الرسائل وكتابة الرسائل في العصر العباسي

رابعاً: ديوان الإنشاء في مصر منذ عصر الدولة الطولونية حتى نهاية العصر الأيوبي

بدايات الاهتمام بكتابة الرسائل وتأسيس ديوان الإنشاء في الدولة الإسلامية

الرسائل أحد أنواع النثر الفني، وهي أسبق ألوانه ظهوراً وازدهاراً في الدولة الإسلامية بسبب الحاجة إليها[1]؛ فقد بدأ الاهتمام بكتابتها في ظلال الدعوة إلى الإسلام، حيث أرسل الرسول ﷺ الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وقد شهدت كتابة الرسائل تطورا واسعا بعد تأسيس ديوان الرسائل من جهة وتطور النثر وتعدد فروعه من جهة أخرى.

وتجدر الإشارة إلى أهمية التمييز ولو من الناحية النظرية بين كتابة الرسائل في بداياتها الأولى حتى منتصف القرن الأول الهجري (منتصف القرن السابع الميلادي)، وبين كتابتها وتعدد أنواعها، وتطور لغة الكتابة والعناية باختيار كُتّابها في المرحلة التالية، أي بعد تأسيس ديوان الرسائل الذي أصبح يعرف بديوان الإنشاء.

أولاً: البدايات الأولى لكتابة الرسائل

تمثلت بإجراءات الرسول ﷺ، وقد اعتبرها كل من القلقشندي والسحماوي بأنها بداية إنشاء ديوان الرسائل، حيث يقول القلقشندي: "اعلم أن هذا الديوان أول ديوان وضع في الإسلام؛ وذلك أن النبي ﷺ، كان يكاتب أمراءَه وأصحاب سراياه من الصحابة -رضوان الله عليهم- ويكاتبونه، وكتب إلى من قَرُبَ من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام"[2].

---

(1) سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، الجماميز، مكتبة الآداب ومطبعتها، ١٩٥٥م، ج ٣، ق١، ص ٩٢. وسيشار له: سليم، عصر سلاطين المماليك.

(2) القلقشندي، أحمد بن يحيى (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: محمد حسين شمس الدين وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٨٧، ج١، ص ١٢٥. وسيشار له: القلقشندي، صبح الأعشى. السحماوي، شمس الدين محمد (ت٨٦٨هـ/١٤٦٤م)، الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم (المعروف باسم المقصد الرفيع الهادي لديوان الإنشا للخالدي)، دراسة وتحقيق: أشرف محمد أنس، القاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٩م، ج١، ص ٥٩. وسيشار له: السحماوي، الثغر الباسم. وقد وردت الرواية تحت عنوان ديوان الإنشاء. وحول نفس الموضوع تحت عنوان ديوان الرسائل انظر: الدوري، عبدالعزيز، النظم الإسلامية، بغداد، جامعة بغداد، ١٩٨٨، ص ١٤٧. وسيشار له: الدوري، النظم الإسلامية؛ خماش، نجدة، الإدارة في العصر الأموي، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٠، وسيشار له : خماش، الإدارة في العصر الأموي.

ويضيف القلقشندي بعد ذكره لمكاتبات الرسول ﷺ بأنها من متعلقات ديوان الإنشاء[1].

وهنا لا يمكن إغفال هذا الرأي، ولكن لا يمكن تأكيده، على أساس أنه لم يكن هنـــاك ديـــوان للرسائل في هذه المرحلة.

قام الرسول ﷺ في العام السادس للهجرة (٦٢٧ م) –وبعد أن عقد مع قريش صلح الحديبية– بإرسال الرسل إلى الملوك في المناطق المجاورة لشبه الجزيرة العربية يدعوهم إلـــى الإســـلام[2]، فخرج ستة من هؤلاء الرسل في يوم واحد في ذي الحجة من نفس السنة[3]، وكانت كتب الرســـول ﷺ كلها في غاية الإيجاز "وهو ﷺ لا خلاف في فـــصاحته"[4]، وكانـــت مختومـــة بخاتمـــة[5]*، واستهلت "بالبسملة". ومما روي عن أصل استهلال الكتب بـــ "بسم الله الرحمن الرحيم" أنـــه عليه السلام كتب أربعة من كتبه، فكتب في الأول –على عادة قريش– "باسمك اللهم" فنزلت سورة "هود" وفيها:

---

(١) القلشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ١٢٥.

(٢) خليفة بن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط الليثي العصفري (ت ٢٤٠ه/٨٥٤م)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، (دار القلم، دمشق– بيروت) و(دار الرسالة، بيروت)، ١٩٧٧م، ص٧٩. وسيـــشار لـــه: خليفة بن خياط، تاريخ خليفة؛ سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ الدولة العربيـــة، مؤســـسة الثقافـــة الجامعيـــة، الإسكندرية، ١٩٧٣، ص١٢٨– ١٢٩. وسيشار له: سالم، تاريخ الدولة العربية.

(٣) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـــ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك (المعـــروف بتـــاريخ الأمـــم والملوك)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيـــروت، ١٩٦٧، ج٢، ص ٦٤٤. وسيـــشار لـــه: الطبري، تاريخ الرسل والملوك.

(٤) ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي (ت ٥٦٢ه/١١٦٦م)، التذكرة الحمدونية، تحقيـــق: إحـــسان عبـــاس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م، مج٦، ص٣١٥. وسيشار له: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية.

(٥) الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس، (ت ٣٣١هـــ/٩٤٢م)، الوزراء والكتّاب، تحقيق: مصطفى الـــسقا وآخرون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٣١٣، وسيـــشار لـــه: الجهـــشياري، الـــوزراء والكتاب؛ سالم، الدولة العربية، ص ١٢٩؛ بطاينة، محمد ضـــيف الله، الحـــضارة الإســـلامية، دار الفرقـــان، (عمان– اربد)، ٢٠٠٢م، ص١٨٩، وسيشار له: بطاينة، الحضارة الإسلامية.

* خاتم الرسول ﷺ: لم يتخذ الرسول ﷺ الخاتم حتى احتاج مكاتبة الملوك بعد صلح الحديبية، فقيل له عليه السلام أن الملوك لا تقبل الكتاب إلا أن يكون مختوما فاتخذ خاتماً من فضة ونقش عليه "محمد رسول الله" محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر. الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ وقيل ٣٣٦هـــ)، أدب الكتاب (المعروف بأدب الكاتب)، نسخة وعني بتصحيحه: محمد بهجة الأثري، بغداد، (د.ن)، ١٣٤١هـــ، ص ١٣٩. وسيشار له: الصولي، أدب الكاتب؛ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـــ/١٤٠٦م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، (مج١ مقدمة ابن خلدون)، ص ٢٧٨. وسيشار له: ابن خلدون، العبر؛ وانظر: بطاينة، الحضارة الإسلامية، ص١٨٩.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾[1]، فكتب في الثاني: بسم الله، ثم نزلت بني إسرائيل (الإسراء) وفيها: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾[2]؛ فكتب في الثالث "بسم الله الرحمن" ثم نزلت سورة النمل وفيها: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[3]. فكتب في الرابع: "بسم الله الرحمن الرحيم"[4].

وكَلَّف الرسول ﷺ كُتّاب الوحي بكتابة الرسائل[5]، وقد كان له عليه السلام نيّفٌ وثلاثون كاتباً من الصحابة –رضوان الله عليهم–[6]، من بينهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وزيد بن ثابت[7]. وقيل أن أول من كتب له عليه السلام أُبي بن كعب[8]، وكان إذا غاب أُبي يكتب له زيد بن ثابت[9]؛ فكان زيد بن ثابت يكتب إلى الملوك مع

---

(1) سورة هود، آية ٤٢.

(2) سورة الإسراء آية: ١١٠، وسميت بني إسرائيل لكثرة ذكر بني إسرائيل فيها.

(3) سورة النمل آية: ٣٠، وقد كان موضوع الآيتين (٣٠) و (٣١) من هذه السورة هو كتاب سليمان عليه السلام قال تعالى: "إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألاَّ تَعْلُو عَلَيَّ وأتوني مسلمين" ويرى ابن حمدون أن فيها مثال على الأسس الصحيحة لكتابة الرسالة وهي المعنى البديع واللفظ البليغ الموجز. انظر: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، مج٦، ص٣١٤.

(4) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ١٤. انظر: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، مج٦، ص٣١٤.

(5) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م)، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م، مج٢، ص٨٠، وسيشار له: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص ٩٩؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص ١٧٩؛ الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٢؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٨٢.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ١٢٦؛ وانظر: إبن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ج٧، ص ٢٨٣. وسيشار له: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة.

(7) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي مج٢، ص ٨٠؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ح٣، ص ١٧٣، و ج٦، ص١٧٩؛ أبن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، أُسد الغابة من معرفة الصحابة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، مج١، ص٥٠، وسيشار له: ابن الأثير، أُسد الغابة.

(8) أُبي بن كعب: بن قيس يتصل نسبة بعمرو بن مالك بن النجار والنجار لقب وليس قبيلة فنسبه يتصل إلى الخزرج الأكبر الأنصاري الخزرجي روى الحديث عن الرسول ﷺ، وشهد بيعة العقبة وغزوة بدر وهو أول من كتب في آخر الكتاب عبارة: "وكتب فلان بن فلان". للمزيد انظر: ابن الأثير، أُسد الغابة، مج١، ص ٤٩-٥٠.

(9) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص ١٧٣؛ ابن الأثير، أسد الغابة، مج١، ص٥٠.

ما كان يكتبه من الوحي[١]. وكان حنظلة بن الربيع بن المُرّقع[٢]، خليفة كل كاتبٍ من كتاب الرسول ﷺ إذا غاب عن عمله، فغلب عليه اسم الكاتب وكان ﷺ يضع عنده خاتمه[٣].

أما في العصر الراشدي (١١-٤٠هـ/ ٦٣٢-٦٦٠م) فقد كتب لأبي بكر عثمان بن عفان وكتب زيد بن ثابت لأبي بكر ثم عمر[٤].

ولا يمكن تعميم قضية اختيار الكتّابَ في هذا العصر من طبقة كتّاب الوحي؛ فقد كتب مروان بن الحكم لعثمان بن عفان، وكتب لعلي بن أبي طالب سعيد بن نمران الهمداني[٥]، وعبيد الله بن أبي رافع[٦] رضوان الله عليهم[٧].

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ١٢-١٣، وكذلك كان عبد الله بن الأرقم يكتب عن الرسول ﷺ إلى الملوك مع ما كان يكتبه في حوائج المسلمين، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص ١٧٩.

(٢) حنظلة بن الربيع: وهو حنظلة بن الربيع وقيل ربيعة الأول بن صيفي، يتصل نسبه إلى أُسيد بن عمرو بن تميم التميمي يعرف بحنظله الأسيدي، وحنظله الكاتب روى الحديث عن الرسول ﷺ وبعثه عليه السلام للصلح مع أهل الطائف كان ممن تخلف عن علي رضي الله عنه في موقعه الجمل بالبصرة، انتقل إلى قرقيسيا وتوفي بها. للمزيد انظر: ابن الأثير، أُسد الغابة، مج٢، ص٥٨.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ١٣.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص ١٢٣، ١٥٦؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص ١٧٩، ٤٢٦.

(٥) سعيد بن نمران الهمداني الناعطي: أدرك من حياة الرسول ﷺ أعواماً وفي العصر الراشدي شهد اليرموك وسار إلى العراق مدداً لأهل القادسية وحول حياته في العصر الأموي، انظر: ابن الأثير، أُسد الغابة، مج ٢، ص٣١٦.

(٦) عبيد الله بن أبي رافع: أبوه مولى الرسول ﷺ، وكان اسمه- الأب- ابراهيم وقيل هرمز وقيل أسلم وقيل ثابت، كان قبطياً وكان للعباس بن عبد المطلب فوهبه للرسول ﷺ، أسلم بمكة مع أم الفضل (بنت العباس) فكتموا إسلامه، ولما بشر النبي بإسلام العباس اعتقه شهد غزوتي أحد والخندق ثم شهد فتح مصر. توفي على الأرجح في خلافة علي بن أبي طالب رض الله عنه. للمزيد أنظر: ابن الأثير أسد الغابة مج١، ص٤١. وانظر مظاهر الاختلاف في اسم أبي رافع عند الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص١٨٠.

(٧) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص ١٧٩، ٢٠٠؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص ١٨٠؛ الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢١،٢٣؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص١٢٦؛ وانظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٨٣، وهناك خلاف في تصنيف مروان بن الحكم ضمن كتاب الوحي فلم يذكره القلقشندي في حين ذكره ابن تغري بردي مع أشهرهم.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى تنامي الحاجة إلى المراسلات في العصر الراشدي، وذلـك تبعاً للفتوحات واتساع حدود الدولة، وبناء الأمصار وإنشاء الدواوين[1].

وما ميز العصر الراشدي هو وجود عدد من الكتّاب يستخدمهم الخليفة في كتابة رسائله، لكنه لم يوجد ديوان خاص بالرسائل في هذا العصر[2].

ثانياً: إنشاء ديوان الرسائل وتطور كتابـة الرسـائل فـي العـصر الأمـوي (٤٠-١٣٢هـ/٦٦٠-٧٥٠م)

شَكّل العصر الأموي مرحلة جديدة في مجال الاهتمام بكتابة الرسائل الرسمية، حيث تم إنشاء دواوين خاصة بالرسائل[3]، وهي:

ديوان الرسائل: يُنسب إنشاؤه إلى معاوية بن أبي سفيان (٤٠-٦٠هـ/٦٦٠-٦٨٠م*)[4]. إلا أن اسم هذا الديوان ورد لأول مرة في شرح أخبار الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-

---

(1) حول اتساع الدولة الإسلامية والتنظيمات الإدارية فيها انظر: الدوري، الـنظم الإسـلامية، ص ١٣٩ – ١٤١؛ سالم، الدولة العربية، ص ٢٥٤-٢٦١.

(2) الدوري، النظم الإسلامية، ص ١٤٦؛ سالم، الدولة العربية، ص ٣٨٨.

(3) إضافة إلى الدواوين الخاصة بالرسائل طور الأمويون دواوين موروثة عن العصر الراشدي، وهـي: ديـوان الجند (العطاء) وديوان الخراج، للمزيد انظر: الدوري، الـنظم الإسـلامية، ص ١٤٥-١٤٧، كمـا اسـتحدث الأمويون وظائف جديدة كالحجابة والحرس والشرط وشأنها شأن الدواوين خصص لها الأمويـون موظفـون دائمون، وقد عكس تنظيمها التطور الإداري في هذا العصر، انظر: بطانية، محمد ضيف الله، دراسـات فـي تاريخ الخلفاء الأمويين. دار الفرقان (عمان- اربد)،١٩٩٩م، ص١٨٧-١٩٨. وسيشار له: بطاينـة، الخلفـاء الأمويون.

* استقر الأمير لمعاوية بن أبي سفيان سنة (٤١هـ/٦٦١ م) فيما عُرفَ بعام الجماعة حين أعلن الحسن بن علي بن ابي طالب عزوفه عن السعي لتولي الخلافة، انظر: خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص ٢٠٣، ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص ٤٠٤، ٤٠٦، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج٢، ص٢١٥.

(4) سالم، الدولة العربية، ص ٣٨٨.

٧٠٥م) [١]، حيث كان هذا الديوان يقوم بتحرير رسائل الخليفة وأوامره[٢]، والإشراف على الرسائل الواردة من ولايات الدولة أو المرسلة إليها[٣]، وكان الخليفة هو المباشر لهذا الديوان، فكان هو "الذي يوقع على القَصص[٤] ويُحدّثها بنفسه"[٥]، وكان لفظ "الكاتب" يطلق على متولي كتابة الرسائل[٦] وعلى متولي الديوان[٧]. وكانت هذه الوظيفة النواة الأولى، لما أطلق عليه في العصر المملوكي صاحب ديوان الإنشاء[٨].

اتخذ الخلفاء الأمويون كتّاباً من العرب والموالي[٩]؛ فكتب لمعاوية عبد الرحمن بن دراج مولاه وعبيد الله بن أوس الغساني، كما كتب عبيدالله ليزيد بن معاوية (٦٠-٦٤ هـ/٦٨٠-٦٨٣/٨٤م) [١٠] وكتب لعبد الملك على "ديوان الرسائل" مولاه أبو الزعيزعه[١١]، وروح بن زنباع

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٣٥؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص١٨٠؛ الدوري، النظم الإسلامية، ص١٤٧؛ بطاينة، الحضارة الإسلامية، ص١٨٩-١٩٠.

(٢) الدوري، النظم الإسلامية، ص ١٤٧.

(٣) سالم، الدولة العربية، ص ٣٨٨ – ٣٨٩.

(٤) القصص: ومفردها قصة وهي الطلب أو الالتماس الذي يرفعه صاحب الحاجة أو الشكوى إلى (الخليفة) أو السلطان. انظر: البقلي، محمد قنديل، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٢٧٤. وسيشار له: البقلي: التعريف.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ١٢٧؛ حبشي، حسن، ديوان الإنشاء نشأته وتطوره، بحث ضمن كتاب أبو العباس القلقشندي وكتابة صبح الأعشى، تقديم: أحمد عزت عبد الكريم،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٨٦. وسيشار له: حبشي، ديوان الإنشاء.

(٦) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣،ق١، ص ٩٣؛ خماش، الإدارة في العصر الأموي، ص ٢٧.

(٧) حبشي: ديوان الإنشاء، ص ٨٦.

(٨) السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ص ٦٢.

(٩) الدوري، النظم الإسلامية، ص ١٤٧؛ بطاينة، الخلفاء الأمويين، ص١٩٠.

(١٠) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٤، ٣١، وانظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٨٤.

(١١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص٢٩٩؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ص١٨٠.

وآخرون غيرهم[1]. وكتب للوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) القعقاع بن خُليد العَبْسي[2].

كما كتب له -للوليد- جناح مولاه[3]. وكتب لعمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م) الليث بن أبي رقية مولى أم الحكم بنت أبي سفيان ورجاء بن حيوه[4]، وكان ممن كتبوا لهشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م) سالم مولى سعيد بن عبد الملك[5]، وسعيد بن الوليد الأبرش الكلبي ويكنى أبا مجاشع[6]، وكان سالم أستاذاً لعبد الحميد الكاتب بن يحيى بن سعد مولى بني عامر[7] الذي تولى الكتابة لمروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ/٧٤٤-٧٥٠م) آخر الخلفاء الأمويين[1].

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٣٤-٣٥، وانظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٨٤.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص١٨٠؛ الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٤٧.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص٣١٢؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ص١٨١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، مج٧، ص٢٨٣.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص ١٨١، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٥٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٨٤.

(٥) سالم: ترجم ابن النديم لحياته ضمن الكتاب المترسلين ممن لرسائله كتاب مجموع فقال: "أبو العلاء سالم ختن عبد الحميد الكاتب كان أحد الفصحاء البلغاء نقل (ترجم) من رسائل أرسطو طاليس إلى الإسكندر أو نقل له أو أصلح هو (أي راجع وهذب) وله رسائل مجموعها نحو مائة ورقة"، انظر: ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق (ت ٣٨٠ه/٩٩٠م)، الفهرست، تحقيق وضبط: يوسف علي الطويل، فهرسة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ص١٨٨.وسيشار له: ابن النديم، الفهرست وقد كتب سالم من بعد هشام بن عبد الملك للوليد بن يزيد بن عبدالملك، كما تولى ابنه عبدالله بن سالم الكتابة للوليد، انظر: خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص ٣٦٢، ٣٦٧؛ الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٦٢-٦٣، ٦٨.

(٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص ١٨١؛ الجهشاري، الوزراء والكتاب، ص٥٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٨٤.

(٧) عبد الحميد الكاتب: كان حاضراً مع مروان بن محمد حتى نهاية حكمه فشهد الدعوة السرية للعباسيين انظر: الجهشياري، الوزراء والكتاب ص٧٢. والدعوة العلنية على يد أبي مسلم الخراساني. انظر: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، مج٢، ص ٣٣ و مج٦، ص٣١٦، وحين قوي أمر العباسيين وأدرك مروان بن محمد قرب زوال ملكه قال لعبد الحميد: "سيضطر إليك هؤلاء القوم يعني ولد العباس، فَصِرْ إليهم، فإني أرجو أن تتمكن=

وكان الخلفاء الأمويون على درجة رفيعة من إتقان اللغة العربية؛ فكانوا يُملون على الكتّاب صيغة الرسائل[٢]، وعند انشغالهم بأمور السياسة كانوا يعتمدون على مَن يكتب لهم، ما أدى إلى ظهور طبقة من الكتّاب المُنشئين، كان عبد الحميد الكاتب آخرهم في هذا العصر[٣]. وقد امتاز عبد الحميد بالبلاغة وقوة المَلَكة في الكتابة[٤]، فوُصف بواحدِ دهره[٥]، وبـــ "صاحب الرسائل والبلاغات"، وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب فاستعمل الناس (الكتّاب) ذلك من بعده[٦]. واتضحت قدراته في المأثورات من رسائله، والتي بلغ مجموعها نحو ألف ورقة[٧]، وأبرزها رسالته إلى الكتّاب[٨]، والتي اعتمدها الأدباء وكتاب الموسوعات مصدراً أساسياً لشرح ما عُرِفَ بأدب الكتاب. وفي الرسالة وصايا للكتّاب بأن يتحلوا بالأخلاق الحميدة

=منهم فتنفعني في مُخَلَّفِيَّ، وفي كثير من أسبابي" فرفض عبد الحميد مفارقته وكان مقتل مروان بن محمد فـــي مصر ببلدة بوصير في ذي الحجة سنة (١٣٢ه/٧٥٠م). للمزيد انظر: أبو الحـــسن علـــي بـــن الحـــسين (ت ٣٤٦ه/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرح وضبط: عفيف حاطوم، دار صادر، بيـــروت، ٢٠٠٥م، ج٣، ص٥٨-٥٩. وسيشار له: المسعودي، مروج الذهب؛ ابن خلكان، أبو العباس شـــمس الـــدين أحمـــد (ت ٦٨١هـــ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صـــادر، بـــروت، ١٩٩٤، مج ٣، ص ٢٢٨-٢٢٩، وسيشار له: ابن خلكان، وفيات الأعيان. وكان مقتل عبد الحميد بعيد ذلك حيث قُبض عليه وحُمِل إلى أبي العباس السفاح فسلمه إلى أحد أتباعه فعذبه حتى مـــات: انظـــر: الجهـــشياري، الـــوزراء والكتاب، ص٧٩.

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص ٤٠٨ وأشار إليه تحت اسم :"عبد الحميد الكبير"؛ الطبري، تـــاريخ الرســـل والملوك، ج٦، ص١٨٢، ؛ ابن النديم، الفهرست، ص ١٨٨.

(٢) بطاينة، الخلفاء الأمويون، ص١٩٠.

(٣) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٩٣-٩٤.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص١٨٢؛ وانظر تعريف عبد الحميد للبلاغة عند: ابن حمدون: التـــذكرة الحمدونية، مج٥، ص٤٠٢.

(٥) ابن النديم، الفهرست، ص١٨٨.

(٦) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٥٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٣، ص٢٢٨-٢٢٩.

(٧) ابن النديم، الفهرست، ص١٨٨.

(٨) انظر: الدوري، النظم الإسلامية، ص١٥٢، وعنها يقول الرسائل المنسوبة، إلى عبد الحميد الكاتب.

كالحِلم، والعفاف والفقه في الدين وأن يترفعوا عن الدنيّات وعن السِّعاية والخِسَّة وأن يسعوا إلى اكتساب المعارف كالأدب وأخبار العرب والعجم والعلوم والحساب، وغير ذلك من الوصايا[(١)].

ونظراً لتقدم عبد الحميد في الكتابة فقد ضُرِبَ به المثل، حتى قيل: "فُتِحَت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد[(٢)].

إضافة إلى ما سبق حول ديوان الرسائل، فقد شهد هذا الديوان تنظيماً داخلياً، حيث اتسع وتعددت اختصاصاته وكثُر عدد مَن يعملون فيه، فوُجد كتّاب رئيسيون يقومون بالإنشاء وآخرون يساعدونهم في التلخيص والتبييض، إضافة إلى خازن يتولى حفظ أصول المراسلات في سجلات أو ملفات خاصة، يقال لها (أضابير) [(٣)]. كما أُجري تغيير على رئاسة الديوان؛ فبعد أن كان ديوان الجند والخراج يُعهدان إلى شخص واحد[(٤)]، جمع يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ/٧٢٠-٧٢٤م) دواوين الخراج والجند والرسائل وولّاها لرجل واحد وهو صالح بن جبير[(٥)]. ثم ولّاها من

---

(١) حول نص الرسالة انظر: الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٧٣-٧٩؛ ابن خلدون ، العبر، (مج١ المقدمة)، ص ٢٦١-٢٦٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص١١٨-١٢٢؛ صفوت، أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، (الجزء الثاني/ العصر الأموي)، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٣٣، ص ٥٠٨-٥١٢. وسيشار له: صفوت، جمهرة خطب العرب. وحول أهمية الرسالة في الدراسات الحديثة، انظر: الدوري، النظم الإسلامية، ص١٥٢؛ بطاينة، الخلفاء الأمويون، ص١٩١، والحضارة الإسلامية، ص٢١١.

(٢) ابن العميد: أبو الفضل محمد بن أبي عبد الله الحسين بن محمد والعميد لقب والده على عادة أهل خراسان في تعظيم الشخص. اشتهر ابن العميد بالأدب والترسل ولم يقاربه أحد في زمانه وكان يسمى الجاحظ الثاني كما كان متوسعا في علم الفلسفة والنجوم تولى الوزارة لركن الدولة البويهي وكانت تربطه صداقة قوية مع الصاحب ابن عباد قصده جماعة من شعراء عصره مثل المتنبي وابن نباته ومدحوه بأحسن القصائد توفي (سنة ٣٥٩ وقيل ٣٦٠ه/٩٦٩-٩٧٠م) بالري وقيل في بغداد للمزيد انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٣، ص٢٢٨. مج٥، ص١٠٣-١١٣.

(٣) سالم، الدولة العربية، ص٣٨٩.

(٤) بطاينة، الخلفاء الأمويون، ص١٩١.

(٥) المومني، محمود عبدالله، خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان (١٠١ - ١٠٥هـ/٧٢٠ - ٧٢٤م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩١م، ص ٦٩، وسيشار له: المومني، خلافة يزيد بن عبد الملك.

بعده لأسامة بن زيد التنوخي[١]، وقد وجد في العصر الأموي ديوانان كان لهمـا علاقـة بـديوان الرسائل؛ وهما: ديوان الخاتم وديوان البريد:

أ. **ديوان الخاتم**: أنشأه معاوية بن أبي سفيان وقيل في سبب إنشائه أن معاوية أمر لعمرو بن الزبير عند زياد بن أبيه[٢] بالكوفة بمائة ألف درهم، ففتح عمرو الكتاب، وصَيَّرَ المائـة مـائتين، ورفع زياد حسابَها فأنكرها معاوية وكتب إلى زياد بذلك وأمره أن يأخذ المائة ألف "فأخـذ عمـراً بردّها وحبسه زياد حتى أداها عنه أخوه عبد الله بن الزبير"[٣]. ولذلك قام معاوية بإنـشاء ديـوان الخاتم واتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع التزوير. وفيه كانت تُحفظ نسخة من رسائل الخليفة وأوامره بعد أن يتم ختم النسخة الأصلية بالشمع وتحزم[٤]، ثم توضع قطعة من الشمع على طرفي الرسالة في مكان الحزم أي مكان طي الرسالة وإلصاقها ويختم على الشمع بخاتم الخليفة المغموس في طين

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص٣٣٥؛ المومني: خلافة يزيد بن عبد الملك، ص٦٩.

(٢) زياد بن أبيه: ويقال زياد بن سمية وزياد بن أبي سفيان ولاه علي بن أبي طالب ﷺ خراسـان وعنـد تـولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة رفض مبايعته إلا أن معاوية وإدراكا منه لأهمية دور زياد ونفوذه استلحقه بنسبه خلال السنوات الأولى من خلافته انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢١٨-٢١٩؛ ابن الأثير، الكامـل، ج٣، ص٤٤٤-٤٤٥. وقد ولاه معاوية على البصرة ثم ضم إليه الكوفة فكان أول من جمعت له العراق وذلـك سنة (٥٠هـ/٦٧٠م) وبقي والياً عليها حتى وفاته سنة حوالي (٥٣هـ/٦٧٢م) انظر: ابـن سـعد، الطبقـات الكبرى، ج٩، ص٩٨-٩٩؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص٢١١- ٢١٢، ٢٢٨.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص٣٣٠؛ الجهشياري، الوزراء والكتـاب ص٢٤-٢٥؛ سـالم، الدولـة العربية، ص٣٨٩؛ بطاينة، الحضارة الإسلامية، ص١٨٨.

- حول أخبار أبناء الزبير بن العوام ﷺ "عمرو بن الزبير" انظر: ابن سعد، محمد بن منيع الزهري، (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، كتاب الطبقات الكبير (المعروف بالطبقات الكبرى) تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠١، ج٧، ص١٨٤-١٨٥، وسيشار له: ابن سعد، الطبقات الكبرى، وحول أخبار عبد الله بن الزبير، انظر المصدر نفسه، ج٦، ص ٤٧٣ وما بعدها.

(٤) الدوري، النظم الإسلامية، ص١٤٧.

أحمر مذاب بالماء يسمى طين الختم[1]. وقد قلّد معاوية هذا الديوان إبان إنشائه لعبد الله بن عمـــرو الحميري[2].

ب. ديوان البريد: ينسب إنشاء ديوان البريد إلى معاوية بن أبي سفيان[3]، وكان البريد آنذاك يقــوم بمهام تبليغ إجراءات وأوامر الخلفاء إلى الولايات والأطراف ونقل أخبارها وحاجاتها إلى الخلفاء[4].

ثالثاً: كتابة الرسائل الديوانية خلال العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٥٠-١٢٥٨م)

شهدت كتابة الرسائل الديوانية تطوراً واضحاً خلال العصر العباسي نتيجة لازدهــار الأدب، وساعدت النُّظم الإدارية التي سادت منذ بداية العصر العباسي في تنظيم هذا الــديوان وتطــويره، ووُجد في الولايات والدول التي استقلت عن الدولة العباسية دواوين مشابهة لديوان الرســائل فــي المركز وكافة امتداداته، وفي أواخر الدولة العباسية عرف هذا الديوان بديوان الإنشاء، وفيما يلــي بيان بما أصاب ديوان الرسائل من تطور ونمو وازدهار:

أ. الأدب وأثره على كتابة الرسائل الديوانية

كان من أبرز مظاهر ازدهار الأدب تأثر النثر بمَلَكات اللغات الأجنبية، خاصــة الفارســية، على نحو ما عُرف عن ابن المقفع[5] وترجمته عن هذه اللغة قصصَ كليلة ودمنة الهندية الأصــل،

---

(١) ابن خلدون، العبر (مج المقدمة)، ص٢٥٩؛ بطاينة الحضارة الإسلامية، ص١٨٨؛ الهروط، عبد الحليم حسين، الرسائل الديوانية في مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر (المضمون والاهمية والشكل)، عمان، دار جريــر، ٢٠٠٦م، ص٧٥. وسيشار له: الهروط، الرسائل الديوانية.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص٢٢٨؛ الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢٥، وعنده عبد الله بــن محمــد، وحول جمع الديوان الخاتم مع ديوان الأموال والخزائن، انظر: المومني، خلافة يزيد بن عبد الملك، ص٧٠.

(٣) ابن الطقطقي، محمد بن علي المعروف بابن طباطبا (ت ٧٠١ه/١٣٠١م)، الفخــري فــي الآداب الــسلطانية، تحقيق: عبد القادر مايو، مراجعة: أحمد فرهود، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٧، ص١١٢-١١٣، وسيشار له: ابن الطقطقي، الفخري.

(٤) بطاينة، الحضارة الإسلامية، ص١٩٥.

(٥) ابن المقفع: أصله من كور فارس واسمه بالفارسية زوربة تسمى عند إسلامه بعبد الله واكتنى بأبي محمد كــان احد النقلة (المترجمين) من الفارسية إلى العربية مضطلعا باللغتين فصيحاً فيهما. للمزيد حــول الكتــب التــي ترجمها وحول معاصرته لقيام الدولة العباسية وحادثة وفاته انظر: الجهشياري، الوزراء والكتــاب، ص١٠١-١٠٣؛ ابن النديم، الفهرست، ص١٨٩-١٩٠؛ المجموعة الكاملة لآثار ابن المقفع، تحقيــق: مــصطفى لطفــي المنفلوطي، والشيخ طاهر الجزائري، تقديم: عمر أبو النصر، (د،ن)، (د.م)، ١٩٦٦، مقدمة التحقيق والآثــار المنشورة لابن المقفع.

ونقله الكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ونَظْمهم في السياسة والحكم والإدارة، فكان لذلك أعمق الأثر في الرسائل الديوانية، حيث ازدهر النثر الديواني وكل ما اتصل به من رسائل سياسية[1]، هذا بالإضافة إلى نوعٍ ثانٍ من الرسائل التي عرفت بالرسائل الإخوانية، وكانت تتناول الأغراض التي كان الشعراء يَنْظمون فيها قصائدهم ويصورون عواطف الأفراد ومشاعرهم، ومن هذه الرسائل رسالة إبراهيم بن سباية الشاعر[2]، والتي استعطف بها يحيى بن خالد البرمكي[3].

كما وُجد نوعٌ ثالثٌ وهو رسائل أدبية خالصة حلل فيها مؤلفوها النفس الإنسانية وعواطفها السياسية والاجتماعية[4]، ومن الأمثلة على هذه الرسائل رسالة الشاعر يحيى بن زياد الحارثي[5] إلى ابن المقفع[6].

---

(1) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، دار المعارف، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢م، ص ٦، ٤٤٢. وسيشار له: ضيف، العصر العباسي الأول.

(2) ضيف، العصر العباسي الأول، ص ٤٩١، ٤٩٤-٤٩٥؛ وانظر نص الرسالة عند: صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة (الجزء الثالث/ العصر العباسي الأول)، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٣٧، من ١٤٨-١٤٩. وسيشار له: صفوت، العصر العباسي؛ ضيف: العصر العباسي الأول، ص٤٩١، ٤٩٤-٤٩٥. وللمزيد حول الرسائل الإخوانية، انظر: سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٨٤-٨٥؛ مصطفى، محمود، الأدب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي، المؤسسة المصرية العامة، ودار الكتاب العربي، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦٧، ص١٣٣، وسيشار له: مصطفى، الأدب العربي.

(3) يحيى بن خالد: كان جده بَرْمَك من مجوس بلخ وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس في المدينة، يرجح ان إسلام آل برمك كان في العصر الأموي، شارك خالد البرمكي مع قوات أبي مسلم الخراساني في قتال الأمويين وقد امتاز بالبلاغة ورجاحة العقل، ابن خلكان، وفيات الأعيان ج٦، ص ٢١٩-٢٢٠، وقلده أبو جعفر المنصور الري وطبرستان ودبناوند وبقي عليها سبع سنين وكان يقيم بطبرستان وخلفه ابنه يحيى بالري ولما وجه أبو جعفر المنصور المهدي إلى الري خدمه يحيى وولدت الخيزران هارون الرشيد، سنة (١٤٩هـ/٧٦٦م) وكان الفضل بن يحيى قد ولد قبل ذلك بسنة فأرضعت الخيزران الفضلَ وأرضعت أمُّ الفضل هارونَ الرشيد، "فتأكدت حرمة يحيى" وقويت صلة خالد وأبناءه مع ذرية أبي جعفر المنصور، انظر الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٣٦.

(4) ضيف، العصر العباسي الأول، ص٦.

(5) الشاعر يحيى بن زياد: ذكر ابن النديم الشاعر وأخيه بالقول: يحيى ومحمد ابنا زياد الحارثيان من ولد الحارث بن كعب، شاعران مترسلان بليغان، ولهما رسائل مجموعة، وصُنفت رسائلهما ضمن الرسائل التي لم يجرِ ذكرها بذكر أربابها: ابن النديم، الفهرست، ص١٨٩، ٢٨٠-٢٨١.

(6) انظر: صفوت، رسائل العصر العباسي الأول، ص٦١-٦٥، وقد أورد نص رسالتين مبادأة ورد، والمبادأة من جانب ابن المقفع.

وقد تعددت موضوعات الرسائل الديوانية في هذا العصر، فكان منها ما يتناول تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة وأخذ البيعة للخلفاء، واشتهر نوع آخر من الرسائل عُرف برسائل "الخميس"[(١)]، وهي رسائل كانت تُكتب في عهد كل خليفة عباسي لتأييد الدعوة العباسية وتأييد الخليفة القائم وتعداد مناقبه، وأنه أحقُّ أهل بيته بالخلافة. وكان عمارة بن حمزة[(٢)] أول من كتب هذا النوع من الرسائل أيام أبي جعفر المنصور(١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٤م) والمهدي (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٤-٧٨٥م) [(٣)].

وكانت العناية بإعداد الكتّاب ونتاج هؤلاء الكتّاب من مظاهر ازدهار الأدب، فكان العمل في الدواوين بشكل عام يتطلب اجتيازَ الكاتبِ المتقدمِ لهذه الوظيفة امتحاناً كان رؤساء الدواوين يعقدونه للكتّاب لقياس مهاراتهم الأدبية والعقلية، ما شجع الكتّاب ودفعهم إلى اكتساب المعارف والإطلاع على ما ترجم عن اللغات الأخرى. كما اعتنى الكتّاب بتثقيف أبنائهم وتأديبهم وإعدادهم للعمل في

---

(١) ابن النديم، الفهرست، ص١٨٩ وورد قوله: "رسالة الجيش التي تقر لبني العباس" انظر: ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله الرومي، (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم الأدباء، أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١، ج٤، ص٤١٨. وسيشار له: ياقوت، معجم الأدباء.

(٢) عمارة بن حمزة: بن ميمون من ولد أبي لبابه مولى عبد الله بن العباس، قلده أبو العباس السفاح ضياع آل مروان، كان أحد البلغاء وكان سخي رفيع النفس وكان صلفاً تياهاً يضرب بتيهه المثل. فيقال: "أتيه من عمارة" رغم ذلك كان المنصور والمهدي يقدمانه ويتحملان أخلاقه لفضله وبلاغته وله رسائل مجموعة، انظر: الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٩٠؛ ابن النديم، الفهرست، ص١٨٩؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج٤، ص٤١٨-٤٢٤؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨ه/١٣٤٧م)، سير أعلام النبلاء ط٢، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، إشراف: شعيب الارنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٨، ج٨، ص٢٧٥-٢٨٦. وسيشار له: الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ صفوت، رسائل العصر العباسي، ص٣١٧، هامش (٧) وتكملته، ص٣١٨.

(٣) صفوت، رسائل العصر العباسي، ص٣١٧ هامش (٧) وتكملته ص٣١٨؛ ضيف، العصر العباسي الأول، ص٤٦٨-٤٦٩-٥٧٢.

الدواوين على نحو ما فعل يوسف بن صبيح[١] أحد كتّاب الدواوين الذي اهتم بتأديب ابنه أحمد بن يوسف[٢] الذي اختاره وزير المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م) الفضل بن سهل[٣] لتولي ديوان الرسائل[٤]، وقد تميز أحمد بن يوسف بأنه أشاع استخدام السجع في النثر الديواني، كما تميز برسالته "الخميس" التي كتبها للمأمون وكانت تُقرأ بخراسان على شيعة بني العباس[٥]، حيث ضمنها تحميد "تحول به إلى ما يشبه مبحثاً كلامياً في الدلالة على وجود الله ووحدانيته وحدوث الخلق وفناء العالم"[٦]، كقوله: "من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق والناصرين للدين، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام: سلامٌ عليكم، فإن أمير المؤمنين يحَمدُ إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلّيَ على محمد عبدهِ ورَسولهِ، أما بعدُ: فالحمد لله القادر القاهر، الباعث، الوارث، ذي العزّ والسلطان، والنور والبُرهانْ، فاطرِ السماوات والأرضِ وما بينهما،

---

(١) يوسف بن القاسم بن صبيح: يكنى أبا القاسم مولى بني عجل من سكان الكوفة له شعر حسن واشتهر بالبلاغة كان يكتب لعبد الله بن علي عم الخليفة المنصور ولما استتر عبد الله عن المنصور في البصرة آثر يوسف الانخراط مع الكتاب وقصد ديوان المنصور في بغداد. للمزيد حول محبة يوسف للكتابة وعناية المنصور به انظر: الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٨٧، ١٣١-١٣٢؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص٩٢-٩٣.

(٢) أحمد بن يوسف: ورث أحمد بن يوسف وأخيه القاسم سمات أبيهما فكانا شاعرين أديبين وأولادهما جميعاً أهل أدب يطلبون الشعر والبلاغة. للمزيد انظر: ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص٨٦-٨٧. أنظر ضيف، العصر العباسي، الأول، ص٤٦٦، ٥٧٢.

(٣) الفضل بن سهل: بن زاذا نفروخ من إحدى القرى تجاه الكوفة كان أبو الفضل مجوسيا وأسلم على يد سلام بن الفرج مولى يحيى بن خالد البرمكي فاتصل الأب وابنه الفضل بيحيى وأبنائه فأسلم الفضل على يد يحيى وحظي عنده حين نقل (ترجم) له كتاباً بالفارسية وسهل له يحيى سبل الاتصال بالخليفة المأمون، انظر: الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢٢٩-٢٣١.

(٤) اختير أحمد بن يوسف لهذه الوظيفة حين تميز عن غيره من الكتاب في صياغة كتاب يقرأ على الناس لتبرير قتل الأمين على يد طاهر بن الحسين للمزيد انظر الفكرة ونص الكتاب عند: الجهشياري، الوزراء والكتاب ص٣٠٤-٣٠٥؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص٨٩-٩٠؛ صفوت، رسائل العصر العباسي، ص٣١٦-٣١٧.

(٥) صفوت، رسائل العصر العباسي، ص ٣١٧.

(٦) ضيف، العصر العباسي الأول، ص٥٧٢.

والمتقدِّم بالمَنّ والطَّول على أهلهما، قبل استحقاقهم لَمثُوبَته، بالمحافظة على شرائع طاعته، الــذي جعل ما أودَعَ عباده من نعمته، دليلاً هادياً لهم إلى معرفته، بما أفادهم من الألباب، التي يفهمون بها فَصْلَ الخطاب،..."[1].

كما اشتهر خلال هذا العصر عمرو بن مسعدة[2] الذي تولى أبوه ديوان الرسائل فــي عهــد الخليفة أبو جعفر المنصور واختاره جعفر بن يحيى البرمكي كاتباً للتوقيع بين يديه وغــرس فيــه شغفه بالإيجاز والتأنق في التعبير، ثم عُيّن على ديوان الرسائل في عهد المأمون، فاشتهر بكتابتــه الديوانية وكان يضرب به المثل في الإيجاز[3].

ب. الإشراف على ديوان الرسائل

كانت وظيفة الوزير تتمثل بالإشراف على الدواوين التي تشكل الجانب الإداري في الدولة، وكان ديوان الرسائل واحداً من هذه الدواوين التي تتبع الوزير في الإشراف عليها، ومثال ذلك قول القلقشندي بأن أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين "استوزر أبا سلمه الخلال[4] وهو أول مــن لقب بالوزارة في الإسلام ... وكان ديوان الإنشاء تارةً يضاف إلى الوزارة فيكون الوزير هو الذي

---

(1) صفوت، رسائل العصر العباسي، ص٣١٧-٣٣٤ وقد أورد رسالة الخميس كاملة.

(2) عمرو بن مسعده: عَدَّ ابنُ النديم مسعدة من بلغاء الناس العشرة مع ابن المقفع وعماره بن حمزة وغيرهم. أمــا الابن فقال فيه: كان بليغاً شاعرا مترسلاً وله كتاب رسائل كبير. ابن النديم، الفهرست، ص١٩٧-٢٠٣. وقــد تولى مسعدة زمن المأمون ديوان الرسائل وديوان الخاتم والتوقيع والأزمــة. يــاقوت، معجــم الأدبــاء، ج٢، ص٨٧.

(3) ضيف، العصر العباسي الأول، ص٥٧٢.
– جعفر البرمكي: انظر ترجمة موسعة له عند: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص٣٢٨-٣٤٦.

(4) أبو سلمه الخلال: حفص بن سليمان مولى بني الحارث بن كعب كان صهر بكر بن ماهان كاتب إبراهيم الإمام إلى الدعاة (أي للدعوة العباسية) واستخلفه ابن ماهان ليتولى الكتابة من بعده فأقام في خراسان. وبعــد = قتــل إبراهيم الإمام على يد الأمويين أقام بالكوفة وأسلم إليه أهلها تدبير أمر الدعوة ولقب بوزير آل محمــد وســعى إلى الدعوة إلى شخص من آل بيت علي بن أبي طالب وعند مبايعة أبو العباس السفاح لم يأمن أبــو العبــاس جانبه وأمر بقتله في رجب سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م. انظر: الجهشياري الوزراء والكتاب، ص٨٣-٩٠.

ينفذ أموره بقلمه، ويتولى أحواله بنفسه، وتارة يُفرد عنه بكاتب ينظر في أمره ويكون الوزير هـو الذي ينفذ أموره بكلامه ويصرفها بتوقيعه على القصص ونحوها، وصاحب ديوان الإنشاء يعتمـد على ما يرد عليه من ديوان الوزارة، ويمشي على ما يُلقى إليه من توقيعه، وربما وقـع الخليفـة بنفسه..." [1].

وبذلك استقر لقب الوزير على من يشرف على دواوين الدولة ومن ضمنها ديوان الرسائل.

ولكن العصر العباسي الأول كان دور تجربة لنظام الوزارة، حيث شهد هذا العصر تـصادماً مستمراً بين الخلفاء ووزرائهم أيام أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور، لعدم وضوح سلطات الوزير وتحديدها[2].

ولم تستقر الوزارة وتترسخ أسسها إلا زمن الخليفة المهدي حيث اتسعت سلطات الوزير حتى صارت عامة على كافة الدواوين. ورغم ذلك كان الخليفة قادراً على عزله، وكان الـوزراء كتّابـاً بالدرجة الأولى بثقافتهم ومؤهلاتهم[3].

واستوزر هارون الرشيد بحيى بن خالد البرمكي[4]، وأوكل إليه أمر رسائله، فكان أول وزير ولي ديوان الرسائل، وأعطي صلاحيات التوقيع على الظلامات، وإطلاقات الرزق، وما شابه ذلك،

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ح١، ص ١٢٧؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ص ٦٢؛ وانظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٨٤، وانظر في معنى مقارب: حبشي، ديوان الإنشاء، ص ٨٦؛ الباشـا، حـسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مصر، دار النهضة العربية، ١٩٧٨، ص ١٠. وسيـشار لـه: الباشا، الألقاب الإسلامية.

[2] الدوري، النظم الإسلامية، ص ١٦٠ – ١٦٤.

[3] المصدر نفسه، ص ١٦٥.

وجد نوع من الاختصاص بين الكتاب في العصر العباسي فالكتاب في عصر المأمون (على سبيل المثال) كانوا خمسة أنواع: كاتب خراج، وكاتب أحكام (فقيه) وكاتب معونة يشتغل بالأمور الجزائية، وكاتب جيش، وكاتـب رسائل. انظر: الدوري، الدوري النظم الإسلامية، ص ١٥٢.

[4] الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٧٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ١٢٧.

وصار سُنَّةً لمن جاء بعده من الوزراء[1]، كما تولى ابنه جعفر بن يحيى البرمكي هذا الأمر وكـان إذا وقع "نُسخت توقيعاتُه، وتدورست بُلاغاتُه"[2].

ومما يلاحظ أن التوقيع في هذه الحالة كان إجراء تستكمل به الرسالة، وكان في الوقت نفسه مسمى لأحد الدواوين في هذه الفترة، حيث وجدت في هذه الفترة ثلاثـة دواويـن تتعلـق بكتابـة الرسائل: هي ديوان الرسائل، وديوان الخاتم، وديوان التوقيع، الذي كان خاصاً بالنظر في المظـالم ورقاع الشكوى التي تسمى القصص، وكان من عادة ملوك الفرس أن يوقعوا عليها بعبارات موجزه بليغة، فجاراهم الخلفاء العباسيون ووزراؤهم في هذا الأمر[3].

ولم يستمر إشراف الوزراء على ديوان الرسائل لكثرة مهامهم وزيادة أعباء الديوان، لـذلك استقل بالإشراف عليه رئيس خاص كان أقل من الوزير مرتبة ويرجع إليه في أموره[4].

وأطلقت على متولي ديوان الرسائل تسميات بحسب ما عرف بـه الـديوان فـي العـصور المختلفة، ومن المعروف أنه سُمي أولاً ديوان الرسائل (وهي تسمية له بأشهر الأنواع التي تـصدر عنه، لان الرسائلَ أكثرُ أنواعِ كتابةِ الإنشاءِ وأعمُّها) [5]. وكان المتولي عليه يعرف باسم صـاحب ديوان الرسائل، كما عُرف الديوان باسم ديوان المكاتبات، وكان رئيسه يلقـب بـصاحب ديـوان

---

[1] سليم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٤.

[2] الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٠٤؛ وانظر في نفس المعنى: ابن خلدون، (مج١ المقدمـة)، ص ٢٦٠؛ ضيف، العصر العباسي الأول، ص ٤٩٠ . وقد استعان يحيى بن خالد بولديه الفضل وجعفر وذلـك بموافقـة هارون الرشيد فكونا ثالوثاً قوياً امتد نفوذه إلى كافة أمور الدولة. للمزيد: انظر: الدوري، النظم الإسلامية، ص ١٦٥ – ١٦٧.

[3] ضيف، العصر العباسي الأول، ص٢١-٢٢.

[4] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٨٤، الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١١؛ وانظر: الـسمحاوي، الثغر الباسم، ص ٦٢، حيث يقول "وأفرد ديوان الإنشاء عن الوزارة وجعلوا عليه متولياً ولقبوه بأمير البريد".

[5] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ١٢٤؛ السحماوي الثغر الباسم، ص٥٨.

المكاتبات[1]، وفي أواخر العصر العباسي أُطلق عليه اسم "ديوان الإنشاء"، وكـان رئيسه يلقب بصاحب أو رئيس ديوان الإنشاء[2].

واتخذت الدول المعاصرة للعباسيين دواوين للمراسلات الرسمية؛ ففي الأندلس أسس بنو الأحمر في غرناطة (حوالي ٦٢٩-٨٩٧هـ/١٢٣١-١٤٩٢م) ديواناً للإنشاء، وكان رئيسه يسمى صاحب ديوان الإنشاء[3]، وعند وجود عدة دواوين للإنشاء كان يسمى مَن يتولاها صاحب دواوين الإنشاء، وفي دول المغرب كان يُطلق على مُتولي هذا الديوان صاحب القلم الأعلى[4]. أما في دول المشرق فقد عرف الديوان في الدولة السامانيه (٢٦١-٢٨٩هـ/٨٧٤-٩٠١م) باسم "عميد الملك"، وكان رئيسه يمسى "خواجى عميد"، وفي دولة السلاجقة (٤٤٧-٥٩٦هـ/١٠٥٥-١١٩٩م) سمي الديوان باسم "ديوان الطغرا" وأطلق على رئيسه اسم طغرائي[5].

رابعاً: ديوان الإنشاء في مصر منذ عصر الدولة الطولونية حتى نهاية العصر الأيوبي (٢٥٤-٦٤٨هـ/٨٦٨-١٢٥٠م)

أ. ديوان الإنشاء أيام الطولونيين (٢٥٤- ٢٩٢هـ / ٨٦٨-٩٠٥م)

نُظمت المراسلات في مصر بعد الفتح الإسلامي بواسطة الولاة[6] الذين اتخذوا كتّابا يتولون إنشاء الكتب عنهم وكان لديهم ديوان للبريد يختص باستقبال الرسائل المرسلة إليهم ونقل الرسائل

---

(١) السحماوي، الثغر الباسم، ص٦٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٨٤. الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١٠ – ١١؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٤.

(٢) الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١١؛ سليم، عصر سلاطيين المماليك، ص ٩٤-٩٥.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ١٢٩؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص ٩٥؛ الهروط، الرسائل الديوانية، ص ٦١ – ٧١ والموضوع ضمن قسم بعنوان التراتيب الإدارية في عصر بني الأحمر.

(٤) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص ٩٥.

(٥) الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١١.

(٦) فُتحت مصر على يد عمرو بن العاص سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م وكانت مركز ولاية مصر وإفريقيا إلى أن فصلت أفريقيا عنها زمن معاوية بن أبي سفيان انظر سالم: الدولة العربية، ص ٢١٧، ٣٤٨.

التي يبعثون بها إلى مركز الدولة، ولكن الحاجة إلى ديوان خاص بالرسائل دعت أحمد بن طولون[١]، بعد استقلاله بحكم مصر إلى إنشاء ديوان خاص بالرسائل[٢]، وكان ذلك بداية مرحلة جديدة في عهد الدولة الطولونية[٣].

قام أحمد بن طولون بتأسيس ديوان للمراسلات في مصر مدفوعاً بعاملين، الأول: اتساع رقعتها وحاجته إلى المراسلات، والثاني: رغبته في أن يجمع للإدارة مظاهر الاستقلال وأن ينظمها على منوال الإدارة في بغداد[٤] واعتنى أحمد بن طولون باختيار الكتّاب وكان من أشهرهم أحمد بن محمد بن مودود المعروف بـ "ابن عبد كان"[٥] وقد وصفه القلقشندي بالبلاغة وحسن الكتابة وعدَّه بالنسبة للكتّاب في مصر: "مبدأ الكتّاب المشهورين بها"[٦]. ولابن عبد كان دور كبير في كتابة الرسائل، حيث وضع رسوم الدعاء فيها، وكيف تُفتتح الرسائل وكيف تُبتدأ أجوبةُ الكتب[٧].

---

[١] أحمد بن طولون:كان أبوه مولى نوح بن أسد الساماني عامل بخارى وخراسان فأهداه إلى الخليفة المأمون فرقاه المأمون وأمره . ولد ابنه أحمد في سنة (٢١٤هـ/٨٢٩م) وقيل (٢٢٠هـ/٨٣٥م) في سامراء . دخل أحمد بن طولون مصر نائباً عن أميرها سنة (٢٥٤هـ/٨٦٧م). وبعد موت الخليفة المعتز سنة (٢٥٥هـ/٨٦٨م) استقل إبن طولون بحكم مصر وبقي عليها حتى مات سنة (٢٧٠هـ/٨٨٣م) . أنظر : ابن تغري بردي , النجوم الزاهرة، جزء٧ ، صفحة ٣ ، ٩.

[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ٢٩، وانظر: حبشي، ديوان الإنشاء، ص ٨٧؛ الباشا، الألقاب الإسلامية، ص١٦؛ ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات مصر الشام)، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤م، ص ٤٠٠. وسيشار له: ضيف، عصر الدول والإمارات؛ مصطفى، الأدب العربي، ص ١٣٣ –١٣٤.

[٣] صنفت مصر بعد هذا الحدث بأنها ولاية لها جميع مزايا الاستقلال يخطب فيها على المنابر لأحمد بن طولون إلى جانب اسم الخليفة العباسي. انظر: مصطفى، الأدب العربي، ص ١٠٩ –١١٠.

[٤] مصطفى، الأدب العربي، ص ١٣٤؛ الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١٦.

[٥] القلقشندي، صبح الأعشى،١ح، ص١٢٩ ، أبن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ح ٧، ص٢٨٤؛ وانظر، مصطفى، الأدب العربي، ص ١٣٥؛ سليم، عصر سلاطين المماليك،ج٣، ق١، ص ٩٥، ضيف، عصر الدول والإمارات، ص ٤٠١.

[٦] القلقشندي، صبح الأعشى، ح١، ص ١٢٩؛ ضيف، عصر الدول والإمارات، ص ٤٠٦. والمزيد حول سمات الكتابة في العهد الطولوني. مصطفى، الأدب العربي، ص ١٤١.

[٧] ضيف، عصر الدول والإمارات، ص ٤٠١.

ب. ديوان الإنشاء أيام الإخشيديين (٣٢٣ – ٣٥٨هـ/ ٩٣٥- ٩٦٩م)

واتبعت الدولة الإخشيدية من بعد الطولونيين نفس الأسس التي كانوا يتّبعونها في افتتاحية الرسائل، وفي أواخر الدولة الإخشيدية أسس كافور الإخشيدي[١] ديواناً فرعياً في الشام، كان الأول من نوعه، وأَسَنَد رئاستَه إلى يعقوب بن كِلّس[٢].

ج. ديوان الإنشاء أيام الفاطميين (٣٥٨- ٥٦٧هـ/ ٩٦٩-١١٧٢م)

أما في العصر الفاطمي فكان للرسائل الرسمية (الديوانية) أهمية كبيرة بسبب التكوين السياسي والمذهبي للدولة الفاطمية، فقد اتسعت حدود الدولة وامتدت من أقاصي المغرب إلى نهر الفرات، وامتد نفوذها إلى الحجاز واليمن[٣]، وأصبحت القاهرة –التي أنشأها الفاطميون سنة (٣٥٨هـ/٩٦٨م)– مقرَّ الخلفاء والدواوين المركزية في الدولة، ولم تعد الدواوين في مصر

---

[١] كافور الإخشيدي: أبو المسك كافور بن عبد الله كان عبداً اشتراه محمد بن طغج من احد أهالي مصر سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م وترقى عنده إلى أن جعله أتابكاً لولديه وبعد وفاة محمد بن طغج كان هو الحاكم الفعلي في فترة تولي أبنائه أنوجور الذي توفي سنة ٣٤٩ه/٩٦٠م ثم أبو الحسن علي الذي توفي سنة (٣٥٥ه/ وقيل ٣٥٤/٩٦٥م)، وبوفاته استقل كافور بحكم مصر وحصل على اعتراف الخليفة العباسي في بغداد. وخطب له على المنابر في مصر والحجاز ومدن شامية هامة مثل دمشق وحلب وأنطاكيا. اختُلف في تاريخ وفاته فقيل سنة (٣٥٦هـ/٩٦٦م) وقيل قبلها بسنة أو بعدها بسنة انظر:ابن خلكان،وفيات الأعيان،مج٤، ص٩٩-١٠٥.

[٢] يعقوب بن كلس: أبو الفرج يعقوب بن يوسف كان يهودياً ولد في بغداد سنة (٣١٨هـ/٩٣٠م) وتعلم بها الكتابة والحساب رحل به أبوه إلى الشام ثم مصر سنة (٣٣١هـ/٩٤٢م)، ومن خلال أحد خواص كافور الإخشيدي أوكل إليه كافور عمارة داره ثم قلده حسابات الدواوين وجباية الأموال. أسلم في هذه الفترة سنة (٣٥٦هـ/٩٦٦م) وتعلم أمور الدين ودرس النحو وبعد وفاة كافور اظهر الوزير ابن الفرات ما كان يخفيه من حسد وعداء له فصادره وسجنه إلى أن خلص نفسه ببذل المال خرج متخفيا إلى المغرب فقيل التقى في الطريق مع جوهر الصقلي وعساكره المتوجهة إلى مصر وقيل خدم المعز لدين الله في المغرب ثم عاد عند قيام الدولة الفاطمية في مصر. وفيها تقلد الوزارة للعزيز نزار توفي سنة (٣٨٠هـ/٩٩٠م). انظر ابن خلكان وفيات الأعيان، مج٧، ص٢٧-٣٥.

[٣] ضيف، عصر الدول والإمارات، ص ٤٠١.

الفاطمية تابعة للإدارة في بغداد العباسية، كما كان الحال أيام الطولـونيين والإخـشيديين[1]، فقـد أصبحت مصرُ مركزَ الدولة الفاطمية التي ناصبت الدولة العباسية وخلفائها العداء، وعملـت علـى تدعيم سلطانها في نفوس الجماعات التي تدين لها بالطاعة من جهة، وفي تعزيـز وجودهـا فـي العلاقات السياسية والاقتصادية والتجارية مع الدول الأخرى من جهة أخرى[2]، كما لم يخفُ أثـر الدعوة للمذهب الشيعي في المراسلات، فقد تجاوزت الدعوة للفاطميين والمـذهب الـشيعي حـدود الدولة الفاطمية إلى كافة البلاد الإسلامية[3].

وأثّرت المناسبات الدينية في فحوى الرسائل التي كان كُتّابها يُعْنَون بخروج الخلفاء الفاطميين ومشاركتهم في احتفالات شهر رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى[4]، وعيد الغدير[5] عند الـشيعة وقد أسس الفاطميون ديواناً أطلق عليه إبان تأسيسه اسم "ديوان الرسائل"، كما كان يُطلق عليه اسم "ديوان المكاتبات"، وكذلك سمي بديوان الإنشاء، ولم يعرف الاسم الأخير في مصر قبـل العـصر الفاطمي[6].

وقد اعتمد الفاطميون أُسساً جديدة في اختيار الكتّاب، حيث عينوا كتّاباً من المسلمين وغيرهم على السواء، فأما المسلمون فكان من أشهرهم ولي الدين بن خيران، الذي كتب للخليفة المستنـصر

---

(1) محاميد، حاتم محمد، التطورات في نظام الحكم والإدارة في مـصر الفاطميـة، القـدس ، (د.ن) ، ٢٠٠١م، ص١٣٢-١٣٣. وسيشار له: محاميد، نظام الحكم والإدارة.

(2) حبشي، ديوان الإنشاء، ص ٨٧.

(3) ضيف، عصر الدول والإمارات، ص ٤٠١.

(4) مصطفى، الأدب العربي، ص ٢٤٠. وقد كتب الفاطميون في مناسبات خاصة بمصر.

(5) عيد الغدير: أحدثه معز الدولة البويهي في العراق سنة (٣٥٢هـ/٩٦٢م) ويصادف يوم الثامن عشر مـن ذي الحجة على أساس حادثة أو معتقد أن الرسول ﷺ اجتمع بعلي بن أبي طالب ﷺ بغدير خـم وعهـد إليـه أو استخلفه. حول هذه الحادثة وحول احتفال الفاطميين بمصر بهذا العيد. انظر: المقريـزي، أحمـد بـن علـي (ت.٨٤٥هـ/١٤٤١م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، وضع حواشـيه خليل منصور، دار الكتبة العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ج٢، ص٢٥٥. وسيشار له: المقريزي، الخطط.

(6) الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١٧.

(٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م)، وتاج الرئاسة أبو القاسم علي بن سليمان بن منجب المعــروف بابن الصيرفي (ت٥٤٢هـ/١١٤٧م)، صاحب كتاب الإشارة إلى من نال الوزارة، والموفــق بــن الخلال (ت٥٦٦هـ/١١٧٠م) الذي كتب في ديوان الإنشاء أيام الخليفة الحافظ ثم في أيــام الخليفــة العاضد (٥٥٥هـ-٥٦٦هـ/١١٦٠-١١٧١م) آخر الخلفاء الفــاطميين. وكــان القاضــي الفاضــل البيساني[١] ممن تدربوا بين يدي الموفق بن الخلال[٢] إلى أن أشركه الخليفة العاضد مع ابن الخلال في ديوان الإنشاء، وذلك أثناء تولّي صلاح الدين الأيوبي الوزارة فكتب القاضي الفاضل من إنشائه عدة مكاتبات على لسان العاضد. أما الكتّاب من أهل الذمة فمنهم: أبو المنــصور بــن ســوردين النصراني الذي كتب للخليفة العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م) ثم لابنه الخليفــة الحــاكم (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م) وابن أبي الدم اليهودي الــذي كتــب للخليفــة الحــافظ (٥٢٤-٥٤٤هـ/١١٢٩-١١٤٩م)[٣].

كان استخدام الفاطميين لكتّاب من أهل الذمة حدثاً جديداً كاد يزعزع الــشرط الرابــع مــن الشروط التي كان من المطلوب أن تتوفر في الكاتب، فالكاتب هو الشخصية البــارزة فــي ديــوان

---

(١) القاضي الفاضل: أبو عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين العسقلاني المولد المصري الدار بــرز فــي صناعة الإنشاء وفاق المتقدمين، بلغت مسودات رسائله وتعليقاته في الأوراق حولي مائة مجلد تولى الــوزارة لصلاح الدين. وبعد وفاة صلاح الدين بقيت له نفس المكانة عند ابنه الملك العزيز ثم المنصور بن العزيز توفي القاضي الفاضل إبان بداية حكم الملك العادل أخي صلاح الدين عند دخوله القاهرة سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م). ابــن خلكان، وفيات الأعيان مج٣، ص١٥٨-١٦٢؛ وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص٣٢٨-٣٤٢.

(٢) الموفق بن الخلال: أبو الحجاج يوسف كان له قوة على الترسل خدم في ديوان الإنشاء إلى أن طَعَنَ في السن. وحين أضرّ (أصيب بالعمى) لَزِم بيته فحفظ له القاضي الفاضل حق الصحبة والتعليم فكان يجــري عليــه مــا يحتاج إليه إلى أن مات. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٧، ص٢١٩-٢٢٥. وحول تدريبــه للقاضــي الفاضل انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٥٠٥.

(٣) القلشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص ١٣٠، السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ص ٧٣؛ ابن تغري بردي، النجــوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٨٥-٢٨٦، وانظر: مصطفى، الأدب العربي، ص ٢٣٨ – ٢٣٩، سليم، عصر ســلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص ٩٦ – ٩٧.

الإنشاء الذي يجب اختياره وفقاً لعشر أسس، أولها: العدالة من حيث اعتبار الكتابة ولاية شـرعيه، وهذا تكريم لها، وثانيها: التكليف (البلوغ)، وثالثها: الذكورة، ورابعها: الإسلام، وخامسها: الحرية، وسادسها: البلاغة، وسابعها: وفور العقل، وثامنها: العلم بالأحكام الشرعية، وتاسعها: شرف النفس، وعاشرها: الكفاية لما تقضية منصب الكتابة من تولى الرجل المناسب[١].

وكان متولي ديوان الإنشاء في هذا العصر من أكثر الكتّاب بلاغة وأعلاهم منزلة. يخاطـب بالأجل، ويلقب بكاتب الدَّست[٢]، والدست صدر المجلس إشارة إلى أنه في الصدر مـن مناصـب الدولة[٣]، وقد شكل كتّاب الدست فئة من فئات كتّاب ديوان الإنشاء في العـصر المملـوكي، كمـا سيجري عرضه.

وقد لعب الوزراء دوراً هاماً في الإشراف على عمل ديوان الإنشاء واتسع هذه الدور ليشمل صلاحيات الخليفة في التوقيع على الكتب؛ فبعد أن كان التوقيع يقوم به الخلفاء أسند الخليفة العزيز هذه المهمة إلى الوزير يعقوب بن كِلْس، الذي كان له أيضاً سلطة الإشـراف علـى المكاتبـات[٤] "وجرى في دولة العزيز مجرى يحيى بن خالد البرمكي في دولة الرشيد"[٥].

---

(١) حبشي، ديوان الإنشاء، ص ٨٥، اعتمد الترتيب الذي أورده حسب حبشي نظراً لأهمية رأيه. وتجدر الإشـارة إلى أن الترتيب لشروط الكاتب عند القلقشندي جاء كالتالي: الإسلام، الـذكورة، الحريـة، التكليـف، العدالـة، البلاغة، وفور العقل، العلم بمواد الإحكام الشرعية، "قوة العزم وعلو الهمة وشرف النفس"، والشرط العاشر هو الكفاية لما يتولاه. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ح ١، ص ٩٩.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى ح١، ص ١٣٦– ١٣٧، الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١٨؛ حبشي، ديوان الإنـشاء، ص٨٨؛ ضيف عصر الدول والإمارات ص ١٠٤، وانظر شرح صلاحيات كتاب الدست عند: محاميد نظـام الحكم والإدارة ص ١٣٥ – ١٣٦.

(٣) ضيف، عصر الدول والإمارات ص ١٠٤.

(٤) الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١٧.

(٥) سليم، عصر سلاطين المماليك،ج٣، ق١، ص ٩٦.

وظل الإشراف على المكاتبات من حق الوزير حتى عصر المستنصر، حيث عزل أبو محمد المغربي عن الوزارة وأفرد له ديوان الإنشاء ومنذ ذلك الحين صار لهذا الديوان إدارة متميزة ذات رئيس مباشر يتبع تبعية عامة للوزير[١].

واقتضى العمل في ديوان الإنشاء أن تُسَنَّ قواعدُ وآداب تتفق مع رسوم الدولة يلتزم بها مَن يخدم في هذا الديوان، الأمر الذي تطلب وجودَ مؤلفات يعتمد عليها كُتّاب الإنشاء، فألف في هذا العصر كتاب: "مواد البيان" لأبي الحسن علي بن خلف وكتاب "القانون في ديوان الرسائل[٢]" لتاج الرئاسة ابن منجب المعروف بابن الصيرفي–كما ذكر سابقاً– وفي هذا الكتاب شرح لنظام ديوان الإنشاء والشروط الواجب توافرها في موظفيه[٣].

وشكَّل نتاجُ عمل موظفي ديوان الإنشاء الفاطمي إرثاً أدبياً وإدارياً، حيث كانت تقاليده أصلاً للتقاليد التي سادت في العصر الأيوبي وعصر المماليك، ومن الأمثلة على ذلك العناية بمراتب المكاتبات تبعاً لألقاب المكاتب، والتي تتفاوت لاعتبارات مختلفة. ويرجع الفضل في ذلك إلى القاضي الفاضل، الذي خدم في ديوان الإنشاء الفاطمي وتمرس في أنظمته في أواخر العصر الفاطمي، ثم أُسندت إليه رئاسة هذا الديوان منذ قيام الدولة الأيوبية عام (٥٦٧هـ/١١٧١م) [٤].

---

(١) الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١٧– ١٨، سليم عصر المماليك، ج٣، ق١، ص ٩٦، محاميد، نظام الحكم والإدارة ص ١٣٥.

(٢) كتاب القانون في ديوان الرسائل: طبع الكتاب بعناية علي بهجة تحت اسم قانون الرسائل. انظر: ابن الصيرفي، أبو القاسم علي بن منجب (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م)، كتاب نتاج المذاكرة، تحقيق، إبراهيم صالح، دمشق، دار البشائر، د.ت، ص٧ (مقدمة المحقق).

(٣) سيد، أيمن فؤاد الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد) القاهرة الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠م، ص ٥٣ – ٥٤ و سيشار له: سيد: الدولة الفاطمية.

(٤) الباشا، الألقاب الإسلامية ص٢٠. وقد ارتكز عدد من المؤرخين غير حسن الباشا على حقيقة أن النظام الإداري في العصر الأيوبي كان موروثاً عن الفاطميين، وعلى سبيل المثال لا الحصر. انظر: عاشور، سعيد عبد الفتاح نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك، بحث ضمن موسوعة الحضارة الإسلامية، القاهرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٧، ج ٣، ص ٢٤٥. وسيشار له: عاشور ، نظم الحكم والإدارة.

د. ديوان الإنشاء أيام الأيوبيين (٥٦٧- ٦٤٨هـ/ ١١٧٢-١٢٥٠م)

قام ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي على أسس ثابتة وشهد ازدهاراً منذ بداية العصر للأسباب التالية:

١. استمرارية العمل بتقاليد ديوان الإنشاء الفاطمي وإسناد رئاسة الديوان بالإضافة إلى الوزارة إلى القاضي الفاضل، الذي استفاد من التقاليد العباسية، فقوى أواصر الصداقة بينه وبين العماد الكاتب الأصبهاني[١]، وسعى في التوسط لدى صلاح الدين، حتى عينه في الإشراف على ديوان الإنشاء في الشام، ووصف العماد الكاتب بخبرته التي أضافها بأنه ثاني الأسس التي قام عليها ديوان الإنشاء[٢].

٢. تميز ديوان الإنشاء الأيوبي بمن تولى رئاسته من كبار الكتّاب، إضافة إلى القاضي الفاضل، ومنهم الشاعر بهاء الدين زهير[٣]، الذي وُلِّي زمن الصالح نجم الدين أيوب، والقاضي فخر الدين بن لقمان الاسعردي[٤] الذي شهد نهاية العصر الأيوبي، ثم تولى الكتابة في بداية العصر المملوكي[٥].

---

(١) العماد الكاتب الأصبهاني: أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد، ولد بأصبهان سنة (٥١٩ه/١١٢٥م) ونشأ بها ثم رحل إلى بغداد ودَرَسَ في المدرسة النظامية ثم اشتغل فيها بالكتابة رحل إلى دمشق سنة (٥٦٢ه/ ١١٦٦م)، ولاه نور الدين زنكي المدرسة النورية بدمشق سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م) كما اتصل بصلاح الدين. للمزيد انظر: ياقوت، معجم الأدباء، ج٥، ص٤١٩-٤٢١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان , مج٥، ص١٤٧-١٥٢.

(٢) الباشا، الألقاب الإسلامية ، ص ٢١، و انظر: مصطفى، الأدب العربي، ص ٣٠٧.

(٣) البهاء زهير: بهاء الدين زهير، أبو الفضل زهير بن محمد بن علي المهلبي العتلي الملقب ببهاء الدين الكاتب والبهاء زهير خدم الملك الصالح نجم الدين أيوب في دمشق كما خدمه بعد توليه السلطنة في مصر سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م).انظر: ابن خلكان وفيات الأعيان، مج٢، ص٣٣٢، كتب الإنشاء للملك الصالح ثم عزله فرحل إلى حلب وفي آخر أمره افتقر وباع كتبه توفي سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٣٥٤.

(٤) ابن لقمان: إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد الوزير الكاتب فخر الدين الشيباني الاسعردي عمل بآمد وزيراً للصحبة وعند دخول الكامل بن العادل الأيوبي إليها أُعجب بخطه وعباراته فأخذه إلى القاهرة ليكتب عنده. شهد نهاية العصر الأيوبي وبداية العصر المملوكي عُينَ زمن الملك السعيد بن الظاهر بيبرس وزيراً للصحبة وله أخبار كثيرة في العصر المملوكي. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٢٦٠-٢٦٢؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، باعتناء: ريد رينغ، دار فرانزشتايز، فيسبادن، ١٩٨٢، ج٦، ص٩٧-٩٩. وسيشار له: الصفدي، الوافي بالوفيات.

(٥) سليم، عصر السلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص ٩٧؛ مصطفى، الأدب العربي، ص ٣٠٧.

٣. اهتمام الكتّاب بتأليف الكتب التي تبحث في الكتابة والإنشاء، والتي تشتمل على توجيهات لكتّاب الإنشاء، ومن أشهرها في هذا العصر "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"[١] لضياء الدين ابن الأثير[٢].

٤. خصوصية الفترة التي تأسست خلالها الدولة الأيوبية أثناء الغزو الفرنجي (الصليبي) للعالم الإسلامي، والتصدي لهذا الغزو، وما رافق ذلك من توحيد مصر، وبعض مدن الشام، وقد ترتب على ذلك تعدد اختصاصات ديوان الإنشاء والتفرع في مهامه[٣].

بهذا القدر الذي تعرضنا له لديوان الرسائل والتطورات التي مرّ بها نكون قد وصلنا إلى أبواب الفترة المملوكية التي هي موضوع الدراسة.

---

(١) الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٩.

(٢) ابن الأثير: اشتهر بهذه التسمية (خلال هذا العصر) ثلاثة إخوة وهم: الأول: ضياء الدين ابن الأثير المنشئ الأديب صاحب كتاب المثل السائر، وهو أصغر إخوته. انظر: الذهبي، سير إعلام النبلاء، ج٢٣، ص٧٢-٧٣. والثاني: عز الدين ابن الأثير، المؤرخ صاحب كتاب التاريخ الكبير (الكامل في التاريخ). وهو أوسط إخوته (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، انظر: المصدر نفسه، ح٢٢، ص٣٥٣-٣٥٦. والثالث: مجد الدين القاضي المحدث صاحب كتاب جامع الأصول وغريب الحديث، وهو أكبر إخوته (٦٠٦هـ/١٢٠٩م). انظر: المصدر نفسه، ج٢١. ص٤٨٨-٤٩١.

(٣) الباشا: الألقاب الإسلامية، من ٢٧-٢٨.

الفصل الأول

الرسائل الديوانية والجهة المُكَلَّفة بالإشراف عليها

أولاً: التعريف بالرسائل الديوانية

ثانياً: المصطلحات ذات العلاقة بكتابة الرسائل الديوانية

ثالثاً: أنواع الرسائل الديوانية

رابعاً: النصوص الملحقة بالرسائل الديوانية

خامساً: الجهاز المكلف بالإشراف على الرسائل الديوانية

أولاً: التعريف بالرسائل الديوانية

عرَف ابن خلدون الرسائل الديوانية بأنها المخاطبات لمن بعُد عن السلطان وتنفيذ الأوامر فيمن حُجب عنه[١].

وورد تعريف للرسائل الديوانية في بعض الدراسات الحديثة حيث ذهب بعضها إلى القول بأنها الرسائل التي يدبجها كتّاب ديوان الإنشاء في المناسبات الرسمية للدولة جارية على لسان السلطان أو بأمر منه، وهي وثيقة رسمية تسجل الحادث أو المناسبة[٢].

وذهبت دراسة أخرى إلى القول بأنها الرسائل التي كان يتولاها الكتّاب البلغاء الذين يقومون بكتابتها بأمر من ولي الأمر في شؤون الدولة السياسية من حرب وسلم، ومهادنة، وصلح، واستمالة عاصٍ وتهديد خارج[٣].

وذهبت دراسة ثالثة إلى القول بأنها تلك الكتب الصادرة عن ديوان الإنشاء متضمنة غرضاً محدداً يكون فيها اسم السلطان أو مَن ينوب عنه صريحاً أو مَن يشير إليه، باعتبارها صادرة عنه وبأمره، كما تتضمن اسم المرسل إليه صريحاً باعتباره المقصود بهذه الرسالة[٤].

من هذه التعريفات السابقة لا نجد فروقاً أساسية بينها؛ فجميعها تتفق في أن الرسائل كانت تصدر عن ولي الأمر في الدولة لأغراض تخدم مصلحة الدولة، فهي كتب رسمية كانت تصدر لأغراض مختلفة سياسية وإدارية واقتصادية واجتماعية، ويرتبط إصدارها بأوامر رسمية من الخليفة أو السلطان، ويقوم ديوان الإنشاء بإعدادها من بعد.

---

(١) ابن خلدون، العبر، (مج١ المقدمة)، ص ٦١٨، وانظر: الهروط، عبد الحليم حسين، الرسائل الديوانية في مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر (المضمون والأهمية والشكل)، دار جرير، عمان، ٢٠٠٦م، ص ٤٠. وسيشار له: الهروط، الرسائل الديوانية.

(٢) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ط١، ص ١١٣.

(٣) مصطفى، الأدب العربي في مدر، ص١٣٣.

(٤) الهروط، الرسائل الديوانية، ص ٤٠.

ويقتضي تجهيزُ الرسائلِ توفرَ عددٍ من الشروط، نذكر منها ما يلي:

١. أن تتحقق الصبغة الرسمية للرسالة: وذلك بأن تكون صادرة على لسان الخليفة أو السلطان أو من يقوم مقامهما وموقعهما، حسب الأسس التي كانت متبعة في ذلك الوقت، وتحمل التوقيع الرسمي.
٢. أن تحقق الشروط الإدارية وفق الأعراف المتبعة في ديوان الإنشاء.
٣. أن يتحقق من إرسالها الغرضُ أو الفائدة، بأن يشتمل محتواها على الغرض الذي أعدت من أجله.

ثانياً: المصطلحات المستخدمة في كتابة الرسائل الديوانية

احتوت المصادر المملوكية على مصطلحات ذات علاقة بكتابة الرسائل الديوانية وتجهيزها، وعلى صفات أُطلقت على الكّتاب في دواوين الدولة، وخاصة كتّاب الرسائل. كما برزت ظاهرة استخدام هذه المصطلحات كعناوين لبعض الكتب والموسوعات. وقد بحث الكتاب المُحدثون خاصة ممن قاموا بتحقيق هذه الكتب والموسوعات ودراستها الألفاظ الحرفية لهذه المصطلحات وتغيّر استخداماتها، وكان مرجعهم في أغلب الأحيان الشروح، أو المقدمات التي أوردها كبار مؤرخي العصر المملوكي مثل القلقشندي، وابن فضل الله العمري[(١)].

وتجدر الإشارة إلى وجود تداخل في استخدام العديد من المصطلحات. وسيجري في هذا الموضع من الدراسة بيان ذلك واستخلاص علاقة هذه المصطلحات بكتابة الرسائل الديوانية.

---

(١) ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨، ص٩(مقدمة المحقق)، وسيشار له: ابن فضل الله العمري، التعريف؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١ ، ص١١(مقدمة المحقق)؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٨٩-٩٠.

"الكتابة" و "كتابة الإنشاء"

أورد القلقشندي في كتابه صبح الأعشى تعريفا للكتابة في العصور السابقة، ثم بيّن معناها في عصره فقال: "إلا أن العُرف فيما تقدم من الزمان قد خصَّ لفظَ الكتابة بصناعة الإنشاء حتى كانت الكتابة إذا أطلقت لا يُراد بها إلا كتابة الإنشاء، والكاتب إذا أُطلق لا يراد به إلا كاتبها"[1] أي أنها كانت ترادف الإنشاء وتُطْلَق عليه وحده والكاتب هو المنشئ[2].

وبيّن القلقشندي معنى الكتابة في العصر المملوكي، فقال: "ثم غلب في زماننا بالديار المصرية اسم الكاتب على كاتب المال، حتى صار الكاتب إذا أطلق لا يُراد به غيره، وصار لصناعة الإنشاء اسمان: خاص يستعمله أهل الديوان ويتلفظون به، وهو كتابة الإنشاء، وعام يتلفظ به عامة الناس وهو التوقيع"[3]. أي أن الكتابة في زمنه أُطلقت على كتابة الأموال والكاتب هو كاتب الأموال، في حين استخدم مصطلح مركّب وهو "كتابة الإنشاء" لتخصيص الكتابة بإضافة الإنشاء إليها، "فهو أصل موضوعها، وهو مصدر أنشأ الشيء إذا ابتدأه أو اخترعه من غير مثال يحتذيه، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من الكلام ويبتكره من المعاني فيما يكتبه من المكاتبات والولايات وغيرها، أي أن المكاتبات والولايات ونحوها تنشأ عنه"[4].

ثم عرّف القلقشندي كتابة الإنشاء بأنها "كل ما رجح من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني من المكاتبات والولايات .... وما في معنى ذلك"[5].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٨١؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٩٠.

(٢) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٩٠؛ مصطفى، الأدب العربي، ص١٣٣.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٨٣؛ سليم، عصر سلاطين المماليك،ج٣، ق١، ص٩٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٨٣؛ وانظر : السحماوي، الثغر الباسم، ص٨٥؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٩٠.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٨٤؛ وانظر: سليم عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٨٩-٩٠.

أما كاتب الإنشاء فهو موظف في ديوان الإنشاء يزاول وظيفة محددة وهي كتابة الإنشاء التي تتطلب مستلزمات وظيفية خاصة[1].

وقد أكد محمد حسين شمس الدين على أهمية هذه الفكرة عند تدقيقه للعنوان الأصح لكتــاب "صبح الأعشى" حيث يقول أن التسمية الأصلية للكتاب هي صبح الأعشى في كتابة الإنشاء وهــي التسمية التي ذكرها القلقشندي في مقدمته كما ذكرها في كتابه "مآثر الإنافة"، وهي أكثر ملاءمة من التسميات الأخرى وأكثر شيوعاً وشهرة من تسمية الكتاب "صبح الأعشى في فنون الإنشا" أو"صبح الأعشى في معرفة الانشا" أو"صبح الأعشى في قوانين الانشا". أو كان الهدف الأساسي للقلقــشندي هو كتابة الإنشاء في الدواوين السلطانية وليس صناعة الإنشاء كموهبة أو مقدره تتوفر لدى الأديب أو أي شخص آخر خارج "ديوان الإنشاء"[2].

واعتماداً على ما سبق يمكن القول أن كتابة الإنشاء كانت تطلق على كتابة الرســائل داخــل الديوان[3]، وكانت خلال العصر المملوكي نوعاً رئيسياً من أنواع الكتابة الرسمية إلى جانب نــوع ثانٍ لا يقل أهمية عنها وهو كتابة الأموال[4].

وقد استخدمت تسميات أخرى لكتابة الرسائل ولكتابة الإنشاء وللأسس المتبعــة فــي كتابــة الرسائل، منها:

- **التوقيع:** هو كل ما يكتب على حواشي القصص وظهورها كالتوقيع بخط الخليفة أو السلطان أو الوزير أو صاحب ديوان الإنشاء أو كاتب الدست، بما يعتمد في القضية التي رفعت القــصة

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص١١(مقدمة المحقق).

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص١١(مقدمة المحقق)؛ وانظر: سليم، عصر ســلاطين المماليــك، ج٣، ق١، ص ٨٩ حيث أورد لصناعة الإنشاء معنيين عام وخاص ويتطابق المعنى الخاص عنده مع معنى كتابة الإنشاء.

(٣) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٩٢.

(٤) الهروط، الرسائل الديوانية ، ص٣٧.

بسببها[١]. وقد استعمل عامة الناس مصطلح التوقيع للإشارة إلى كتابة الرسائل، والسبب في ذلك كما قال القلقشندي: "أن ما يُكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات كالولايات وغيرها، إنما يُبنى على ما يخرج من التواقيع، وحينئذٍ يكون التوقيع هو الأصل الذي يَبْني عليه المنشئ، وقد يكون سمي بأصله الذي نشأ عنه مجازاً"[٢].

- **صناعة الترسل:** استُعملت للتعبير عن كتابة الإنشاء تسميةً للشيء بأعمِّ أجزائه. أي أنها أعظمُ كتابة الإنشاء وأعمُّها[٣]. وقد اختار شهاب الدين الحلبي (ت ٧٢٥ هـ) أحد أبرز كتاب الإنشاء في العصر المملوكي هذا المصطلح عنواناً لكتابه وهو "حسن التوسل إلى صناعة الترسل"[٤]. وقد أراد الحلبي من خلال الكتاب أن يضع القواعد التي تشكل ثقافة الكتّاب ليتبوأ وظيفة الكتابة في ديوان الإنشاء[٥]، فقال: "ليأتوا هذه الصناعة من أبوابها، ويعلموا من طرقها ما هو الأخص بأوضاعها والأولى بها ..." [٦].

وقد استُخدم المصطلح للإشارة إلى المعارف التي يمتلكها موظفو الدولة، فوُصف زين الدين بن الزبير وزير الظاهر بيبرس بأنه كان فاضلاً في الأدب والترسّل والتاريخ[٧].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص١١(مقدمة المحقق)؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٩١، البقلي،التعريف، ص٨٧.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٨٣؛ والرواية في المتن ص٨٤؛ سليم عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٩١.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٨٤؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٩١.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٨٤؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١،ص٩١.

(٥) الحلبي، شهاب الدين محمود(ت ٧٢٥ هـ) ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، الجمهورية العراقية، دار الرشيد، ١٩٨٠، ص٢٥ (مقدمة المحقق) . وسيشار له: الحلبي، حسن التوسل.

(٦) الحلبي، حسن التوسل، ص ٧١-٧٢.

(٧) ابن شاكر الكتبي، محمد (ت ٧٦٤ هـ)، عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر ونبيله عبد المنعم داوود، الجمهورية العراقية، دار الرشيد، ١٩٨٠ م، ج٢٠، ٢٣٠. وسيشار له : ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ. ابن فصل الله العمري، التعريف ص٩ (مقدمة المحقق).

- **المصطلح الشريف:** ويقصد به الكتابة الديوانية، والقوانين التي تُراعى في المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء، وهي تشكل رسوماً يجب مراعاتها في افتتاح الكتب وخواتيمها وفي صيغ الخطاب، وفي الألقاب، وتمتد لتشمل أحياناً ترتيب الكتب ونوع الورق المستعمل والأقلام والخطوط[١].

وكان لهذه القوانين والقواعد أهمية كبيرة خلال العصر المملوكي، فشكلت المعرفة بها سمة تطلق على كبار كتاب الإنشاء؛ فقد وُصف جمال الدين بن فضل الله العمري (ت ٧٦٠ هـ) بأنه كان "كاتباً ماهراً في صناعته ... وكان عارفاً بالاصطلاح والكتابة"[٢].

كما صُنِّفت كتبٌ عديدة في هذا الموضوع أُطلق عليها اسم "**الدساتير**"[٣] على يد موظفي ديوان الإنشاء، وكانت من أبرز مظاهر ازدهار الديوان، وكان كتاب التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م) أهم هذه الكتب، إلا انه لم يكن أقدمها[٤]. وتلاه كتاب تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف لابن ناظر الجيش[٥]. ويصف القلقشندي الكتاب الأول بأنه أنفسُ الكتب المصنفة في هذا المجال، ووصف الكتاب الثاني بأنه جاء مقتفياً أثره، وجارياً على سننه، وأضاف قائلاً: "فصار كلٌ من الدُّستورَيْن منفرداً عن الآخر، بقدر زائد. ولم تقع الغُنية بأحدهما عن الآخر، وإن كانا في معنى واحد"[٦].

---

(١) ابن فضل الله العمري، التعريف ص٩ (مقدمة المحقق).

(٢) ابن تغزي بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٦٠.

(٣) ابن فضل الله العمري، التعريف ص٩ (مقدمة المحقق). للمزيد : انظر: الباشا، الألقاب الإسلامية، الفصل الثاني بعنوان: الدساتير ص ٣٦-٥٦.

(٤) الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ٣٦-٣٧.

(٥) ابن ناظر الجيش، تقي الدين عبد الرحمن بن محب الدين محمد التميمي الحلبي، (ت٧٨٦ هـ/ ١٣٨٤م)، تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق : رودولف فسلي، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، د.ت. نشر الكتاب في مجلد واحد. وسيشار له: ابن ناظر الجيش؛ وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٣٣.

(٦) القلشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ٣٢ – ٣٣ والرواية في المتن ص ٣٣.

أما الكتاب الثالث فهو صبح الأعشى. وعنه قال مؤلفه القلقشندي: شرعت في تأليفه "مستوعباً من المصطلح ما اشتمل عليه التعريف والتثقيف. لما أبهماه بتبيين الأمثلة مع قُرب المأخذ وحسن التأليف متبرعاً بأمور زائدة على المصطلح الشريف لا يسع الكاتب جهلها... ناقلاً الناظر في هذا المصنف عن رتبة أن يسأل فلا يجابَ إلى رُتبة أن يُسْأَلَ فيجيب"[1].

ثالثاً: أنواع الرسائل الديوانية

اشتملت المصادر المملوكية على نصوص متعددة لرسائل رسمية صدرت عن ديوان الإنشاء ارتبط إصدارها بأهداف ومناسبات محددة، وقد وردت هذه الرسائل تحت عناوين من أهمها عنوان: "مقاصد المكاتبات" وقد احتل كتاب صبح الأعشى للقلقشندي المرتبة الأولى في هذا المجال[2]، كما وردت الرسائل ضمن شرح المصادر للأحداث السياسية والإجراءات الإدارية في الدولة المملوكية.

وارتكز عرض أنواع الرسائل الديوانية على تحديد مسمياتها، والغرض من إرسالها[3]، والسمات العامة لها ثم الإشارة إلى ما قد تتضمنه هذه الرسائل من نصوص رسمية ملحقة بها، وفيما يلي أنواع الرسائل:

أ. الرسائل السلطانية:

وهي الرسائل التي كانت ترسل على لسان السلطان المملوكي إلى غيره من الملوك والسلاطين[4] في أمر ذي بال مبادأة بها أو رداً على مثلها"[5]. وهي في نوعين:

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٣٥.

(٢) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى المقالة الرابعة (الفصل السابع من الباب الثاني)، ج٨، ص ٢٣٦-٣٩٢.

(٣) اعتمدت الدراسة في هذا الموضوع على تصنيف محمود رزق سليم لأنواع الرسائل. المزيد انظر: سليم، عصر سلاطين الملوك، مج ٥، ج٣، ق١، ص ١١٢-١٥٥.

(٤) الرسائل السلطانية: صنفها محمود رزق سليم تحت عنوان: "الرسائل الملوكية". انظر: سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص ١١٣، رغم ورود عنوان "الرسائل المملوكية" عند القلقشندي ضمن إطار مغاير تماما حيث صنفها ضمن الكتابة التي ليس لها تعلق بكتابة الدواوين السلطانية وأقسامها عند القلقشندي: رسائل الغزو ووسائل الصيد. انظر:

(٥) سليم، عصر سلاطين المماليك، مج ٥، ج٣، ق١، ص ١١٣.

النوع الأول: بغرض عقد هدنة أو إجراء صلح مع أحد حكام الدول أو المناطق التابعة للدولة المملوكية.

النوع الثاني: رسائل فيها بيان لنزعات السلطان، وإيضاح لنواياه تجاه المرسَل إليه وبلاده مثل الرسائل الودية أو رسائل التهديد.

وفيما يلي عرض لهذه الرسائل بنوعيها وهي: المهادنات وما يتصل بها، والرسائل التي تظهر نوايا السلطان تجاه المرسل إليه.

١. المهادنات وما يتصل بها:

المهادنة في اللغة مشتقة من الفعل الثلاثي هَدَنَ[١]، ومن مدلولاتها المصالحة والموادعة، والمسالمة والمقاضاة والمواصفة[٢]، وجميعها على قياس المفاعلة[٣]، ومن مسمياتها عقود المصالحة والهدن[٤]. والمهادنة في الشرع صلح يقع بين ملكين مسلم وكافر أو بين نائبيهما أو بين أحدهما ونائب الآخر[٥] "وتكون إلى أجل معلوم يهادنُ بها أحدهما الأخر على نفسه وعسكره وبلاده ورعاياه

---

(١) هدَنَ يهدن هُدوناً: سَكَنَ. وهَدَنه أي سكنَّه، وهادنه . مُهادَنَةْ: صالحه، والاسم منها الهُدْنَــة. والهدنــة والهدانــه المصالحة بعد الحرب. ابن منظور، إسماعيل بن محمد الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٨٥مج ١٣، مادة هدن.وسيشار له لاحقاً: ابن منظور، لسان العرب.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٤؛ السحماوي، الثغر الباســم، ج٢، ص٩١٧. عبــد اللطيــف، حمــزة، القلقشندي في كتابه صبح الأعشى (عرض وتحليل)، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦١، ص ٢٧٥. وسيشار لــه: عبد اللطيف، القلقشندي.

الموادعة: من الفعل الثلاثي وَدَعَ والموادعة والتوادع: شبه المصالحة والتصالح. والوديع: العهد، انظــر ابــن منظور: لسان العرب، مادة ودع. المواصفة: من الفعل الثلاثي وَصَفَ انظر ابن منظور، لسان العــرب مــادة وصف. ولهذا المصطلح ارتباط بالأساليب الإنشائية في العصر المملوكي كما سيرد لاحقا.

(٣) القلشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٤.

(٤) المصدر نفسه، ج١٤، ص ٣.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٥، وانظر: السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص ٩١٧ ضمن تعريفه خلط مع عقود الصلح.

وما يدخل في دائرته ... أو على شيء يقرر له على ذلك؛ وإما على لا شيء"[1]. ومما تشمله المهادنات وما يتصل بها الموضوعات التالية: الهدنة والمواصفة وعقود الصلح والأمانات وعقود الدفن. وفيما يلي شرح لهذه الموضوعات.

- **الهُدْنة:**

استخدمت هذه التسمية إذا عقدت من جانب واحد، ويكون (الحاكمان) متكافئين، فيتعاقدان: إما على حصن (قلعة)، وإما على مال يعطيه الملكُ المعقودةُ له الهدنةُ إلى عاقدِها[2].

وهذا النوع من المهادنات يكتب وفق صيغتين هما:

الصيغة الأولى: وهي الأكثر شيوعاً وتبدأ بـــ: "هذا ما هادن عليه، وأجّل إليه، مولانا السلطان فلان- خلّد الله سلطانه، وشرّف به زمانه – الملك فلاناً الفلانّي: هادنه حين ترددت إليه رُسُله، وتوالت عليه كتُبه وأمَّله ليمهله ..." [3].

كما ورد في هذا النوع إشارة إلى الطرف المُعَاهَد، ومما جاء فيه: "... وعليه أن لا يكون عيناً للكفار ... ولا يواطئ على مولانا السلطان فلان أعداءه وأولهم التتار"[4]. لذلك اختيرت هذه الصيغة للكتابة إلى متملك (حاكم) سيبس لأنه كان يمالي التتار (المغول)، ويميل إليهم ويساعدهم في حربهم على المسلمين[5].

---

(1) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص٢١١.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٤، وانظر : السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص ٩٢٣.

(3) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص٢١١/ انظر : ابن ناظر الحيشي، تثقيف التعريف، ص ١٨٠-١٨١، القلقشندي، صلح الأعشى، ج١٤، ص ١٩-٢٠، السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص ٩٢٤-٩٢٦.

(4) المصادر نفسها.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٢١، السحماوي، الثغر الباسم ص٩٢٤، هامش (٣).

أما الصيغة الثانية: لكتابة الهدنة، فكانت تفتتح قبل لفظ "هذا " ببعدّيه أي: "وبعد"[1].

- **المواصفة:**

سميت بذلك لأن كاتب الإنشاء كان يصف ما وقع عليه الصلح من الجانبين[2]، حيث جاء في النص: "فهي ما يقرر بين ملكين على تقرير من الجانبين[3]، ويكون التقرير "إما لا على مال، أو على مال"[4].

وكانت المواصفة تكتب وفق ثلاث صيغ هي:

الصيغة الأولى: كانت تبدأ بعد البسملة بـــ: "هذه هدنة استقرت بين السلطان فلان والسلطان فلان. هادن كلٌّ واحد منهما الآخر على الوفاء عليه، وأجَّلَ له أجل (أجلاً) ينتهي إليه، لما اقتضته المصلحة الجامعة، وحسمت به موادُّ الآمال الطامعة، وتأكدت بينهما أسبابها وفتحت بها أبوابها..."[5].

من الأمثلة على هذه الصيغة الهدنة التي عقدها المنصور قلاوون مع متملك (حاكم) سيس ليفون بن هيتوم سنة (٦٨٤هـــ/١٢٨٥م)، وأشرك فيها اثنين من أبنائه هما ولي عهده الصالح

---

[1] انظر نموذج هدنه لأحد كتاب الأندلس في القرن السادس الهجري عند: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٢٨، السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٩٢٩.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٤.

[3] ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ٢١٣.

[4] السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص ٩٢٣ ولم يعتمد تسمية المواصفة، وانظر: ابن ناظر الجيشي، تثقيف التعريف، ص١٨٢ وهو عنده تحديد للمواصفة.

[5] تحت عنوان المواصفات ورد نموذج واحد لصيغة واحده عند ابن فضل الله العمري، التعريف ص ٢١٣. وابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص ١٨٣ وتحت عنوان الهدن الواقعة من الجانبين (أي المواصفات) ورد نموذج الصيغة الأولى عند القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤،ص ٣٢-٣٣والسحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٩٢٩.

علاءالدين علي، والأشرف خليل. ومما جاء فيها: "هذه الهدنة المباركة التي استقرت بين مولانا السلطان الملك المنصور السيد الأجلّ (قلاوون) وبين الملك الجليل ليفون"[1].

أما الصيغة الثانية: فكانت المواصفة تبدأ بـــ "استقرت الهدنة" بين فلان وفلان"، وكان ذكرُ الملك المسلم يقدَّم فيها، وقد اعتُمدت هذه الصيغة فيما كان يعقد بين السلاطين المماليك والحكام الفرنج (الصليبيين) في بلاد الشام[2]، ومثال ذلك المواصفة التي عقدت بين الظاهر بيبرس وبين الاسبتارية "المتغلبين على حصن الأكراد والمرقب وعكا"، في الرابع عشر من رمضان سنة (٦٦٥هــ /١٢٦٦م) [3] والمواصفة التي عقدت بينه وبين ملكة بيروت سنة (٦٦٧هــ/ ١٢٦٨م)[4].

ومن الأمثلة الأخرى على صيغة المواصفة ما جاء في الهدنة التي عقدت بين الظاهر بيبرس وبين الاسبتارية في قلعة اللد بفلسطين سنة (٦٦٩هــ/ ١٢٧٠م) وأشرك فيها ابنه الملك السعيد بركه[5]، وكذلك الهدنة التي عقدها المنصور قلاوون مع حكام الفرنج في عكا وما معها من بلاد الساحل الشامي سنة (٦٨٢هــ/ ١٢٨٣م) وأشرك فيها ابنه وولي عهده الصالح علي[6]، ثم ما عقده

---

(١) ابن عبد الظاهر محي الدين (ت ٦٩٣هــ/١٢٩٢م) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق: مراد كامل ومحمد النجار، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١، ص٩٣-١٠٢. وسيشار له: ابن عبد الظاهر التشريف وقد ورد عنده نص الهدنة كاملا يسبقه نص اليمين الذي حلفه ليفون.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ويذكر بدل السلاطين ملوك الديار المصرية.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ص ٣٤-٤٣، حمادة، محمد، ماهر، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي (٤٨٩-١٢٠٦هــ/ ١٠٩٦ - ١٤٠٤م) (دراسة نصوص)، ط ٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦، ص ٢٦١-٢٧٠ وهو مأخوذ.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص٤٣-٤٦، حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، ص ٢٧٦-٢٧٩ وهو مأخوذ عن صبح الأعشى.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤،ص ٤٧-٥٦، حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، ص ٢٨٣-٢٩١ وهو مأخوذ عن صبح الأعشى.

(٦) انظر الخبر ونص الهدنة بشكل شبه متطابق عند: ابن عبد الظاهر، التشريف، ص٣٤-٤٣ (النص الأصلي للمخطوطة) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص٥٦-٧٥، ابن الفرات، التاريخ، مج ٧، ص، ص٢٦٢ ومعه نص اليمين، المقريزي، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هــ/ م)، السلوك لمعرفة دولا لملوك، حققه واعتنى بنشره، محمد نصطفى زيادة، وسعيد عبد الفتاح عاشور، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧٠، ج١، ق٣، ملحق رقم (٨) من ضمن ملاحق الجزء الأول، ص ٩٨٥-٩٩٧، ويشتمل على نص اليمين وهو مأخوذ عن ابن الفرات وأشار إليه: المقريزي، السلوك.

المنصور قلاوون مع ملكة صور سنة (٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥م) وأشرك فيها ابنه الأشرف خليل[١]، وكُتب أيضا وفق هذه الصيغة في الهدنة التي عُقدت بين الأشرف خليل وبين الريد أرغون ملك برشلونة في صفر من سنة (٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م) [٢].

أما الصيغة الثالثة لكتابة المواصفة، فكانت تُفتتح بخطبة مبتدأة بحمد لله، والابتداء "بحمد الله" لم يكن يعتمد في صيغ المهادنات، وإنما كان التحميد يعتمد في كتابةِ أنواعٍ أخرى من الرسائل كالعهود[٣].

- **عقود الصلح:**

وهي الرسائل التي كانت تكتب توثيقاً لصلح تم بين طرفين مسلمين، وقد اُعْتمِدَ هذا المسمى للتمييز بينها وبين المهادنات[٤]. كما اُعْتُمِدَتْ أسسٌ لكتابتها بيّنها القلقشندي بقوله: "فليعلم أن الذي ينبغي أن يكتب في الطُّرَّة: "هذا عقدُ صُلْحٍ" ويكمل القلقشندي على ما تقدم في الهدنة، قوله: ولا يُكتب فيه: "هذه هدنة" لما سبق (يسبق) إلى الأذهان من أن المراد من الهدنة ما يجري بين المسلمين والكفار"[٥].

وقد اتسم عرض المصادر للجانب النظري لعقود الصلح بإيراد إطار بسيط ومحدد لتقسيمها، وطرق كتابتها، فقُسمت عقود الصلح إلى قسمين، تبعاً للظروف الموجبة لإجراء الصلح، وهما:

---

(١) انظر: نص الهدنة كاملا عند ابن عبد الظاهر، التشريف، ص ١٠٣-١١٠ (النص الأصلي للمخطوطة).

(٢) ابن عبد الظاهر، التشريف، ص ١٥٦-١٦٤ وقد ورد نص الهدنة كاملا يليه الأيمان التي حلفها كل من المنصور قلاوون والربد أرغون وحول نص الهدنة دون الأيمان أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٧٥-٨٢، السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص ٩٣١ وما بعدها وتجلب الإشارة إلى أن الهدنة بدأت بعبارة " استقرت المودة والمصافة ....." وصنفت هذه المواضيع تبعا لتصنيف القلقشندي.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٨٤.

(٤) حول نماذج من هذا النوع في صدر الإسلام والعصر العباسي، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٩٧-١١٥، السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٩٣٩-٩٤٢.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٩٧.

- **القسم الأول:** ما يكون من الجانبين، وكان العقد يبدأ بلفظ "هذا"[(١)]، "هذا كتاب لفلان"[(٢)].
- **القسم الثاني:** هو ما كان العقد من جانب واحد، وكان يفتتح بلفظ "هذا"[(٣)] أو بخطبةٍ مُفتَتَحةٍ بحمد الله، وربما كُرِّر التحميد إعلاماً بعظيم موقع النعمة[(٤)]، وهناك مثال نادر على هذا النوع من العصر المملوكي الثاني، وهو الصلح الذي عقد بين الناصر فرج بن برقوق وبين تيمورلنك[(٥)].

أما عرض المصادر لنصوص عقود الصلح فكان يتسم بعدم الوضوح؛ فالمصالحة بين السلاطين المماليك وبين أطراف أو أفراد تُعدُّ حدثاً سياسياً هاماً قد يسبقه مراسلات رسمية موثقة أو قد يتم خلاله إعطاء الأمان أو حلف اليمين، لذلك اشتهر الصلح بأركانه الثلاثة وهي: المراسلات، والأيمان، واليمين، وقد تكتفي المصادر بإيراد نص رسمي لأحد الأركان للإشارة إلى عقد الصلح، فالصلح بين المغول والمماليك والذي تم سنة (٦٨١هـ/١٢٨١م) اشتهر من خلال الرسائل، حيث أرسل أحمد تكودار بن هولاكو رسالة إلى المنصور قلاوون يخبره بأنه اعتنق الإسلام ويطلب عقد الصلح. فرد قلاوون على هذه الرسالة بتهنئة تكودار والموافقة على الصلح[(٦)].

وتناولت المصادر ظروف الصلح بين المنصور قلاوون وسنقر الأشقر بطريقة مشابهة فقد تولى سنقر الأشقر نيابة الشام سنة (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م) في فترة حكم العادل سلامش بن الظاهر بيبرس في حين كان قلاوون أتابك العسكر، وعندما خلع قلاوون سلامش وتولى الحكم، ثار سنقر

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ص٩٧.

(٢) السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٩٤٢.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص١١٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص١١٣، السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٩٤٢.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص١١٥-١٢٠، السحماوي، الثغر الباسم، ح٢، ص٩٤٢-٩٤٧.

(٦) حول نص الرسالتين وما معها من مشافهه انظر : العسقلاني شافع بن علي الكاتب (ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م) الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، (صيدا، بيروت) ١٩٩٨، ص ٩٣-١١٤، وسيشار له: العسقلاني، الفضل المأثور.

الأشقر بدمشق، وأعلن نفسه سلطاناً، وتلقب بالملك الكامل وقد تمكن قلاوون من خلال تجريده عسكرياً من هزيمته في دمشق سنة (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م) فخرج منها إلى الرحبة ثم صهيون وسيطر على مدن هامة في الشام(١).

وعند قيام قلاوون بإرسال تجريدة عسكرية لقتاله أرسل يطلب الصلح(٢) فوافق قلاوون عليه ليتفرغ لمواجهة المغول(٣).

وتناولت المصادر أيضا خبر الصلح الذي عقده المنصور قلاوون مع المسعود خضر بن الظاهر بيبرس سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م) (٤) وتميز هذا الصلح عن غيره بأن نصَّه ورد كاملاً، ووثقه العسقلاني في الفضل المأثور، وقدم له بالقول: "وتحررت هذه الموادعة بخطي"(٥).

---

(١) بيبرس الدوادار، ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري، (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، التحفة الملكوية في الدولة التركية، نشره وقدم له ووضع فهارسه، عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٩٢-٩٨، وسيشار له: بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، العسقلاني، الفضل المأثورة، ص٦٠-٦٥، ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر، (ت ١٣٤٨/٧٤٩م)، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦،ج٢، ص ٢٢٠-٢٢١. وسيشار إليه: ابن الوردي، التاريخ.

(٢) بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص٩٨، ابن عبد الظاهر، التشريف، ص١٤٩، المقريزي، السلوك ج١، ق٣، ص٦٨٧.

(٣) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢،ص٢٢١،حول تحركات المغول واستعدادات قلاوون لمواجهتهم، انظر: العسقلاني، الفضل المأثور ص ٦٥-٦٦، وحول انتصار قلاوون عليهم. انظر: أبو الفداء، الملك المريد عماد الدين إسماعيل بن علي(ت ٧٣٢هـ/ م)، تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر، عبق عليه ووضع حواشيه: محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢، ص٣٤٧، وسيثار له : أبو الفداء، المختصر.

(٤) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/ م) نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: علي بو ملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م، ج٣١، ص٢٧-٢٨، وسيشار له لاحقاً: النويري، نهاية الأرب. ابن الفرات، التاريخ، مج ٧، ص ٢١٠.

(٥) انظر الخبر ونص الصلح العسقلاني، الفضل المأثور، ص ١٣٦-١٣٧.

- **المفاسخات:**

وهي رسائل ديوانية تكتب في فض المهادنات وعقود الصلح وبيان أسباب ذلك[(1)] وشأنها شأن المهادنات اعتمد كتابُ الإنشاء عند صياغتها على الظروف المؤدية إلى الفسخ، فقسموها إلى نوعين هما:

النوع الأول: الفسخ: وهو ما وقع من أحد الجانبين دون الآخر، وفيه نقض عهد حصلت المواثقة عليه[(2)]. وأشار عدد من مؤرخي العصر المملوكي إلى ندرة حالات الفسخ الموثقة والمدونة، حيث ورد عن ابن فضل الله العمري وآخرين قولهم: "وقلَّ أن يكون في هذا إلا ما يبعث على ألسنة الرسل"[(3)]، ومن الأمثلة على ذلك قرار الظاهر بيبرس فسخ الهدنة المعقودة مع متملك (حاكم) سيس؛ فقد عقدت في سنة ٦٦هـ/ ٦٨٥م. وفي سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م تأكد للظاهر بيبرس مخالفة متملك (حاكم) سيس لعدد من شروطها، فذكر لرسوله "سوء اعتماده وأرسل إليه يُعَرِّفُه أنه عزم على قصد سيس"[(4)].

وقد أظهرت إحدى الروايات كيفية الوصول إلى مأخذ قانوني على الطرف الآخر (المهادَن)؛ ففي عهد المنصور قلاوون نُظِّمت العلاقات بين الدولة المملوكية وبين الفرنج المحتلين

---

(1) القلقشندي ، صبح الأعشى، ج١٤، ص ١٢١، سليم ، عصر سلاطين المماليك، ص ١٢٣.

(2) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص٢١٥، ابن ناظر الحيثين تثقيف التعريف ، ص ١٨٤، القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ١٢١.

(3) ابن فضل الله العمري، التعريف ص٢١٥، ابن ناظر الحيثي، تثقيف التعريف ، ص١٨٤، السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٩٤٨.

(4) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص ٣٣٧. اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت ٧٥٩هـ /١٣٥٨م)، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق ودراسة: أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٦، ص٤٠٨-٤٠٩. وسيشار له: اليوسفي، نزهة الناظر وتجدر الإشارة إلى أن المنصور قلاوون تجهز في هذه الأثناء لتحرير عكا إلا انه توفي قبل ذلك في يوم السبت ٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م. العسقلاني، الفضل المأثور ، ص١٧٥.

لعكا على أساس الهدنة المعقودة سنة (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م). وفي سنة (٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م) قام الفرنج بقتل جماعة من التجار المسلمين في مدينة عكا[١]، مما دفع المنصور قلاوون إلى الاجتماع بصاحب ديوان الإنشاء فتح الدين بن عبد الظاهر، ووالده الذي كان قد تمرّس من قبله بالعمل في الديوان، بالإضافة إلى العسقلاني أحد موظفي الديوان، وذلك لمراجعة الهدنة المذكورة، فذكر العسقلاني بأنه وجد النص الذي يدين الفرنج، وهو أن "التجار والسفار والمترددين آمنون مخفرون من الجهتين في حال سفرهم وإقامتهم وصدورهم وورودهم"[٢].

وبهذا كان للفسخ أسباب ودوافع، وفي الحادثة المذكورة بَيْنَ قلاوون لمتملك (حاكم) سيس عن طريق رسوله "سوء اعتماده وأرسل إليه يعرّفه أنه عزم على قصد سيس"[٣].

كانت الأسباب هي الأساس في رسالة الفسخ حيث تضمنت "موجب الفسخ الصادر عن المفسوخ عليه: من ظهور ما يوجب نقض العهد، ونكث العقد، وإقامة الحجة على المفسوخ عليه من كل وجه"[٤].

وكانت الصيغة المتبعة في كتابة الفسخ كالتالي: "هذا ما استخار الله تعالى فيه فلان، استخارة تَبَيَّن له فيها غدر الغادر وأظهر له بها سر الباطن ..." [٥]، وقد تحدث ابن فضل الله العمري عن

---

(١) العسقلاني، الفضل المأثور، ص١٧٣، ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، (ت ٨٠٧هـ/٦٩٩م) تاريخ ابن الفرات، حققه وضبط نصه: قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، مج٨، ص٩٣. وسيشار لـه: ابـن الفرات، التاريخ. وقد وصف ابن الفرات هذه الحادثة بأنها من أكبر الأسباب التي أوجبت فتح عكا وكرر القول في ص ٩٦-٩٧ من نفس المجلد.

(٢) العسقلاني، الفضل المأثور، ص١٧٣-١٧٤. وقد تبع هذا الإجراء تحري المنصور قلاوون من نواب الشام عن الحادثة ، ثم اتخذ القرار بفسخ الهدنة.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج٣، ص٣٣٧

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص١٢١، السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٩٤٩.

(٥) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ٢١٥، ابن ناظر الحيثي، تثقيف التعريف، ص١٨٤، القلقـشندي، صـبح الأعشى، ج ١٤، ص ١٢٢،السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص ١٨٤، عبد اللطيف، القلقشندي، ص٢٧٩.

رسالة من هذا النوع أنشأها عمه كاتب الإنشاء شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب المتوفى سنة (٧١٧هـ/ ١٣١٧م) بغرض الفسخ مع متملك (حاكم) سيس[١].

النوع الثاني: المفاسخة: وهي ما كان يقع من كلا الجانبين، والصيغة المتبعة في كتابتها: "هذا ما اختاره فلان وفلان من فسخ ما كان بينهما من المهادنة التي هي آخر مدة كذا: اختارا فسخ بنائها، ونسخ أنبائها، ونقض ما أبرم من عقودها وأُكد من عهودها...." [٢].

- الأمانات:

وهي رسائل يتم إصدارها بغرض إعطاء الأمان للمسلمين ولغير المسلمين (أهل الكفر) وقد وصفت[*] بأنها " أقوى أمور الصلح"[٣] "وبأنها" أقواها دلالة على اشتداد السلطان، إذ كان يؤمّن الخائفَ أمناً لا عِوَضَ عنه في عاجل ولا آجل"[٤].

ويرد عن القلقشندي قوله أن كتب الأمان للمسلين فرع ألحقه الكتّاب بالأمان لأهل الكفر فالمسلم آمن شرعاً ولكن "جرت عادة الملوك بكتابة الأمان لكل من خاف سطوتهم، لا سيما من خرج عن الطاعة وخيف استشراء الفساد باستمرار خروجه عن الطاعة خوفاً. حتى صار ذلك هو أغلب ما يكتب من دواوين الإنشاء"[٥].

---

(١) ابن فضل الله العمري، ص٢١٥، ابن ناظر الحيثي، تثقيف التعريف، ص١٨٥، القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ١٣٩، السحماوي، الثغر الباسم، ص٩٤٨.

(٢) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص٢١٦، ابن ناظر الحيثي، تثقيف التعريف، ص١٨٥، القلقشندي، صبح الأعشى ، ج١٤، ص٣، السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٩٤٩.

(*) هذه سمة الأمان لأهل الكفر لأنهم الأصل في إعطاء الأمان كما هو موضح في الفقرتين الأولى والثانية.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ح ١٣ـ ص ٣٢١، السمحاوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٣٢١.

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص٢٠٨، القلقشندي، صبح الأعشى، ح١٣، ص٣٢١.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ح١٣، ص٣٢٨، وانظر في نفس المعنى السمحاوي، الثغر الباسم، ج٢،ص ٩٠٥.

ويقسم الأمان إلى نوعين[1]:

أمان عام: وهو الذي يعقد للعدد الذي يصعب حصرُه، كأهلِ بلدٍ أو أهلِ ناحيةٍ أو إقليمٍ، ولا يصح عقدُ الأمان فيه إلا من "الإمام أو نائبه"، كما في الهدنة.

أمان خاص: وهو الذي يُعقد للواحد أو العدد المحصور، ويصح من كل مسلم مكلّف، وإن لم تكن له أهلية القتال، باستثناء المجنون والصبي.

وقد اشتملت المصادر –وعلى الأخص كتب الدساتير– على أسس نظرية توضح لكتّاب الإنشاء كيفية صياغة كتب الأمان واللوازم الإنشائية والخطية المتعارف عليها، فميزت بين صنفين من كتب الأمان: الأول: ما يكتب من الأبواب السلطانية: أي على لسان السلطان المملوكي في القاهرة وعنوانه: "أمان شريف" ومما يرد فيه: "هذا أمان الله تعالى وأمان نبيه محمد نبي الرحمة ﷺ وأماننا الشريف لفلان بن فلان"[2]. أما الصنف الثاني فهو ما يكتب عن نواب الممالك الشامية ويزاد على الصيغة المذكورة " وأمان مولانا السلطان" أما عنوانه فهو: " أمان كريم"[3].

ومن مظاهر تحري كتاب الإنشاء الدقة في كتابة هذا النوع من الرسائل إخفاء اسم أو صفة من يُكتب له الأمان "لخوف استشراء شرِّه وما يُخالِفُ ذلك"[4].

وبالانتقال إلى ما اشتملت عليه المصادر ومن مادة تاريخية حول إصدار كتب أمان من قبل السلاطين يلاحظ ارتباط الأمان بقيام السلطان بحلف يمين[*] لتأكيد التزامه الشرعي بالأمان، كما

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ح٣، ص ٣٢٢، عبد اللطيف، القلقشندي، ص ٢٦٧ وقد استبدل منصبي الإمام ونائبه بالسلطان ونائب السلطان.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ح ١٣، ص ٣٤١–٣٤٢. وقد ورد النص في المتن دون تقسيم أصناف الرسائل عند ابن فضل الله العمري. التعريف، ص٢٠٨ وابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص ١٧٦–١٧٧.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ح١٤، ص ٣٤٩.

(4) المصدر نفسه، ج١٤، ص ٣٤٢.

(*) لليمين حيز خاص ضمن شرح النصوص الملحقة بالرسائل الديوانية.

يلاحظ أن الحفاظ على هيبة الدولة وسعي السلاطين إلى تثبيت حكمهم وكذلك سعيهم للحفاظ على المكاسب السياسية والعسكرية كان من الأسباب الرئيسية لإعطاء الأمان. ومن الأمثلة على ذلك الأمان الذي منحه الناصر محمد بن قلاوون لملك الصرب فراكس وزوجته ومَن معهما من الأتباع، حين طلبوا تمكينهم من زيارة القدس الشريف(١). ومنها أيضاً الأمان الذي مُنِحَ لأسد الدين رميثه أمير مكة المكرمة من قبل الناصر محمد سنة (٧٣١هـ/١٣٣١م) وقد عنون باسمه -رميثه- وبدأ بعبارة: "هذا أمان الله سبحانه وتعالى وأمان رسوله سيدنا محمد ﷺ وأماننا الشريف ..." وأُعطي رميثه تعليمات للحضور إلى السنجق (الحامية العسكرية المملوكية في مكة المكرمة) وختم بالقول: "... ونحن قد أمنّاك فلا تخف، ورعينا لك الطاعة والشرف عفا الله عما سلف ..." (٢).

وقد أثنى القلقشندي على صيغة هذا الكتاب فقال عنه: "هذا الأمان إنشاء مبتكر مطابق للواقع وهكذا يجب أن يكون كل أمان يكتب"(٣).

وقد ارتكز بعض السلاطين المماليك على الأمان في التعامل مع خصومهم، فقد استعاد المنصور قلاوون السيطرة على مدينة الكرك سنة (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) وأنهى وجود ذرية الظاهر بيبرس فيها حيث حاصرت قواته – قلاوون- بقيادة حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة ابني الظاهر بيبرس المسعود خضر وسلامش وأمنهما طرنطاي على أنفسهما، ولكنهما طلبا أمان قلاوون

---

(١) انظر الخبر ونص الأمان عند : القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٢٦- ٣٢٧، حمادة، محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي (٦٥٦-٩٢٢هـ/١٢٥٨-١٥١٦م) "دراسة ونصوص"، مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٩٨٠م، ص ٨٦، ٥١٠- ٥١١. وسيشار له: حمادة، الوثائق السياسية والإدارية.

(٢) انظر نص الأمان عند: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٤٤- ٣٤٥، السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص ٩٠٩- ٩١٠. وهو يرجح أن الناصر محمد كان خارج القاهرة وإلا لكان استدعاء رميثه إلى الأبواب الشريفة ويوافقه "محقق" الكتاب هذا الرأي مع ترجيحه بأن الحادثة كانت في ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م استدعى وهي السنة التي حج فيها الناصر محمد حجته الثالثة.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٤٥.

نائب السلطنة: أنظر تعريف وشرح للوظيفة في الفصل الثالث من هذه الدراسة.

وخاتمه أو ما عُرِفَ بـ "خاتم الأمان"، فندب قلاوون لهذه المهمة الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار.

وقد روى المؤرخ المذكور الحادثة، ومما قاله فيها: "فوصلت إليها وأعدت رسالته عليهما"[1] وقد أورد المؤرخ العسقلاني في كتابه الفصل المأثور ما جاء في كتاب الأمان[2].

وفي حادثة أخرى استعاد المنصور قلاوون مدينة صهيون بالأمان الذي أعطاه لسنقر الأشقر سنة (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) ودخلت قوات قلاوون المدينة بقيادة نائب السلطنة حسام الدين طرنطاي بعد أن كانت أهم معاقل سنقر الأشقر في الشام حين خرج عن طاعة المنصور قلاوون[3].

وفَعّلَ السلاطين المماليك خيارَ الأمان تجاه الفرنجة (الصليبيين) وتكررت حالات منح الأمان لهم في المدن الشامية أثناء حصار هذه المدن أو بعيد فتحها، ومن الأمثلة على ذلك أمان الظاهر بيبرس لسكان مدينة أنطاكية من الفرنجة، فقد دخلت قواته المدينة في رمضان سنة (٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م) فتحصن في قلعة المدينة ثمانية آلاف مقاتل غير النساء والأطفال ما لبثوا أن طلبوا الأمان من القتل وأن يُؤخذوا أسرى، فوافق الظاهر بيبرس على طلبهم[4]. وفي حادثة مشابهة أعطى

---

(١) بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص ١١٥، وانظر لنفس المؤلف : مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، تحقيق: عبد اللطيف صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٨٥، وسيشار له : بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، العسقلاني، الفضل المأثور، ص ١٣٩، النويري، نهاية الأرب، ج٣، ص ٧٨، ابن الفرات، التاريخ، ج٨، ص ٣٦.

(٢) العسقلاني، الفضل المأثور، ص ١٣٩.

(٣) ابن عبد الظاهر، التشريف، ص ١٤٨-١٥٠، بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ٨٦ والتحفة الملوكية، ص١١٨، أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٣٥٧، ابن الوردي، التاريخ، ج٢، ص ٢٢٧، العيني، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق : محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، ج٢، ص ٣٥٩، ٣٦١، وسيشار له : العيني، عقد الجمان.

(٤) ابن عبد الظاهر، محي الدين (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، د. ن، الرياض، ١٩٧٦، ص ٣٠٨- ٣٠٩. وسيشار له: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر.

الظاهر بيبرس الأمان للفرنجة في حصن الأكراد، وذلك في شعبان من سنة (٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م)[١]، كما أعطى المنصور قلاوون الأمان لسكان المرقب من الفرنجة، حيث تحصنوا بقلعتها في ربيع الأول من سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٥٨م)[٢]. وأعطى الاشرف خليل الأمان لأهالي قلعة الروم حين فتحها في جمادى الآخرة من سنة (٦٩١هـ/١٢٩٢م)، حيث طلبوا الأمان فأمنهم على أرواحهم خاصة وأن يكونوا أسرى، فأُخذوا وعلى رأسهم بطريرك الأرمن[٣].

وكتب السلاطين المماليك الأمان لأهالي بعض المدن التي شهدت مواجهات مع المغول، مثل كتاب الأمان الذي أعطاه الظاهر بيبريس إلى أهالي قيسارية الروم عام (٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م)، وتشير هذه الحادثة إلى دلالات الأمان وانعكاساته؛ فقد جَرَدَ الظاهرُ بيبرس سنقرَ الأشقر لإدراك المنهزمين من المغول وكتب إلى أهل المدينة المذكورة "بالأمان وإخراج الأسواق والتعامل بالدراهم الظاهرية"[٤]. ما كان يعد مظهراً لخروجها عن سيطرة سلاجقة الروم.

---

(١) اليونيني، قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة العارف العثمانية، حيدر أباد الركن، (الهند)، ١٩٥٥، ج٢، ص ٤٤٥، وسيشار له : اليونيني، ذيل مرآة الزمان وفي هذا المصدر تداخل في أحداث السنوات بين جزء (١) وجزء (٢) المطبوع سنة ١٩٥٤، (ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، ج٢٠، ص ٤٠٠، العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ٧١، وانظر الخبر دون تفاصيل موافقة الظاهر بيبرس عند ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٧٦، بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص٤٥.

(٢) ابن عبد الظاهر، التشريف، ص ٧٩- ٨٠، بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ٨٤، والتحفة الملوكية، ص ١١٣، ابن الفرات، التاريخ، مج٨، ص ١٧- ١٨، العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ٣٣٩، ابن تعزي بدوي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٦٨.

(٣) ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق : محمد أمين، مراجعة : سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م، ج١، ص ١٤٩، وسيشار له : ابن حبيب، تذكرة النبيه الاشرف خليل اسم قلعة الروم وسماها قلعة المسلمين، انظر : ابن الفرات، التاريخ، ج٨، ص ٣٧١، أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٣٦٢. وعند بيبرس، الدوادار، ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠١م. ص ٣٠٥. وسيشار له: بيبرس، الدوادار وسماها قلعة المسلمين الأشرفية.

(٤) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٧م، ج١، ق٢، ص ٦٢٩- ٦٣٠، وسيشار له: المقريزي، السلوك.

وكان السلاطين المماليك –وبسبب إدراكهم للآثار الإيجابية للأمان– قد تجاوزوا عن بعض المخالفات النظرية، فلم يعترضوا على مخالفة الأسس المتبعة في إعداد الأمانات. ومن أوضح الأمثلة على ذلك اثنين من كتب الأمان التي مُنحت للملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر صاحب اليمن، كان الأول سنة (٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م)، حين أرسل الملك المظفر يطلب أماناً من الظاهر بيبرس وأن يكتب له على قميص ملابس "السلطان" الظاهر بيبرس، فأُجيب طلبه وأرسل إليه الظاهر بيبرس "قميص الأمان"، وجوشن (درع) وغيره من آلات الحرب ومشافهة* نصها: "قد سيرنا إليك آلة السلم والحرب مما لاصق جسدنا في مواطن الجهاد"[١].

أما الأمان الثاني فقد مُنِحَ له سنة (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)[٢] حيث أُرسل مشافهة مع رسله إلى المنصور قلاوون يطلب فيها أن يرسل له قميص أمان وطلب أن يُكتب عليه: "بسم الله الرحمن الرحيم: هذا أمان الله سبحانه وتعالى وأمان سيدنا محمد ﷺ وأماننا لأخينا السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر صاحب اليمن المحروس، إنا داعون له ولأولاده مسالمون من سالمهم، معادون من عاداهم" وحَمَّلَ الرسلَ صيغةَ الأمانِ وطلبَه أن يشمل أبناءَه معه بأن يكتب في صدره صورةَ أمانٍ له ولأولاده[٣] وأن يكتب المنصور قلاوون وولدُه الملكُ الصالح علاء الدين علي

---

* المشافهة : الرسالة الشفهية وتشتمل على عبارات هامة يحملها الرسل إلى الحكام.

(١) انظر الرواية دون نص الأمان عند : ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٩٠، المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٥٦٣- ٥٦٤.

(٢) انظر نص الأمان عند : بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ٢١٩- ٢٢٠، المقريزي، السلوك، ج١، ق ٣، ص ٧٠٢، هامش ٦، وتتمة الهامش ص ٧٠٣، النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص ٨١، هامش ١، حمادة، الوثائق السياسية، ص ٤٠٢- ٤٠٣، وانظر النص مختصراً عند : ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٢٢٢، وانظر الخبر دون النص عند : ابن عبد الظاهر، التشريف، ص ٤٩ (شرح المحقق).

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٤٩، وانظر : ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ٢٠٩، هامش ١، وهو شرح لرأي القلقشندي.

خطَّهما عليه. وقد استجاب قلاوون لهذا الطلب وأعلم الرسل أن هذا "لم تجر به عادة" وإنما أجابهم إلى ذلك إكراماً لمخدومهم وموافقة لغرضه واقتراحه[1] وقد وُصِفَ هذا الأمان بأنه من غرائب الأمانات[2].

- عقود أهل الذمة

وهي رسائل تكتب لأهل الذمة على أساس العقد الذي أعطي أصلاً منذ تأسيس الدولة الإسلامية وخلال مراحل اتساعها*. فالعقد الأصلي هو الأساس وله أهمية كبيرة فهو يأتي بالمرتبة الثانية بعد عقود الأمان وله شروط شرعية وأدبية ينبغي على كتاب الإنشاء مراعاتها[3]. لذا جاء تصنيف عقود أهل الذمة في هذا الموضع من الدراسة نظراً لأهميتها.

وقد تم إصدار رسائل ديوانية اعتماداً على العقد الأصلي ارتبط إصدارها بمتغيرات في نمط معيشة أهل الذمة داخل المجتمع المملوكي وشرحها القلقشندي تحت عنوان: "ما يكتب في متعلقات أهل الذمة عند خروجهم عن لوازم عقد الذمة"[4]. وفي هذا الحالة تندرج الرسائل المرتبطة بالمتغيرات ضمن نوع ثانٍ أو آخر وهو "المراسيم" وموضعه في مكان لاحق من هذه الدراسة.

- عقود الدفن:

وهي نوع ثانوي من الرسائل صنفت في المصادر إلى جانب المهادنات والأمانات، أو أُلحقت بالأمانات، كما في إحدى الدراسات الحديثة. والمراد بالدفن: "دَفن ذُنُوب مَن يُكتب له حتى لم تُرَ

---

[1] ابن الفرات، التاريخ، ج٧، ص ٢٢٨، وانظر : ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ٢٠٩، هامش (١).

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٤٩.

[3] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٥٥- ٣٦٤. وقد شرحها في المقالة التاسعة (الفصل الأول من الباب الثالث)، وانظر : السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص ٩١٤- ٩١٦، عبد اللطيف، القلقشندي، ص ٢٧١.

[4] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٦٥، ٣٧٧- ٣٨٧، وقد شرحها في المقالة التاسعة (الفصل الثاني من الباب الثالث)، وانظر : السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص ٩٦٦، حيث تحدث عنها بشكل مختصر.

بعد" وأصله أن العرب (البدو) إذا جنى أحدٌ منهم جناية وأراد المَجْنّي عليه العفو عما وقع يجـــري تمثل مشهد الدفن، حيث يحضر أكابر القبيلة ويطلبون من المجني عليه أن يدفن ذنوب المذنب فـــي حفرة حتى يطمئن خاطره[١].

وقد احتوت المصادر على نص خاص بدفن الذنوب وصيغته بعد البسملة: "هذا دفن لـــذنوب فلان ... كما يرد فيه، ورسم بالأمر الشريف العالي إن يُكتب له هذا الكتاب بما عُفيَ له عنه وحُفِر له ودُفِن، وأصبح بعمله غيرَ مُرتَهن، ودُفِن له فيه دَفْن العرب[٢].

وقد علّقَ ابن ناظر الجيش على هذا النص الذي أورده ابن فضل الله العمري بأن هذا النـــوع لم يُكتب به وأن ابن فضل الله العمري –لسعَةِ علمه– أراد تجهيز هذه النسخة لاحتمـــال أن يُـــؤمر بكتابة شيء من هذا النوع[٣]. أما القلقشندي فيدحض الرأي السابق لابن ناظر الجيش ويشكك فـــي صحة ما استنتجه، وفي رأيه أنه أفضل أنواع الرسائل التي تُعطى لتأمين العُربان "لأنه إنمـــا أخـــذ عنهم، فإذا صدر إليهم شيء يعرفونه ويجري على قواعدهم التي يألفونها، تلقّوه بالقبول واطمأنّـــت إليه قلوبهم"[٤].

---

(١) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ٢٠٩، ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص ١٧٨، القلقشندي، صـــبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٥١، السحماوي، الثغـــر الباســـم، ج٢، ص ٩١١– ٩١٢، وانظـــر : عبـــد اللطيـــف، القلقشندي، ص ٢٦٩، حيث شرحه ضمن الأمانات، وعنونة ب، "طرق الأمان عند العرب".

(٢) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ٢٠٩– ٢١٠، ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص ١٧٩، القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٥٢، السحماوي، الثغر الباسم، ح٢، ص ٩١٢.

(٣) ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص ١٧٩– ١٨٠، وانظر ما أورده ابن فضل الله العمري فـــي التعريـــف، ص٢١٠– ٢١١.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٥٣– ٣٥٤.

٢. الرسائل التي تظهر نوايا السلطان تجاه المرسل إليه(*):

يندرج تحت هذا النوع ما كان يُرسل على لسان السلطان المملوكي إلى كبار الأمراء أو إلى حكام الأقاليم داخل حدود الدولة المملوكية أو إلى الحكام خارج حدود الدولة، وذلك في مناسبة معينة أو تبعاً لحدث سياسي أو عسكري، بدءاً بالرسالة أو رداً على مثلها. وتتميز بأهميتها من ناحية صلتها الوثيقة بالتعبير عن السياسة العليا للدولة وبيان نزعات السلطان وإيضاح نواياه وخططه تجاه الجهة المرسلة إليها(١).

ومن أهم موضوعات هذا النوع من الرسائل ومناسبات إصدارها:

- رسائل تنازل السلاطين عن الحكم:

كتب بعض السلاطين إقراراً بتنازلهم عن الحكم. وتعد هذه الرسائل وثيقة قانونية كان الطامعون في الحكم يستطيعون الاعتماد عليها واستغلالها في تثبيت حكمهم. ومن السلاطين الذين كتبوا لهذا الغرض الناصر محمد بن قلاوون أثناء فترة حكمه الثانية؛ فنتيجة لتدخل بيبرس الجاشنكير في الحكم خرج الناصر محمد إلى الكرك سنة (٧٠٨هـ/١٣٠٨م) وأقام فيها مدة راسل خلالها الأمراء في القاهرة(٢) إلى أن بعث رسالة أعلن فيها تنازله عن الحكم وذلك يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال من السنة المذكورة(٣).

(*) تم استخلاص موضوعات الرسائل من هذا النوع انسجاماً مع الخطة الموضوعة في هذه الدراسة وذلك من خلال المحطات الهامة في تاريخ السلاطين المماليك أو من خلال تصنيف القلقشندي لمقاصد المكاتبات، انظر صبح الأعشى، ج٨، ص ٢٣٦- ٣٩٢، وقد شرحها في المقالة الرابعة (الفصل الرابع من الباب الثاني).

(١) سليم، عصر سلاطين المماليك، ح٣، ق١، ص ١١٤.

(٢) حول نماذج كتابة رسائل من هذا النوع انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص ٣٠٠-٣٠٤، ١٠٧-٣٠٩.

(٣) ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة ، ج٨، ص١٤٣، حمادة ، الوثائق السياسية، ص١٥٠ – ١٥١ ، سليم ، عصر سلاطين المماليك ، ج٣، ق١، ص ١٢٤.

وقد استغل بيبرس الجاشنكيز هذا الأمر، حيث عَرَضَ الرسالة على القضاة في القاهرة وأثبتوا صحتها ونسبتها إلى الناصر محمد[١]، فبويع الجاشنكير بالسلطنة وخُطب له في القاهرة يوم الجمعة التاسع والعشرين من شوال من نفس الشهر، وكان لزاماً عليه أن يُثبت لنائب السلطنة في الشام جمال الدين أقوش بان الناصر محمد تنازل عن الحكم فأرسل إلى نائب الشام كتاب الناصر محمد. وشهد جماعة من الموقعين[٢] في الشام بأن الكتاب بخط علاء الدين بن الأثير كاتب السلطان وأن الخط الذي أعلاه خط السلطان الناصر محمد"[٣].

- الرسائل الودية:

صدر عن السلاطين المماليك رسائلُ هدفت لتأسيس علاقة جديدة من الود مع حكام المناطق المجاور للدولة المملوكية والبحث بشكل غير مباشر في مواضيع طارئة لا تمس الهدف الأساس في توطيد العلاقة بين الطرفين. ومن الأمثلة على ذلك رسائل السلاطين المماليك إلى حكام المغول والى أباطرة الدولة البيزنطية.

وفي الرسائل الودية إلى المغول رسالة بعث بها السلطان الظاهر بيبرس إلى بركة سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م) هنأه بتولي الحكم وانتهز هذه المناسبة أو الظرف للوقيعة بن بركة (منكوتمر)

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج٢، ق١، ص ٤٦، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، عُني بتحقيقه: إبراهيم صالح، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٤٧٠-٥٧١. وسيشار له: السيوطي، تاريخ الخلفاء.

(٢) الموقعون: فئة من الكتاب عرفوا باسم كتاب الدرج، البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٣٣٥؛ وانظر: دهمان، معجم الألفاظ المملوكية، ص١٤٧؛ وقد شكل كتاب الدرج طبقة رئيسة من كتاب ديوان الإنشا كما سيرد في الفصل الثالث من الرسالة.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج ٣٢، ص١٠٥.

ملك المغول بالبلاد الشمالية وبين أبناء هولاكو[1]. ومن الرسائل الودية للمغول أيضاً رسالتان بعث بهما السلطان المنصور قلاوون بعد توليه الحكم -جرياً على عادة الحكام في ذلك- وقد بعثهما في آن واحد سنة ٦٨٠هـ /١٢٨١م كانت الرسالة الأولى إلى ملك المغول بالبلاد الشرقية وهو قيدو بن قجي بن طلو بن جنكيز خان وفيها يعزيه قلاوون بأعدائه ويحرضه على غزوهم، وكانت الرسالة الثانية إلى بركة، وفيها يخبره قلاوون بتولي السلطنة ويجدد معه المودة، ويحرضه على قتال الكفر والمرتدة"[2].

كما أَتْبَعَ قلاوون هاتين الرسالتين إلى المغول برسالة جوابية كان لها أهمية تاريخية أرسلها قلاوون إلى أحمد تكودار بن هولاكو رداً على رسالة وصلته منه سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م) يخبره فيها بأنه اعتنق الإسلام ويطلب الصلح والاتفاق على ما فيه مصلحة المسلمين. وقد تضمنت رسالة قلاوون التهنئة لتكودار باعتناقه الإسلام والموافقة على طلب الصلح[3].

وتعد المبادأة من طرف تكودار والرد من جانب قلاوون على درجة كبيرة من الأهمية حيث أرسلتا بعد مضي سنة واحدة من هدنة عقدت بين المماليك والمغول سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م) [4].

أما رسائل السلاطين المماليك إلى أباطرة الدولة البيزنطية فمنها رسالة أرسلها السلطان المنصور قلاوون سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م) بعيد توليه السلطنة إلى الإمبراطور ميخائيل بالبولوجس بهدف تأمين مرور الرسل وتجار الرقيق إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأجيب قلاوون إلى

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٨٨. وفي المصدر اسم بركه ونسبه وهو : "متكوتمر بن طغان بن باتواقان بن بشوفان".

(٢) بيبرس الداوادار، زبدة النكرة، ص ٢٢٠ وهامش (٤) و(٥) من الصفحة وفيها يرد لمحة عن انشقاق قيدو عن الخان قبلاي واستقلاله بمنطقة حصن كيوك، واختيار منكوتمر لتولي الحكم.

(٣) العسقلاني، الفضل المأثور، ص٩٣ وفي هامش (٢) من الصفحة تكدار (تكودار) اسم أمه قنوخاتون وهي نصرانية.

(٤) ابن عبد الظاهر، التشريف، ص٥٤ (شرح المحقق).

طلبه وأعاد الإمبراطور الجواب ببذل الوداد والمساعفة على كل ما يراد من توصيل الرسل والقصاد"[1].

- **رسائل التعزية:**

يعد إرسال رسائل التعزية إجراءً عادياً قام به الحكام على مر العصور، إلا أن لكل عصر خصوصية تتمثل في الجهة أو القوى التي اهتم الحكام بحوادث وفاة الطبقة الخاصة فيها وبالتالي إرسال رسائل التعزية إليها.

ويلاحظ أن الجهة الداخلية التي حرص السلاطين المماليك على تقديم العزاء لها تمثلت بالأيوبيين من ملوك حماة.

أما القوى الخارجية التي اهتم السلاطين المماليك بمراسلة حكامها لتقديم العزاء فكان أهمها الدولة البيزنطية؛ فحين توفي الإمبراطور ميخائيل سنة (٦٨٢هـ/١٢٨٣م) وخلفه ابنُه ماندس -الذي تلقب بالدوقس[2] - أرسل المنصور قلاوون إلى ماندس يعزيه بوفاة والده[3]، كما راسل السلاطين المماليك حكام المغول لهذا الغرض، كما ذكر سابقا.

- **رسائل النعي:**

كان نعي المنصور قلاوون لابنه وولي عهده الصالح علاء الدين علي من أشهر هذه الرسائل؛ فعند وفاة الصالح في الرابع من شعبان سنة (٦٨٧هـ/١٢٨٨م) أُنشئت كتب العزاء وأُرسلت إلى نيابة دمشق وبقية نيابات الشام. ومما تضمنه أحد الكتب القول على لسان قلاوون: "وبحمد الله تعالى الذي جزانا بالصبر المثوبةَ الباطنةَ والظاهرةَ وكان من غرضِنا أن نجعلَه ملكاً في

---

[1] بيبرس الداوادار، زبد الفكرة ، ص٢٦٥، ابن الفرات، التاريخ، مج ٨، ص٧.

[2] أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٥١ وعنه ثبت الاسم (ماندس) كما ورد في المتن، وانظر : ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٢٢٤ حيث وردت تسمية الابن: "ماندر وسكوس".

[3] بيبرس الداوادار، التحفة الملوكية، ص ١٠٨.

الدنيا فجعله الله ملكاً في الآخرة"[1]. ومما نصت عليه الكتب ألا يتعرض أحد لقطع شعر ولا إلى تغيير زي ولا إلى لبس حداد"[2].

- رسائل في الحث على لزوم الطاعة:

وجه السلاطين المماليك هذا النوع من الرسائل للخارجين عن الطاعة من النواب يحثونهم على لزوم الطاعة ويحذرونهم من المخالفة والخروج على الجماعة[3]. ومن ذلك رسالة بعث بها المنصور قلاوون إلى سنقر الأشقر -سالف الذكر- بعد أن أعلن العصيان في الشام وقبل أن تتمكن قوات قلاوون من إخراجه من دمشق بين سنتي (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) و (٦٧٩هـ/١٢٨٠م) وجاء في الرسالة: ".... فخلّ عنك ما عللت به شَره نفسك، وتدارك بيوم رجوعك أمسَك. واركب في سرجِك، واسلُك أوضحَ نهجِك، ودع الإسلامَ وشملَه الملتئم، والكلمةَ وتفرّدَها الملتزم، وأغمُدْ سيفَ الفتنةِ من حيث سللت..." [4].

كما وجه السلاطين المماليك هذا النوع من الرسائل لأطراف خارجية ومنها مملكة سيس، حيث أرسل السلطان رسالة إلى متملكها (حاكمها) بعد مُمالأته للمغول ضد المماليك لا تحمل في طياتها التوبيخ بقدر ما تحمل الرغبة في بيان قوة المماليك وانتصارهم على المغول وتذكير حاكم سيس بخطورة الانقياد إلى المغول وترغيبه ببذل الطاعة وإقامة علاقة ودية مع المماليك، حيث ورد في الرسالة: "... فيَستدرك باب الإنابة قبل أن يُغلقَ دونه ... ويبادر إلى الطاعة قبل أن يبْذلها فلا تُقبل..." [5].

---

(١) ابن الفرات، مج٨، ص٧٠، ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م، ج١، ق١، ص٢٥٨-٣٥٩. وسيشار له: ابن إياس، بدائع الزهور.

(٢) ابن الفرات، مج ٨، ص ٧٠، المقريزي ، السلوك ، ج١، ق٣، ص٧٤٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص٢٥٩.

(٤) العسقلاني، الفضل المأثور، ص٦٣.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص٢٦١.

- **رسائل التهكم وتوبيخ العدو المهزوم وتقريعه:**

تُبنى المكاتبة في هذا النوع من الرسائل على ذِكْر هزيمة المهزوم، وتصوير كيفية الانتصار عليه، والاستيلاء على ما بيده، وأسر رجاله وما شابه ذلك، وذِكْر كل ما من شأنه إيــلام خــاطره، ودفعه إلى الانقياد والطاعة[1].

ومن أهم وأشهر الرسائل التي كتبت في هذا الموضوع رسالة الظاهر بيبرس إلى بوهيمنــد أحد الأمراء الصليبيين فقد تولى بوهيمند الحكم في طرابلس وأنطاكية، وكان الظاهر بيبــرس قــد هاجم مدينة طرابلس في شهر شعبان من سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٨م) ثم انتقل بقواتــه نحــو أنطاكيــا فحاصرها وتمكن من تحريرها في شهر رمضان من السنة المذكورة وكان بوهمند موجــوداً فــي أنطاكية ولم يبلغه خبر الفتح إلا من هذه الرسالة[2].

ولهذه الرسالة قيمة تاريخية وأدبية، فهي تعد وثيقة رسمية بتسجيل خبر الفتح، وبنية الظاهر بيبرس معاودة القتال. ومما جاء فيها[3].

العبارات التي تظهر صيغة المخاطبة ومظاهر السخرية: "قد علم القومص الجليــل المُنْتَقِلــة مخاطبته –بأخذ أنطاكية منه– من البولسية إلى القومصية*، ألهمه الله رشده ... ما كان من قــصدِنا طرابلس، وغزونا له في عُقْرِ داره...".

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص٣٠٤.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٦١؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٣١١؛ حمادة، وثائق الحــروب الصليبية، ص٦١، سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص١١٧.

(٣) انظر نص الرسالة عند: بن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٣٠٩-٣١٢؛ النــويريي، نهايــة الأرب، ج٣٠، ص٣٠٧-٣١١؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٩٦٩-٦٦٩ ملاحــق الجــزء الأول ملحــق رقــم (٢)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص٣٠٤-٣٠٧؛ العيني، عقــد الجمــان، ج٢، ص٢٣-٢٨؛ ســليم، عــصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص١١٧-١١٩؛ حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغــولي، ص٢٧٩-٢٨٣.

(*) القومص في اللاتينية Comes وفي العربية الدارجة "الكونت". انظر: عقد الجمان، ج٢، ص٢٧ هــامش (٢)؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص١١٧ هامش (٢).

العبارات التي تظهر التفاصيل الدقيقة للفتح: وترد في العبارات التالية: "كان رحيلنا عنك من طرابلس يوم الأربعاء، ونزولنا أنطاكية في شهر رمضان، وفي حال النزول خرجت عساكرك للمبارزة وتناصروا فما نُصروا... وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان...".

العبارات التي تظهر التهكم والتحذير: ويحتل ذلك الجزء الأكبر من هذه الرسالة، وقد وصفتها بعض المصادر "بالبشرى" وهي ههنا تحكم مرير منه: "ولعل الله إنما أخرك لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات، ولما لم يسلم أحد يخبرك بما جرى خبّرناك، ولما لم يقدِر أحدٌ أن يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشّرناك، لتتحقق الأمر ما جرى".

ومن الرسائل الأخرى في توبيخ العدو المهزوم رسالة بعثها الظاهر بيبرس إلى مقدم الاسبتار صاحب حصن الأكراد بعد أن تسلم الظاهر بيبرس الحصن، وهي رسالة قصيرة نسبياً استهلها بيبرس بالقول: "هذه المكاتبة إلى أفرير أوك، جعله الله ممن لا يعترض على القدر ولا يعاند من سُخِرَ لجيشه النصر والظفر"[1].

ب- المبايعات والعهود

تُعَدُّ المبايعات والعهود من أهم المفاهيم السياسية التي عُرفت في التاريخ الإسلامي، ونظراً للمتغيرات السياسية التي شهدتها الدولة الإسلامية بدءاً بقيام الدول المستقلة عن دولة الخلافة وانتهاءً بقيام الدولة المملوكي تطورت دلالات هذه المفاهيم، ويتضح هذا التطور في المصادر المملوكية بما

---

(١) انظر الخبر ونص الرسالة عند: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٣٧٦؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٧٠-٧١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٣٦ هامش (٣)؛ وانظر الخبر دون النص عند: بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص٧١ وسيسميه "امرير أول"؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٩١ هامش (٣).

تشمله من كتب الدساتير، والتي تبين قدرة كتّاب الإنشاء على الاعتماد على الموروث الإسلامي في تعريف المبايعات والعهود، وفي صياغة الرسائل الديوانية اللازمة لحوادث إعلان البيعة وإصدار العهود، وذلك بما يتناسب مع النظام السياسي القائم في الدولة المملوكية.

ومن هنا وردت المفاهيم واضحة وممنهجة في كتب الدساتير. ورغم ذلك برزت ظاهرة الخلط في استخدام مفاهيم المبايعات والعهود والتقاليد عند مؤرخي هذا العصر، خاصة عند شرح الأحداث التاريخية المرتبطة بها؛ فلم يسمِّ المؤرخون كلّ نوع منها باسمه وسموا أحدهما باسم الآخر(١)؛ فعلى سبيل المثال استخدموا مسمى التقاليد للإشارة إلى المبايعات بالسلطنة(٢) وللإشارة إلى ولاية العهد(٣). ولذلك استخدموا مسمى العهد للإشارة إلى المبايعة(٤)، وهذه ظاهرة لا تشكل عائقاً في تحديد نوع الرسالة أو استخلاص أسس كتابتها.

وقد ورد تعريف المبايعات والعهود خلال العصر المملوكي على النحو التالي:

١. المبايعة:

وهي رسالة ديوانية تكتب للخليفة أو السلطان عند قيامه لأول مرة بأعباء منصبه، إقراراً له به ورضا عنه(٥). وقد قسمت المبايعات خلال العصر المملوكي إلى قسمين:

---

(١) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص١٢٦. وقد استثنى سليم ابن فضل الله العمري من ذلك ولتدقيق الرأي انظر: ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٢٠، ١٢٩.

(٢) انظر على سبيل المثال: المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٩٠، مبايعة المنصور لاجين تحت عنوان تقليد؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٣١٩ وابن الفرات، التاريخ، مج٨، ص١٩٥ مبايعة العادل كتبغا تحت عنوان تقليد؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٥٧١ مبايعة بيبرس الجاشنكير تحت عنوان تقليد.

(٣) ابن عبد الظاهر الروض الزاهر، ص٢٠٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٠١؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص١٩٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٤٢٨.

(٥) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص١٢٥-١٢٦.

- **القسم الأول: بيعات الخلفاء:** وتكون للخليفة من أهل الحل والعقد إن لم يوجد عهد من خليفة قبله[1]، وقد تتبع كتاب الدساتير أسس كتابة مبايعات الخلفاء في العصور الإسلامية. وفي العصر المملوكي[*] لم يستطع الكتاب المواءمة بين صيغتين، هما:

الصيغة الأولى: بكتابة المبايعات للخلفاء تفتتح البيعة بلفظ "هذه بيعة" وتبدأ بوصف البيعة وبيان أهميتها، واسم الخليفة الذي عُقدت له، مع ما تشتمل عليه من الآيات القرآنية الكريمة والتحميد وأهمية منصب الخلافة. وقد كتبت وفق هذه الصيغة مبايعة السلطان المنصور أبو بكر بن الناصر محمد للخليفة الحاكم بأمر الله (الثاني) أبو العباس أحمد بن الخليفة المستكفي[2].

وقد دلت حادثة مبايعة الحاكم بأمر الله بحسب المصادر التي وثقت الحادثة إلى اعتماد هذه الصيغة للمبايعة[*]، رغم ما ذكره بعض المؤرخين أن ابن فضل الله العمري أعدها "تجربةً لخاطره"[3] أو "امتحاناً لخاطره واختباراً لذهنه، ولم يكتب بها"[4]. كما يدل منهج ابن فضل الله العمري في كتابه المبايعات على تمسكه بهذه الصيغة في كتابه مبايعات (عهود) الخلفاء للخلفاء وكذلك مبايعات السلاطين للخلفاء[5].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٢٥١، ٢٨٣؛ السخاوي، الثغر الباسم، ج١، ص٥٦٨.

* حاول بعض كتاب الدساتير تمييز ما كُتِبَ خلال العصر المملوكي باعتباره مذهباً رابعاً لثلاثة مذاهب أساسية عرفت في التاريخ الإسلامي الأول: مبايعات الخلفاء الأمويين ومن بعدهم الخلفاء العباسيين في بغداد، والثاني مبايعات الخلفاء الفاطميين، والثالث مبايعات الخلفاء الأمويين في الأندلس. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٢٨٩-٣٢٨؛ والقلقشندي، أحمد بن يحيى (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، ج٢، ص٢٦١-٢٧٤؛ السخاوي، الثغر الباسم، ص٥٧٠-٥٧١. وانظر بإيجاز: ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٢٠-١٢١؛ ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٣٨-١٣٩.

(2) انظر الخبر ونص البيعة عند: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٢٩-٣٤١ ومآثر الأنافة، ج٢، ص٢٧٤-٢٩٤؛ السيوطي، حسن الحاضرة، ج٢، ص٧٠-٧٩ وتاريخ الخلفاء، ص٥٧٩-٥٨٧. وانظر: حمادة، الوثائق السياسية، ص٩٥-١٠٥، وقد ذكر الحادثة زمن الناصر محمد والأصح كما هو في المتن.

(*) انظر الهامش السابق.

(3) ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٣٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٢٩-٣٣٠.

(4) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص٢٧٤.

(5) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٢٠-١٢١.

أما الصيغة الثانية لكتابة المبايعات (للخلفاء) فهي أن تبدأ البيعة بالتحميد وكتب وفق هذه الصيغة أنموذج بيعة نشأة القلقشندي. ومن اللافت للانتباه أنه في كتابه مآثر الأنافة صنفه كمذهب (طريقة) رابعة لما يكتب للخلفاء من بيعات على طريقة متأخري كتاب الديار المصرية (كتاب الإنشاء) أي على طريقة كتاب العصر المملوكي في كتابة عهود الخلفاء والملوك (السلاطين)[1]. أما في صبح الأعشى فقد ألحق الأنموذج بالطريقة الثالثة التي كتبت بها بيعات خلفاء بني أمية بالأندلس وهو إنما أوردها لمطابقتها لطريقة الكتاب في العصر المملوكي في إعداد مبايعات الخلفاء للملوك (السلاطين) وليس العكس[2].

- **القسم الثاني: بيعات الملوك (السلاطين) لمن تولى منهم بعهد**[3]. أما من قام منهم بغير عهد من خليفة أو ملك (سلطان) متقدم، فلم تجرِ العادة بكتابة مبايعة له[4]*، وقد تناولت كتب الدساتير بالشرح الصيغ المتبعة في كتابة هذا النوع، والتي صنفت وفق صيغتين هما:

الصيغة الأولى (لكتابة مبايعات السلاطين) أن تفتتح بعبارة: "هذا ما عَهِدَ به عبد الله ووليّه فلان أبو فلان، الإمام الفلاني، أمير المؤمنين..."[5]. وتبدأ فقراتها التالية ببَعدية وتحميد أو بعدية

---

(1) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص٢٩٥-٣١٥.

(2) المصدر نفسه، ج٩، ص٣١٨-٣٢٩.

(3) القلشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٤٧؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٥٧٣.

(4) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١١٩؛ ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٣٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٤٧.

(*) خالف المماليك هذه الشروط فقد تولى الظاهر بيبرس بدون عهد رغم ذلك كتبت له مبايعة من الخليفة العباسي المستنصر بالله ثم الخليفة الحاكم بأمر الله.

(5) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٢٠، ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٣٩ ويشمل افتتاح البيعة بـ"هذا" عبارات أخرى منها: "هذا ما أمر به فلان فلاناً" أو: "هذا عهد من فلان لفلان"، أو: هذا كتاب اكتتبه فلان لفلان". انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٦.

وخطبة وطلعها التحميد وشرح لأهمية منصب السلطنة. وقد تجاوز الكتّاب هذه الصيغة في بدايات العصر المملوكي ثم كتب بها شهاب الدين محمود الحلبي مبايعة الخليفة العباسي الحاكم بـأمر الله أبي العباس أحمد للعادل كتبغا ثم للمنصور لاجين كما كتب بها القاضي شمس الدين إبـراهيم بـن القيسراني مبايعة الحاكم بأمر الله للناصر محمد بن قلاوون(١).

أما الصيغة الثانية لكتابة مبايعات السلاطين فهي لا تقل أهمية عن الصيغة الأولى من حيث تفضيل كتّاب الإنشاء لها، وهي أن تستهل بالتحميد ويليه بيان أهمية منصب السلطنة(٢). وقد كتـب وفق هذه الصيغة مبايعة الخليفة العباسي المستنصر بالله (أول الخلفاء العباسيين في القاهرة) للظاهر بيبرس إبان إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، فكانت من إنشاء فخر الدين بن لقمان(٣)، كما كتبت وفق هذه الصيغة مبايعة الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله للمنصور قلاوون وكانت من إنشاء محيي الدين بن عبد الظاهر(٤).

---

(١) انظر الفكرة والنصوص على التوالي عند: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٤٥-٧٤؛ ومآثر الأنافة، ج٣، ص٣٩-٧٦. وانظر النصوص عند: حمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص١٣٥-١٥٠.

(٢) حول لفكرة، انظر: ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٢١؛ ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريـف، ص١٣٩-١٤٠.

(٣) انظر نص البيعة عند: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٠٠-١١٠؛ بيبرس الـدوادار، زبـدة الفكـرة، ص٨٧-٩٠؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٤٤٣-٤٤٩ وج٢، ص٩٨-١٠٣؛ النويري، نهايـة الأرب، ج٣٠، ص٣٠-٣٥؛ القلقشندي، صبح لأعشى، ج١٠، ص١١٥-١٢٠؛ ومآثر الأنافـة، ج٣، ص١٢١-١٢٩؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٥٣-٤٥٧؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص٢٩٨-٣٠٨؛ السيوطي، جـلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمـد أبـو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، (د.م)، ١٩٦٨م، ج٧، ص٥٣-٥٨. وسيشار له: الـسيوطي، حـسن المحاضرة.؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١١٤-١١٩. وانظر جزء من النص عند: ابن تغري بردي، النجـوم الزهرة، ج٧، ص١٠١-١٠٢.

(٤) انظر نص البيعة عند: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٢٠-١٢٢، ومآثر الأنافة، ج٣، ص١٢٩-١٣٧؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص١٠٦-١١٠؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٢٠-١٢٤؛ وانظر: ابن عبد الظاهر، التشريف، ص٢٣٨-٢٤١.

وتجدر الإشارة إلى أن الصيغ المذكورة لم تتبع في حالات تجديد البيعة للسلطان من قبل الخليفة؛ فقد جدد الخليفة المستكفي بالله البيعة لبيبرس الجاشنكير في حدود سنة (٧٠٨هـ/١٣٠٨م)، فكان نصها: "إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله خليفة رسول الله ﷺ أبي الربيع سليمان العباسي لأمراء المسلمين وجيوشه،وإني رضيت لكم بعبد الله تعالى الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير نائباً عني بالديار المصرية والبلاد الشامية..." [١].

٢. العهد:

أحد الرسائل الديوانية التي عرفت خلال العصر المملوكي، وكانت تشمل الرسائل التي تصدر عن الخليفة العباسي أو السلطان المملوكي إلى من اختاره لولاية الخلافة أو السلطنة من بعده[٢]، كما تشمل أيضاً الرسائل التي كانت تصدر عن الخليفة العباسي إلى حكام الدول التي تدين بالولاء والتبعية للخلافة العباسية كالدولة المملوكية وبعض الدول الإسلامية المعاصرة لها، كما تشمل الرسائل التي كانت تصدر عن السلاطين المماليك إلى بعض حكام المناطق التابعة للدولة المملوكية.

ويلاحظ أن تقسيم العهود خلال العصر المملوكي بشكل خاص جاء وفقاً للواقع السياسي وتجلى في الظواهر التالية:

١- الحرص على إبراز أهمية الخلافة العباسية وتعظيم مكانة الخليفة، ولو من الناحية النظرية، رغم تراجع السلطة الفعلية للخلفاء العباسيين وتصاعد السلطة السياسية للسلاطين المماليك.

٢- تأكيد ارتباط التبعية لدولة الخلافة بإجراءات ونصوص رسمية، وهي رسائل العهود.

---

[١] المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٦٥-٦٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢٠٩؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص١١٣؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٥٢-١٥٨.

[٢] سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص١٢٥.

٣- أهمية التمييز بين منصبي السلطنة والمُلك، وهو ما يفرضه الواقع السياسي؛ فالمُلك أخص من السلطنة وهو لا يطلق على الولاية العامة، والسلطنة تطلق على أنواع الولايات[١]، ولا يطلق لقب السلطنة "إلا على من يكون في ولايته ملوك"[٢]. ويأتي التمييز في هذا المقام لأن منصب المَلِكِ وإن استخدم للإشارة إلى السلطان إلا أنه كان أحد الألقاب التي أطلقت على حكام المناطق التابعة للدولة المملوكية (السلطنة المملوكية).

ويمكن القول أن هذه الظواهر شكلت الإطار التاريخي والسياسي الذي قُسِّمت العهود على أساسه، فجاءت في أربعة أقسام هي:

- **القسم الأول من العهود: عهود الخلفاء عن الخلفاء:** وتكتب لمن اختاره الخليفة لتولي الخلافة من بعده[٣]. وقد وثقت كتب الدساتير لصيغتين في الكتابة، هما:

الصيغة الأولى (لكتابة عهود الخلفاء عن الخلفاء): وهي أن يفتتح العهد بعبارة: "هذا ما عَهِدَ به عبد الله ووليّه فلانٌ أبو فلان، الإمام الفلاني أمير المؤمنين، عهد إلى ولده (أو إلى أخيه)..." ثم الإتيان ببعديه، هذا مع إيراد خطبه يُكثَر فيها من التحميدات ليصل عددها إلى سبع تحميدات مع ضرورة وصف المعهود إليه (أي ولي العهد)[٤].

أما الصيغة الثانية لكتابة عهود الخلفاء عن الخلفاء فأساسها التحميد في افتتاح العهد أو في إحدى فقراته والاقتصار على تحميده واحدة والإتيان ببعدية هذا مع الاختصار[٥] في ذكر ألقاب

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٤١٨.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص١٢٥.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٦٤؛ ومآثر الأنافة، ج٢، ص٣١٨؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٥٧٤-٥٧٥.

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٢٠-١٢١، وهامش (١) من ص١٢١؛ وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٧٤-٣٨٩؛ وانظر: السحماوي، الثغر الباسم، ص٥٧٧-٥٧٨.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٤٠٥؛ ومآثر الأنافة، ج٢، ص٣٣٧؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٦٧٨.

المعهود إليه (ولي العهد)[١]. ومن الأمثلة على هذه الصيغة العهد الذي كتب على لسان الخليفة الحاكم لابنه أبي الربيع سليمان الذي لقب بالمستكفي بالله[٢] والعهد الذي كتب على لسان الخليفة المستكفي بالله لابنه المستوثق بالله[٣]، والعهد الذي كتب على لسان الخليفة المعتضد بالله لابنه أبي عبد الله محمد الذي لقب بالمتوكل على الله[٤].

وتجدر الإشارة إلى أن كتابة العهد الواحد وفق أكثر من صيغة كانت أمراً وارداً؛ ففي العصر المملوكي الثاني (دولة المماليك الجراكسة) وأثناء تولي الخليفة المتوكل على الله بن المعتضد الخلافة سنة (٨٠١هـ/١٣٩٩م) كتب القلقشندي نسخةَ عهدٍ وفق الصيغة الأولى –المذكورة سابقاً– لتكون "أنموذجاً يُنسخ على منواله"، وكان على لسان المتوكل لابنه العباس. وبعد وفاة المتوكل سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٦م) حظي العباس بمنصب الخلافة ولقب بالمستعين بالله، فأعد له القلقشندي سنة (٨٠٩هـ/١٤٠٧م) نسخة عهد وفق الصيغة الثانية[٥].

- **القسم الثاني من العهود: عهود الخلفاء للملوك أي للسلاطين** ويندرج تحت هذا القسم ما يلي:

١- العهود التي صدرت على لسان الخلفاء العباسيين للسلاطين: ارتكزت كتب الدساتير ما صدر منها منذ إعلان صلاح الدين الأيوبي الخطبة للخليفة العباسي في بغداد، ثم بينت ما صدر خلال العصر المملوكي[٦] بعد إحياء الخلافة العباسية في القاهرة على يد الظاهر بيبرس. وكان شرحُ هذه الكتب للعهود المعطاة للسلاطين المماليك مطابقاً تماماً لمبايعات السلاطين

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٨٧.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٦٣-٦٧.

(٣) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص٣٣٧-٣٣٩؛ السحاوي، الثغر الباسم، ص٥٧٨-٥٨٠.

(٤) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٨١-٨٣؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٠٥-١٠٧.

(٥) انظر على التوالي الفكرة والنصوص عند: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٨٩-٣٩٦؛ ومآثر الأنافة، ج٢، ص٣٣٧-٣٥٣.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص٤١٧-٤٢٨؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٥٨٤-٥٨٩.

الذي سبق إيراده، ولعل السبب في ذلك رغبة كتاب الدساتير في توضيح الأهميـــة التاريخيـــة والأسس الأدبية للرسائل التي نظمت علاقة الدولة المملوكية بالخلافة العباسية، لذا وظفت هذه الكتب نفس حوادث المبايعات وطرف صياغاتها في هذا القسم وأضافت طريقة ثالثة لكتابتهـــا في الأحوال التي يكون فيها مركزُ السلطنة بعيداً عن مركز الخلافة في بغداد[١].

٢- العهد بكفالة أو ما يسمى (الكفالة): وكان يصدر على لسان الخليفة العباسي إلى أحـــد الحكـــام المسلمين في الأماكن القاصية يوليه على بلاده ويقرّه على ما بيده[٢]، ولم تفرد المصادر حيّزاً خاصاً لشرح هذا النوع من العهود، ولكن دلت الرسائل والحوادث التاريخية على أهميته، ومن الأمثلة على ذلك عهدٌ بكفالة السلطنة صدر على لسان الخليفة العباسي المستعين بالله العبـــاس بن المتوكل إلى العادل مظفر شاه ملك دهلي بالهند[٣]. ورسالة مشابهة من المرجح أنها ضمن هذا النوع صدرت عن الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله سنة (٧٤٤هـ/١٣٤٣م) إلى ملك الهند موافقة لطلبه بأن يُكتب له تقليدٌ من جهة الخليفة "بولاية مملكة الهند ليكون نائباً عن السلطان – المملوكي– بتلك البلاد"[٤].

- **القسم الثالث من العهود: عهود السلاطين المماليك لمن اختاروه لولاية العهد**[٥]، وقد صـــنفت تحت عنوان: "عهود الملوك لولاة العهد بالمُلْك"[٦]، وعهود الملوك بالديار المصرية لولاة العهد بالمملكة بها"[٧]. وكتبت نصوص العهود من هذا القسم وفق صيغة رئيسية، وهي افتتاح العهـــد

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص٥-٦، ١٠٠، ١١٥-١٣٤؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٥٩١-٥٩٤.

(٢) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص١٣١.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٣٤-١٥٠؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص١٣٢.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٤٥.

(٥) السحماوي، الثغر الباسم، ص٦٠٦.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٦٢.

(٧) السحماوي، الثغر الباسم، ص٦٠٥.

بخطبة مفتتحة بـ"الحمد لله"[١]. ويستحب فيها الإكثار من التحميدات[٢]. ومن الأمثلة على هذا القسم نسخة العهد الذي كُتِبَ على لسان الظاهر بيبرس لولده الملك السعيد بركة، وهو العهد الأول لبركة صَدَرَ سنة (٦٦٢هـ/١٢٣٦م)[٣]، ثم جدد الظاهر بيبرس العهد لبركة سنة (٦٦٧هـ/١٢٦٨م) وفق الصيغة نفسها[٤].

وصدرَت عهود أخرى من هذا القسم وفق الصيغة المذكورة، كالعهد الذي كتب على لسان المنصور قلاوون لولده الملك الصالح علاء الدين علي سنة (٦٧٩هـ/١٢٨٠م)[٥]. وحين توفي الصالح في حياة أبيه كُتِبَ على لسان قلاوون عهد لولده الأشرف خليل، وفق الصيغة المذكورة أيضاً[٦].

- **القسم الرابع من العهود:** عهود الملوك بالسلطنة (السلاطين) للملوك المتفردين بصغار البلدان[٧]. ويندرج تحت هذا القسم العهود التي تصدر عن السلاطين المماليك للأيوبيين من ملوك حماة. فقد كان منصب ملوك حماة أساساً هاماً من أسس تصنيف هذا القسم واستمر

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٦٧؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٦٠٧-٦١٢.

(٢) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٢٢؛ ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٤٠.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٠٤-٢٠٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٦٧-١٧٠؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٦٠٧-٦١٢؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٨٢-١٨٥.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٥٧-١٦٠؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٩٦٩-٩٧١ ملاحق الجزء الأول، ملحق رقم (٣)؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٨٥-١٨٨.

(٥) ابن عبد الظاهر، التشريف، شرح المحقق، ص٣٠-٣٤ وتتمة جمع المحقق، ص٢٠٠-٢٠٣؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص١٩٠-١٩٤؛ ابن الفرات، التاريخ، مج٧، ص١٨٦ وما بعدها؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٧٧-١٨١؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٢٤٨-٢٥٤؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٨٨-١٩٣.

(٦) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص٨٧-٩٤؛ ابن عبد الظاهر، التشريف، تتمة جمع المحقق، ص٢٤٦-٢٥١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٧٠-١٧٧؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٩٣-٢٠١.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٤؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٦١٢.

بحسب السحماوي (ت٨٦٨هـ/١٤٦٤م) طيلة حكم الأيوبيين في حماة[١]، ولم يتعرض ابن ناظر الجيش (ت٧٨٦هـ/١٣٨٤م) في كتابه تثقيف التعريف لهذا القسم لخلو الدولة المملوكية من مثل مملكتهم[٢].

وقد اتُّبعت طريقة واحدة في كتابة العهود لملوك حماة وهي استفتاحها بالخطب[٣]، ومن الأمثلة على ذلك العهد صدر على لسان الناصر محمد للملك المظفر أبو الفداء سنة (٧١٢هـ/١٣١٢م) [٤]، وكذلك العهد صدر أيضاً على لسان الناصر محمد للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل آخر ملوك الأيوبيين في حماة وذلك سنة (٧٣٢هـ/١٣٣٢م) [٥].

ج- الرسائل الخاصة بتعيين موظفي الدولة وتعيين حكام المناطق التابعة لها

يندرج تحت هذا النوع عدد من الرسائل الموجهة إلى موظفي الدولة أو إلى حكام المناطق التابعة لها، وحملت هذه الرسائل مسميات شاع استخدامها في المصادر، وهي: التقاليد والمراسيم والتفاويض والتواقيع، وكان الغرض منها التعيين في الوظائف وشرح المهام الموكولة إلى متولي الوظيفة أو المنصب. وفيما يلي تعريف بهذه الرسائل وفق الوظائف أو الجهات التي وجهت إليها:

١. التقاليد:

صدرت في حالات التعيين في الوظائف العليا في الدولة، وللتقليد عنوان خاص وهو: "تقليد شريف بأن يفوض إلى .... "الأميري الكبيري ..." يكتب بعدها اسم الشخص واسم الوظيفة أو

---

(١) السحماوي، الثغر الباسم، ص٦١٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٦-١٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٨٧.

(٤) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٤١١-٤١٢؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٣٥٤-٢٥٧.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٧-١٩١؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٢٦٢-٢٦٩.

المهمة ثم عبارة ضرورية وهي: "على أجمل العوائد وأكمل القواعد"(١). ويفتتح التقليد بخطبة مطلعها "الحمد لله" ثم البعدية "أما بعد" هذا مع ميزه واضحة وهي المبالغة في المديح والثناء على الشخص صاحب التقليد(٢).

وقد صــدرت التقاليد لكبار موظفي الدولة(٣) مثل: نائب السلطــنة في القاهــرة(٤)، وكبــار النواب(٥) في نيابات الدولة(٦)، مثل نائب دمشق(٧) الذي لقب بكافل السلطنة الشريفة وصُنِفَ تقليده بأنه من أعظم التقاليد(٨). كما صدرت التقاليد للوزراء(٩). وكبار قضاة القضاة(١٠) ولمن تولوا رئاسة

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص١٠١؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٦٢٠.

(٢) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٢٢-١٢٣؛ وانظر: ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٤١؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج١، ص٣، ص١٣٣.

(٣) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١١٩؛ ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٤١؛ القلقــشندي، صــبح الأعشى، ج١١، ص١٠١-١٠٤؛ السحماوي، الثغر الباسم: ص٦٢٠؛ سليم، عصر ســلاطين المماليــك، ج١، ص٣، ص١٣٢.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص١٠٢-١٠٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٥٢؛ وانظر نــص تقليد المظفر بيبرس الجاشنكير للأمير سيف الدين سيف الدين سلاء عند حمادة، الوثائق الــسياسية، ص٢١١-٢١٥.

(٥) كان للسلطان المملوكي نواب في جهات عدة فله نائب في الإسكندرية، ونائب في الوجه البحري ونائــب فــي الوجه القبلي ونواب في الشام. انظر: السبكي، معيد النعم، ص٢١ هامش (٤).

(٦) حول حوادث التقليد في نيابات الشام انظر: بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص٢٢٣؛ المقريــزي، الــسلوك، ج٢، ف٣، ص٦٤٦؛ العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٣٨.

(٧) انظر نص تقليد صدر عن عبد الناصر محمد للأمير سيف الدين تنكز نائب الشام عند حمادة، الوثائق السياسية، ص٢٥٨-٢٦١.

(٨) ابن كنان، محمد بن عيسى (ت ١١٥٣هـ)، المواكب الإسلامية في الممالــك والمحاســن الــشامية، تحقيــق ودراسة: حكمت إسماعيل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م، ف١، ص١٥٥، ف٢، ص٨. وسيــشار له: ابن كنان، المواكب الإسلامية.

(٩) النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص٤٦١-٤٦٥؛ وانظر نص تقليد الملك السعيد بركة للوزير بهاء الدين بن حنا عند القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص٢٧٠-٢٧٤، السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢١٧-٤٢١.

(١٠) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٩،٢٣.

ديوان الإنشاء[١] وحكام الحجاز، وهم أمراء مكة المكرمة[٢]، وأمراء المدينة المنورة[٣]، وصدرت التقاليد أيضاً لفئة من العربان حيث كتبت تقاليد لأمراء آل الفضل بالشام[٤] دون غيرهم من العربان في الدولة المملوكية[٥].

٢. المراسيم الخاصة بالتعيين في وظائف الدولة:

وهي رسائل تلي التقاليد من حيث الرتبة[٦]، صدرت للفئة التي تلي الفئة العليا، وتقسم إلى قسمين:

المراسيم المكبرة: اعتمدت كأساس رسمي لتصنيف الرسائل بعد عصر ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) فلم تكن مستعملة في زمنه وإنما استحدثت بعده. وكانت تكتب على نمط التقاليد، ولكن وفق شروط ملزمة وهي: أن يكون العنوان: "مرسوم شريف"، وأن يقال: "أن يستقر" ولا يقال: "أن يفوض" ولا "أن يقلد" وأن يقال: "على عادة من تقدمه وقاعدته" ولا يقال: "على أجمل العوائد وأنتم القواعد"[٧].

---

(١) حول نص تقليد الأمير فخر الدين عثمان انظر: ابن عبد الظاهر، التشريف، ص٢٧-٢٨ (شرح المحقق)؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٢١٩-٢٢٥.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ف٣، ص٨٢١.

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٨٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٤٧؛ اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٥٨؛ المقريزي، السلوك، ج١، ف٢، ص٥٦٠؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٥١.

(٤) آل الفضل: سيرد في الفصل الثاني من هذه الدراسة تعريف آل الفضل وحيازتهم للمنصب إمرة العرب.

(٥) حول نصوص التقاليد لآل الفضل انظر: ابن عبد الظاهر، التشريف، ص٢٧-٢٨؛ ابن الفرات، التاريخ، مج٧، ص١٧٧-١٧٩؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٢٣٠-٢٣٣، ٢٥٠-٢٥٤.

(٦) ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٤٢.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص١٠٧؛ السماوي، الثغر الباسم، ص٦٢٢.

وصدرت المراسيم المكبرة لنواب القلاع ولبعض أمراء العربان من غير عرب الفضل[١]، وعند التعيين في وظائف هامة مثل وظيفة شاد الدواوين[٢].

المراسيم المصغرة: صدرت لفئة أرباب السيوف عند تعيينهم في النيابات الصغيرة وكانت تكتب على نمط المراسيم المكبرة ولكن وفق شروط تختص بألقاب متولي هذه الوظيفة[٣].

٣. التفاويض:

وضعت كأساس لتعيين عامة القضاة أي الفئة التي تلي الفئة العليا من القضاة ووضعت أساس كتابتها، فكانت على نمط التقاليد مع الاختلاف في التعريف بها بأن يقال: "تفويض شريف لفلان بكذا" وقد وصفت التفاويض بندرتها وبقلة حالات إصدارها[٤].

٤. التواقيع:

صدرت لأغراض التعيين في باقي وظائف الدولة أي للفئة التي تلي فئة أصحاب التقاليد. وبعد استحداث المراسيم المكبرة أصبح إصدار التواقيع خاصاً بالمتعممين (فئة أرباب الوظائف الدينية والديوانية من القضاة)[٥]، بالإضافة إلى فئة من أرباب السيوف ممن تولوا نظر جهات[٦]،

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص١٠٨-١٠٩، السحماوي، الثغر الباسم، ص٢٦٢ وانظر: حمادة، الوثائق السياسية، ص٢٧٠-٢٧٢.

(٢) ابن عبد الظاهر، التشريف، ص٢٩-٣٠ (شرح المحقق) و ص١٩٨-١٩٩ (جمع المحقق)؛ ابن الفرات، التاريخ، مج٧، ص١٨٠-١٨١؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٢٨٨-٢٨٩.
شاد الدواوين: ويلقب أيضاً بمشد الدواوين، وتسمى الوظيفة شد الدواوين ومعنى كلمة شد: فتش وشد الدواوين فتشها وضبط حساباتها. دهمان، معجم الألفاظ المملوكية، ص١٩٥.

(٣) ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٤٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص١١٢؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٦٢٢-٦٢٣.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص١١٢؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٦٢٤.

(٥) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٢٠.

(٦) الناظر: هو من ينظر في الأموال فترفع إليه حساباتها، وكان المشرف الرسمي على الإيرادات والنفقات ولديه جميع البيانات الخاصة بذلك. البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٣٤١.
آل الفضل: سيرد في الفصل الثاني من هذه الدراسة تعريف آل الفضل وحيازتهم المنصب إمرة العرب.

هي: البيمارستان المنصوري[١]، والجامع الجديد بمصر (في الفسطاط خارج القاهرة) وناظر الحرمين (حرم القدس الشريف وحرم الخليل عليه السلام) [٢].

وقد كتبت التواقيع وفق شرط أساسي وهو الإشارة إلى العنوان بـــ "توقيع شريف لفلان بكذا" واختلفت طرق صياغتها باختلاف رتب أصحاب التواقيع، حيث قسموا في طبقات أربع هي[٣]:

الطبقة الأولى: تشمل فئة من الموظفين، منهم القضاة الأربعة في مصر والشام ومن الأمثلة على ذلك التوقيع الذي صدر لتعيين شرف الدين حسن بن أحمد بن قدامى المقدسي على قضاء الحنابلة بدمشق سنة (٦٨٩هـ/١٢٩٠م) [٤]، كما كانت هذه الطبقة تضم فئة النظار في دمشق[٥] وفي حلب[٦].

الطبقة الثانية: وتنحصر في نظر وقف كبير أو مشيخة الحرم الشريف[٧] بالقدس الشريف أو في تدريس كبير. ومن المرجح أن تعيين القاضي تقي الدين ابن شاس المالكي في وظيفة التدريس في المدرسة المنصورية سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م كان بموجب توقيع من هذا النوع[٨].

---

[١] البيمارستان: لفظ فارسي مركب من بيمار بمعنى مريض واستان بمعنى محل، والمعنى مكان المريض أو بيت المريض، عيسى بك أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط٢، دار الرائد العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص٤، وسيشار إليه لاحقاً: عيسى بك، تاريخ البيمارستانات. البيمارستان المنصوري، بني بأمر من المنصور قلاوون حيث كان قد مرض في دمشق قبل توليه السلطنة فحملت إليه الأدوية من بيمارستان نور الدين زنكي فزار البيمارسان وأعجبه وبعد توليه السلطنة بنى بيمارستان القاهرة وفاءً لنذره، انظر:المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٠٦-٢٠٧، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٧٧.

[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص١١٥.

[٣] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص١١٣-١٢٦؛ ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٤٥.

[٤] المقريزي، السلوك، ج١، ف٣، ص٧٥١.

[٥] النويري، نهاية الأرب، ج١، ف٣، ص١٥٧؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ف٢، ص٣٥٨، ابن الفرات، التاريخ، مج٧، ص٧٠، ٢٧٤.

[٦] ابن الفرات، التاريخ، مج٧، ص٧٠؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ف١، ص٢٨.

[٧] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص١٢٢.

[٨] ابن الفرات، التاريخ، مج٧، ص٢٧-٢٨؛ ابن عبد الظاهر، التشريف، ص٢٢٥-٢٢٧ (تتمة جمع المحقق) وقد ورد في المصدرين تحت عنوان تقليد.

الطبقة الثالثة: وتشمل بعض النظار في الدولة مثل ناظر الأهراء[١] والنظار في النيابات[٢] وصغار المدرسين الذين صدرت تواقيعهم تحت عنوان "تدريس صغير" مثل التوقيع الذي صدر لتعيين شمس الدين محمد بن القاضي علم الدين بن القماح على الإعادة بمدرسة الإمام الشافعي بالقرافة الصغرى[٣].

د- الرسائل الخاصة بمنح الاقطاعات

كان النظر في أمر الاقطاعات من اختصاص ديوان الجيش وهو بحسب القلقشندي مظنة الإقطاعات[٤] أي سجلها. لذا كانت الترتيبات الأولى لمنح الاقتطاعات تُنظم من قبل هذا الديوان وعنه تصدر الوثائق الأولية التي يتقرر من خلالها منحُ الإقطاعِ لشخص ما، وهذه الوثائق هي المثالات، والمربعات. وكانت الإجراءات التالية لنفس الغرض من مهام ديوان الإنشاء وعنه تصدر الوثائق النهائية والتي عرفت باسم المناشير[٥]. وفيما يلي تعريف بالمثالات والمربعات والمناشير وفقاً لطريقة تجهيزها وإعدادها:

١. المثالات:

ومفردها مثال وهو أمر يصدر عن ديوان الجيش بمنح إقطاع أو بتحويله أو إعادته أو زيادته[٦]، حيث يتولى ناظر الجيش مراجعة البيانات الواردة في أوراق الروك[٧] ثم يتولى وبأمر

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص١٢٤.

(٢) ابن الفرات، التاريخ، مج٧، ص٢٥٩.

(٣) ابن الفرات، التاريخ، مج ٧، ص٢٢٦؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٧٠٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص١٥٩ وانظر: السحماوي، الثغر الباسم، ص٨٣٦.

(٥) طرخان، إبراهيم، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص١١٩، وسيشار له لاحقاً: طرخان، النظم الإقطاعية.

(٦) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٢١٣، هامش(٣)؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٩٠، هامش (٣)؛ العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٣٩٤، هامش (٣)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٧٢، هامش (١).

(٧) الروك: هي عملية مسح الأراضي الزراعية لحصرها وتقدير درجة خصوبتها لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال للمزيد انظر: بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٣٤٤، هامش (٢)؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٨٤١، هامش (٣)، ج٢، ص١٤٦، هامش (١) والخطط، ج١، ص١٦٥، هامش (١)؛ العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٣٩٥، هامش (١)؛ طرخان، النظم الإقطاعية، ص٩٥.

من السلطان الإشراف على كتابة المثالات سواء أكان الإقطاع جديداً لأول مرة أم منقولاً عن مُقْطَع سابق واسم المقطع الجديد والسابق إن وجد وعبرة (عائد) الإقطاع ثم تاريخ الاعتماد[١].

وتتمثل طريقة كتابة المثال الواحد بتفريغ المعلومات على الورقة في جدولين: أيمن وأيسر؛ ففي الجدول الأيمن يترك ثلثا المساحة فراغاً ثم تكتب عبارة "خبز فلان المتوفى إلى رحمة الله تعالى" أو "المرسوم ارتجاعه" أو "المنتقل لغيره" ونحو ذلك، على أن تكون كلمة "خبز" على سطر وباقي العبارة في سطر ثانٍ، وفي السطر الثالث تكتب عبارة: "عبرة كذا وكذا دينار" ويكتب في الجدول الأيسر: "اسم فلان الفلاني"[٢].

ويتولى ناظر الجيش مهمة عرض المثال الواحد أو المثالات على السلطان ليوقع عليها[٣] بكلمة "يكتب" ثم يليه توقيع ناظر الجيش تحت توقيع السلطان بعبارة: "يُمتَثَل المرسوم الشريف" ثم يحيله الناظر إلى أحد كتّاب ديوان الجيش ليؤرخه وليحفظه في الديوان.

٢. المربعات:

ومفردها مربعه وهي الوثيقة الثانية بعد المثال وتكتب أيضاً في ديوان الجيش وتتضمن البيانات الموجودة في المثال ولكن بتفصيل أكثر[٤] وهي ورقة مربعة الشكل تقسم إلى قسمين فتبدو أشبه بصحيفتين متقابلتين. وتحتوي على اسم الشخص المعين على الإقطاع ورتبته وتحديد لامتداد

---

(١) طرخان، النظم الإقطاعية، ص١١٩-١٢٠.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص١٥٩؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٨٣٦؛ طرخان، النظم الإقطاعية، ص١٢٠.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص١٦٠؛ وانظر: ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (دولة المماليك الأولى)، دراسة وتحقيق: دوروتيا كرافوليسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٩٨٦م. ص١٠٩. وسيشار له: ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٩، هامش (٣)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٧٢، هامش (١)، طرخان، النظم الإقطاعية، ص١٢٠؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٢٩٧.

(٤) طرخان، النظم الإقطاعية ص١٢٢.

الإقطاع وغير ذلك من التفصيلات ويراعى فيها ذكر ألقاب السلطان كاملة[1] ثم تختم المربعة بعبارة "بعد الخط الشريف" – شرفه الله تعالى – إن شاء الله والحمد لله والصلاة على النبي ﷺ وتؤرخ ثم ترسل إلى ديوان الإنشاء حيث يُكتب المنشور بمقتضاها[2].

٣. المناشير:

ومفردها منشور وهو الوثيقة النهائية الخاصة بمنح الإقطاع ويتولى ديوان الإنشاء مهمة كتابته اعتماداً على المربعة الواردة من ديوان الجيش حيث يتسلم رئيس ديوان الإنشاء المربعة ويعهد إلى المختصين من الكتاب بكتّابة البيانات الموضحة في المربعة[3] مع العناية بشروط عامة ميزت المنشور وهي العناية بالتفاصيل الخاصة بمنح الإقطاع والإشادة بكرم السلطان وإحسانه[4].

وبالنظر إلى الوصف السابق للمثالات والمناشير كونهما وثيقتين لنفس الغرض يلاحظ أن لفظ المثال والمنشور استعملا بشكل مترادف[5]، فما يُسلّم للشخص المُقْطَع هو الوثيقة النهائية وهي المنشور ورغم ذلك أشارت إليه بعض المصادر باسم المثال، ومن ذلك ما ورد في حادثة منح الناصر محمد للإقطاعات للأمراء والأجناد سنة (٧١٥هـ/١٣١٥م)؛ ففي يوم "العرض" جلس الناصر محمد بالإيوان[6] "لتفرقة المثالات" وقد تكرر اللفظ في هذه الرواية مرات عدة[7].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص١٦٠–١٦٢؛ وانظر: ابن فضل الله العمري، مسالك الإبصار، ص١٠٩؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٨٣٦–٨٣٧؛ ابن كنان، محمد بن عيسى (ت ١١٥٣هـ)، حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق: عباس صباغ، دار النفائس، بيروت، ١٩٩١م، ص٥٨، هامش (٦). وسيشار له: ابن كنان، حدائق الياسمين؛ طرخان، النظم الإقطاعية، ص١٢٠–١٢١.

(٢) طرخان، النظم الإقطاعية، ص١٢٢.

(٣) طرخان، النظم الإقطاعية، ص١٢٢؛ وانظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٣٠٨–٣٠٩.

(٤) طرخان، النظم الإقطاعية، ص١٢٣.

(٥) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٢٦٣.

(٦) الإيوان: وهو قاعه العرش الرئيسيه التي أقامها المنصور قلاوون ، وكان لهذا الايوان ثلاث وظائف هي: قاعه للعداله في يوم او يومين من الاسبوع ينظرُ فيها السلطان اهم القضايا السياسيه بمعاونه كبار القضاه والكتّاب والامراء، وقاعه لاستقبال السفراء "الرسل" وكبار الضيوف، ونقطه الاوج للمواكب الرسميه التي يقيمها السلطان لاستعراض المماليك. ريمون، اندريه: القاهرة تاريخ حاضره، ترجمة : لطيف فرج، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٤. ص١٢١. وسيشار له: ريمون، القاهرة تاريخ حاضره.

(٧) المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص١٥٤–١٥٥؛ وانظر رواية أخرى لنفس الغرض عند ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٧٢.

هـ- الرسائل الخاصة بالتعليمات الصادرة عن السلاطين

صَدَر عن السلاطين المماليك تعليمات وأوامر عطفاً على إجراء سياسي أو إداري أو عن أحداث طارئة. وتجسدت هذه التعليمات بشكل رسمي عند إصدارها في أنواع عدة من الرسائل الرسمية مثل التذاكر والمطلقات والمراسيم[*]، وفيما يلي تعريف بكل نوع:

١. **التذاكر:**

وهي كل ما يصدر عن السلاطين من توجيهات وتعليمات محددة ومباشرة لتصريف شؤون الدولة السياسية والإدارية، وقد احتوت بعض المصادر على نصوص كاملة أو إشارات تفيد بأن هذه التعليمات كانت موثقة، وفيما يلي بعض أنواع التذاكر وفقاً للجهة التي وجهت إليها:

- **التذاكر الموجهة لأولياء العهد:** ومنها تذكرة وجهها الظاهر بيبرس قبل وفاته إلى ابنه وولي عهده الملك السعيد بركه، وفيها ينبهه إلى منافسيه من كبار الأمراء وإلى طريقة التعامل معهم للحفاظ على كرسي الحكم من بعده[1]. ومن هذا النوع أيضاً التذاكر التي وجهها المنصور قلاوون عند خروجه من القاهرة إلى ابنه وولي عهده الصالح علاء الدين علي يكلفه فيها بمهام متعددة تشمل النواحي الأمنية والإدارية وغير ذلك. وقد أورد العسقلاني في كتابه الفضل المأثور نصوصاً متكاملة لهذه التذاكر[2].

(*) المراسيم في هذا الموضع من الدراسة مسمى عام لرسائل خاصة بالتعليمات الرسمية أما ما سبق عرضه فكان مراسيم خاصة بالتعيين في وظائف لدولة.

(1) انظر مقتطفات من التذكرة عند: ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت٦٨٤هـ/١٢٨٢م)، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء: أحمد حطيط، دار فرانز شتاير، فيسبان، ١٩٨٣م، ص٢٢٤، هامش (٣). وسيشار له: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق ٢، ص٦٤١، هامش (٥).

(2) العسقلاني، الفضل المأثور، ص١١٩-١٣٥.

- **التذاكر الموجهة لنواب السلطنة في القاهرة:** ومنها تذكرة كتبت على لسان السلطان المنصور قلاوون عند خروجه إلى الشام سنة (٦٧٩هـ/١٢٨٠م) وهي موجهة لنائب السلطنة زين الدين كتبغا لتصريف شؤون الدولة نيابة عنه. وتدل النظم المتبعة في العصر المملوكي على أن خروج السلطان يعني أن النائب يتولى ما يعرف بنيابة الغيبة، وقد أورد ابن الفرات في كتابة تاريخ الدول نصاً متكاملاً لهذه التذكرة[١].
- **التذاكر الموجهة لنواب السلطنة وكبار موظفي الدولة في الشام:** ومنها تذاكر وجهها الظاهر بيبرس سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م) إلى الأمير جمال الدين آقوش النجيبي نائب الشام[٢] وعز الدين بن عبد العزيز بن وداعة متولي الوزارة فيها[٣] وكَلَّفَ الإثنين بالإشراف الكلي على الشؤون الإدارية كالأمور المالية وإدارة القلاع والشؤون الدينية[٤]، كما أصدر الظاهر بيبرس عدة تذاكر سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٣م) وكلف الأمير سيف الدين بلبان الزيني بإيصالها إلى حماة وحلب، وتتضمن تجهيز القلاع والجند وتحصين الثغور تحسباً لأي هجوم من جانب المغول أو الأرمن[٥]. ومن هذا النوع أيضاً تذكرة وجهها المنصور قلاوون سنة (٦٧٩هـ/١٢٨٠م) للأمير سيف الدين الباسطي نائب صرخد (والذي عرف بنائب قلعة صرخد) وللأمير عز الدين والي القلعة فيها، وتشتمل هذه التذكرة على تعليمات بين فيها المنصور قلاوون مهام الأميرين وطالبهما بالتنسيق مع نائب الشام، مع ضرورة إبلاغه -قلاوون- بكافة المستجدات في النيابة بما فيها القلعة[٦].

---

[١] ابن الفرات، تاريخ الدول، مج ٧، ص١٩٦-٢٠٠؛ وانظر: حمادة، الوثائق السياسية، ص٢٠٣-٢١٥.

[٢] النويري، نهاية الأرب، ج٣، ص١١٧.

[٣] المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٤٨٠.

[٤] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٤٠.

[٥] المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥١١.

[٦] انظر نص التذكرة عند: ابن الفرات، التاريخ، مج٧، ص١٩٥١٩٢٠.

- **التذاكر الخاصة بالرسل أو القصاد:** وهم الرسل الذين يرسلهم السلطان في مهام خارج الدولة لتذكيرهم بتفاصيل ما يوكل إليهم، ولتكون ورقة اعتماد وحجة عند الجهات التي يقصدونها[١].

٢. المطلقات:

وهي كل ما كان يرسله السلاطين من رسائل عامة، وهي بمثابة مكاتبة عامة لمجموعة أو أكثر[٢] من النواب في مصر والشام أو كبار رجال الدولة في هذه المناطق أو إلى قبائل العربان أو التركمان أو الأكراد، وتجهز بحسب موضوعها؛ فإذا كانت في سِرٍّ يكتم ولا يراد إظهاره إلا عند الوقوف عليه يتم ختمها ويكون عنوانها في ظاهر الورق أي الجهة الخارجية منها، أما إذا كانت في أمر يُراد إظهاره فلا تختم ويكون عنوانها في باطن الورق، أي أنه يكتب في داخل الورقة ويكون ملخصاً لما في الرسالة حيث يبدأ المطلق بعبارة: "مثال شريف مطلق إلى الولاة والنواب على ما شرح فيه أو حسب ما شُرِح فيه". وينتهي بعبارة: "فليعلموا ذلك ويعتمدوه"[٣]، مما يشير إلى الصفة الجماعية التي ميزت المطلقات.

وقد صنفت كتب الدساتير المطلقات إلى ثلاثة أنواع هي: المطلقات المكبرة والمطلقات المصغرة[٤] واليرالغ (جمع يرلغ)، وهي لفظة تركية تعني المرسوم، وحسب القلقشندي شاع

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٨٠، هامش (٥)؛ وانظر: توثيق الهامش عند النويري، نهاية الأرب، ج٣، ص١١٧، هامش (٢).

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٢٠٠.

(٣) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١١٦-١١٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص٢٣٩؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٧٢٠-٧٢١.

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١١٤-١١٦؛ ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص٣٢٩-٢٤٨؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٧٢٠-٧٢٧.

استخدامها عند كتاب المشرق، لذا لم يتعرض لها ابن فضل الله العمري في التعريف ولا ابن ناظر الجيش في تثقيف التعريف[١].

ولم تُعنى المصادر باستخدام هذه المسميات للإشارة إلى مراسلات السلاطين. ومن الأمثلة النادرة مطلقات سرية أرسلها السلطان إلى أمراء حلب بالقبض على أحد الأمراء ويدعى كرجي وتزامن إرسالها مع تعليمات علنية حول تنفيذ بعض المراسيم الخاصة بنيابة حلب، أما اليرالغ فمن الإشارات النادرة حولها يرلغ كتبه علاء الدين بن فضل الله العمري على لسان الناصر محمد يتضمن تعليمات استقبال وإقامة قصاد (رسل) القان أبي سعيد صاحب مملكة إيران[٢].

٣. المراسيم:

صدرت أغلب تعليمات السلاطين تحت هذا المسمى، وقد تميزت المراسيم بالتنوع فقد شملت الأمور العامة في الدولة كما شملت الأمور الخاصة لأفراد مثل كبار الأمراء، وكانت المراسيم العامة تصدر لجميع فئات المجتمع أو لبعض فئاته وتتضمن أوامر مباشرة ملزمة لهذه الفئات، لذا كان يتم إعلانها على منابر المساجد[٣] أو يتم النداء بمضمونها في الطرقات[٤]. وفيما يلي شرح بعض أنواع المراسيم التي كانت تصدر لأغراض اقتصادية واجتماعية وعسكرية ولأغراض أخرى متنوعة.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص٢٤٨-٢٤٩؛ زكار، عبد القادر، نصوص مختارة من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨١، ص٢٠٩-٢١٢. وسيشار له: زكار، نصوص مختارة.

(٢) انظر نص البرلغ عند القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص٢٤٩-٢٥١؛ وانظر مقتطفات من البرلغ عند السحماوي، الثغر الباسم، ص٧٢٨؛ وانظر نص اليرلغ كاملاً عند زكار، نصوص مختارة، ص٢٠٩-٢١٢.

(٣) حول قراءة نصوص المراسيم على المنابر انظر على سبيل المثال: ابن الوردي، التاريخ، ج٢، ص٢٧٤، ٣١٥؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٢٧٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٥٧.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٨٣؛ بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص٢٦؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠٣.

- **المراسيم الخاصة بالشؤون الاقتصادية:** جاءت على شكل أوامر موجهة إلى كافة فئات المجتمع[1]، كتحديد أسعار السلع، مثل مرسوم الناصر محمد بتسعير القمح سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) [2]. أو مراسيم حول تداول النقد وقد اشتملت أغلب المراسيم من هذا النوع على كيفية التعامل بالفلوس وتحديد قيمتها بالنسبة للدرهم الواحد[3]، بالإضافة إلى المراسيم الخاصة بالضرائب. وقد اعتنت المصادر بإيراد المراسيم الخاصة بإلغاء الضرائب أكثر من عنايتها بمراسيم فرضها[4].

وتتعدد الإشارات في المصادر إلى مراسيم إبطال أحد أنواع الضرائب وهو ما كان يُجبى عن طريق الضمان[5]، وقد تضمنت بعض مراسيم إبطال الضمان أوامرَ مرتبطة ببعضها البعض مثل المرسوم الصادر سنة (٦٦٩هـ/١٢٧٠م) وفيه أمن الظاهر بيبرس بإراقة الخمور والوعيد لمن يعصرها بالقتل والنهب " فأريقت بأعمال الديار المصرية وأبطل ضمانها" بعد أن كان يجبى عنها في كل يوم ما يزيد على ألف دينار[6]. وفي دمشق صدر مرسوم بإراقة الخمور وإبطال "الجهة

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٢٢.

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٩٤؛ وانظر حادثة مشابهة عند: العيني، عقد الجمان، ج١، ص٣٧٥.

(٣) انظر مراسيم من هذا النوع عند: النويري، نهاية الأرب، (ج٣٢، ق١، ص٢٥٣)، (ج٣٣، ص٥، ٥١)؛ المقريزي، السلوك، (ج٢، ق١، ص٢٥٣)، (ج٢، ق٣، ص٥٥٢، ٧١٩)، (ج٣، ق٢، ص٤٥٤)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٦٥؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٥٨٩.

(٤) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٤٤٠؛ النويري، نهاية الأرب، (ج٣٢، ص١٧٥)، (ج٣٣، ص٥٦)؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص١٠٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٦٦.

(٥) الضمان: معناه أن يتولى شخص يسمى الضامن أو الملتزم جمع ضريبة من الضرائب التي يفرضها السلطان أو الأمير، و"يضمن" مقابل توليه ذلك مبلغاً معيناً من المال يدفعه إلى الجهة المختصة في أوقات منتظمة من كل سنة. المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٩٥٣، هامش (١).

(٦) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤٥٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٨٠-١٨١؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٩٥؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٨٠. قد أشارت هذه المصادر إلى المرسوم باسم "التوقيع" ما عدا عقد الجمان. ولا يخرجه هذا المسمى من التصنيف بل يعطيه الصبغة الرسمية.

المفردة"[1] وهي ضمان الخمور وذلك في أواخر ربيع الأول سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م) ويعني المرسوم إلغاء هذه الضريبة وإيقاف الضمان رغم أن هذه الجهة أعلنت عن تضمين الخمر في العشر الأوسط من الشهر المذكور بمبلغ "ألفي ألف درهم في كل سنة"[2].

إضافة إلى ما سبق من مراسيم إلغاء الضرائب صدر عن السلاطين تعليمات رسمية تسمى المسامحات، وقد عرفها القلقشندي بالقول: "المسامحات جمع مسامحة وهي الجود والموافقة على ما أريد منه، والمراد المسامحة بما جرت به عادة الدواوين السلطانية من المقررات واللوازم السلطانية"[3]، وأضاف: وقد جرت العادة أن السلطان إذا سمح بترك شيء منه ذلك كتب به "مرسوم شريف"[4].

وكانت المسامحات تصدر للإعفاء من الضرائب خاصة المفروضة على كافة فئات المجتمع أو فئة كبيرة منها من ذلك قرار الظاهر بيبرس سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) بإلغاء عدد من الضرائب كان قد فرضها المظفر قطز، ومنها: (تصقيع الأملاك وتقويمها) – وهو أخذ أجرة شهرين عن الأملاك في كل سنة، والتقويم وهو أن تقوم (تقيم) الدار فيؤخذ عن كل دينار درهم، والخمس وهو

---

(١) الجهة المفردة: هي ضريبة مفردة جرى إشهارها بالمزاد لمن يتعهد بها في دمشق وأعمالها، وضُمّنت بقيمة سبعمائة ألف درهم سنوياً، ثم تزايد الضمان حتى بلغ ألفي ألف سنوياً، انظر : النويري، نهاية الارب، ج٣١، ص ٨٠.

(٢) ابن الفرات، تاريخ الدول، مج٧، ص٢١٠؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٨٠؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٦٦٨-٦٨٨.

الجهة المفردة: المقصود بها هنا ضريبة مفردة جرى إشهارها في المزاد لمن يتعهد بها. النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٨٠، هامش (٢).

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٤؛ وانظر التعريف في المتن عند ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١١٤، هامش (١)؛ وانظر ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص٢٢٤، هامش (١) وقد خص المسامحة بفئة أصحاب الاقطاعات وهذا يخالف الأمثلة الحية من العصر المملوكي.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٤.

أن يقدر ما يملك الشخص من مال فيؤخذ خمسه[١]. وتبعاً لإلغاء الظاهر بيبرس لهذه الضرائب التي يبلغ عائدها ستمائة ألف دينار عن كل سنة[٢] أمر بكتابة مسامحات بها والإعلان عن ذلك على المنابر[٣]، وعلى غرار ذلك أمر الناصر محمد بإلغاء بعض الضرائب بعد روك طرابلس وما حولها سنة (٧١٧هـ/١٣١٧م) [٤].

وقد اهتم السلاطين بمسامحة العامة والجند بما عرف بالبواقي، وهي باقي الضرائب المتبقية في ذممهم[٥]، فقد سامح المنصور قلاوون بالبواقي المترتبة على الناس منذ عهد الملك السعيد بركه بن الظاهر بيبرس[٦]. وسامح الناصر محمد بالبواقي في ذمم الجند والرعايا في الشام في مرسوم أصدره سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) [٧]، وفي سنة ٧١٤هـ سامح أهل الشام بالبواقي المترتبة عليهم من بداية سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) إلى أواخر سنة (٧١٣هـ/١٣١٣م) [٨].

---

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٣٠١، وأضاف: وكتب بذلك تواقيع وخلدها في الدواوين والإشارات التالية في المتن لنفس المؤلف. وانظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣١١.

(٢) العيني، عقد الجمان، ج١، ص٢٧٠.

(٣) ابن عبد لظاهر، الروض الزاهر، ص٧٧، وهوامش الصفحة (١، ٢، ٤)؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣٧.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٩٦-٢٠١؛ القلقشندي قبل النويري، حمادة، الوثائق السياسية، ص٣٠٥-٣١١؛ وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣١-٣٩ تحت عنوان "مسامحه".

(٥) حمادة، الوثائق السياسية، ص٣٠٢؛ وانظر: دهمان، معجم الألفاظ المملوكية،ص٣٩، وعَرفَ البواقي بأنها لفظ اصطلاحي كان يطلق على كل ما يتأخر كل سنة عند الضمان من الخراج ولا تناقض في المعنيين لأن الضرائب كانت تجبى عن طريق الضمان.

(٦) العسقلاني، الفضل المأثور، ص١٧١.

(٧) انظر نص المرسوم عند: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٨-٣١؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٣٠٢-٣٠٥.

(٨) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٦٣؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص١٣٦.

وتجدر الإشارة إلى أن أهل مصر والشام قد حظوا بمساحة سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٦ م) بأمر من المنصور لاجين[1] قبل أن يتمكن الناصر محمد من استعادة حكمه وتولي السلطنة للمرة الثانية من (٦٩٨هـ-٧٠٨هـ/١٢٩٨-١٣٠٨م).

- **المراسيم الخاصة بالشؤون الاجتماعية:** وكانت على شكل أوامر موجهة إلى بعض فئات المجتمع، ومن أهمها المراسيم الخاصة بأهل الذمة مثل المرسوم الذي صدر على لسان الناصر محمد سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠-١٣٠١م) ويقضي بإلزام النصارى لبس العمائم الزرق واليهود العمائم الصفر والسامرة العمائم الحمر[2]، وأمر أن يُكتب بذلك في جميع أرجاء الدولة المملوكية[3]، ومنها أيضاً المرسوم الذي صدر على لسان الناصر محمد وقرئ على المنابر في حدود سنة (٧٢١هـ/١٣٢١م) ويقضي بمضاعفة الجزية المفروضة على النصارى وإلزامهم بلبس الثياب الزرق مضافة إلى العمائم وأن يشدوا الزنانير فوق ثيابهم وأن يميزوا إذا دخلوا الحمام بجلجل يجعلونه في أعناقهم وألا يستخدموا في الدواوين السلطانية وغير ذلك من التعليمات. وقد أوردت بعض المصادر النص الكامل للمرسوم[4].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٨٢٢.

(٢) بيبرس الداوادار، مختار الأخبار، ص١١٦-١١٧، والتحفة الملوكية، ص١٦١؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٤١٧-٤١٩؛ أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٨٥؛ ابن الوردي، التاريخ، ج٢، ص٢٤٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٠، هامش (١) وفيه شرح لما تضمنه المرسوم؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤٠٨.

لباس أهل الذمة: يرجع اختيار الألوان المميزة لأهل الذمة من النصارى واليهود والمجوس إلى عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، ومن المرجح أن الألوان المميزة لهؤلاء قد تختلف بحسب العادات المحلية في كل إقليم. المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٢٢٧، هامش (٢).

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٩١١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٠٩.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٥-١٧ وقد عنونه باسم المثال رغم ذلك لا يمكن إخراج النص عن الإطار الذي صنف فيه والمخالف تماماً للمثال الخاص بالإقطاع، وانظر النص عند المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٢٢٧، وج٢، ق٣، ص٩٥٩-٩٦٢، ملاحق الجزء الثاني ملحق رقم (٣)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٤٣-٢٤٤ ملاحق الجزء التاسع، ملحق رقم (١)؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٣٥٩-٣٦٢.

- **المراسيم الخاصة بالشؤون العسكرية والأمنية:** وتتمثل بالمراسيم الخاصة بتنظيم الحملات العسكرية وتسيير الجيوش وتحصين المدن، ففي سنة (٦٧٢هـ/١٢٧٣م) وأثناء وجود الظاهر بيبرس في دمشق أرسل إلى القاهرة بشأن تجهيز الجيوش لملاقاته في الشام فخرج منها أربعة آلاف فارس بقيادة عدد من الأمراء والتقوا مع السلطان الظاهر بيبرس قرب يافا[١] بناءً على مرسوم أرسله إلى أحد القادة وهو الأمير بدر الدين الخازندار[٢]. كما كان تحصين المدن وإعلان التأهب العسكري بموجب مرسوم فيه أوامر مباشرة من السلاطين، فبعد غارة شنها الفرنج على ميناء طرابلس سنة (٧٥٧هـ/١٣٥٦ م) أمر الناصر حسن بن الناصر محمد الجيوش بالتأهب وأصدر مرسوماً بذلك، ومما جاء فيه: "أن تتقدم العساكر المنصورة بالأعمال الطرابلسية ... بارتداء ملابس الجهد، والتحلي بمرارة الصبر على إجلاء الجلاد، وأن يجيبوا داعي الدين، وأن يكفوا أيدي المعتدين..." [٣].
- **المراسيم الخاصة بالشؤون الإدارية:** وتشتمل على تعليمات بشأن أمور الإعمار وتنظيم الري في النيابات، ومن الأمثلة على ذلك إصدار الناصر محمد مرسوماً لنائب الشام بإعادة بناء قلعة جعبر[٤] وكذلك إصداره مرسوماً بتكليف الأمر بيبرس الدوادار بالإشراف على تجديد بناء

---

(١) يافا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا. ياقوت، معجم البلدان، ج٧، ص١٠٤.

(٢) ابن الفرات، تاريخ الدول، مج٧، ص٤.

(٣) انظر نص المرسوم عند: ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٣، ص١٩٨-١٩٩؛ وانظر حادثة مشابهة عند العسقلاني، الفضل المأثور، ص٤٠.

(٤) اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٦٨.

جعبر: قلعة حصينة من ديار بكر في البر الشمالي الشرقي من الفرات بين الرقة وبالس وكانت تعرف بقلعة دوسر تعرضت للهدم بعد اجتياح المغول للمنطقة. اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٦٨، هامش (٣).

سور الإسكندرية وبناء ما تهدم من مباني المدينة بعد الزلزال الذي حدث في مصر في ذي الحجة من سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)[١].

ومن المراسيم الأخرى ذات الطابع الإداري المرسوم الذي أصدره الظاهر بيبرس إلى والي البحيرة (عمل البحيرة) يأمره بمعالجة مشكلة نقص المياه الواصلة من النيل إلى بعض أراضي البحيرة، وحدد الظاهر بيبرس في المرسوم آلية العمل اللازمة لذلك[٢].

- **مراسيم أخرى متنوعة:** ومنها المراسيم التي تعنى بشؤون أفراد من الطبقة الخاصة مثل أوراق الجواز أو ما عُرِف بأوراق الطريق وهي بمثابة تصريح رسمي يسمح لحامله بالتنقل داخل أراضي الدولة المملوكية ويحمل المرسوم من هذا النوع عنوان: "ورقة طريق على يد فلان بن فلان الفلاني..." ويتضمن ألقاب مَن مُنح له المرسوم[٣].

وكانت المراسيم تصدر في هذا النوع لأحد كبار الأمراء والنواب أو أحد رسلهم أو مماليكهم عند توجهه إلى السلطان في القاهرة أو عند خروجه منها فتشتمل الورقة في هذه الحالة على تعليمات بتهيئة الراحلة لصاحب المرسوم وتخصيص نفقة له وقد تكون الورقة (المرسوم) بخصوص أحد المنفيين فتشتمل على توجيهات بكيفية إيصاله إلى مكان نفيه[٤].

ومن المراسيم الأخرى ما كان يُعنى بقضايا خاصة بالأفراد فمنها على سبيل المثال مرسوم الإفراج عن الأمير بدر الدين بيسري، حيث أصدر الأشرف خليل مرسوم في (١٨ شعبان سنة

---

(١) بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص١٧٣ وقد روى هذه الحادثة؛ وانظر مرسوم مشابه عند المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٧٨٣.
سور الإسكندرية: حول سور المدينة وما يشتمل عليه من أبراج وما فيه من أبواب، انظر: سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص٤٤٤-٤٤٥.

(٢) العسقلاني، الفضل المأثور، ص١٧٢؛ وانظر مرسوم مشابه عند النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٥٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص٢٥١-٢٥٣.

(٤) انظر أنموذج ورقة طريق عند القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص٢٥١-٢٥٣.

٦٩٠هـ/١٢٩١م) حمل عنوان: "إفراج شريف سلطاني". وبُدئ القسم الأول منه بالتحميد، ثم بُدئ القسم الثاني منه بالشكر والثناء على الأمير بيسري مع الحرص على إيراد ألقابه كاملة وحُدد في المرسوم وقت إخراج الأمير من السجن حيث جاء فيه: "يفرج عنه في هذه الساعة من غير تأخير ويمثل بين يدي المقام الأعظم السلطاني بلا استئذان نائب ولا وزير"، وقد وضع المرسوم في كيس أطلس حرير وختم عليه بخاتم السلطان الأشرف خليل[1].

و- البشارات[2]

وهي رسائل ديوانية تتضمن أخباراً رسمية عن الأحداث السارة والإنجازات الهامة في الدولة، ومن أهم سمات هذه الرسائل عرض الأخبار بأسلوب أدبي مشوق، أما أهم شروطها فهو الإسراع بنشرها داخل حدود الدولة المملوكية وخارج حدودها.

وقد ارتبط إصدار البشارات بمواقع الأحداث التي كُتبت لأجلها فقد كانت تصدر على لسان السلطان في موقع الحدث أو تكتب من هذا الموقع على لسان أحد النواب أو قادة الحملات العسكرية، وهي في جميع الأحوال رسائل رسمية لتوثيق ونشر أخبار الإنجازات العسكرية والسياسية وبعض الشؤون الاقتصادية. (وفيما يلي المناسبات الرئيسية التي كتبت فيها البشارات):

---

(١) انظر الحادثة ونص المرسوم عند: النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢١٤-٢١٦؛ ابن الفرات، التاريخ، مج٨، ص١٢٢-١٢٣؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٧٦٩-٧٧٠، هامش (٤) وتكملته وفيه نص المرسوم؛ العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٧٠-٧٢؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٩٠-٢٩١.

(٢) ينوه في هذا الموضع إلى مصطلح مشابه وهو البشائر، أو ما عُرف بدق البشائر حيث تقوم فرقة موسيقية بدق الكوسات وهي صنوج من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع، ويسمى من يضرب بها الكويس. انظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٦٥؛ دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٣؛ وانظر: بيبرس، الداوادار، زبدة الفكرة، ص٢٠٧، هامش (١)؛ العسقلاني، الفضل المأثور، ص٧٢، هامش (٤). أما أماكن دق البشائر فتكون في القلاع أو على أبواب كبار الأمراء، انظر أمثلة على ذلك عند: بيبرس الداوادار، زبدة الفكرة، ص٢٧٠؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٣١٨؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٧٨٤؛ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٥٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣.

١. المناسبات العسكرية، كالانتصارات الكبرى وتحركات الجيوش المملوكية:

كتبت بشارات بعد معارك حاسمة أو اشتباكات مع كل من المغول والفرنجة. ومما كتب منها بعد معارك مع المغول بشارة بالنصر في معركة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) وجهها السلطان المظفر قطز إلى أهالي دمشق. وهذه البشارة رسالة تاريخية هامة؛ فقد كانت إعلاناً للانتصار وإعلاناً لدخول دمشق تحت حكم المماليك، وكانت أول رسالة من قطز إلى أهالي دمشق[١] يخبرهم بالنصر ويعدهم بوصوله إليهم ونشر العدل بينهم[٢]. كما وجه قطز بشارة في نفس المناسبة إلى الملك المنصور صاحب اليمن[٣]. وكتبت بشارات أخرى بعد انتصارات تالية على المغول في شمال بلاد الشام منها بشارة كتبها السلطان الظاهر بيبرس من غزة سنة (٦٦٣هـ/١٢١٦م) وأرسلها إلى جميع أرجاء الدولة[٤] تفيد بتقهقر قوات المغول أمام الجيش المملوكي وانسحابهم من مدينة البيرة. وقد كان الخبر أي البشارة الأولى قد أرسلت على شكل بطاقة على جناح طائر من البيرة إلى دمشق، فأرفق نائب دمشق جمال الدين النجيبي البطاقة برسالة وأرسلها بواسطة البريد إلى الظاهر بيبرس فوصلته وهو في نواحي غزة في بلدة تعرف ببنين[٥].

وكتبت بشارات بعد دحر المغول عن حمص وانتصار المماليك في موقعة جرت بقيادة المنصور قلاوون يوم الخميس الرابع عشر من رجب سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، وكانت البشارات

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣٢؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص٢٤٩.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٤.

(٣) انظر نص البشارة عند: حمادة، الوثائق السياسية، ص٣٥٨-٣٦٠.

(٤) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص١٢٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص ٢٦٣.

(٥) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٢٤؛ بيبرس الداودار، زبدة الفكرة، ص١٢٧.
البطائق: البطاقة رسالة تكتب في ورق الطير المعروف بذلك وتكتب في أولها بسملة وتؤرخ بالساعة واليوم لا بالسنين ولا تكثر النعوت فيها ولا يذكر حشو في الألفاظ ولا يكتب إلا لب الكلام وزبدتــه وأن يكتــب ســرح الطائر ورقبه حتى إن تأخر الواحد ترقب حضوره وكان بقلعة الجبل أبراج برسم الحمام الزاجل، للمزيد أنظر: بيبرس، الداوادار، زبدة الفكرة، ص١٢٧، هامش (٣).

الأولى في بطاقة وصلت دمشق بعد صلاة الجمعة في اليوم الثاني من المعركة، ودقت على أثرها البشائر في قلعة دمشق وزينت المدينة، وأوقدت الشموع فيها[١]. وتلا ذلك إرسال البشارة في بطائق مخلقة[٢] وفي رسائل أرسلها قلاوون إلى دمشق والمدن الشامية فوصلت رسالة دمشق[٣] فجر يوم السبت الرابع عشر من رجب وتمت قراءتها على منبر الجامع وفيها تأكيد لانتصارات المماليك. وكانت البشارات التالية إلى القاهرة وأولها بطائق مخلقة وصلت ظهر يوم الخميس الحادي والعشرين من رجب لتبشر بالنصر وتنفي ما ورد في بطاقة سابقة حول كسر ميمنة الجيش[٤].

وكانت ثاني البشارات إلى القاهرة رسائل أرسلت بالبريد فوصلت إلى الصالح علاء الدين علي بن المنصور قلاوون وعلى أثرها دقت البشائر وزينت القاهرة استعداداً لاستقبال الجيش على رأسه السلطان المنصور قلاوون[٥]. وكان من بين البشارات التي وصلت إلى القاهرة رسالة بالبشارة أرسلها السلطان المنصور قلاوون لتجهز وترسل إلى الملك المظفر شمس الدين بن رسول

---

[١] ابن الفرات، التاريخ، مج٧، ص٢١٩؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٦٩٦.

[٢] البطائق المُخلقة: هي البطائق التي ترسل على الطيور المعطرة بالرائحة العطرية المسماة "خلوق" وكانت العادة في نقل الأخبار السارة أن يمسح الطيور والبطائق التي تحملها بهذه المادة أو غيرها من العطور كالزعفران، وقد يُمسح ويُسرَّح بالبطائق المخلطة من غير كتابة، أما طيور الأخبار السيئة وبطائقها فكانت تلطخ بالسواد، المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٦٩٧، هامش (١)؛ العسقلاني، الفضل المأثور، ص٧٢، هامش (١).

[٣] انظر نص البشارة عند: ابن حبيب، تذكرة النبيه، ص٦٣؛ حمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص٣٦٤.

[٤] اختلط الأمر على سكان دمشق فقد تغلبت ميمنة الجيش المملوكي على ميسرة المغول في حين تراجعت ميسرته أمام ميمنة المغول وعاد جماعة من ميسرة جيش المماليك إلى دمشق وذكروا ما جرى من هزيمة دون أن يعلموا أن المعركة حسمت على يد أمراء ميمنة الجيش المملوكي، للمزيد انظر: بيبرس، الداوادار، زبدة الفكرة، ص٢٠٦-٢٠٧، والتحفة الملوكية، ص٩٩؛ ابن الفرات، تاريخ الدول، مج٧، ص٢١٦-٢٢٠؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٦٩٣-٦٩٦.

[٥] ابن الفرات، تاريخ الدول، مج٧، ص٢٢٠؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٦٩٦، وانظر: العسقلاني، الفضل المأثور، ص٧٨-٧٩.

صاحب اليمن، فكتب الملك الصالح بن قلاوون كتاباً (رسالة) مطابقة لها وأرسلها من القاهرة إلى اليمن[١].

أما البشارات التي صدرت بعد المعارك الكبرى مع الفرنج (الصلبيين) فتتمثل بالبشارات بتحرير المدن الشامية ومنها بشارة بفتح يافا سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٣م) وأخرى بفتح الشقيف سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م) أرسلها السلطان الظاهر بيبرس إلى القاضي شمس الدين ابن خلكان وذلك ليقوم بنشرها بين أهالي دمشق[٢]. ومن هذه البشارات أيضاً بشارات بفتح حصن المرقب سنته (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) أرسلها المنصور قلاوون إلى ابنه الأشرف خليل والي الأمير علم الدين الشجاعي في القاهرة[٣]. وبشارة أخرى بفتح طرابلس سنة (٦٨٨هـ/١٢٨٩م) أرسلها السلطان المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن الملك المظهر شمس الدين يوسف بن عمر بن رسول (ت٦٩٤هـ/١٢٩٤م) [٤]. كما كتبت بشارات عند فتح قلعة الروم (قلعة المسلمين) على يد الأشرف خليل سنة (٦٩١هـ/١٢٩١م) ومن بينها بشارة على لسان الأشرف إلى قاضي قضاة دمشق شهاب الدين الخوبي وبشارة أخرى لنفس الغرض صدرت على لسان الأمير علم الدين سنجر الشجاعي نائب الشام إلى القاضي شهاب الدين الخوبي قاضي قضاة دمشق وبشارة أخرى لنفس الغرض

---

(١) انظر الخبر ونص البشارة عند: ابن الفرات، التاريخ، مج٧، ص٢٢٢-٢٢٥، وانظر نص البشارة دون الخبر عند: حمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص٣٦٥-٣٦٨، وانظر الخبر دون نص البشارة عند: المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٦٩٩.

(٢) انظر على التوالي نصوص البشارات عند: اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٧٥-٣٨١؛ حمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص٢٧٤-٢٧٥؛ ٢٧٠-٢٧٣.

(٣) انظر على التوالي نصوص البشارات عند: حمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص٣٢٤-٣٢٩.

(٤) انظر أجزاء مقتطفة من هذه البشارة عند: ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج١، ص١٢٢-١٢٤؛ وانظر جزء من النص عندك ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٧٤؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٥٦٧؛ وانظر النص الكامل عند: حمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص٣٠١-٣٠٥.

صدرت على لسان الأمير علم الدين سنجر الشجاعي نائب الشام إلى القاضي الخوبي ليتولى نشر خبر فتح المدينة بين الناس[١].

ويلاحظ من خلال هذه البشارات التتابع في إصدارها تبعاً لتوالي تحرير المدن الإسلامية من أيدي الفرنجة (الصليبيين والمغول)، بالإضافة إلى عناية المصادر بإيراد نصوصٍ كاملة لها وهي بذلك تشكل وثائقَ أساسية في دراسة مرحلة هامة من مراحل التاريخ الإسلامي.

٢. المناسبات الخاصة بالخلفاء والسلاطين:

كتبت بشارات عند مبايعة الخلفاء وكان إصدارها أمراً اعتيادياً؛ فعندما بويع المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بالخلافة سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م) كتبت البشارة بذلك إلى جميع الأقطار والممالك الإسلامية[٢]، وكما هو الحال في مبايعات الخلفاء كانت تكتب عند مبايعة السلاطين[٣]، إلا أن التطورات السياسية والصراع على الحكم في بعض فترات العصر المملوكي أظهرت أن البشارات التي وجهت إلى نيابات الدولة الكبرى مثل دمشق كانت الخطوة الأولى في مساعي السلاطين لتثبيت حكمهم، ومن أوضح الأمثلة على ذلك البشارات التي كتبت عند مبايعة العادل كتبغا بالسلطنة بعد خلع الناصر محمد بن قلاوون في شهر محرم سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) وقد اعتمدت هذه البشارات صيغة واحدة، وأرسلت إلى جميع نواب الأقاليم وفيها وصف دقيق للاحتفال بمبايعة كتبغا وجلوسه على كرسي السلطنة[٤].

---

(١) انظر على التوالي نصوص البشارات عند: النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٢٧-٢٣٩؛ ابن الفرات، تاريخ الدول، مج١٨، ص١٣٧-١٤٤؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص١٠٠٥-١٠١٠ ملاحق الجزء الأول ملحق رقم (٣).

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٥٧٠.

(٣) انظر بشارات في هذه المناسبة عند: النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٩٤، ١٠٤؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٥٥١، ٤٤٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٩٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور ج١، ق٢، ص٤.

(٤) انظر الخبر ونص البشارة عند: ابن الفرات، مج٨، ص١٩٢-١٩٥؛ وانظر النص دون الخبر عند: حمادة، الوثائق السياسية، ص١٣٣-١٣٥.

إضافة إلى ذلك كتبت بشارات في مناسبات أخرى خاصة بالسلاطين مثل البشارة بعودة السلطان بعد أدائه فريضة الحج[١] أو بعد شفائه من مرض أَلَمَّ به[٢].

٣. مناسبة "وفاء النيل":

كانت من المناسبات الهامة التي حرص السلاطين المماليك على إصدار البشارات فيها، وقد وصف القلقشندي هذه المناسبة وبين أهميتها حيث يقول: "وهذه المكاتبة من خصائص الديار المصرية، لا يشاركها فيها غيرها من المماليك، ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهُلمّ جرا يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولاة الأعمال اهتماماً بشأن النيل وإظهاراً للسرور بوفائه. الذي يترتب عليه الخصب المؤدي إلى إيعازه وقوام المملكة، وانتظام أمر الرعية"[٣].

وقد اشتملت بعض المصادر على نصوص متكاملة لبشارات كتبت عند وفاء النيل[٤]، كما اشتمل البعض الآخر من المصادر على حوادث إرسال البشارات في هذه المناسبة[٥].

ز- **الصَّداق:**

وهو رسالة ديوانية كانت تكتب في مناسبة زواج السلطان أو أحد أبنائه أو بناته أو أحد كبار الأمراء أو الأعيان، وقد صنف القلقشندي هذا النوع من الرسائل تحت عنوان: "الصّدقات الملوكية"[٦].

---

[١] النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٢٣٦؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٨٣.

[٢] المقريزي، السلوك، (ج١، ق٣، ص٨٣١)، (ج٢، ق١، ص٢٥٧).

[٣] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص٣٣٢؛ وانظر: حمادة، الوثاق السياسية، ص٤١.

[٤] ابن الفرات، تاريخ الدول، مج٨، ص١٨٢-١٨٣؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص٣٣٥-٣٣٦؛ وانظر: حمادة، الوثائق السياسية، ص٢٨٦-٢٨٨.

[٥] أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٤٢٨؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٦٨٠.

[٦] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٣٤١؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص١٤٩.

وتبرز الصبغة الرسمية لهذا النوع من الرسائل من خلال تكليف أحد كتاب الإنشاء بإعدادها وصياغتها وفق منهج واضح. ومن الأمثلة على هذا النوع صَداق في زواج الملك السعيد بركه بن الظاهر بيبرس على غازيه خاتون ابنة الأمير سيف الدين قلاوون (السلطان المنصور قلاوون) أثناء سلطنة الظاهر بيبرس سنة (٦٧٤هـ/١٢٧٦م)، وقد تولى القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء كتابة الصَداق حيث استُهل بعد البسملة بخطبة مفتتحة بالتحميد ثم بيان أسباب عقد المصاهرة، كما اشتمل في فقرة رئيسية تبدأ بالبسملة على قيمة الصَداق[١].

وكان هذا النص موضع اهتمام من المؤرخ شافع بن علي العسقلاني الذي عمل في ديوان الإنشاء حيث يقول: "واقتضى لي التدريب في صنعة كتابة الإنشاء أن أجرب القريحة وقد كانت من دأب الكد... أن أنشئ مثال ما أُنشئ في هذا المعنى ... فأنشأت..." [٢]، وقد أورد العسقلاني النص الذي أعده مما يؤكد الصبغة الرسمية لرسائل الصداق وبأن إعدادها مهمة رسمية من مهام ديوان الإنشاء.

رابعاً: النصوص الملحقة بالرسائل الديوانية

احتوت المصادر المملوكية على نصوص رسمية صورت عن ديوان الإنشاء ارتبط إصدارها بتفعيل جوانب قانونية وتأكيد التزامات شرعية وأخلاقية لبعض الإجراءات السياسية والإدارية التي صدرت بموجبها رسائل ديوانية. وتتمثل هذه النصوص بالإيمان.

---

[١] انظر نص الصداق عند: العسقلاني، الفضل المأثور، ص٢٨-٣٢؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٣٠، ص٢٢٤-٢٢٧؛ ابن الفرات، تاريخ الدول، مج٧، ص٥١-٥٣؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٤١-٣٤٤؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص١٤٦-١٤٩؛ وانظر تحليل النص عند: سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص١٥٠-١٥٢.

[٢] العسقلاني، الفضل المأثور، ص٣٢-٣٥.

- **الأيمان:**

كان أداء اليمين أو ما عرف بالتحليف تقليداً متبعاً في العصر المملوكي يقوم على أساس طاعة السلطان المملوكي وإخلاص النية له، ويتساوى في ذلك المسلمون على اختلاف مذاهبهم مع غير المسلمين على اختلاف معتقداتهم، ويَخلف الشخص بالطاعة وفق ما تقتضيه عقيدته أو معتقده[١]، فيتضمن نص اليمين جمل وإشارات إلى حوادث دينية كبيرة لها أهميتها في نظر كل دين أو مذهب كل على حدة[٢].

وقد بينت كتب الدساتير الجهات التي تقوم بأداء اليمين بالتوازي مع إيراد نماذج النصوص اللازمة لكل جهة[٣]، وهي نماذج تُجهز للاعتماد عليها إذا دعت الحاجة إلى ذلك[٤]. وبينت كتب التاريخ العام الإجراءات التي تطلبت أداء اليمين ونصوص أيمان لبعض الأحداث التاريخية والإجراءات الإدارية، كما بينت هذه الكتب بنوعيها ترتيبات عملية التحليف. ويمكن توضح أهمية الإيمان خلال هذا العصر من خلال ما يلي:

أ. أنواع الأيمان

ارتبط تصنيف الأيمان بطبيعة النظام السياسي في الدولة الإسلامية بشكل عام والدولة المملوكية بشكل خاص وبالنظام الإداري في الدولة المملوكية وبالعقائد والمذاهب والطوائف المختلفة سواء داخل حدود الدولة أو خارجها وشكلت هذه العوامل الأساس في تقسيم الأيمان رغم اختلاف الإطار العام في التقسيم.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٠٧-٣٠٨؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٨٥٣.

(٢) عبد اللطيف، القلقشندي، ص٢٦١.

(٣) حول نماذج النصوص، انظر: ابن فضل الله العمري (القسم الثالث في نسخ الإيمان)، ص١٨٦-٢٠٧؛ ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، (ضمن القسم السادس)، ص١٥٧-١٨٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، (المقالة الثامنة)، ص٢٠٢-٣٢٠؛ السحماوي، الثغر الباسم، (ضمن القسم الثالث عشر)، ص٨٥٣-٩٠٢.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣١١.

وقد وضع كتاب الدساتير الأُطر العامة للأيمان. ويمكن توضيح ذلك من خلال التقسيمات التي جاء بها كل من ابن فضل الله العمري، وابن ناظر الجيش، والقلقشندي.

أقسام الأيمان عند ابن فضل الله العمري[1]:

حددها بأربعة أنواع سماها نسخ الأيمان وهي لأربع فئات وجاءت على الشكل التالي:

النوع الأول: يمين المبايعة العامة وهو خاص بالمسلمين السنة – دون تصريح بذلك- يعتمد لتحليف الأمراء وكبار موظفي الدولة، وقد أورد نصاً هاماً يستهل بعبارة: "والله والله" يزاد في اليمين كل حسب وظيفته.

النوع الثاني: أيمان أهل الكتاب.

النوع الثالث: أيمان الطوائف من أهل البدع (ويشمل المسلمين من غير السنة).

النوع الرابع: أيمان الحكماء أي الفلاسفة.

أقسام الأيمان عند ابن ناظر الجيش[2]:

تشابهت مع تقسيم ابن فضل الله العمري في تقديم يمين المبايعة العامة بوصفه يمين المسلمين السنة وميزه عن نوعين آخرين وهما: أيمان أهل البدع المسلمين من غير السنة ومعهم الحكماء وأيمان الملل (الأخرى) النصارى واليهود ومعهم المجوس.

أقسام الأيمان عند القلقشندي:

أورد القلقشندي تفصيلاً لأنواع الأيمان تحت عنوان الأيمان الملوكية. وجاءت على الشكل التالي:

النوع الأول: الأيمان المتعلقة بالخلفاء. وهي في قسمين:

---

(١) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٨٦-٢٠٧.

(٢) ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٥٧-١٧١.

القسم الأول: ما يُحلف بها على بيعة الخلفاء عند مبايعتهم وهي الأصل في الأيمان الملوكية.

والقسم الثاني: ما يحلف بها الخلفاء أنفسهم وهذه الأيمان قل من تعرض لها لقلة وقوعها "إذ الخليفة قلما يحلف لعلو مرتبته"[(١)].

لذا أهمل ابن فضل الله العمري هذا القسم[(٢)] وهذا تقسيم نظري استمده القلقشندي من الموروث الإسلامي ولم يُعتمد خلال العصر المملوكي.

النوع الثاني: الأيمان المتعلقة بالسلاطين وصنفها القلقشندي تحت عنوان: "الأيمان المتعلقة بالملوك" يُحلف بها على طاعة السلطان وإخلاص النية له وإذا كان للسلطان ولي عهد يحلف له ولولي عهده[(٣)]. وقد قسمها إلى أربعة أقسام هي[(٤)]:

القسم الأول: أيمان المسلمين: وميز فيه بشكل وضح بين أيمان المسلمين السنة وسماها "اليمين العامة" واعتمد فيها نص المبايعة العامة الذي أورده ابن فضل الله العمري وبين أيمان المسلمين من الفرق الأخرى وسماها: "أيمان أهل البدع".

القسم الثاني: أيمان اليهود بمختلف طوائفهم وأيمان النصارى بفرقهم المختلفة وأيمان المجوس ومن دان بدينهم وقد سماها: "الأيمان التي يحلف بها أهل الكفر".

القسم الثالث: أيمان الحكماء وهم المعبر عنهم بالفلاسفة بأصنافهم المختلفة.

ب. الإجراءات السياسية والإدارية التي تطلبت أداء الأيمان:

١. الأيمان الخاصة بالمهادنات:

كان أداء اليمين عند عقد المهادنات إجراءً أساسياً له سمات خاصة تنبع من طبيعة المهادنات بنوعيها: الهدن والمواصفات، فكانت تعقد بين المسلمين وغير المسلمين وفق شروط ينبغي على

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢١٥، ٢١٩؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٨٥٤.

(٢) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٨٦، هامش (١).

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٢٠-٢٢٤، ٣٩٧؛ وانظر: السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٨٥٨.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٢٠-٣٠٧؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٨٥٣.

الطرفين الالتزام بها. فإذا كتبت المهادنة كتب قرينها يميناً يحلف به السلطان أو نائبه القائم بعقد الهدنة وذلك على التوفية بفصولها وشروط ويمين أخرى ليحلف عليها الحاكم من الطرف الآخر أو القائم عنه ممن يأذن له في عقدها بكتاب يصدر عنه بذلك[١].

واتبعت في كتابة الأيمان على المهادنات طريقتان هما:

الطريقة الأولى: يكتب اليمين في نص منفصل عن نص المهادنة، وفي اليمين الواحد يُترك فراغان يكتب فيهما اسم الحالف مرتين الأولى بعد قوله: "أقول وأنا ....". والثاني بعد قوله: "وهذه اليمين يميني وأنا ..." سواء في ذلك اليمين التي يحلف بها السلطان أو الملك أو (الحاكم لأي جهة) الذي تقع معه المهادنة: "من ملوك الإسلام أو ملوك الكفر"[٢].

وقد كتبت الأيمان في المهادنات مع الفرنج وفق هذه الطريقة فوردت في بعض المصادر نصوص أيمان متعددة جاءت منفصلة عن نص الهدنة، منها: يمين المنصور قلاوون ويمين حاكم عكا على الهدنة المعقودة سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م[٣].

الطريقة الثانية: تكون بإدراج نص اليمين مع النص الأصلي للمهادنة مثل نسخة الهدنة[*] التي وصلت إلى المنصور قلاوون من الإمبراطور البيزنطي في رمضان من سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م) ومؤرخة بتاريخ موافق لأواخر المحرم من السنة المذكورة فتمت ترجمتها وكان يمين الإمبراطور

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٨؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٩٣٨.

[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٢٠.

[٣] ابن الفرات، تاريخ الدول، مج٧، ص٢٧٠-٢٨٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٩٩٥-٩٩٧، ملاحق الجزء الأول، ملحق رقم (٨)؛ حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، ص٣١٣-٣١٦. وحول إجراءات التحليف دون نص اليمين انظر: العسقلاني، الفضل المأثور، ص١٦٢.

[*] أورد القلقشندي الحادثة والنص. انظر: صبح الأعشى، ج١٤، ص٨٤-٩٠ وذلك تحت عنوان: "هذه نسخة هدنة" في صفحة ٩٠ من نفس الجزء نوه بالقول بأن الرسالتين وإن عبر عنها بلفظ اليمين فإنها بعقد الصلح أشبه واليمين جزء من أجزاء ذلك ولذا أوردتها في عقود الصلح دون الأيمان.

البيزنطي في السطر الثامن منها وهو يمين النصارى، ورداً عليها كتب المنصور قلاوون نسخة اتفاق "فقسمه بيمين موافقة لها" وورد هذا اليمين في السطر الثالث من الفقرة الثانية من النص[١].

تتمثل الخطوة التالية لعملية تجهيز نصوص الأيمان بإجراء عملية التحليف، فإذا تم الاتفاق على إجرائها في القاهرة ينتدب الحكام من الطرف الآخر رسلاً من قبلهم لأداء اليمين أمام السلطان المملوكي مثل الرسل الذين أدوا اليمين عن أهل جنوه في الهدنة التي عقدت في عهد السلطان المنصور قلاوون سنة (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)[٢].

وأما إذا اتفق على إجراء عملية التحليف خارج القاهرة فيتم تجهيز نسخة للحاكم من الطرف المُهادَن ليحْلِف عليها ويكتب خطة بذلك وتعاد إلى القاهرة[٣]، فقد أرسل الظاهر بيبرس نسخة يمين على الهدنة التي عقدت بينه وبين حاكم عكا الفرنجي مع صاحب ديوان الإنشاء محيي الدين بن عبد الظاهر وأرسل المنصور قلاوون سنة (٦٨٠هـ / ١٢٨١م) نسخ أيمان على هدنتين عقدهما مع الاسبتارية الفرنج في الساحل ومع حكام عكا وذلك مع كل من الأمير فخر الدين إياز المقري الحاجب[٤] والقاضي بدر الدين بن رزين[٥]. كما كَلف المنصور قلاوون الأمير فخر الدين إياز بمهمة مشابهة حيث أرسله إلى متملك (حاكم) سيس بعد هدنة عقدها معه سنة (٦٨٤ه/ ١٢٨٥م)[٦].

---

(١) ابن الفرات، تاريخ الدول، مج٧، ص٢٢٩-٢٣٣؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٨٤-٩٠؛ وانظر: ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص٢٠٤ (تتمة جمع المحقق)؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٤٨٠-٤٨٥.

(٢) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص١٦٧-١٦٩ (نص المخطوطة)؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٤٨٠-٤٨٥.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٨٣؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٩٣٨.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٧٧؛ ابن عبد الظاهر، التشريف، ص٨٢-٨٣ (جمع المحقق)؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٢٦٢-٢٦٣.

(٥) ابن عبد الظاهر، التشريف، ص٤٣ (نص المخطوطة).

(٦) المصدر نفسه، ص٩٣ (نص المخطوطة).

وكان نص اليمين في المهادنات بأنواعها سنداً قانونياً وشرعياً يستطيع السلاطين استخدامه عند الحاجة إليه ويتضح ذلك من خلال إجراء اتخذه الظاهر بيبرس تجاه الإمبراطور البيزنطي[1]، فحين اعترض الإمبراطور أرسل الظاهر بيبرس إلى المغول سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٤م) "اجتمع الظاهر بيبرس بالبطاركة والأساقفة وسألهم عمّن خالف الأيمان وما كتب به الأشكري (حلف عليه)، فأجابوا بأنه يستحق أن يُحرم من دينه فأخذ السلطان (بيبرس) خطوطهم بذلك، وأخرج لهم نسخ أيمان الأشكري وقال: إنه قد نكث بإمساك رسلي ثم جهز إليه راهب عُرِف باسم الفيلسوف اليوناني وإقسيس وأسقف يحرمانه من دينه –لإثبات الكفر عليه– وكتب له كتاباً أغلظ فيه"[2].

٢. الأيمان الخاصة بعقود الصلح:

تناولت بعض المصادر حوادث أداء الأيمان بعد إجراء عقود الصلح. وشأنها شأن حادثة الصلح نفسه لم تغنى المصادر بإيراد خصائص محددة لكتابتها نظراً لأن الصلح كان يتم غالباً بعد صراع داخلي بين السلطان ومناوئيه أو منافسيه مثل صلح المنصور قلاوون مع سنقر الأشقر سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، فمن خلاله تم الاتفاق على أن يسلم سنقر الأشقر شيزر وما سيطر عليه من مدن حولها على أن يعطى تقليداً على هذه المناطق بستمائة فارس للجهاد. فحَلَفَ سنقر اليمين على هذا الاتفاق وأرسله إلى المنصور قلاوون في القاهرة مع الأمير علم الدين سنجر الدواداري فحلَّف

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥١٤، هامش (١) وفيه ورد تعريف بالإمبراطور الحاكم في تلك الفترة تحت اسم الباسلوس كر ميخائيل، والباسلوس معرب اللفظ اللاتيني (Basileus) ومعناه الإمبراطور، وقد تلقب به أباطرة الدول البيزنطية منذ أوائل القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري.

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥١٤. ولقب الأشكري إشارة إلى الإمبراطور البيزنطي حسب المصادر الإسلامية وقد لقب به أباطرة الدولة البيزنطية منذ أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بعد استيلاء الفرنجة على القسطنطينية وكان اسمه ثيودور لايسكاريس Lascaris؛ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المقفى، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١، ج٢، ص٥٣٨، هامش (١). وسيشار له: المقريزي، المقفى؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٢٢١، هامش (٢).

عليه قلاوون وأرسل بدوره الأمير فخر الدين المقري[١] والأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار المنصوري إلى سنقر يحلفانه ويسلمانه التقليد بالإمرة ويتسلمان منه شيزر والشغر وبكاس[٢].

ومن هذه الأيمان أيضاً اليمين على الصلح الذي عقد بين المنصور وقلاوون والمسعود خضر بن الظاهر بيبرس سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م) وقد انتدب المنصور قلاوون كلاً من الأمير بدر الدين بيليك السلحدار والقاضي تاج الدين بن الأثير للذهاب إلى الكرك ليحلفا المسعود خضر فيها[٣].

٣. الأيمان الخاصة بالأمانات:

تميز هذا النوع بقيام السلطان المملوكي بحلف اليمين للشخص أو للجهة التي منحها، فهو على خلاف أيمان التقاليد التي يُحلف فيها بالطاعة والوفاء للسلطان، وهو أيضاً على خلاف المهادنات التي يُحلِفُ فيها السلطان ونظيره ليفي كلاهما بالتزامات واضحة ومحددة.

وأقدم السلاطين على حلف اليمين أو كلفوا من ينوب عنهم مما يدل على أن أداءه كان أمراً اعتيادياً يحقق للسلطان غرضه المنشود، ومن ذلك التزام المنصور قلاوون باليمين على الأمان الذي أعطاه لأبناء السلطان الظاهر بيبرس المسعود خضر وبدر الدين سلامش. وورد في الأمان –سابق الذكر– على لسان قلاوون: "فقد جعلنا لكم من ضيق ما أنتم فيه من صدرنا ونعمتنا أعظمة سعة، ولكم الأمان، والوفاء بالأيمان على ما يقتضيه صدق الأيمان"[٤]. وبذلك حَلَفَ لهم قلاوون وأرسل إليهم من يحلفهم[٥].

---

(١) بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص٩٨ وزبدة الفكرة، ص٢٠١.

(٢) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٢٠١ وفي هامش (٢) من الصفحة تدقيق لاسم الأمير فخر الدين يسمى آياز بن عبد الله ويعرف بالمقري (ت سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م).

(٣) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٢٠١؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٨؛ ابن الفرات، مج٧، ص٢١٠.

(٤) العسقلاني، الفضل المأثور، ص١٣٩.

(٥) ابن عبد الظاهر، التشريف، ص٨٨ (جمع المحقق).

والتزم السلطان المنصور قلاوون كذلك باليمين على الأمان الذي منحه لسنقر الأشقر سنة (٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، فقد أرسل سنقر الأشقر الأمير علم الدين سنجر الدواداري وشمس الدين الخزندار بنسخة اليمين؛ فحلف قلاوون على ما تقدر في الصلح وأرسل معهم من جهة الأمير فخر الدين إياز المقري الحاجب والأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار فحلفا سنقر[١].

ويمكن من خلال المزيد من الروايات التاريخية رسم صورة حية للأحداث التاريخية التي تشكلت عند تفعيل الأيمان. والحادثة محورها اليمين الذي حلفه الظاهر بيبرس لأكبر خصومه من بقايا البيت الأيوبي -من غير ملوك حماه- وهو الملك المغيث عمر حاكم الكرك الشوبك، ولهذا اليمين الذي صَدَرَ سنة (٦٦٠هـ/١٢٦٢م) [٢] أهمية تاريخية وأدبية اتضحت من خلال ما يلي:

١- استطاع الظاهر بيبرس من خلاله استدراج المغيث عمر ليخرج من الكرك ثم أمر بإيصاله آمناً إلى القاهرة وفيها لقي المغيث عمر حتفه[٣].

٢- لهذا اليمين أهمية أدبية؛ فقد كُلِف القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر بكتابته وفق أنموذج اليمين العامة، وقد افتتح بالبسملة وجاء في الفقرة الأولى منه: "أقول وأنا بيبرس، والله، والله والله، وتالله وتالله، وبالله وبالله وبالله، العظيم الرحمن الرحيم... إني من وقتي هذا وساعتي هذه، وما مدّ الله في عمري، قد أخلصت نيتي وأضفيت سريرتي، وأجملت طويتي،

---

[١] المصدر نفسه، ص٨٨ (جمع المحقق).

[٢] انظر: نص اليمين عند: النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص٣٩٥-٤٠٠.

[٣] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٢٢-١٢٣، ١٤٨-١٥٠؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٥٣٢، ج٢، ص٩٣؛ أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٢٨-٣٢٩؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص٤٠١-٤٠٢؛ ج٣، ص٨٠-٨١؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٢٠٩؛ ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، ج٢٠، ص٢٨٨، ٣٠٩.

في موافقة المولى: الملك المغيث فتح الدين عمر، بن السلطان الشهيد الملك العادل سيف الدين أبي بكر، بن محمد، بن أبي بكر بن أيوب ومصافاته وموّدتِه"[1].

٣- جرى الإشهاد على اليمين فكتبت أسماء الشهود من جهة الظاهر بيبرس وهم تسعة من كبار الأمراء إضافة إلى القاضي ابن لقمان وأسماء الشهود من جهة المغيث عمر وهم اثنان من أتباعه قدما من الكرك لهذا الغرض أحدهم كاتبه ويدعى أحمد الكركي[2].

٤- اشتمل اليمين أيضاً على "خط المُستَحلِف" وهو على لسان المغيث عمر وصيغته: "أحلفت مولانا السلطان ... الملك الظاهر ... بهذه اليمين المباركة من أولها إلى آخرها على الوجه المشروح فيها، تاريخ الثالث والعشرين من المحرم سنة ستين وستمائة..." وذيلت الفقرة باسم الكاتب خزاعة بن عبد الرازق بن علي[3].

أما الحادثة الثانية فتتجسد فيها بعض ملامح شخصية الظاهر بيبرس إبان نجاحه في تحرير مدينة صور من الفرنجة (الصليبيين) في الخامس عشر من شوال سنة (٦٦٤هـ / ١٢٦٥م) فعند دخوله المدينة منح أهلها الأمان على أنفسهم دون أموالهم وبدورهم طلبوا منه اليمين على هذا الأمان فاختار الظاهر بيبرس الأمير كرمون التتاري (التتري) وكان يشبهه وأجلسه على كرسي السلطنة وحضرت رسل الفرنجة نيابة عن سكان صفد من الفرنجة واستحلفوه، فحلَفَ وهم يظنونه الظاهر بيبرس، وقصد بيبرس بذلك التحلل من أمانة، وحين تسلم قلعة المدينة في الثامن عشر من الشهر المذكور بدأت قواته بإخراج الفرنجة منها أولاً بأول وتنفيذ أوامره بتفتيشهم على باب

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص٣٩٩-٤٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٢٩، ص٣٩٩-٤٠٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٢٩، ص ٤٠٠.

المدينة[١]، فوجد معهم الأسلحة والتحف ووجد بينهم عدداً من أسرى المسلمين أخرجوهم على أنهم نصارى منهم[٢].

وكان هذا التجاوز من قبل الفرنجة مخالفة لشروط الأمان، ويشير ابن عبد الظاهر إلى ذلك بالقول بأن هذا مما ينقض الأمان لو كان حقيقة "فكيف وما أعطاهم السلطان – الظاهر بيبرس– أماناً معتبراً"[٣] وبأنهم ما كلفوا السلطان يميناً"[٤].

٤. الأيمان الخاصة بالمبايعات والعهود:

كان أداء يمين الطاعة للسلطان الجديد أو لمن اختاره لولاية العهد أمراً ملزماً لجهات عدة داخل الدولة من أهمها الأمراء والمماليك السلطانية في القاهرة والنواب والأمراء والجند وكبار موظفي الدولة والأعيان خارج القاهرة وخاصة في الشام.

وكان التحليف في القاهرة يتم غالباً في قلعة الجبل لفئة الأمراء والمماليك على الشكل التالي:

- **تحليف فئة الأمراء:** يتم تحليفهم في قلعة الجبل حيث تُعد الأيمان الخاصة بهم في ديوان الإنشاء ويتولى كتاب الإنشاء مهمة التحليف فيتولى كل كاتب تحليف جماعة منهم بأن يُنصِب المصحف الشريف على كرسي أمام الحالفين ويتلفظون بألفاظ يمين المبايعة العامة أو ما عُرِف بيمين المبايعة العامة ويكتب كل واحد من كتاب الإنشاء أسماء الأمراء الذين حَلَفَهم في ورقة ويؤرخها ويقوم بحفظها في ديوان الإنشاء[٥].

---

[١] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٣٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٢٤.

[٢] المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٤٧.

[٣] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٦١.

[٤] المصدر نفسه، ص٢٦٢.

[٥] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣١٩؛ ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٥٩.

وكان العسقلاني كاتب الإنشاء وصاحب كتاب الفضل المأثور قد تولى مع غيره من الكتّاب تحليف الأمراء حين بويع السلطان المنصور قلاوون بالسلطنة سنة (٣٧٨هـ/٩٨٨م) ووثّق العسقلاني في هذه الحادثة بالقول: "وأحضرت الختمات لتحليفهم فأخذنا في التحليف، وسارعت الأمراء للأمان من غير تكليف"[١].

- **تحليف فئة المماليك:** كان يتم تحليفهم في قلعة الجبل ولكن لم تجرِ العادة بكتابة أيمان لهم من ديوان الإنشاء بل يكتفى بأيمانهم تجاه المصحف الشريف في القلعة وبكتابة أسمائهم وأنسابهم وطبقاهم في قوائم بخط كاتب الإنشاء الذي يحلفهم ثم تحفظ القوائم في ديوان الإنشاء[٢].

أما التحليف لمن هم خارج القاهرة وخاصة من الأمراء والنواب فكانت تكتب للنائب أو الأمير نسخة اليمين من ديوان الإنشاء في القاهرة وترسل إليه فيَحلِفُ على حكمها متلفظاً بألفاظها جميعها، كما يقوم بكتاب اسمه مرتين في موضعين محددين تركا "بياضاً" (أي فراغاً) لهذا الغرض. الأول: في بداية نص اليمين بعد أقول وأنا ... والثاني: بعد وهذه اليمين يميني وأنا..."[٣].

وتتميز نسخ الأيمان المرسلة إلى النواب بزيادة في نص اليمين تبعاً لمسؤولياتهم في حفظ النيابة وضمان تبعيتها وولائها للسلطان فيزاد على اليمين العامة: "وعليّ أن أبذل جهدي وطاقتي في ذلك كله وحفظ المملكة التي استنابني فيها وصيانتها وحمايتها وما بها من القلاع والثغور والسواحل"[٤].

---

[١] العسقلاني، الفضل المأثور، ص٥٢.

[٢] السحماوي، الثغر الباسم، ص٩٠١.

[٣] ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٥٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٢؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج٢، ص٩٠٠.

[٤] ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٥٩.

وفي سياق شرح موضوع تحليف الأمراء والنواب يمكن القول أن حادثة حلف اليمين للمنصور قلاوون إبان توليه السلطنة كانت من الحوادث الشهيرة، فحين تولى السلطنة في شهر رجب من سنة (٣٧٨هـ/٩٨٨م) أرسل بواسطة البريد نسخة يمين إلى دمشق وباقي نيابات الشام[١]؛ ففي دمشق جُمِع الأمراء والجند وكبار موظفي الدولة والأعيان في دار السعادة وحلفوا اليمين "إلا الأمير سنقر الأشقر نائب الشام (دمشق) فإنه لم يحلف ولا رضي بما جرى من خلع سلامش –بن الظاهر بيبرس– وسلطنة قلاوون"[٢]. فكان هذا الامتناع من جانب سنقر الأشقر أول محطات صراعه مع السلطان المنصور قلاوون.

خامساً: الجهاز المكلف بالإشراف على الرسائل الديوانية

تولى ديوان الإنشاء في الدولة الإسلامية مهمة كتابة الرسائل الديوانية منذ تأسيسه تحت مسمى ديوان الرسائل، وقد اتسعت مجالات الرسائل وتنامى دور الديوان في الحياة السياسية والإدارة في المراحل المتعاقبة.

وفي العصر المملوكي تولى ديوان الإنشاء نفس الدور واتسع نطاق عناية المماليك بالديوان لحاجة الدولة إلى ضبط أمورها ومكاتباتها وفي تحرير الرسائل السلطانية وغيرها من المكاتبات العامة[٣].

أ. ديوان الإنشاء في القاهرة وفي نيابات الدولة

كان ديوان الإنشاء الرئيسي في القاهرة أحد المؤسسات الإدارية التي ورثها المماليك عن الأيوبيين[٤]. ويقع الديوان في قلعة الجبل[٥]، وكان يشغل إحدى قاعات القلعة فعرف بقاعة الإنشاء

---

(١) ابن الفرات، تاريخ الدول، ص١٥٢.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٤٨-٢٤٩.

(٣) سليم، عصر سلاطين المماليك، ص٩٧.

(٤) عاشور، نظم الحكم والإدارة، ص٣٥.

(٥) ابن شدد، تاريخ الملك الظاهر، ص٣٦، هامش (١)؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص١٤٣؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٢١٠.

وظل كذلك حتى سنة (٧٣٣هـ/١٣٣٢م) حيث أمر الناصر محمد بنقل الديوان ودار الوزارة أو ما عرف بقاعة الصاحب إلى دار النيابة وتم هدم القاعتين[١]، وذلك ضمن حملة الإعمار والتجديد التي أجريت على القلعة زمن الناصر محمد، ومن المرجح أن النقل كان مؤقتاً وأن موقع الديوان وقاعة الصاحب شغلا موقعين متجاورين حتى عصر المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) [٢].

وقد أنشأ المماليك دواوين فرعية في نيابات الدولة تتبع ديوان الإنشاء الرئيس في القاهرة، ففي حين أطلق على متولي الديوان فيها صاحب دواوين الإنشاء أطلق على كاتب الإنشاء بدمشق متولي ديوان الإنشاء بالشام[٣]، أما في حلب وحمص وحماة وطرابلس فكان يسمى صاحب ديوان المكاتبات[٤]. أما النيابات الصغرى كغزه والكرك والإسكندرية، فيقال لمتولي ديوان كل منها كاتب درج توثيق.

ب. موظفو ديوان الإنشاء طبقاتهم والمهام الموكولة إليهم:

١. رئاسة الديوان:

أوردت المصادر المسميات التي أطلقت على كبار الكتاب ممن تولوا رئاسة ديوان الإنشاء مثل "صاحب ديوان الإنشاء" و"ناظر ديوان الإنشاء"[٥]، وهي مسميات عامة كان الأول وهو

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٣٦٣.

(٢) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٢١٠، وحول أهمية قاعة الصاحب انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٢٦؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ج٣، ص٤٢٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص١٣٨، حبشي، ديوان الإنشاء، ص٨٩-٩٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٣٨ وانظر: اليوسفي، نزهة الناظر، ص٦٣؛ ابن كنان، المواكب الإسلامية، ج٢، ص١٠٨؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص١٠٧.
وحول ظاهرة نقل كتاب السر بين القاهرة والنيابات انظر: المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٠٦، السمحاوي، الثغر الباسم، ص٧٤؛ حبشي، ديوان الإنشاء، ص٨٩.

(٥) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٣٩٣-٣٩٤.

الصاحب متداولاً خلال العصر العباسي[1]، وفي العصر المملوكي أصبح مرادفاً لغوياً للإشارة إلى كل من تولوا رئاسة الديوان، أما لقب النظر فهو لقب عام لا يحتمل خصوصية معينة واقترن بالعديد من الوظائف في العصر المملوكي.

وأطلقت على متولي هذه الوظيفة مسميات خاصة حملت دلالات أوسع واعتُمدت في مرحلتين، الأولى: في بدايات العصر المملوكي، والثانية بعد تولي السلطان المنصور قلاوون الحكم؛ ففي المرحلة الأولى أطلق على متولي الديوان اسم "كاتب الدست" الشريف وهو اللقب الذي كان معروفاً في أيام الفاطميين كما أطلق عليه اسم "كاتب الدرج". وكان من خصائص هذه المرحلة إسناد رئاسة الديوان أكثر من كاتب حيث وليها في عهد السلطان الظاهر بيبرس ثلاثة كتاب كان منهم القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر وكان أرفعهم درجة[2]، كما تميزت هذه المرحلة أيضاً بتبعية رئيس الديوان للدوادار (وهو الشخص المكلف بإيصال الرسائل أو تبليغها إلى السلطان ويختار عادة من كبار الأمراء)[3].

أما المرحلة الثانية فقد أجريت فيها تغييرات على رئاسة الديوان تمثلت باعتماد مسمى جديد لمتوليه ومنحه المزيد من الصلاحيات. وبدأت في حدود شهر شوال سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) حين نقل المنصور قلاوون القاضي فخر الدين بن لقمان إلى الوزارة وعين القاضي فتح الدين بن محيي

---

(١) النظر: هو الإشراف وهي وظيفة ديوانية تعني الإشراف الذي يعطيه السلطان لشخص ما على مكـان مـا أو وظيفة ما. ابن كنان، المواكب الإسلامية، ق٢، ص٣٩، هامش (٨).

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص١٣٨؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ص٩٩، عبد اللطيف، القلقـشندي، ص٧٨.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٤٩، ٤- الرابع السيوطي، حـسن المحاضـرة، ج٢، ص٢٣٣-٢٣٤، ١- الأول:- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص١١٨؛ ٢- الثاني: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص١٩، ٥- الاجناس البلقي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، س١٣٩.

الدين بن عبد الظاهر رئيساً للديوان وأطلق عليه لقب "كاتب السر"[١]، ومنذ ذلك الحين أصبح متولي ديوان الإنشاء يلقب بكاتب السر ونقل لقب "كاتب الدست" إلى من دونه من الكتَّاب[٢].

ويعود السبب في اعتماد هذا المسمى إلى أن الظاهر بيبرس كلف كاتب إنشائه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر بكتابة مرسوم إلى الشام ولما دقق في محتواه وجدّه لا يتفق مع ما أراده فراجعه فيه فقال ابن عبد الظاهر هكذا قال لي الأمير سيف الدين بلبان الداوادار فقال الظاهر بيبرس: "ينبغي أن يكون للملك كاتبُ سر يتلقى المرسوم منه شفاهاً" وكان قلاوون حاضراً من جملة الأمراء فرسخت هذه الكلمة في ذهنه وعندما تولى السلطنة اتخذ لنفسه كاتب سر[٣]، وأبرز الفكرة إلى حيز العمل[٤] فأصبح اللقب الرئيسي لمتولي ديوان الإنشاء، وقد تداول العامة هذا اللقب تحت لفظ كاتم السر لأن الكاتب يكتم سر السلطان، كما اعتمدت بعض المصادر هذا المسمى عند الحديث عن كاتب السر[٥].

ويمكن القول أن للّقبين قيمةً أدبيةً كبيرةً، فمن خلالهما يستدل على الصفات وفي نفس الوقت الواجبات الأساسية لمن يتولى رئاسة ديوان الإنشاء، وقد عبر أحد شعراء العصر عن ذلك بالقول[٦]:

عليـك بكـتم السـرّ لا تفـشينه	وما كان من عيب فقابله بالـستر
فإن أخصّاء الملـوك كثيـرة	ولكن أحظاهـم به كـاتم الـسر

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٤٨-٣٤٩؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص٩٨.

(٢) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص١٠٠.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٨١؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٣٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٤٩؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ص٩٩.

(٤) سليم، عصر سلاطين المماليك، ص٩٩.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص١٣٨؛ ابن كنان، حدائق الياسمين، ص٢٦، ١٦٨-١٦٩، والمواكب الإسلامية، ج١، ص١٥٧، الدوري: الترجمة والتراجمة، ص٧١، حمزة عبد اللطيف، القلقشندي، ص٧٨؛ سليم: عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق١، ص١٠٠. البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٢٨٢.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٤٩.

كما جاء اليمين الذي يلتزم كاتب السر بحلفه عند توليه منصبه ليبين واجب كتمان السر بوصفه واجباً أساسياً عليه الالتزام به. ويرد في اليمين: "وإنني مهما اطلعت عليه من مصالح مولانا السلطان ... أوصله إليه، وأعرضه عليه، ولا أخفيه شيئاً منه ولو كان عليّ، ولا أكتمه ولو خفت وصول ضرره إلي"[(١)].

وتتضح أهمية الدور الذي قام به متولي ديوان الإنشاء قبل وبعد اعتماد مسمى كاتب السر من خلال المهام المهنية والإدارية التي أوكلت إليه وهي: قراءة الكتب الواردة إلى السلطان، والنظر فيما تتفاوت به الرتب في الرسائل والمكاتبات من الافتتاح والدعاء والألقاب ونوع الورق والنظر في كل ما يخرج من الديوان وتصفحها قبل خروجها، والنظر في أمر القضاء، والنظر في أبراج الحمام[(٢)]، كما كان متولي الديوان مسئولاً عن استقبال الرسل القادمين إلى الدولة وما يرتبط بذلك من تنظيم علاقات الدولة المملوكية مع الدول الأخرى، كما كان مسئولاً عن جهاز البريد وتنظيم عملية نقل الرسائل وعرض ما يحصل عليه البريدية من أخبار.

٢. طبقات الكتاب وأقسام الوظائف في ديوان الإنشاء:

بيّن القلقشندي، أقسام الكُتّاب والمهام التي يؤدونها وفق مرحلتين: الأولى في بدايات العصر المملوكي والثانية في القرن الثامن وحتى مستهل القرن التاسع الميلاديين، ففي العهد الأول كان

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣١٠؛ طرخان، النظم الإقطاعية، ص٣٩٧.
يعد يمين كتاب السر على أساس اليمين العامة ويزاد فيه عبارات متشابهة لكل من كاتب السر والدوادار ولكن يرد فيه تفاصيل مختلفة لكل وظيفة.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص١٤٦، وما بعدها، عبد اللطيف، القلقشندي، ص٧٨-٧٩؛ عبد الكريم، القلقشندي، ص٩١، الدروبي، الترجمة والتراجم، ص٧١-٧٢.

هناك متولي ديوان الإنشاء وتحت إدارته سبعة دونة في المنزلة ولكنهم متساوون في الأهمية وهم[1]:

الأول: كاتب ينشئ ما يكتب من المكاتبات والولايات.

الثاني: كاتب يكتب عن السلطان.

الثالث:كاتب يكتب مكاتبات أهل الدولة وكبرائها أي يتولى كتابة التقاليد.

الرابع: كاتب يكتب المناشير ويتولى نسخ نماذج منها.

الخامس: كاتب يبيّض ما ينشئه المُنشئ ويشترط فيه حسن الخط.

السادس: كاتب يتصفح ما يكتب في الديوان ويدققه.

السابع: كاتب يكتب التذاكر والدفاتر الخاصة بمتعلقات الديوان.

ووجد إلى جانب الكُتَّاب السبعة اثنان من الموظفين هما الخازن الذي يؤتمن على ما في الديوان من رسائل والثاني حاجب متولي الديوان والهدف من هذه الوظيفة منع الناس من الدخول إلى متولي الديوان[2].

أما في العهد الثاني فكان ديوان الإنشاء يتألف من طبقتين هما:

الطبقة الأولى: كُتّاب الدست: وهم الذين كانوا يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل في المواكب ويقرأون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر وكان عددهم ثلاثة، قبل أن يلقب متولي ديوان الإنشاء بكاتب السر ثم تزايد عددهم حتى تجاوزوا عشرة كتّاب[3]. وقد سموا بكتاب الدست لأنهم كانوا يجلسون مع رئيسهم في دست السلطان أي مجلسه[4].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص١٦٥-١٧٠؛ حبشي، ديوان، الإنشاء، ص٩١؛ وانظر: عبد اللطيف، القلقشندي، ص٧٩-٨٠.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص١٧٠-١٧١؛ حبشي، ديوان الإنشاء، ص٩٥.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص١٧٢؛ حبشي، ديوان الإنشاء، ص٩٥.

(4) سليم، عصر سلاطين المماليك، ص١٠٣.

الطبقة الثانية: كتّاب الدرج: وهم الذين كانوا يكتبون ما يدفع به كاتب السر أو كُتَّاب الدست أو إشارة النائب أو الوزير[1]، وقد سموا بكتاب الدرج لأنهم يكتبون المكاتبات في دروج الورق والمراد بالدروج في العرف العام: الورق المستطيل المركب من عدة أوصال وهو في عرف العصر المملوكي عبارة عن عشرين وصلاً متلاصقة.

٣. السمات العامة لديوان الإنشاء:

كان لديوان الإنشاء في العصر المملوكي رسوم وتقاليد واضحة تجسدت في القدرات الأدبية والإدارية لموظفيه، وفي التنظيم والدقة والضبط لمحفوظاته من المكاتبات والتي مكنت الديوان من أداء دوره في الحياة الإدارية والسياسية في هذا العصر. ويمكن ملاحظة ذلك من خلال مظاهر عدة أهمها:

- **العناية بثقافة كتاب الإنشاء:** حيث وضعت الشروط الواجب توافرها في الكتّاب أو ما عرف بالثقافة الديوانية وتشمل معرفته بالأمور العلمية والأمور العملية.

أما الأمور العلمية فتتألف من عناصر وهي:

علوم العربية: ومعرفة أنساب العرب والعجم والتواريخ الأمة العربية وتواريخ الأمم الأخرى الجغرافية والإلمام باللغات الأعجمية وإجادة فن الوصف[2].

ومن أهم الأمور العملية التي تشترط في كاتب الإنشاء إجادة الخط العربي وتحسين الخط، هندسة الحروف، تنقيط الحروف، هيئة إمساك القلم، كيفية استخدام الدواة، وضع القلم على الدرج (يريد الورق)، كيفية حركة اليد بالقلم في الكتابة، تناسب الحروف ومقاديرها في كل قلم، الترويس (أي كتابة رؤوس الموضوعات)، أنواع الأقلام المستعملة في ديوان الإنشاء، الصورة التي يختص

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص١٧٢؛ حبشي، ديوان الإنشاء، ص٩٥؛ عاشور، نظم الحكم والإدارة، ص٣٨؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ص١٠٥.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٧٥ وما بعدها، السحماوي، الثغر الباسم، ص٨٥ وما بعدها؛ عبد اللطيف، القلقشندي، ص٨٣-٨٦.

بها كل حرف من حروف المعجم، ضبط الكلمات بالشكل، الحروف المفردة، الحروف الموصولة بغيرها، صورة كل حرف من هذه وتلك على حدة[١].

- العناية باللوازم الديوانية:

يقصد باللوازم الديوانية جملة من الألفاظ أو التراكيب التي اعتاد الكتاب الرسميّون التزامها في المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء، وقد اعتنى كتاب الدساتير بتفاصيلها وأفرد لها ابن فضل الله العمري جانباً هاماً تحت عنوان رتب المكاتبات[٢]، ويتمثل في ابتداءات الرسائل والأدعية والمدح والألقاب والأوصاف [٣].

---

[١] القلقشندي، صبح الاعشى، ج٢، ص ٣، وما بعدها؛ عبد اللطيف، القلقشندي، ص ٨٧.

[٢] ابن فضل الله العمري، التعريف، ص٧٩-١٠٧، وانظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٢٧٠ وما بعدها.

[٣] للمزيد انظر: سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ق٢، ص٤١٨-٤٢٦.

الفصل الثاني

الخلافة والسلطنة والعلاقات الخارجية من خلال الرسائل الديوانية

أولا: التنظيم السياسي في مجال الخلافة والسلطنة

ثانياً: العلاقات الخارجية

أولا: التنظيم السياسي في مجال الخلافة والسلطنة

أ- الخلافة العباسية*

وضع الإسلام قواعد نظام سياسي عام للدولة الإسلامية يتضمن نظرية سياسية متكاملة، وتنظّم من خلاله أحوال الأمة وشؤونها في كافة المجالات(١). والثابت عند الفقهاء والمؤرخين أن الرسول ﷺ لم يستخلف أحداً، وإنما ترك الأمر شورى فيما بين المسلمين(٢).

وقد عرَّف الفقهاء الخلافة بأنها خلافة النبوة، وبهذا الصدد يقول الإمام أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) فقيه الشافعية في بغداد: "إن الله جلّت قدرته ندب للأمة زعيماً خلف النبوة وحاط به الملة وفوض إليه السياسة ليصدر التدبير عن دين مشروع وتجتمع الكلمة على رأس متبوع(٣).

ويؤكد الماوردي "أن الخلافة الإسلامية خلافة النبوة ... كما يرى وجوب قيامها في الجماعة الإسلامية"(٤)، أما ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) فلا يرى "الخلافة إلا إذا كانت قائمة على الشريعة وكان الخليفة منفذاً لأحكام تلك الشريعة"(٥).

(*) نظراً لما يكتنف منصب الخلافة وصلاحيات الخليفة من عدم الوضوح في ظل سلاطين المماليك، رأيت أن أضمن الدراسة الحديث عن الخلافة في ظل السلطنة المملوكية ومتعلقاتها المتصلة بها، معتمداً في ذلك على ما جاء في الرسائل الديوانية وما ورد في روايات المؤرخين عن الموضوع.

(١) الخطيب، عبد الكريم؛ الخلافة والإمامة، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥، وسيشار له: الخطيب، الخلافة والامامة ٢٦٢؛ النبراوي، فتحية، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ط٢. الدار السعودية للنشر والتوزيع جدة، ط ٢٠٠٥،٦٢٧م، ص٣٧. وسيشار له النبراوي، فتحية.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٨.

(٣) الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الأحكام السطانية (د.ن)، بغداد، ١٩٨٩م، ص١١. وسيشار له: الماوردي، الأحكام السلطانية.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٩؛ وانظر: ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص٣٣٨-٢٣٩.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص١٩٧.

إحياء الخلافة العباسية وإجراءات البيعة:

ارتبط إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بعوامل سياسية ودينية تمثلت بشغور منصب الخلافة بعد مقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله سنة (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م) على يد المغول[١]. كما ارتبط إحياؤها على يد المماليك في القاهرة بعامل رئيسي يتمثل برغبة الظاهر بيبرس في إضفاء الشرعية على حكمه بشكل خاص وعلى حكم المماليك بشكل عام[٢].

وفيما يلي الإجراءات التي تتم على أساسها البيعة للخليفة العباسي:

النسب القرشي:

قامت البيعة الأولى للخليفة العباسي المستنصر بالله سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) بموجب ثبوت النسب القرشي له. وتظهر نصوص الرسائل ثبوت النسب القرشي، وحرص السلطان الظاهر بيبرس في إثبات هذا النسب للخليفة الجديد، وقد أعطته النصوص أهمية كبرى، وكان مرتكزاً أساسياً تقوم عليه البيعة، ويصور ابن واصل (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م) هذا المشهد لأول خليفة عباسي في مصر قائلاً: "فقام القاضي تاج الدين على قدميه، وقال: "ثبت عندي نسب أبي القاسم أحمد هذا، وأنه الإمام ابن الظاهر بأمر الله، فبايعه الملك الظاهر"[٣].

---

(١) ابن كثير، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي (ت٧٤٧هـ)، البداية والنهاية، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ج١٣، ص٢١٣-٢١٤. وسيشار له: ابن كثير، البداية والنهاية.

(٢) حطيط، أحمد، قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري، دار الفرات، بيروت، ٢٠٠٣م، ص٣٨-٣٩. وسيشار له: حطيط، قضايا من تاريخ المماليك؛ وانظر: حمادة، الوثائق السياسية، ص٨٧؛ طقوش، محمد، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٧م، ص٩٤. وسيشار له: طقوش، تاريخ المماليك؛ الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٨٨.

(٣) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٤م، ج١، ص٣١٣؛ وسيشار له لاحقاً: ابن واصل، مفرج الكروب، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٩٩-١٠٠؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٨٥-٨٦، والتحفة الملوكية، ص٤٧؛ البونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٤٤٢؛ أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٢٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٢٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٥٠، القلقشندي، مآثر الاناقة، ج٢، ص ١١٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٢٥٩؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص٢٩٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٩٩؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٥٣.

وبموجب النسب العباسي القرشي بويع سنة (٦٦١-٧٠١هـ/١٢٦٢-١٣٠٢م) ثاني خليفة في مصر وهو الحاكم بأمر الله (الأول) أبو العباس أحمد بن الحسن بن أبي بكر الثاني سنة من السلطان الظاهر بيبرس وعامة الناس[١]. أما بقية الخلفاء العباسيين الذين تولوا الخلافة فيما بعد، لم يكن النسب حاضراً ثبوته على اعتبار أن هؤلاء الخلفاء هم أبناء الخلفاء العباسيين الأوائل الذين بويعوا بالخلافة وثبت نسبهم كما أسلفنا.

ولدينا من الأمثلة التي تحفل بها الرسائل والنصوص في مبايعة الخلفاء العباسيين. وتركيزها على هذا النسب الشريف ومدى صلته بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام، ففي بيعة الحاكم بأمر الله، أبو العباس، أحمد بن خليفة المستكفي -الذي بويـــع بالخلافة سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م-. تؤكد رسالة البيعة على أن العباسيين هم أصحاب الحق في الميراث النبوي، حيث يرد فيها "من تُسلّم إليه أمةُ محمد عقد نياتها وسر طوياتها إلا واحد، وأين ذلك الواحد ... هو والله من انحصر فيه استحقاق ميراث آبائه الأطهار"[٢] ويورد السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) ما نصه: "والقائم مقام رسول الله ﷺ وخليفته وابن عمه ... ووارث عمله"[٣].

وأخيراً يعلل ابن خلدون أن النسب القرشي عند اختيار الخلافة ليس للتبرّك به من المقاصد الشرعية، فلا بد إذن من المصلحة في اشتراطها وهي المقصود من مشروعيتها[٤].

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٤١؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ص٣٥١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٥٠؛ القلقشندي، مآثر الإناقة، ج٢، ص ١١٨؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص٢٤٨-٢٩٣.

(٢) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ٢٨٠-٢٨١ وصبح الأعشى، ج٩، ص٣٣٤؛ وانظر نص البيعة: عند السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٥٨١، وحسن المحاضرة، ج٢، ص٥٢؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٩٨.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٤. وانظر القلقشندي، مآثر الأنافة، ص٢٨٠-٢٨١.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص١٨٤؛ الخطيب، الخلافة والإمامة، ص٣٢٠.

حضور أهل الحل والعقد عند البيعة:

تُجمع النصوص التي بين أيدينا على مبايعة أهل الحل والعقد للخلفاء العباسيين خلال فترة الدراسة[١]. وأهل الحل والعقد هم أصحاب الشورى من العلماء والفقهاء والأعيان وغيرهم، فهم من الفئات الدينية والقضائية والسياسية والعلمية، بمثابة ممثلين عن أطياف المجتمع[٢].

وبموجب حضور أهل الحل والعقد، تأخذ البيعة زخماً معنوياً ورسمياً من قبل هؤلاء، بمعنى أن أهل الحل والعقد، يمثلون كافة شرائح المجتمع، وحضورهم بمثابة حضور الناس جميعاً.

وقد نصت بيعة الخلفاء على وجود أهل الحل والعقد، وحرص سلاطين الدولة المملوكية وكتّاب الرسائل الديوانية على الاهتمام بهؤلاء الرموز إن جاز التعبير، ويعتبر حضورهم ركناً أساسياً في البيعة، ومن خلال مطالعتنا في بيعات الخلفاء توشيح هذه البيعات بالإشارة إليهم[٣].

ونستنتج من نصوص البيعات أن مجلس الحل والعقد كان يعقد تلقائياً من أجل بيعات الخلفاء أو خلع الخلفاء أو تعيين سلطان أو خلعه[٤]، فعند مبايعة الخليفة، الحاكم بأمر الله (الثاني) أبو العباس أحمد بن المستكفي، بويع الحاكم بموجب إجماع على البيعة وورد في نصها "أجمع على هذه

---

[١] هناك خليفة عباسي بويع دون اجتماع أهل الحل والعقد، وهو الخليفة أبو يحيى زكريا بن الواثق بالله إبراهيم بن المستكفي بالله الأتابك أنبيك سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م. ويذكر السخاوي: وعمله خليفة بدون مبايعة ولا إجماع، ولقب بالمستعصم" انظر السخاوي، وجيز الكلام، تحقيق بشار عواد وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨، ج١، ص٢٣٢، ٢٤٢. وسيشار له: السخاوي، وجيز الكلام، وعن انيبك انظر ص٢٤٣، ج١، من وجيز الكلام، وقد جرت البيعة في سلطنة المنصور علي بن الأشرف شعبان، للمزيد انظر: العسقلاني، إنباء الغمر، ج٤، ص٥٩، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٧٤٥؛ الصيرفي، الخطيب الجوهري علي بن داود، (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دار الكتاب، القاهرة، ١٩٧١م، ص٢٦٩. وسيشار له: الصيرفي، نزهة النفوس.

[٢] عن أهل الحل والعقد انظر : كتب النظم الإسلامية: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٩ وما بعدها؛ الخطيب، الخلافة والإمامة، ص٢٧٤-٢٧٥.

[٣] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص ٣٤٥؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩١.

[٤] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩١، ، الخطيب، عبد الكريم، الخلافة والإمامة، ص٢٩٩، ٣٠٥.

البيعة أرباب العقد والحل"[1]. سنة (٧٤٢هـ/١٣٤٢م). وفي بيعة الخليفة المتوكل على الله[2] تضمنت: "بمجمع من أهل الحل والعقد"[3].

وبعد مبايعة الخليفة وانتهاء مراسيم البيعة "يَكْتُب مَن بايع من أهل الحل والعقد على البيعة" خطوطهم في آخر نص البيعة، يلي ذلك "إن شاء الله تعالى"[4]. ويضم نص البيعة في آخره تاريخ عقد البيعة، وتأكيد لإتمامها بعبارة "بيعة تم بمشيئة الله تمامها"[5].

بيعة السلطان والعلماء والقضاة والأمراء للخليفة:

تستند بيعة الخلفاء العباسيين إلى مبايعة السلطة التنفيذية والقضائية والدينية في الدولة، حتى تصبح بموجب هذه المبايعة رسمية. وحازت على إجماع السلطات الرسمية في الدولة، وإعطائها قضاءً موقعاً من سلطات الدولة الرسمية، وتفويضاً هاماً ومعنوياً للخليفة المُبايَع له، يمكن أن نسمي هذه البيعة بالبيعة الخاصة على اعتبار أن المبايعين كانوا من الفئات القيادية في الدولة، المتمثلة بالقادة المدنيين والعسكريين والولاة ورجال التصوف وأعيان البلد والسلطان والعلماء والقضاة المذكورين سابقاً[6].

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩١، وحسن المحاضرة، ج٢، ص٧٠، وانظر نص البيعة عند: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٣٢، ومآثر الاناقة، ج٢، ص٢٧٦.

(٢) المتوكل على الله: محمد بن الخليفة المعتضد بالله أبي بكر بن الخليفة المستكفي بالله سليمان، بويع بالخلافة بعهد من أبيه في جمادى الآخرة سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١م في سلطنة المنصور علي وعاصر دولة المماليك البحرية ثم بدايات دولة المماليك الجراكسة، انظر: ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد الأسدي الدمشقي، (ت٨٥١هـ/١٤٤٨م)، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٧م، ج٣، ص١١٦. وسيشار له: ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة؛ ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م)، إنباء الغمر بأبناء العمر، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ج٥، ص٣٣٧-٣٣٨. وسيشار له: ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص١٨٨؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٨٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ص٩، ص٣٤٥، ولم يورد نص البيعة كاملاً ولكن أورد التفاصيل الفنية للبيعات.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٤٢-٣٤٤.

(٥) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٥؛ وانظر نص البيعة عند: القلقشندي، صبح الأعشي،ج٩، ص ٣٣٢-٣٤٤.

(٦) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٠٠؛ بيبرس الداردار، زبدة الفكر، ص٨٦ ومختار الأخبار، ص١٦؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٤٤٢؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٣٢-٣٥؛ ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، ج٢٠، ص٢٥١.

ومبايعة هؤلاء الخلفاء تعطي البيعة تأييداً وقبولاً عاماً، على اعتبار أنهم رموز الدولة، وبيدهم قبضة الدولة ومسؤوليتها. وتورد النصوص التي بين أيدينا حضور هؤلاء المشار إليهم جميعاً البيعة ومعهم السلطان، فعند مبايعة الخليفة المستنصر بالله (٦٥٩-٦٦٠هـ/١٢٦١-١٢٦٢م). "جلس الظاهر بيبرس مجلساً عاماً حضره الأمراء والوزراء والحكام والعلماء والفقهاء والصلحاء والمشايخ والأعيان وأثبت نسبه على قاضي القضاة وبايعه من حضر المجلس من الناس على طبقاتهم"[١]. ويشير اليونيني (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) إلى أنه عند مبايعة الحاكم بأمر الله العباسي سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م: "جلس الملك الظاهر مجلساً عاماً فيه أعيان الناس من القضاة والأمراء والعلماء ... فلم يبق من أرباب السيوف والأقلام وغيرهم إلاّ وبايعه"[٢].

الشهود:

كان وجود الشهود على البيعة أمراً ضرورياً، فإذا تمت بيعة بدون شهود، لا يكتب لها النجاح، والدليل على ذلك أن بيعة الخليفة المعتصم بالله أبو يحيى زكريا سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٨م) من قبل أينبك أتابك العساكر لم تعتمد إلاّ خمسة عشر يوماً[٣] لأنها كانت خالية من أهل الحل والعقد والشهود والإجماع[٤].

---

[١] بيبرس الدارادار، التحفة الملوكية، ص٤٧؛ وزبدة الفكر، ص٨٦، ومختار الأخبار، ص١٦، وانظر: المقريزي، السلوك، قج١، ق٢، ص٥٤، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣١٤.

[٢] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ، ج٢، ص١٨٧؛ وانظر: المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٧٧.

[٣] ابن شاهين الظاهري، زين الدين عبد الباسط بن خليل الظاهري الحنفي (ت٩٢٠هـ/١٥١٤م) نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢، ج٢، ص١٢٦-١٢٧. وسيشار له: ابن شاهين الظاهري، نيل الأمل؛ وانظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٨٣.

[٤] القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص١٨٠؛ ابن شاهين الظاهري، نيل الأمل، ج٢، ص١٢٧.

وكان يتوجب على الشهود أن يكتبوا أسماءهم في آخر نص البيعة للخليفة ونص الشهود: "حضرت جريان عقد البيعة المذكورة"، ولا ضرر أن يكتبوا عبارات مثل: قرنها الله تعالى باليمن أو السداد أو عرف الله المسلمين بركتها(١).

التحليف وأيمان البيعة:

وكان يترتب على مبايعة الخليفة أن يحلف المُبايعون، بوضع اليد على المصحف الشريف ثم حلف اليمين(٢)، بذكر اسم الخليفة صراحةً، فعند مبايعة الحاكم بأمر الله الثاني سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م ويذكر القلقشندي في نصه ما يلي: "سيدنا ومولانا عبد الله ووليه أحمد أبو العباس الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين"(٣). ويبدو أن الهدف من ذكر اسم الخليفة الجديد حتى لا يكون هناك لبس عند المبايعين فيكون معروفاً باسمه ولقبه.

كما يأتي النص على الألقاب التي اتخذها الخلفاء وتوشح بها قبل أسمائهم، مثل المولوي السيدي النبوي الإمامي، الجانب الشريف، وأمير المؤمنين عبد الله"(٤). وتسعى النصوص في البيعات سواء كانت للخلفاء أو السلاطين التي ترداد تلك الألقاب التي تظهر الخليفة بمظهر إسلامي يكفل له مباركة الرعية وبيعتهم له(٥).

مكان انعقاد البيعة:

كانت البيعة تتم حسب المصادر المملوكية في قلعة الجبل بالقاهرة، حيث ينعقد المجلس فيها؛ فقد قال ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م) عند مبايعة الخليفة المستنصر بالله: "وطلع

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٤٢؛ انظر عن الشهود في نص بيعة الخليفة أحمد بن المستكفي عند: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٢.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٩٤، وانظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩،ص ٣٣٨-٣٣٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٣٥؛ وانظر مآثر الأنافة، ج٢، ص٢٨٢.

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٦، ١٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص١١٩.

(٥) انظر عن هذه الألقاب القلقشندي، ج٣، ص٢٨٩؛ وانظر: ابن فضل الله العمري، التعريف المصطلح الشريف، ص١١٥.

القلعة راكباً ونزل في المكان الذي أخلي له، وهو مكان حسن الإشراف"[1] أما اليونيني (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) فقد ذكرها في مبايعة الخليفة الثاني الحاكم بأمر الله (الأول) في سنة ٦٦١هـ/١٢٦١م[2]. وفي قلعة الجبل أيضا بويع الخليفة المعتضد بالله أبو بكر سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١م، وأشار إلى هذه البيعة ابن شاهين الظاهري (ت ٩٢٠هـ/١٥١٥م) بالقول "طلبه السلطان، فحضر عنده بالقلعة ... وبويع بالخلافة"[3].

عند التمعن في الرسائل الديوانية ونصوصها من خلال البيعات نجد أن مضمونها قد ركز على الخلافة وأهميتها، وكل ما يتعلق بها، ومن خلالها نستطيع أن نعطي صورة واضحة عن واجبات الخليفة العباسي وصلاحياته، ورغم أن هذه الصلاحيات التي اشتملت عليها البيعات كانت في معظمها اسمية أكثر منها فعلية[4]، ولكنها أعطت الخليفة دفعاً معنوياً، باعتباره أميراً للمؤمنين وطاعته واجبة[5].

واجبات الخليفة: تحدثت كتب النظم الإسلامية القديمة والحديثة عن واجبات الخليفة، كما ضمت النصوص في ثناياها هذه الواجبات:

١- **حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة:** توجب على الخليفة العباسي بعد المبايعة المحافظة على الدين وما كان عليه سالف الأمة[6]. وقد نصت مبايعة الخليفة

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٩٩؛ وانظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ص٣١٢.

(٢) اليونني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص١٨٦، وانظر بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٧٨.

(٣) ابن شاهين الظاهري، نيل الأمل، ج٢، ص١٢٦. وانظر المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢٦٢.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٤١؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٢-٤٩٨.

(٥) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٩؛ وانظر، القلقشندي، مآثر الأناقة، ج٢، ص٢٨٦، ٢٩٣.

(٦) انظر: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٦-٣٠؛ ابن خلدون، المقدمة، ص٢٤٢-٢٤٣؛ القلقشندي، مآثر الأنافة، ج١، ص٦٠-٦١؛ أبو يعلى الحنبلي، الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه ماجد الفقي، ط٢، القاهرة ١٩٦٢، ص٢٧. وسيشار إليه: أبو يعلى، الأحكام السلطانية؛ فتحية النبراوي، تاريخ الحضارة، ص٤٤.

الحاكم بأمر الله (الثاني) أحمد بن المستكفي سنة (٧٤١هـ/١٣٤١م) على تمسك الخليفة بهذا الواجب الملقى عليه، فَوَرَدَ فيها: "ولم يبقَ لكم على أمير المؤمنين إلا أن يسير فيكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويعمل بما يسعد به"[١]. ثم يلتزم الخليفة أمام الناس من خلال هذه البيعة بأنه "متبع الشرع الشريف ويقف عنده"[٢].

٢- **تحصين الثغور:** وقد بينت البيعات أهمية اهتمام الخلفاء بالثغور والحصون، وأكدت على شحنها بالعدة والعتاد والجند، ففي بيعة الحاكم بأمر الله (الثاني) نصت البيعة على: أن ينظر "في مصالح القلاع والحصون والثغور"[٣] "وما يحتاج ... إليه من آلات القتال ... والأمراء والعساكر والجنود".

٣- **أن يباشر بنفسه أحوال الرعية ويقوم برعايتهم ويعاملهم بالعدل:** وجاء في البيعة للخليفة الحاكم بأمر الله (الثاني) ما نصه: "وأنتم على تفاوت مقاديركم وديعة أمير المؤمنين"[٤] ، بل يصرح بأن الناس عنده سواء: "وكلكم سواء في الحق عند أمير المؤمنين"[٥].

٤- **حماية البيضة (الراية)، والذبَّ عن الحريم، ليصرف الناس في المعايش:** تظهر لنا النصوص أن الخلفاء العباسيين. يتعهدون بهذا حسب نص البيعة، فقد جاء في نص بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله (الثاني) في سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م أن الخليفة قادر على حماية الرعية من الاعتداء،

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٤١؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٣٩.

[٢] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩١؛ وانظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٣٩.

[٣] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٨-٤٤٠؛ وانظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٤٠.

[٤] انظر نص البيعة عند القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٣١-٣٤١؛ والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٠-٤٩٩.

[٥] انظر نص البيعة عند السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٠-٤٩٩.

فهم أمانة في عنقه، لذا ينصرف الناس إلى العمل والإنتاج لأنهم في مأمن من الخوف على أنفسهم وأهليهم وجاء في نص البيعة: "ودماؤكم وأموالكم وأعراضكم في حماية"[١].

٥- **انتقاء واختيار الولاة الذين يقومون على أعمال الدولة:** تمسك الخلفاء في انتقاء واختيار الولاة الذين يقومون على مصالح الناس. وقد شدد الخليفة المستنصر بالله عند مبايعة الظاهر بيبرس على ذلك عندما فوضه* في أمر التثبت من كفاية حكام الأقاليم (النيابات) وأصحاب الرأي من أرباب السيوف والأقلام[٢] ويدعوه إلى التحري والتفتيش عمن يختاره من الولاة الموظفين ويرد على لسان الخليفة قوله: "فإذا استعنت بأحد منهم في أمرك فنقّب عليه تنقيباً. واجعل في تصرفاته رقيباً وسَلْ عن أحواله"[٣].

٦- **جباية الفيء والصدقات وفق أحكام الشريعة:** وهو واجب من واجبات الخليفة ويمكن تفويضها للسلطان[٤].

صلاحيات الخليفة

يمكن تناول صلاحيات الخليفة العباسي من خلال النصوص ضمن قسمين رئيسيين:

الصلاحيات الدينية:

تتمثل الصلاحيات الدينية للخليفة بما يلي:

١- **إقامة الحج**

بموجب البيعة التي أعطيت للخليفة العباسي تمسك الخليفة بأن يقيم فروض الحج"[٥]، ويعطي أولوية مهمة لموسم الحج، وسكان الحرمين الشريفين، وسدنة بيت الله الحرام (أي خدام الكعبة

---

(١) انظر النص عند القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٤٠، وانظر السيوطي، تاريخ الخلفاء ص٤٩٨.

(٢) البونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٤٤٦، العيني، عقد الجمان، ج١، ص٣٠١.

(٣) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٦٣؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٣٣.

(٤) بيبرس، الدوادار، زبدة الفكرة، ص٧٨.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٣٩؛ ومآثر الأنافة، ج٢، ص٢٩٢-٢٩٣.

المشرفة). ويذكر السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) عن بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله (الثاني) وتعهده بالمحافظة على كل ما يتعلق بالحج ما نصه: "وأمير المؤمنين يقيم على عبادة موسم الحج في كل عام ويشمل سكان الحرمين الشريفين وسدنة بيت الله الحرام"[١] ، وفي موضع آخر في نص بيعة الخليفة المتوكل على الله (٧٦٣هـ/١٣٦١م) يشير القلقشندي إلى أن الخليفة ملتزم بالحج فقال: "وعليه الحج إلى بيت الله الحرام، والوقوف بعرفة وسائر المشاعر العظام"[٢].

وعند العودة إلى المصادر المملوكية: نلاحظ أن بعض الخلفاء العباسيين قد طبق هذه العبارة فعلاً. وحج إلى بيت الله الحرام، والتزم بهذه الفريضة من خلال البيعة التي أعطيت له. وينقل إلينا ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٧م)، أن الخليفة الحاكم بأمر الله (الأول) قد حج في سنة (٦٩٧هـ/١٢٩٦م)، في سلطنة السلطان المنصور حسام الدين لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ /١٢٦٥-١٢٩٧م): "وأعطاه السلطان سبعمائة ألف درهم"[٣]، وفصَّل إبن الجزري (ت ٧٣٨هـ/١٣٣٨م) في خروج الخليفة الحاكم وأولاده وعائلته إلى الحج فقال: "وحج من مصر أيضاً الإمام الحاكم بأمر الله (الأول) أبو العباس أحمد خليفة المسلمين وأمير المؤمنين وأولاده وجميع عائلته، وأعطاه السلطان سبعمائة ألف درهم، وحج بصحبته الملك المسعود خضر ابن الملك الظاهر"[٤] بيبرس. والتزم بالحج

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٧، وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٢٩١، ومـآثر الأنافـة، ج٢، ص٢٩١.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٣٢٣؛ مآثر الأنافة، ج٢، ص٢٩٢؛ السيوطي، المصدر السابق، ص٤٧٧.

(٣) ابن دقماق، الجوهر الثمين، تحقيق: محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥، ج٢، ص ١٢٤ وسيـشار له ابن دقماق، الجوهر الثمين؛ وانظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص٣٩٨.

(٤) ابن الجزري، تاريخ حوادث الزمان، تحقيق عمر عبد السلام، تدمري، المكتبة العصرية، (بيروت – صـيدا)، ١٩٩٨، ج١، ص٣٩٥؛ وانظر: ابن دقماق، الدرة الزكية، ص٣٧١؛ ابن شاكر الكتبي، عيون التـواريخ، ج٣، ص٢٤٩.

أيضاً الخليفة المعتضد بالله أبو بكر ابن المستكفي ففي سنة (٧٥٤هـ/١٣٥٣م) وبعد تولية الخلافة بسنة حجة ورافقه مجموعة كبيرة من القضاة[١].

٢- إقامة علم الجهاد

يتحتم على الخليفة المبايع له أن يحث على الجهاد، لحماية الدولة وإرهاب العدو. وتتحدث نصوص البيعات عن الجهاد وأهميته بالنسبة إلى الإسلام والمسلمين، ونصت مبايعة الخليفة الحاكم بأمر الله (الثاني) أحمد بن المستكفي على إقامة فروض الجهاد، وأن الخليفة ملتزم بالجهاد في سبيل الله تعالى"[٢].

وقد أكد الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله بنفسه على ذلك في خطبة يوم الجمعة عند توليه الخلافة في سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م)، فقال: "اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام"[٣]. ولدينا من الشواهد التاريخية ما يدل على تلبية الخلفاء العباسيين وقيادة الجيوش بأنفسهم، فهذا الخليفة المستنصر بالله (٦٥٩-٦٦٠هـ/١٢٦١-١٢٦٢) أول خلفاء بني العباس في مصر قد طبق هذا الهدف المفهوم عندما خرج من مصر إلى جهاد المغول بمباركة من السلطان الظاهر بيبرس لذلك[٤]، ولكن الأقدار لم تمنحه كثيراً فسقط شهيداً وهو يحارب المغول (التتار) في سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م[٥]. وفي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م كان الخليفة المستكفي بالله إلى

---

(١) السخاوي، وجيز الكلام، ج١، ص٧٠١؛ ابن شاهين الظاهري، نيل الأمل، ج١، ص٢٥٧.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٤٠، وانظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٨.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ص٥٤٧.

(٤) انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ص٣١٨، المقريزي، السلوك، ج١ق، ص٤٦٢-٤٦٤.

(٥) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٧م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق محمد زاهد الحسن، ووعزت العطار الحسيني، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م، ص١٩٨ وسيشار له: أبو شامة، الذيل على الروضتين؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٢٣؛ ابن الوردي، ج٢، ص١٩١.

جانب السلطان الناصر محمد بن قلاوون في وقعة شقحب[1] ويصف المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) الخليفة قائلاً: "فوقف السلطان بجانبه في القلب"[2]. ولا تخلو أي بيعة للخلفاء من التركيز على الجهاد[3].

٣- إقامة الجمعة

عُدّت تعد خطبة الجمعة والإمامة في الجماعات من المهمات الأساسية للخليفة واعتبرت من أولويات الواجبات المنوطة به، وتمسك الخلفاء العباسيون، بالخطبة في صلاة الجمعة والجماعات، وكان ذلك تطبيقاً فعلياً لهذه الشعيرة؛ ففي نص عهد المستكفي بالله لابنه أحمد الحاكم بأمر الله (الثاني)، شدد الخليفة على "الجمع والجماعات"، فورد في العهد ما نصه: "وأنها باقية بينهم على قديم سُننها، وقويم سننها، وبأنها تشتمل على ما ضمه المسلمون من بلاد الكفار ويُسلم على أيديهم[4].

وقد تحدث المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) عن خطبة الخليفة المستنصر بالله بالقول بأن الخليفة استفتح خطبة الجمعة بقراءة سورة الأنعام، ثم الصلاة على النبي ﷺ. وكان لهذه الخطبة استحسان من قبل الناس[5].

---

[1] انظر المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣٥٦؛ رجب، تاريخ المماليك، ص ٢٣٠، حاشية رقم (٥)، ص٢٣٠. شقحب: قرية في الشمال الغربي من جبل غباغب من أعمال حوران من نواحي دمشق غبطية مرج الصفر وهو دمشق والجولان – وهو سهل واسع على بعد ٣٧كم عن دمشق جنوباً يشمل اليوم قرى زاكية، وشقحب وأركيس، والزريفية.

[2] المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٥٦.

[3] انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٤٠؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٧

[4] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٣٩؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٨.

[5] المقريزي، السلوك، ج١، ص٢٣٠؛ وانظر بيبرس الدردار، ص٧٨.

وكان كلام القلقشندي واضحاً عندما قال: "وكان يخطب بنفسه في جامع القلعة[١].

٤- العناية بالمسجد الأقصى وقبور الأنبياء بالشام

يتضح ذلك من بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد، التي أوضحت أن الخلفاء قد قاموا بعناية المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، والاهتمام به لا يقل عن الاهتمام بموسم الحج والحرمين، وينسحب على سكان بيت المقدس وما يحتاج إليه المسجد الأقصى من الزيوت والشموع والحصر والأئمة والخطباء، كما تطرقت البيعة إلى أن العناية بقبور الأنبياء وخاصة في بلاد الشام[٢].

٥- تفويض نظر الجوامع

لدينا إشارة واحدة يذكرها القلقشندي في عهد الخليفة المعتضد بالله العباسي (٧٥٣ - ٧٦٣هـ/١٣٥٢-١٣٦١م)، حيث قام الخليفة -كما جاء في نص الرسالة- بإصدار تفويض بنظر الجامع الجديد بمصر للقاضي البارزي الشافعي. وترجع أهمية هذه التفويض إلى أنه صدر باسم الخليفة، وهو رسالة ديوانية تتعلق بوظائف ذات سمة دينية، وهذه الرسالة توضح المكانة الدينية التي أعطيت للقاضي البارزي، والتي خاطبته بالجناب الكريم العالي الناصري[٣].

٦- ذكر اسم للخليفة في الخطبة

تؤكد النصوص التاريخية المملوكية على الخطبة للخليفة العباسي في يوم الجمعة والأعياد، بتقديم اسمه على اسم السلطان المملوكي، فقد ذكر ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م) ذلك عند مبايعة الخليفة المستنصر بالله للسلطان الظاهر بيبرس؛ فبموجب هذه المبايعة أصبح لزاماً على السلطان أن يخطب باسم على المنابر[٤].

---

[١] القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص١١٨.

[٢] أنظر النص في صبح الأعشى، ج٩، ص ٣٣٩، وكذلك السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٩٨-٤٩٩.

[٣] القلقشندي، المصدر السابق، ج٣، ص ١٩٦.

[٤] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٠٠ - ١٠١، وانظر ابن واصل، مفرج الكروب، ص٣١٣، وانظر: بيبرس الدوادار، التحفة المملوكية، ص ٤٨، وزبدة الفكرة، ص ٦١.

ومما يجدر ذكره في هذا الموضع أن إعلان الخطبة للخليفة العباسي في أي من المناطق كان يحمل دلالات واسعة؛ فالخلافة هي الإطار الشرعي للسلطة الفعلية وهي الدولة المملوكية وقد تحدثت المصادر عن اتساع المناطق التي خطب فيها للخليفة العباسي فشملت إلى جانب مصر والشام والجزيرة الفراتية، بلاد دنقلة في الجنوب[١].

الصلاحيات الدنيوية

يمكن لنا أن نجمل صلاحيات الخليفة العباسي الدنيوية بما يلي:

١. شمول سلطان الخلافة البلاد التي كانت تابعة للسلطة المملوكية

شمل سلطان الخليفة بلاد مصر والشام والحجاز والجزيرة الفراتية وديار بكر وغيرها من المناطق[٢]، وعند النظر في بيعة ولاية العهد من قبل الخليفة المستكفي بالله لولده أحمد الحاكم بأمر الله (الثاني) أعطت البيعة تفويضا للخليفة بينت أنه أقر ولاة الأمور على ما هي عليه في جميع الممالك التي تشملها السلطنة المملوكية، وود في نصها: "وأمير المؤمنين يشهد الله وخليفته عليه أنه أقر كل امرئ من ولاة الأمور الإسلامية على حاله"[٣].

وشمل هذا الإقرار من الخليفة للولاة والحكام "على اختلاف طبقات ولاة الأمور"[٤] وهناك على اختلاف مواقعهم، فورد في نصها: "وتفرقهم في الممالك والثغور براً وبحراً وسهلاً وجبلاً

---

(١) أبو شامه، الذيل على الروضتين، ص٢٢١، وانظر ابن واصل، ص ٣٦٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢١٥؛ السخاوي، وجيز الكلام، ج١، ص ١٢٣؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج٢، ص ٨٤؛ دنقله: تعرف بدنقلة العجوز مدينة تاريخية بالسودان الشمالي، فتحت على يد عبد الله بن أبي السرح عام ٣١هـ/ ٦٤٢م وأعاد فتحها السلطان الناصر محمد بن قلاوون عندما غزا بلاد النوبه، أنظر أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ج٢، ص٣٩٣ – ٣٩٤.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٣، ص ٣٢؛ وانظر اليونني، ذي مرآة الزمان، ج١، ص٤٤٥.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٩٦، وانظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص ٣٣٦.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص ٣٣٦.

وشرقاً وغرباً"[1]. وعرجت البيعة على المدارس والربط والزوايا والجوانب وما يتعلق بها، إضافة إلى أرباب المراتب وأصحاب الرواتب[2].

وعند العودة إلى مبايعات الخلافاء للسلاطين نجد أن الخليفة كان يفوض السلطان بهذه الأمور وغيرها من الصلاحيات الدنيوية، مثل تفويض الخليفة الظاهر بيبرس[3]. وتفويض الخليفة الحاكم بأمر الله الثاني للسلطان...... حيث خطب الحاكم خطبة فوض فيها السلطان "جميع أحكام المسلمين"[4].

٢. الشؤون العسكرية (أمر الجند)

جاءت بيعة ولاية العهد من الخليفة المستكفي لابنه الحاكم بأمر الله (الثاني) لتؤكد على ضرورة تمسك الخليفة الجديد بما منحته البيعة من الاهتمام بأمر الجند والشؤون العسكرية بالدولة وأن "يوالي غزو العدو المخذول براً وبحراً. ولا يكف عمن يظفر به منهم قتلاً وأسراً"[5]. بما في ذلك نشر السفن التي أطلق عليه اسم الغربان[6].

وقد نصت بيعة الخليفة المستنصر بالله إلى السلطان الظاهر بيبرس على تفويض أمر الجند فقال: "وفوض أمر جندها ورعاياها إليك"[7].

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٩٦.

(٢) القلقشندي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٩٩.

(٣) أنظر ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٠١ – ١٠٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ص٣١٣؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٦١؛ والتحفة المملوكية، ص ١٦ – ١٧.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ٥.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص ٣٤٠.

(٦) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٩٧.

(٧) البيوتي، ذي مرآة الزمان، ج١، ص ٤٤٥، وانظر الدوادار، زبدة الفكرة، ص ٦١ – ٦٥.

٣. ضرب الدنانير والدراهم باسم الخليفة (السكة)

بعد أن تم إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، ومبايعة أول خليفة عباسي وهو المستنصر بالله تمسك "السلطان الظاهر بيبرس بصك النقود باسم الخليفة، وحرص المؤرخون على تأكيد هذا الإجراء فذكر ابن عبد الظاهر أن أول خليفة في مصر ضربت السكة باسمه هو الخليفة المستنصر بالله فقال: "وتنقش السكة باسمه"[١]. وذكر بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م) الحادثة بالقول: "وتنقش السِّكّة باسمه"[٢] وفي نفس المعنى أشار ابن واصل (ت ٦٩٧هـ/١٣٩٧م) إلى ذلك بالقول: "ونثرت الدراهم والدنانير باسمه"[٣].

كما أشار إليها ابن كثير (ت ٧٧٢هـ/١٣٧٤م) بالقول: "وضرب اسمه على السكة"[٤]. أما المقريزي فإن ما أورده كان تذكيراً بأن الخليفة لم ينفرد بهذا الحق، حيث يشترك فيه مع السلطان المملوكي، وفي إشارة إلى المستنصر والظاهر بيبرس قال: "وأن تنقش السكة باسمهما"[٥]. وبنفس المعنى أورد القلقشندي الحادثة حيث قال: "وينقش اسمه مع اسمه في السكة على الدنانير الدراهم"[٦].

أما الخليفة العباسي (الثاني)، وهو الحاكم بأمر الله (الأول) التي ضربت السكة باسمه، فلم تستمر طويلاً واقتصر الأمر على اسم السلطان[٧].

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٠١.

(٢) بيبرس، الدوادار، زبدة الفكرة، ص٦١.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ص٣١٣.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٤٢.

(٥) المقريزي، السلوك، ج١، ص٥٣٠.

(٦) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص١١٣.

(٧) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٧٣.

وكانت أوضح الإشارات التي جاءت في النصوص الرسمية لبيان حق الخليفة بأن يسك النقد بإسمه هو عهد الخليفة المستكفي بالله لولي عهده الحاكم بأمر الله (الثاني) أحمد بن المستكفي والتي نصت على ضرب النقود باسم الخليفة المستكفي وولده الحاكم، وجاء بنص البيعة: "بما يشرق وجد الدرهم والدينار"[1] أي أن اسم الخليفة كان ينقش على الدينار والدراهم.

ولم يستمر سك النقود باسم الخلفاء العباسيين طويلاً، وهذا دفع القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) إلى القول: "ثم أبطلت أسماء الخلفاء جُملة، واقتصر على أسماء الملوك"[2] أي السلاطين.

ولاية العهد بالخلافة

لا نستطيع أن نقول أن الخلافة العباسية في مصر كانت وراثية في الأعقاب، بل الأدق هو أن الخلافة كانت مقصورة على البيت العباسي القرشي دون غيره، يتولاها منهم أفضلهم بعهد الخليفة الذي قبله، وأحياناً يتولى منصب الخلافة خليفة من غير عهد، كما سنرى، ومع هذا كان لا بد أن يتم له أخذ البيعة من الناس[3].

أصحاب الحق في اختيار ولي العهد

١- **الخليفة:** جرت العادة أن يعين الخليفة ولياً للعهد من أهل بيته، وقد طبق الخلفاء العباسيون هذا المبدأ بموجب البيعة التي أعطيت للخليفة العباسي، ومنحته حق اختيار ولي عهده من بعده وبالرجوع إلى عهود الخلفاء؛ فقد عهد الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان إلى ابنه أبي

---

[1] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٧

[2] القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص٢٣٠.

[3] حسن، أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٥، ص١٠٣.

عبد الله المستوثق بالله صدقه (بركه) [١] وابنه الى ابنه الحاكم بأمر الله (الثاني) الذي عهد إليه أبوه أثناء نفيه الخليفة الحاكم إلى مدينة قوص. واشهد عليه قاضي قوص وأربعين شاهداً، وكذلك موت أخيه الأمير صدقة (بركة) في سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م[٢]، ومن العهود أيضاً عهد المعتضد بالله أبو الفتح أبو بكر بن المستكفي بالله إلى ابنه أبو عبد الله المتوكل على الله[٣].

٢- **السلطان المملوكي:** عُدّت موافقة السلطان على عهد ولاية العهد ضرورية للخليفة الجديد، فعند موت الخليفة الحاكم بأمر الله (الأول) لم يوافق السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية (٧٠١هـ/ ١٣٠٢م) على ولي العهد المستكفي بالله أبي الربيع سليمان حتى سأل الشيخ تقي الدين بن دقيق العبد، وهو قاضي القضاة يومئذ بمصر، الذي أشار على السلطان بأن ولي العهد يصلح للخلافة[٤]. وبايع الواثق بالله إبراهيم[٥]. ثم بويع بالخلافة في سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م الحاكم بأمر الله الثاني[٦].

---

[١] الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١٥، ص٦٥١، وسيشار له:الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٨٧؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٧١-٢٧٢؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٨١-٨٣؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٠٥، ١٠٦.

[٢] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص٦٥١؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٨٧؛ ابن حجر العسقلاني، في الدرر الكامنة، ج١، ص٨٣-٨٤، ج٣، ص٢٧١-٢٧٢؛ القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص١٣٢-١٣٣.

[٣] السخاوي، وجيز الكلام، ج١، ص١٢٣، ١٣٠؛ السيوطي. حسن المحاضرة، ص٨٠-٨١؛ ابن شاهين القاهري، نيل الأمل، ج١، ص٢٣٤-٢٣٥، ٣٤٠.

[٤] السيوطي، حسن المحاضرة، ص٦٢.

[٥] إبراهيم الواثق بن محمد المستمسك بالله بن أحمد العباس، أبو إسحاق، وهو ابن أخي المستكفي بالله سليمان بن أحمد، فلما مات المستكفي سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م توقف الناصر محمد عن البيعة لابنه ثم أقام خليفة إبراهيم ولقبه بالواثق، فخطب له جمعة واحدة ومات الناصر محمد وخليفة المنصور أبو بكر فخلع الواثق وبايع أحمد سليمان سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م؛ انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص١٩١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٥١، الزركلي، الأعلام، ط١، بيروت، ج١، ص٦٣.

[٦] المقريزي، المصدر السابق، ج٣، ص٢٨٧؛ ابن تغري بردي، النجف، ج٩، ص١٥١.

٣- **أفراد البيت العباسي (فهم الخاصة):** أشارت بيعات ولاة العهد إلى أفراد البيت العباسي، لما لهؤلاء من أثر في المجتمع باعتبارهم أهل الخلافة، التي تقوم بمقام النبوة، وأن حقهم بها مقدس، وهي بنظرهم والناس مقدسة، فعند البيعة كان لا بد من موافقتهم على ولي عهد الخلافة[١]. ونصت بيعة المستكفي لولده بالله بركة (صدقة) على البيت العباسي باسم "وأقاربه وبنيه"[٢]. وتشير بيعة المستكفي لولده الحاكم بأمر الله في سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م إلى إجماع سادات قريش ووجوه بني هاشم وبني العباس وأئمتهم على ولاية العهد للحاكم[٣].

٤- **أهل الحل والعقد أو أهل الشورى:** ويحضر هؤلاء للمشورة وللشهادة على العهد، ومن الأمثلة على ذلك الإشارة إليهم في عهد المستكفي بالله بركة (صدقة) بالقول: "واستشارتهم بولي العهد الأمير بركة (صدقة) [٤]: "وفي نص عهد الحاكم بأمر الله (الثاني) العباسي من أبيه المستكفي بالله، طبق هذا المبدأ في اختيار ولي العهد: "أجمع على هذه بيعة أرباب العقد والحل"[٥].

٥- **موافقة ولي العهد على عهد البيعة:** لم يكن منصب ولي عهد الخلافة بالإجبار أو الإكراه، وإنما بالإيجاب والقبول. وعن رغبة وطواعية واختيار، ولدينا في نص عهد المستكفي بالله أبي الربيع (٧٠١-٧٤٠هـ/١٣٠٢-١٣٣٩م) لولده المستوثق بالله بركة (صدقة) عبارة توضح قبول ولي العهد أن يكون ولياً لعهد أبيه وخليفة من بعده وهي: "قبل المعهود إليه أعلى الله مقامه ذلك بمحضر من القضاة الحكام، والعلماء الأعلام[٦]، وفي نص عهد المعتضد بالله لابنه

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، ص٦٣، ٨٠، ٨١؛ القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص٣٣٨، ٣٤٠، ٣٤٨.

(٢) انظر نص البيعة، القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص٣٤٨.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٣٢؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٢.

(٤) انظر نص البيعة، القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص٣٤٨. وانظر تصنيفهم عند السحماوي، الثغر الباسم، ص٥٧٩.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٣٢؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩١.

(٦) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص٣٤٩.

وولي عهده المتوكل على الله وردت عبارة تدل على ذلك وهي: "وقبل المعهود إليه ذلك قبولاً شرعياً"[1].

٦- **الرعية (الناس):** يعتبر أهل الشورى والحل والعقد وأكابر الدولة من أصحاب السيوف والأقلام، والقضاة والعلماء ممثلين من الشعب، ولكن هذا لم يكن يكفي في نظر الخليفة والناس، فكان لا بد أن يأخذ بيعة الرعية لولي العهد بالخلافة داخل السلطنة المملوكية. ولا بد أن تعرف من هو ولي عهد الخلافة وحتى لا يكون عند الناس أي التباس في المستقبل؛ ففي عهد المستكفي بالله بولده الحاكم بأمر الله (الثاني) والتي أشير إليها بلفظ البيعة اشهد المستكفي ولاة الأمور والأحكام وأرباب المناصب وحملت العلم والأعلام وحماة السيوف[2]. وأشهرت بين العامة فأجمع عليها عامة الناس[3]. وورد في نص هذه البيعة بولاية العهد ضرورة إشهارها في بيت الله الحرام ويوم الحج الأكبر في عرفات حتى يكون جميع الناس وحجاج بيت الله الحرام عارفين ولي عهدهم[4]. كما ورد في نصها ما يلخص الهدف من ذلك ويبين أهمية أشهارها في عبارة وهي: "أن يشمل معروفها المعهود إليه ويعرف شرفها العاهد"[5].

الأسباب الموجبة لولاية العهد بالخلافة

تضمنت بعض نصوص عهود الخلفاء عبارات خاصة عبرت عن الأسباب التي دفعت الخلفاء الخلفاء العباسيين إلى أن يكون هناك وليٌّ للعهد، وتتمثل هذه الأسباب بما يلي:

١- **خوف الخليفة أن يموت دون أن يعهد:** أوضحت رسالة العهد من الخليفة، الحاكم بأمر الله (الأول) إلى ولي عهده المستكفي بالله أن الهدف من تنصيب ولي للعهد هو الخوف من أن

---

(١) السيوطي، حسن، المحاضرة، ص٨٣.

(٢) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج ٢، ص ٢٧٦؛ صبح الأعشى، ج ٩، ص٣٣٢.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٣٣٢؛ وانظر السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٩٢.

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٩٢. وانظر النص عند القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٣٢.

(٥) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج ٢، ص٣٤٢، ص ٣٤٧- ص٣٤٨.

يدركه الموت ويأتيه على فجأة دون أن يكون له وليٌّ للعهد، لذا بادر إلى مبايعة وليٌّ لعهده من بعده وهو المستوثق بالله بركة (صدقه)، وبعد موته لأخيه الثاني الحاكم بأمر الله صاحب النص[١].

٢- **المصلحة العامة للمسلمين:** أوضح بيعة الخليفة المستكفي بالله إلى ابنه المستوثق بالله بركة (صدقة) أن الخليفة وضع مصلحة الأمة، فوق أي اعتبار. ومن مصلحتها أن يكون لها وليٌّ لعهد الخلافة، كما بين نص العهد أن الخليفة كان شفوقاً وحريصاً على الأمة، والتي دعته أن يكون له وليٌّ للعهد. ومما جاء في نص: "واقتضت شفقة أمير المؤمنين ورأفته، ورفقة بالأمة ورحمته، أن ينصب لهم وليّ عهده"[٢].

٣- **المحافظة على الخلافة في البيت العباسي:** اعتبر خلفاء بني العباس أنفسهم بأن الخلافة حق مكتسب لهم على اعتبار أن الخليفة كان يقوم مقام رسول الله ﷺ وخليفته وابن عمه، وخليفة رب العالمين في أرضه، وشدد نص العهد من قبل الخليفة المستكفي على وجوب تعيين ولي عهد للخلافة وبأنه طبق سنن آبائه وأجداده والأئمة من الخلفاء الذين جاءوا قبله، فقد ورد في النص: "ولمّا كان سنة مَنْ تقدم من الأئمة الخلفاء ... تفويض الأمر بولاية العهد على الخلق"[٣].

٤- **الاستخارة:** وردت الإشارة إلى الاستخارة بوصفها أحد الأسباب الموجبة لاختيار ولي عهد للخلافة على اعتبار أن الخليفة كان يحمل همَّ الأمة، بوصفه خليفة المسلمين، ونظراً لما يشعر به من مسؤولية أمام الله؛ فقد أطال النظر واجتهد ملياً في هذه المسألة. فكان يناجي الله تارةً،

---

[١] السيوطي، حسن المحاضرة، ص ٦٣-٦٤.

[٢] القلقشندي، مآثر الأنافة، ج ٢، ص ٣٤٧.

[٣] المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٧.

ويستخيره أخرى، ويدعوه ثالثه، حتى أدته الاستخارة والاجتهاد إلى اختيار وليٍّ للعهد، وقد تضمن نص عهد المستكفي بالله إلى إبنه المستوثق بالله بركة (صدقة) العبارات الدالة على ذلك ومنها: "واستخار الله تعالى فيه فأقبل خطه الشريف عليه"[1]. "فلم يجد عنه محيداً إلاّ إليه"[2].

كما تضمن عهد الخليفة المعتضد بالله لولده المتوكل على الله العبارات الدالة على ذلك وفي إشارة إلى المعتضد بالله أنه: "استخار الله سيدنا ومولانا الإمام المعتضد بالله ... أنه عهد إلى ولده بصلة الإمام المتوكل على الله أبي عبد الله محمد"[3].

٥- توفر شروط الخلافة في ولي العهد

والمتتبع لنصوص ولاية العهد عند الخلفاء العباسيين يجدها تؤكد أن شروط الخلافة متوفرة بولي العهد عندما يبايع له، ويحرص الخلفاء أن يبرزوا هذه الشروط أمام الناس حتى تكون ولاية العهد بيعة تصلح بسببها الأمة، ولأهمية وجود نائب عن الخليفة يقوم مقامه في حال مرضه أو موته[4]. ويساعده في مهامه "معيناً لأبيه في حياته، خليفة له من بعده وأن يصرح له بالاستخلاف"[5]. ومثال على ما ذكر من شروط، فقد تضمن عهد الخليفة المستكفي بالله إلى ولده الحاكم بأمر اله (الثاني) عبارة: "ونعم الخليفة، المجتمع فيه شروط الإمامة"[6].

ونستطيع أن نجمل هذه الشروط حسب ما توفره لنا نصوص بيعات الخلفاء لولاة العهد بما يلي:

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، ص ٦٣-٦٤.

(٢) القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٨.

(٣) انظر نص البيعة في القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص ٢٨٥؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٥٧٩.

(٤) السيوطي، حسن المحاضرة، ص٨٢؛ حمادة، الوثائق، السياسة، ص١٠٦.

(٥) انظر القلقشندي، نص بيعة المستكفي بالله ولاية الحاكم بأمر، مآثر الأنافة، ص ٢٧٥، ص٣٤٧.

(٦) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص ٣٤٧.

١- البيت العباسي (النسب العباسي) [١]، كما ذكرنا سابقاً.

٢- الأهلية: وقد نص عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (الأول) إلى ولده المستكفي بالله سليمان أبي الربيع أنها متوفرة في ولده المستكفي وأنه على اطلاع كامل لما يتمتع به ولده فقال: "لما علمه من أهليته ... فوض إليه أمر الخلافة المعظمة"[٢]، كما أكد الخليفة المعتضد بالله على الأدلة الدافعة بأهلية ولده المتوكل على الله لحمل أعباء الخلافة من بعده، وجاء في نص البيعة: "وقامت الأدلة بأهليته تقليدها"[٣].

٣- العدالة: والمقصود بالعدالة الجامعة لشروطها[٤]، كما يرى الإمام الماوردي (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) تفيد نصوص الخلفاء العباسيين لأولياء العهد أن الخلفاء كانوا على علم بشأن العدالة في أولادهم الذين سيخلفونهم في منصب الخلافة؛ فهذا الخليفة المستكفي به الله حينما عهد بالخلافة لولده الحاكم (الثاني) بأمر الله يؤكد أن العدالة متوفرة في ابنه، فقال في نسخة العهد مشيراً إلى "أهليته وعدالته"[٥]. وفي عهد الخليفة المعتضد بالله لابنه المتوكل على الله أوضح أن صفات العدالة الموجودة عنده تؤهله ليكون ولياً للعهد، "لما علم ... وعدالته"[٦].

---

[١] انظر بيعة المستكفي لولده المستوثق والحاكم بأمر الله، القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص٢٧٤-٢٨٣؛ والخليفة المعتضد لابنه المتوكل على الله السيوطي حسن المحاضرة، ٨١-٨٣؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص ١٠٥-١٠٦.

[٢] السيوطي، حسن المحاضرة، ص ٦٤.

[٣] السيوطي، حسن المحاضرة، ص ٨١-٨٢؛ حمادة الوثائق السياسية، ص ١٠٦.

[٤] انظر الماوردي عن الشروط المعبرة، الأحكام السلطانية، ص١٦-١٧؛ فتحية النبراوي، تاريخ النظم الإسلامية، ص٤٠.

[٥] السيوطي، المصدر السابق، ص ٦٤.

[٦] السيوطي، المصدر السابق، ص ٨٣؛ وانظر النص الكامل، ص٨٠-٨٤.

٤- الكفاية: ويقصد بالكفاية أن يكون خليفة المسلمين قادراً على إقامة الحدود بين الناس، والقدرة على إدارة الحروب، وكفيلاً بحمل الناس عليها، وصاحب رأي وتدبير[١] ومن الأمثلة على الكفاية في عهود الخلفاء، ما تضمنه عهد الخليفة المعتضد بالله العباسي لولده المتوكل على الله حيث اعتبر ابنه جديراً بذلك وأن كفايته منقولة له من الآباء والأجداد فقال: "وعدالته ... وكفايته"[٢]، و "أنه كفء لتناول طريقها وتليدها"[٣].

وأكدت نصوص بيعات الخلفاء لولاة عهدهم وحددت لهم الواجبات التي يجب أن يأخذوها ويتقيدوا بها بما هو الأهم من مصالح الإسلام، وصالح الأعمال، وأن يقدموا التقوى أمامهم، ويتبعون الشرع الشريف، وفروض الحج والجهاد، والعدل بين الرعية، والاهتمام بالحرمين الشريفين، وتحصين الثغور والحصون، وأن يكونوا أصحاب مروءة، وأنهم مسئولون أمام الله عن الأمة "هذا وكل راع مسئول عن رعيته"[٤].

ونستنتج من نصوص العهود لولاة العهد بالخلافة وجود بعض المتطلبات حتى تكون البيعة صحيحة شرعية وهي:

١- مجلس الشرع "أهل الحل والعقد والقضاة والعلماء"[٥].

٢- تحديد سنة بيعة ولاة العهد[٦].

---

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ط٧، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م، ج١، ص٤٣٠، وسيشار له، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، عبد الكريم الخطيب، الخلافة والإمامة، ص٣١٩.

(٢) السيوطي، المصدر السابق، ص٨٣ وانظر النص ص٨٠-٨٤؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٠٦-١٠٧.

(٣) السيوطي، المصدر السابق، ص٨٢.

(٤) انظر نص بيعة الخليفة المستكفي بالله أي الربيع سلمان لولده المستوثق القلقشندي، مآثر الأنافة، ص٣٣٧-٣٤٧، وانظر، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٠-٤٩٧.

(٥) انظر السيوطي، حسن المحاضرة، بيعة الحاكم بأمر الله، ص٦٢-٦٧؛ ونص بيعة المعتضد لابنه المتوكل، حسن المحاضرة، ص٨٠-٨٤، ومآثر الأنافة، ج٢، ص٢٨٠-٢٨٦.

(٦) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص٣٣٧-٣٤٨؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ص٦٧؛ تاريخ الخلفاء، ص٤٩٠؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٥٧٨.

٣- الشهود على البيعة[١].

٤- التصريح باسم ولي العهد[٢].

ب- السلطنة المملوكية:

برزت من خلال الرسائل الديوانية الخاصة بمنصب السلطنة أسس هامة خاصة بتعيين السلطان وتأكيد حقه في هذا المنصب، حيث سعى السلاطين إلى الحصول على مبايعة من الخليفة العباسي منذ إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، وذلك لتأكيد شرعية حكمهم، وقد عكس تحليل الرسائل الخاصة بمنصب السلطة الأسس النظرية للصلاحيات الواسعة التي تمتع بها السلاطين المماليك. وتأتي دراسة المبايعات بالسلطنة وصلاحيات السلاطين من خلال العناوين التالية:

إصدار البيعة للسلطان:

ترافق إصدار أو بيعة للسلطان المملوكي مع إحياء الخلافة العباسية في القاهرة وتولي المستنصر بالله الخلافة، حيث تمت مبايعة السلطان الظاهر بيبرس من قبل المستنصر بالله سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) [٣] ثم مبايعة الظاهر بيبرس من قبل الخليفة الحاكم بأمر الله سنة (٦٦١هـ/ ١٢٦١م)، ومبايعة الخليفة الحاكم بأمر الله للسلطان المنصور قلاوون سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) [٤]،

---

[١] القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢، ص٣٣٩؛ صبح الأعشى، ج٩، ص٣٣٦؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ص٨٣، السحماوي، المصدر السابق، ص٥٧٦؛ حمادة الوثائق السياسية، ص١٠٥-١٠٧

[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٩، ص٣٣٥؛ مآثر الأنافة، ج٢، ص٣٣٩، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٩٤ وحسن المحاضرة، ج٢، ص٨٢-٨٣؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٥٧٨؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٠٥-١٠٧.

[٣] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٠٠، ١٤١، ١٥٣؛ بيبرس الدردار، زبدة الفكرة، ص ٨٧-٩١؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان ج١، ص ٣٧٤٣-٣٤٩؛ النويري، ابن تغري بردي، النجوم الزهرة، ج٧، ص١٠١-١٠٢؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص٢٩٨-٣٠٨؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٥٣-٥٨.

[٤] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٢٠؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص ١٢١-١٢٤.

ومبايعة الحاكم بأمر الله كذلك للسلطان الناصر محمد بن قلاوون المبايعة الثانية سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٧م)[١]، ومبايعة السلطان بيبرس الجاشنكير من قبل الخليفة المستكفي بالله سنة (٧٠١هـ/١٣٠٢م)[٢]، ومبايعة الحاكم بأمر الله للسلطان حسام الدين لاجين سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٦م)[٣].

ومما جاء في بيعة الخليفة المستنصر بالله للسلطان الظاهر بيبرس قول الخليفة: "وقد قلدوك الديار المصرية، والبلاد والديار البكرية والحجازية، واليمنية، والفراتية"[٤]، ومما جاء في بيعة الخليفة المستكفي بالله للسلطان بيبرس الجاشنكير، قوله: "الحمد لله الذي جعل الملَّة الإسلامية تأوي من سلطان إلى ركن شديد، وتحوي من مبايعة مظفرها كل ما كانت ترومه[٥]، ومما جاء فيه مبايعة الخليفة المستكفى بالله أيضاً للسلطان الناصر محمد بن قلاوون قوله: "فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة تبركاً بأخذ يحيى عليه السلام"[٦].

ومما جاء في نص بيعة السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة عند عودته من الكرك سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، من الخليفة الحاكم بأمر الله (الثاني) قوله في البيعة: "وعهد إليك في كل ما اشتملت عليه دعوة إمامته المعظمة، وإحكام خلافته التي لم تزل بها عقود الممالك في الطاعة منظمة"[٧].

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٥٩؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص ١٤٠-١٥٠.

[٢] النويري، نهاية الأرب، ج٢،ص ٩٧-١٠٢؛ حمادة، الوثائق السرية، ص ١٥٢-١٥٨.

[٣] القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٣، ص ٥٠-٦٠؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص ١٣٥-١٤٠.

[٤] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٠٤؛ وانظر بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٦٢؛ اليونني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٤٤٥.

[٥] النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص٩٨.

[٦] القلقشندي، المصدر السابق، ج١٠، ص٥٩.

[٧] القلقشندي، مآثر الأناقة، ج٣، ص٦٩؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٤٥.

التفويض الصادر عن الخلفاء العباسيين (أهميته وملامح تفعيله)

بموجب بيعة الخليفة للسلطان، كان السلطان يفوّض من الخليفة العباسي تفويضاً تاماً شاملاً غير منقوص، فحين بايع الخليفة الحاكم بأمر الله (الأول) السلطان الظاهر بيبرس "فوض إليه سائر الأمور"[١]، وتدل نصوص المبيعات على أن العبارة الدالة على التفويض كانت جزءاً لا يتجزأ من النص ومن ذلك ما تضمنته مبايعة الحاكم بأمر الله الأول للمنصور قلاوون حيث جاء فيها: "أن يفوض ما فوضه الله إليه من أمر الخلق"[٢]. وما تضمنته مابيعة الحاكم بأمر الله (الأول) للناصر محمد بن قلاوون ومما جاء فيها: "وفوض إليك سلطنة الممالك الإسلامية براً وبحراً، شاماً ومصراً"[٣].

وبموجب التفويض، أصبح السلطان المملوكي يملك صلاحيات كاملة في الحكم. ويمكن لنا من خلال التفويض أن نذكر الصلاحيات التي فوضها الخليفة للسلطان:

١- إقامة علم الجهاد

بموجب بيعة الخلفاء للسلاطين، حرص السلاطين على الجهاد وما يتعلق به من فروض يجب إقامتها، ومن نصوص البيعات نأخذ بعض النماذج التي أشارت صراحة إلى الجهاد؛ فعندما بايع الخليفة المستنصر بالله، والخليفة الحاكم بأمر الله، السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، نصت البيعة على إقامة فروض الجهاد ومما جاء فيها: "والجهاد في سبيل الله"[٤] والجهاد: "الذي أضحى على الأمة فرضا"[٥].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٧٧.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص ١٢٠. حمادة، الوثائق السياسية، ص١٢٢.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى؛ ج١٠، ص ٦٤؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص ١٤٦.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٠٠، ص١٤٢، وانظر بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ١٠٧.

(٥) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٠٧، وانظر النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص٣٤.

ونصت بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله (الأول) إلى السلطان قلاوون على أن: يقوم عنـــــه – يعني السلطان– بفروض الجهاد"[1] "والجهاد براً وبحراً فمن كنانة الله –مصر– تفوق سهامُه أو تؤرخ أيامه، وينقضي حسابه، وتجري منشآته في البحر كالأعلام"[2]، كما نصت بيعة الحاكم بأمر الله للسلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٦-١٣٠٧م) على الجهاد ومما جاء فيها: "وأما الغزو والجهاد في سبيل الله تعالى[3]، وما أوجبه فيهما قوله: "انفروا خفافاً وثقالا"[4] وقد قاد سلاطين المماليك الجيوش في محاربة المغول والصليبيين وحملوا لواء الجهاد في سبيل الله[5].

٢- إقامة فريضة الحج

تمسك سلاطين الدولة المملوكية. بموجب البيعة على إقامة فروض الحج، وبالعودة إلى نصوص البيعات للسلاطين المماليك. نسوق ملاحظة هامة حول طبيعة ما تضمنته النصوص عن هذه الفريضة، ففي بيعة السلطان الظاهر بيبرس من الخليفة المستنصر بالله، والخليفة الحاكم بأمر الله (الأول) لم نلاحظ ذكراً للحج من خلال البيعة للسلطان، وإنما اهتمت بالجهاد على اعتبار أن الجهاد أصبح أولى من الحج في هذه الفترة التي تمر بها بلاد الشام ومصر، من خلال الوجود المغولي والصليبي واحتلاله للمناطق الواسعة في بلاد الشام، ومع هذا نرى أن السلطان الظاهر بيبرس، رغم انشغاله بمحاربة المغول والصليبيين في أكثر من صعيد، إلاّ أنه لم يترك الحج فطبق

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٢٢.

(٢) القلقشندي، مآثر الأناقة، ج٣، ص١٣٥.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٦٧، ومآثر الأنافة، ج٣، ص٧٤؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٤٩.

(٤) التوبة، آية: ٤١.

(٥) انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ص٢٩٠، ٣١٥، ٣٣٦، ٣٦٥؛ شافع بن علي، الفضل المـــأثور، ٣٨-٣٩، ٥٣-٥٤، ٥٥-١٥٦-١٥٩؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ٥٠-٥٢، ١٥٤، ١٩٦.

هذه الفريضة، حيث حج في سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م[١]،وتتدرج هذه الملاحظة على البيعة من الحاكم بأمر الله إلى للمنصور قلاوون فلم تأت البيعة على ذكر الحج. أما الحديث عنه في نصوص البيعات فكان بعد تحرير بلاد الشام نهائياً على يد الأشرف خليل بن قلاوون في عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م[٢]، حيث أصبحت البيعات تشير إلى الحج وإلى واجب السلطان في رعاية الحجيج مثل بيعة الحاكم بأمر الله (الأول) للعادل السلطان كتبغا (٦٩٤ه/١٢٩٣م)، التي ورد فيها ما يجب على السلطان أن يقوم به، من مصالح الحرمين الشريفين، والاهتمام بمنازل الحج والاستراحات، وتعمير الآبار والبرك: وكذلك بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله للسلطان المنصور لاجين التي تناولت ما يتطلبه الحج من اهتمام وعناية "في مصالح الحرمين الشريفين"[٣].

٣- الاهتمام بالمسجد الأقصى وعمارة المساجد

أشارت بيعات الخلفاء العباسيين لسلاطين الدولة المملوكية، إلى توجيه عنايتهم والاهتمام بالمسجد الأقصى، فهو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، "وفي مصالح الحرمين وثالثهما الذي تشد الرحال أيضاً إليه"[٤].

وتطرقت بيعة الحاكم بأمر الله إلى المظفر بيبرس الجاشنكير إلى عمارة المساجد من بناء وترميم وغيره، وخاصة الكبرى منها الجامعة: "وحثه إيمانه على عمارة بيوت الله تعالى الجامعة"[٥].

---

[١] بيبرس، الدوادار، زبدة الفكرة، ص١٢٠-١٢١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٦٩.

[٢] المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٢٣-٢٢٤؛ العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٥٦-٥٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج١٣، ص١٩٧-١٩٨.

[٣] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٥٨؛ ومآثر الأنافة، ج٣، ص٥٩؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٣٩.

[٤] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٥٨؛ ومآثر الأنافة، ج٣، ص٥٩، حمادة، المصدر السابق، ص١٣٩.

[٥] النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص١٠٠ وانظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٧١.

٤- تعيين القضاة

مع أن القضاة كان تعيينهم من اختصاص الخلفاء[١]، ولكننا لا نلمس أي تعيين قام به الخليفة مباشرة، وهذا يدل أن السلطان المملوكي هو الذي كان يقوم بتعيين القضاة، ولدينا نص صريح وواضح؛ ففي عهد السلطان الظاهر بيبرس، قلد قاضي القضاة نجم الدين بن سني الدولة في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م وقُرئ التقليد بدمشق بالمدرسة العادلية[٢]، ومضمون التقليد يشير إلى بيعة الخليفة المستنصر بالله، ومبايعة الخليفة للسلطان الظاهر بيبرس، وأن اسم الخليفة يضرب على السكة ويخطب له على المنابر، وأن نسبه صحيح شريف[٣].

وقد شمل هذا التفويض المجال السياسي أيضاً، ومن المهام التي فوضت إلى السلطان:

١- توقيع الهدن

أعطت البيعات تفويضاً عاماً للسلطان المملوكي بتوقيع الهدن بين الدولة المملوكية وغيرها من الدول سواء كانوا من المغول أو الصليبيين أو الأرمن أو غيرهم. وقد نصت بيعة الحاكم بأمر الله (الأول) إلى السلطان العادل كتبغا سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٣م) عقد الهدن التي يطلبها الأعداء، وفيها صالح الإسلام والمسلمين. ومما جاء فيها: "وضرب الهدن التي تسألها الأعداء وهي خاضعة الأعناق"[٤]، ومثلها أيضاً بيعة الخليفة المستكفي بالله للسلطان بيبرس الجاشنكير التي نصت على صلاحيات السلطان في إبرام الهدن ونقضها، فجاء في البيعة: "وجعل أوامره هي النافذة... والإبرام والنقض"[٥]، وبيعة السلطان الناصر محمد بن قلاوون أيضاً، وجاء فيها على لسان الخليفة: "ومهادنة من ترى مهادنته منهم"[٦].

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٢٨٩.

[٢] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٤٥١-٤٥٢.

[٣] اليونيني، المصدر السابق، ج١، ص٤٥١-٤٥٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣١٤.

[٤] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٤٩، مآثر الأنافة، ج٣، ص٤٥، حمادة، الوثائق السياسية، ص١٣٠.

[٥] القلقشندي، المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٢؛ حمادة الوثائق السياسية، ص ١٥٣.

[٦] القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٦٤.

وأعطت البيعات أيضاً تفويضاً للسلطان بالاستمرار في الهدى الموقعة بين الدولة المملوكية وغيرها من الدول حتى تنتهي المدة المتفق عليها مثل ما ورد في مبايعة الحاكم بأمر الله (الأول) للسلطان المنصور لاجين حيث ورد التفويض في عبارة: "وفي ضرب الهدن وإمضائها، والوفاء بالعقود المشروعة إلى انتهاء مدنها وانقضائها"[١].

٢- المراسلات

أعطت بيعة الخلفاء العباسيين للسلاطين المماليك الحق في المراسلات بين الدولة المملوكية، وأية دولة لها علاقات سلمية أو غير سلمية[٢]. وقد ورد على لسان العسقلاني في كتاب الفضل المأثور أن السلطان الملك قلاوون "كتب إلى اليمن، وإلى الغرب وإلى العراق، وإلى ماردين، وإلى سائر الملوك الفرنجية المهادنين، والموادعين، والمكاتبين"[٣] وكانت هذه الرسائل بعد توليه السلطنة في سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م.

وقد شمل التفويض الذي أعطاه الخليفة للسلطان المجال الإداري، ومن مهام السلطان في هذا المجال:

١- اختيار الموظفين من أصحاب الكفايات والأمانة

عند التمعن في بيعات الخلفاء العباسيين للسلطان المملوكي، وجدنا الخليفة يحث السلطان على اختيار الموظفين من أصحاب الكفاءة والديانة، وأن يراقب تصرفاتهم قبل وبعد الوظيفة التي تسند إليه، وقد أشارت بيعة الخليفة المستنصر بالله إلى السلطان الظاهر بيبرس إلى ذلك حيث ورد فيها:

---

(١) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج ٣، ص٥٦، صبح الأعشى، ج١٠، ص٥٧؛ حمادة الوثائق السياسية، ص ١٣٩.

(٢) انظر نص البيعة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون في بيعته من قبل الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان، القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص ٦٤.

(٣) العسقلاني، الفضل المأثور، ص ٥٢.

"وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب، وحكام، وأصحاب رأي"[1] ، كما أشارت بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله (الأول) إلى السلطان الملك المنصور قلاوون إلى ذلك، ومما جاء فيها: "فوض أمرها إلى كل قوي أمين وإلى كل ذي دين متين، وعقل رصين"[2].

ولم تكتفِ البيعة بذلك بل بينت أسس اختيار الموظفين وطرق معاملتهم حيث يرد فيها: "نواب الممالك ونواب الأمصار، فأحسن لهم الاختيار، وأجمل لهم الاختبار، وتفقد لهم الأخبار"[3].

٢- عزل النواب والولاة والأمراء والقضاة من مناصبهم

بموجب البيعة من الخليفة العباسي للسلطان المملوكي، أعطته حق التولية والعزل لأي شخص أو فرد من منصبه سواء كان هذا المنصب مدنياً أو عسكرياً أو دينياً أو غير ذلك. وبالرجوع إلى بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله إلى السلطان بن الملك المنصور قلاوون نصت البيعة على حق السلطان في "كل عزل وتولية "[4].

٣- إصدار التقاليد

نصت البيعات التي أعطيت للسلاطين المماليك حق إصدار التقاليد إلى الأمراء والوزراء وكل ما يستحق تقليدا من السلطان المملوكي، وكانت البيعات واضحة في هذا المعنى؛ ففي بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله (الأول) إلى السلطان الملك المنصور قلاوون وردت عبارة:" وفي كل تقليد وتفويض"[5]، وفي بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله (الأول) إلى السلطان المنصور لاجين، كانت

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٠٥؛ وانظر النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٣٣.

(٢) القلقشندي، مآثر الأناقة، ج٣، ص١٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٣٧.

(٤) القلقشندي، مآثر الأناقة، ج٣، ص١٣٣؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٢٢؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص١٠٨.

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٧٠؛ حمادة، الوثائق السرية ، ص ١٢٢.

الإشارة إلى التقليد أكثر وضوحا وشمولاً من خلال عبارة "وفي تقليد الملوك* والوزراء، وتقدمه الجيوش"[(١)]، وكانت الإشارة مشابهة وواضحة في بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله (الأول) إلى السلطان العادل كتبغا[(٢)].

وشمل التفويض المجال العسكري، ومن مهام السلطان في هذا المجال:

١- تعيين القادة العسكريين من أرباب السيوف المشهورين بالكفاءة والقدرة

وردت الإشارات حول ذلك واضحة في المبايعات فجاء في بيعة الخليفة المستنصر بالله للسلطان الظاهر بيبرس في إشارة إلى أرباب السيوف: "فإذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقب عليه تنقيبا، واجعل في تصرفاته رقيباً"[(٣)].

أما بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله (الأول) إلى السلطان المنصور قلاوون فأشارت إلى جيوش الإسلام وقادته وحماته: "وجيوش الإسلام وكماته، وأمراؤه وحماته... فأوسعهم بَّراً، وكن بهم بَرّا"[(٤)]. ونصت بيعة الحاكم بأمر الله (الأول) أيضاً إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون على حق السلطان في اختيار أمراء الجيش: "وتأمير الأمراء وتجهيز العساكر والبعوث"[(٥)].

٢- الاهتمام بالطلائع العسكرية (التجاريد)

أشارت البيعات التي منحت السلاطين المماليك، إلى إرسال الطلائع والتجاريد وهي الوحدات العسكرية الصغيرة التي كان الفرسان يقومون بها دون أسلحة ثقيلة بغرض مراقبة الأعداء خاصة

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٥٦؛ حمادة، الوثائق السرية ، ص ١٣٨.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٢٤.

(٣) القلقشندي، مآثر الأناقة، ج٣، ص٤٤؛ صبح الأعشى، ج١٠، ص٤٩؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٢٩.

(٤) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص١٠٩، وأنظر القلقشندي، المصدر السابق، ج٩، ص١٠٤.

(٥) القلقشندي، مآثر الأناقة، ج٣، ص٦٩؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٤٦.

في فصل الشتاء[١]؛ ففي بيعة السلطان المنصور لاجين من قبل الحاكم الخليفة بأمر الله (الأول) سنة (٦٦١هـ/ ١٢٦٢م) فُوض لاجين بموجب البيعة بـ: "إرسال الطلائع، وتجريد الجنود ما ندبهم إلى العداء الأقوى بالنهاب وبالسبايا"[٢]. كما ورد التفويض في هذه المهمة واضحاً في بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله (الأول) إلى العادل كتبغا فورد على لسان الخليفة قوله: "وعرفوا أن أرواحهم ودائع سيوفها وصحبتهم سرايا رعبها المبثوثة إليهم"[٣]. كما ورد في بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله إلى السلطان المنصور لاجين حيث فوضه الخليفة بالاهتمام بالسرايا والطلائع فقال: "وفي تجهيز العساكر والسرايا، وإرسال الطلائع"[٤].

٣- تحصين القلاع والحصون والثغور

أعطت البيعات إلى السلاطين المماليك تفويضاً من الخلفاء العباسيين بالاهتمام بالقلاع والحصون والثغور وشحنها بالعدة والعتاد، لتكون سداً منيعاً أمام أي هجمات من قبل الأعداء، فهي خط الدفاع الأول عن الدولة، ففي بيعة الخليفة المستنصر بالله للسلطان الظاهر بيبرس حث فيها الخليفة السلطان على الاهتمام بالثغور والحصون وأن يكون هذا الاهتمام من أولوياته، ومقدمة التزاماته، فقال في نص البيعة: "ولا تخلُ الثغور من اهتمام بأمرها"[٥] ، وفصَّل في ذالك حيث قال: "وأن يُشيِّد الحصون والقلاع التي غادرها العدو وأن تكون الحصون القريبة من البحر جل اهتمامهِ ولا: "سيما ثغور الديار المصرية"[٦].

---

[١] مصطفى الخطيب، المصدر السابق، ص ١٢٢.

[٢] القلقشندي، مآثر الأناقة، ص٥٧.

[٣] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٤٧-٥٣؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٤٥.

[٤] القلقشندي، مآثر الأناقة، ج٣، ص٥٧.

[٥] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٠٨؛ وانظر بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٨٩.

[٦] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٠٨، وانظر اليونني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٤٤٨.

أما الخليفة الحاكم بأمر العباسي فقد طلب من السلطان المنصور قلاوون أن يشحن هذه الحصون والقلاع والثغور بالرجال، وأن يولي فيها الأمراء أصحاب القوة والدين، وجاء في نص البيعة: "والثغور والحصون، فهي ذخائر الشدة، وخزائن العديد والعدة، وكنائن الرجال... فأحسن لها التحصين، وفوض أمرها إلى كل قوي أمين، وإلى كل ذي دين متين"[١].

٤- العناية بالأسطول

بينت نصوص البيعات التي أعطيت للسلاطين المماليك، من الخلفاء العباسيين أهمية العناية بالأسطول المملوكي في البحار، ومطالبة السلاطين بموجب البيعة أن يتم شحن الأسطول بما يحتاج إليه من الرجال والسفن بكافة أنواعها، وأن يكون الأسطول على أُهبة الاستعداد لأي طارئ، خاصة أن سواحل الشام، كان لحتى خمسين سنة من عمر الدولة المملوكية يوجد فيها أساطيل افرنجية وصليبية[٢].

وتضمنت رسالة بيعة الخليفة المستنصر بالله حث الخليفة السلطان الظاهر بيبرس أن يعطي اهتماما كبيرا ومقدما على غيره للأسطول البحري، على اعتبار أن هذا الأسطول هو شقيق الجيش السليماني (الخليفي)، ومما جاء في نص البيعة: "وكذلك الأسطول الذي ترى خيله كالأهلة.. وهو أخو الجيش السليماني"[٣]. كما نصت بيعة الحاكم بأمر الله (الأول) للسلطان المنصور لاجين على

---

[١] القلقشندي، مآثر الأناقة، ج٣، ص١٣٦؛ صبح الأعشى، ج١٠، ص١٢٤؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص١٠٩؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٢٣.

[٢] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٠٩؛ ابن واصل مفرج الكروب، ص٣٢٥، العيني، عقد الجمان، ج١، ص٣٠٦.

[٣] ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ١٠٩، وانظر اليونني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٤٤٨؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٣٥.

تزويد الأسطول بالسفن حتى تكون شامخة كالجبال في البحار، وجاء في نص البيعة: "وإمداد بحرها بالشواني المجرية المجددة والسفن التي كأنها كالقصر" وتخطف غربانهم الطائرة"[1].

وشمل التفويض المجال الاقتصادي، ومن المهام التي فوضت إلى السلطان:

١- الأملاك والهبات

أشارت بعض البيعات التي أعطيت للسلاطين المماليك من الخلفاء العباسيين إلى الأملاك والهبات، والتي تمسك بها سلاطين الدولة المملوكية بموجب البيعات خاصة وأن الدولة المملوكية كانت تقوم في مجملها على نظام الإقطاع[2]؛ ففي بيعة السلطان المنصور قلاوون من الخليفة الحاكم بأمر الله (الأول) له. أعطي للمنصور حق التمليك والهبات، ومما جاء في نص البيعة: "أمر مولانا أمير المؤمنين ... أن يكون للمقر السلطاني ... في كل هبة وتمليك"[3]. وفي بيعة الخليفة المستكفي بالله للسلطان بيبرس الجاشنكير أعطي السلطان بموجبها الحق في كل: "هبة وتمليك"[4].

٢- جباية الأموال

حددت البيعات التي أعطيت للسلاطين المماليك من الخلفاء العباسيين طريقة جباية الأموال من الرعية بأن تكون حسب الشرع الشريف، ومراقبة مباشري الأموال عندما يأخذونها من الناس

---

(١) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٦٤؛ اليونني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٤٤٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٥٤،٥٨؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٣٥.

(٢) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٨٨ – ٨٩؛ وابن واصل، مفرج الكروب، ص٣٢٦؛ محمد بني يونس، محمد، ولاية البلقاء واستدارية الأغوار في العصر المملوكي (٦٥٩-٩٢٩هـ/١٢٦١-١٥١٦م) رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة الجنان، طرابلس، ٢٠١١م، ص٤٣٣. وسيشار له: بني يونس، ولاية البلقاء.

(٣) القلقشندي، مآثر الأناقة، ج٣، ص١٣٣؛ صبح الأعشى، ج١٠، ص١٢٢؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ص١٠٨.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص١٢٨ – ١٣٥؛ صبح الأعشى، ج١٠، ص١٢٢؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ص١٠٨.

وصرفها حسب مستحقها، مثل بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله للسلطان المنصور قلاوون، والتي جاء فيها: "والأموال، فهي ذخائر العاقبة والمآل، فالواجب أن تؤخذ بحقها، وتنفق في مستحقها"[١].

٣- الأوقاف

شهدت الأوقاف في العصر المملوكي انتعاشا كبيرا في ظل سلاطين المماليك، وقد ذكر ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) أن أمراء الترك ويقصد المماليك الأتراك في الدولة (الأولى) كانوا يخشون الاعتداء على الأوقاف، لذا شجعوا بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، يقصدون بها الخير والأجر في وقت معا[٢]. وشجعت بيعات الخلفاء العباسيين لسلاطين الدولة المملوكية، على ذلك فاهتموا بتذكير السلاطين بضرورة الاهتمام بالأوقاف، خاصة أوقاف الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى، وبقية مساجد الدولة إضافة إلى ما ذكر من المدارس والزوايا والربط والمنشآت الأخرى[٣].

ولاية العهد بالسلطنة

وهو أن يعهد السلطان لابنه بالسلطنة وهو في حياته ويكون سلطانا بعد مماته، ويتضمن أحيانا العهد من السلطان إلى أخوته أو غيرهم[٤]. ومن خلال عهود السلاطين التي بين أيدينا نستطيع أن نعطي صورة واضحة عن صلاحيات ولي العهد.

---

[١] السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص١٠٩؛ القلقشندي، مآثر الأناقة، ج٣، ص١٣٥، وصبح الأعشى، ج١٠، ص١٢٣؛ وانظر حمادة، الوثائق السياسية، ص١٢٢ – ١٢٣، وحول اسناد هذه المهمة لولي العهد في مدة سفر السلطان انظر نص تذكرة المنصور قلاوون لابنه الصالح علاء الدين علي عند: العسقلاني، الفضل المأثور، ص١٣٢.

[٢] ابن خلدون المقدمة، ج١، ص٣٦٣؛ رعد محمود البرهاوي، رعد محمود خدمات الوقف الإسلامي، دار الكتاب الثقافي، ط١، اربد، ٢٠٠٦، ص٢٦؛ محمد بني يونس، ولاية البلقاء والأغوار، ص٢٣٧.

[٣] النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص١٠١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٥٤، ٥٦،٥٨،٧١؛ مآثر الأناقة، ج٣، ص٥٩؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٣٣، ١٢٥.

[٤] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٦٢.

١- مشاركة أبيه السلطان في الحكم:

نص عهد السلطان الظاهر بيبرس لابنه الملك السيعد بركه على أن يشاركه في الحكم وهو في حياته في جميع شؤون الدولة، ويبدو من هذه المشاركة أن يتدرب الابن خلال سلطنة أبيه على كيفية إدارة البلاد وممارسة الحكم لأنه سيصبح فيما بعد سلطانا للدولة، وجاء في نص العهد: "فليتقلد الولد ما تقلدناه من أمور العباد، ويشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد"[١].

وفي عهد السلطان المنصور قلاوون[٢] فوّض إلى ولده وولي عهده الملك الصالح علاء الدين علي المشاركة معه في الحكم أثناء حياته فقال: "ومن إذا فوضت إليه أمور المسلمين"[٣]. ولكن على أثر وفاة الملك الصالح علاء الدين علي في حياة أبيه سنة (٦٨٧هـ/١٢٨٧م) بعد أن بقي وليا للعهد إلى سنة (٦٨٩هـ/١٢٩٠م) [٤] عهد السلطان الملك المنصور قلاوون إلى ابنه الأشرف خليل بولاية العهد وفوضه في المشاركة معه في الحكم، ومما جاء في نص العهد: "فليتقلد الولد ما قلدناه من أمور العباد "[٥].

٢- استنابة ولي العهد استنابة كاملة:

نصت عهود السلاطين إلى أولادهم أن يكونوا نوابا عن آبائهم في حالة الحرب أو السفر أو الحج، وقد حدد نص عهد السلطان الظاهر بيبرس إلى ولده الملك السعيد بركة بأنه نائبه في حالة

---

[١] عهد السلطان الظاهر لابنه في سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م وجدد العهد مرة ثانية في سنة ٦٦٧هـ/١٢٧٠م. أنظر: ابن عبد الناصر، الروض الزاهر، ص٢٠٨؛ البرزالي، المقتضى على الروضتين، ج١، ص١٨٨؛ البونني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤٠٦، بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص١١٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٦٩، ابن دقمان، النفحة المسكية، ص٦١.

[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٧٠.

[٣] ابن الفرات، تاريخ، مجلد ٧، ص ١٨٨؛ القلقشندي، ج١٠، ص١٧٠؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٢٥٠.

[٤] بيبرس، الدوادار، زبدة الفكرة، ص٢٦٣ – ٢٦٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص٣٧٨.

[٥] السحماوي، الثغر الباسم، ص٦١١.

حضوره وغيابه، فقال: " وتعيين ... في الغيبة منا والحضور"[1]. وكذلك حدد عهد السلطان المنصور قلاوون إلى ابنه الصالح علاء الدين علي مهمة الصالح بأن يكون نائباً عنه وذلك بالقول: فإذا "غاب والده في مصلحة الإسلام فهو صدره وإن حضر فهو نائبه"[2].

٣- مشاركة السلطان بالهدن:

عند مطالعتنا لنصوص عهود السلاطين المماليك إلى أولادهم نجد إشراكهم معهم بالهدف والمعاهدات التي عقدت بين دولة المماليك وغيرها من الممالك والدول.

ومن الأمثلة على ما ذكرنا. أنه في سنة (٦٦٧هـ/١٢٦٥م) جدد السلطان الظاهر بيبرس ولاية العهد لابنه ناصر الدين بركه (الملك السعيد) بأن شريك معه في عقد المعاهدات والهدن فقال:" وإليه في الأمور النقض والإبرام"[3].

ونص بيعة السلطان الملك المنصور قلاوون إلى ابنه الملك الصالح في إشراكه في الهدن"[4].

٤- ما تشمله أقاليم السلطنة:

جاء في نصوص عهود السلاطين المماليك إلى ولاة العهد من أولادهم ما يشير إلى تفويضهم في إدارة أقاليم الدولة؛ ففي عهد السلطان الظاهر بيبرس إلى ابنه الملك سعيد بركة يرد على لسان الظاهر بيبرس قوله: "ويحسن بالتدبير تعريفا بولاية العهد الشريف على قرب البلاد وبعدها "[5]، وفي نص عهد السلطان منصور قلاوون إلى إبنه الصالح علاء الدين علي يرد على لسان قلاوون

---

(1) أنظر نص العهد المقريزي. ج١، ق٣، ملاحق الجزء الأول، ص٩٧٠ -٩٧١.

(2) ابن الفرات، التاريخ،مجلد٧، ص١٠٧، وانظر النص من ص١٨٦ - ١٨٩.

(3) أنظر نص العهد المقريزي، ج١، ص٣، ملاحق، الجزء الأول، ص٩٧١؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٨٧.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٧٣، وانظر نص العهد عند ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والحضور، ص٢٤٦ - ٢٥١.

(5) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٠٨؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٨٤.

قوله: "وولاية تامة عامة... في سائر أقاليم الممالك الشريفة وعساكرها وجندها وعربها، وتركمانها..." [1] وبعد أن أسند قلاوون في ولاية العهد إلى ولده الأشرف خليل بهذا الأمر وجاء في نص العهد: "وأن تبسط يده المنفية لمصافحتها بالعهود، وتحكيمها في العساكر والجنود. وفي البحور والثغور.." [2].

٥- توزيع الإقطاعات:

نص العهد للملك السعيد بن الظاهر بيبرس على صلاحية توزيع الإقطاعات على مستحقيها في حال وجود أبيه وفي حال غيابه فجاء فيه: " وتعيين الإقطاعات في الغيبة والحضور"[3].

٦- الولاية والعزل:

نصت العهود الصادرة لولاة العهد بالسلطنة على حق الولاية والعزل فجاء في نص العهد للملك السعيد: "وإليه ترجع الولاية والعزل "[4].

وقد اشتملت ولاية العهد إلى أولاد السلاطين على مجموعة من الوصايا طالب فيها السلاطين المماليك أولادهم الأخذ بها ومنها:

١- تحكيم الشرع الشريف[5].

٢- العدل والمساواة بين الرعية[6].

---

(١) أنظر نص العهد، بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص١٩٠ – ١٩٤ وانظر ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص٣٢ – ٣٤.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص٨٩؛ وانظر حمادة، الوثائق السياسية، ص١٩٠.

(٣) أنظر نص العهد في المقريزي، ملاحق السلوك، ج١، ق٣، ص٩٧٠ – ٩٧١.

(٤) أنظر نص العهد عند المقريزي، ملاحق السلوك، ج١، ق ٣، ص٩٧١.

(٥) ابن عبد الناصر، تشريف الأيام والعصور، ص٢٠٢، ابن الفرات، تاريخ، مجلد٧، ص١٨٩.

(٦) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص١٩٣؛ ابن الفرات، المصدر السابق، مجلد٧، ص١٨٩.

٣- الاهتمام بالجيش[١].

٤- المحافظة على الثغور[٢].

٥- مشاورة أهل الحل والعقد[٣].

ونستنتج من نصوص العهود على إجراءات البيعة لولي العهد أنها تمثّلت بما يلي:

١- حضور أهل الحل والعقد والعلماء والقضاة والأمراء.

٢- تحليف اليمين.

٣- قراءة عهد البيعة[٤]

ج- إمرة العرب في الشام

كان منصب إمرة العرب أحد المناصب الرسمية التي استحدثها الأيوبيون منذ بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وذلك بهدف تنظيم القبائل العربية في الشام وربطها بالجهاز الإداري للدولة من ناحية، ومنعها من القيام بنهب القوافل التجارية وقوافل الحجاج من ناحية أخرى. وعلى أساس هذا الارتباط الرسمي بالدولة تم تعويض القبائل عن ما كانت تكسبه بالنهب والسلب بمنحها الإقطاعات والهبات والهدايا[٥].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٧٥؛ وانظر ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص٢٤٨-٢٤٩.

(٢) السحماوي، الثغر الباسم، ص٦١١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٠.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٥٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨١.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٠٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٦٠؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٢٤٩؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص١٨٨.

(٥) الحياري، مصطفى، الإمارة الطائية في بلاد الشام، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٧، ص٣٥، ٥٧. وقد أطلق الدكتور الحياري مسمى بادية العرب الشمالية على مناطق توزع القبائل وحركة تنقلها وتشمل: نجد الشمالي وامتداده إلى الشمال الشرقي بمحاذاة طريق الحجاج العراقي، وإلى الغرب حيث تقع تيماء وتبوك، والمنطقة الواقعة على طول الخط الذي اعتبر حداً فاصلاً بين الشام والبادية والممتد من أيله جنوباً حتى بالس شمالاً ومارا بحوران وحدود دمشق وحمص وحماة الشرقية ومناطق الوديان والينابيع والآبار كتدمر والأزرق ووادي السرحان الذي يصل بين سهول حوران وصحراء النفوذ وهضبة نجد الشمالية هذا بالإضافة إلى المراكز القريبة من الفرات. انظر: الحياري، الإمارة الطائية، ص٢٤.

وكان اختيار الأيوبيين لأحد زعماء القبائل لتولي منصب إمرة العرب قد ارتبط بنفوذ الإمارات القبلية في المنطقة. وبحكم تنامي نفوذ قبيلة طيءّ (آل مرا وآل فضل ابني ربيعة). فمنذ بداية القرن الهجري القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي حازت قبيلة طيءّ على منصب الإمرة إبان استحداثه وأصبح لها منذ نهاية العصر الأيوبي الإمرة على جميع القبائل الأخرى، وحافظت على هذا الدور خلال العصر المملوكي[١].

وقد أقرَّ السلاطين المماليك منصب إمرة العرب، وارتبط هذا المنصب بالسلطان مباشرة فهو الذي كان يعيّن أمير العرب، وباقي الأمراء على مختلف القبائل وحتى أمراء القبيلة الواحدة[٢]. وقد صدرت عن ديوان الإنشاء المملوكي رسائل ديوانية خاصة بمنصب إمرة العرب اعتماداً على الأسس النظرية التي وثقت في ديوان الإنشاء، ومن خلال هذه الأسس والرسائل يأتي شرح منصب إمرة العرب ودلالات الرسائل الخاصة بتعيين أمير العرب.

تناولت المصادر حقيقة استحواذ قبيلة طيءّ على زعامة القبائل وانفراد آل الفضل بن حديثة (من طيءّ) بمنصب إمرة العرب. فقد بيّن ابن فضل الله العمري أهمية القبائل العربية حيث يقول: "وأما عربان الشام فهم جلّ القوم وعين الناس ولا عناية للملوك إلا بهم ولا مبالاة بغيرهم"[٣]. ثم بين ابن فضل الله العمري أقسامهم حيث قال: "ورأس الكل آل فضل وآل مِراء، وآل علي وهم من آل فضل، وفضل ومِراء إخوان وهما من سلسلة من طيءّ ... وأما جماعاتهم فمن أشتات العرب على اختلاف الشعوب والقبائل مستخدمون معهم أو منضمون إليهم"[٤]. وبالتوازي مع هذا التقسيم شرح القلقشندي ذلك وعرف ببطون القبائل في الشام وبأقسامها[٥].

---

(١) الحياري، الإمارة الطائية، ص٣٥، ٧٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٨٢، ٨٤.

(٣) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١١.

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١١١، ومسالك الأبصار، ص١١٣، ص١٣٦-١٣٨.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص٢٠٣-٢٠٩.

وعلى الرغم من أن شرح كل من القلقشندي وابن فضل الله العمري قد شمل القبائل العربية في الشام إلا أن إبراز مكانة آل الفضل عند القلقشندي كان واضحاً وذلك بحكم حيازتهم لمنصب إمرة العرب، فقد عدد الأمراء الذين تولوا هذا المنصب من نسل حديثة بن الفضل بن ربيعة وهم[١]:

- الأمراء من نسل علي بن حديثة من آل الفضل الذين عرفوا بآل علي.
- الأمراء من نسل مانع بن حديثة مثل عيسى بن مهنا بن مانع وكان من ذرية عيسى (آل الفضل بن عيسى) وآل مهنا بن عيسى، وكانت الإمرة في أغلب الوقت في آل عيسى بن مهنا، إلا أنه في أحيان كثيرة قد يخرجها السلطان المملوكي إلى أحد الأمراء من آل علي.

الرسائل الخاصة بتعيين أمير العرب ودلالاتها:

النوع الأول: التقاليد: وهي الرسائل الخاصة بتعيين كبار موظفي الدولة[٢]. واختيرت في حالات تعيين (آل الفضل) دون غيرهم[٣]. وتميزت بأسلوب المخاطبة والألقاب وهي: "أدام الله المجلس العالي، الأميري – وبحسب ابن فضل الله العمري– بألقاب جليلة مفخمة"[٤]. وفي ذلك إشارة واضحة على مكانة آل الفضل في الدولة المملوكية.

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢١١-٢١٢؛ الحياري، الإمارة الطائية، ص٦٥ وانظر في المرجع نفسه شجرة نسب آل الفضل بن ربيعة ص١٥٠، وآل علي ص١٥١، وآل عيسى بن مهنا ص١٥٢.

[٢] ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١١٩؛ ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٤١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص١٠٤؛ السحماوي، الثغر الباسم، ص٦٢.

[٣] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢١٣. وانظر نصوص تقاليد الأمراء من آل الفضل عند: ابن عبد الظاهر، التشريف، ص٢٧-٢٨؛ ابن الفرات، التاريخ، مجلد ٧، ص١٧٧-١٧٩؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٢٣٠-٢٣٣، ٢٥٠-٢٥٤.

[٤] ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١١٢. وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص٢٠٤؛ الحياري، الإمارة الطائية، ص٨٣.

النوع الثاني: المراسيم المكبرة: وهي الرسائل التي تلي التقاليد من حيث الرتبة[1]، واختيرت في حالات تعيين (آل علي) [2] ويخاطب فيها الأمير بعبارة "صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس الثاني الأميري"[3].

المناشير:

وهي الرسائل الخاصة بمنح الإقطاعات للأمراء العرب، ومن الأمثلة على ذلك منشور صدر على لسان الناصر محمد للأمير مهنا بن عيسى سنة (٧٣٤هـ/١٣٣٣م) وقد بدأ بالتحميد وتعداد مناقب الأمير، ومما جاء فيه: وكان الجناب العالي الأميري الحسامي مهنا بن عيسى هو آخر من بقي من السلف القديم، ولقي حق ما ائتلف من ولاءه القديم..." [4].

ويلاحظ من خلال ما سبق الصفة الرسمية لمنصب إمرة العرب خلال العصر المملوكي.

د- أمراء الحجاز

قامت سياسة السلاطين المماليك تجاه منطقة الحجاز على ضمان تبعية هذه المنطقة للدولة المملوكية، وعلى تأكيد حق السلاطين المماليك في رعاية شؤون الحجاج في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وذلك بعد أن استطاع السلطان الظاهر بيبرس ضم الحجاز إلى السلطنة المملوكية، فقد قام بيبرس سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م) بإرسال كسوة الكعبة المشرفة[5]، وفي السنة التالية خُطب له

---

(١) ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص١٤٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ، ص١٠٨.

(٣) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١١٢. وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص٢٠٥. وانظر الاختلاف في نفس المصدر ج١١، ص١٠٨.

(٤) اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٠٨-٢١٠ وفيه نص المنشور كاملاً.

(٥) طقوش، تاريخ المماليك، ص١٠٨-١٠٩.

فيها[1]، أما في سنة (٦٧٦هـ/١٢٦٨م) فقد قام بتأدية فريضة الحج وإبطال الخطبة للسلطان الحفصي في تونس وأعلن الخطبة للخليفة العباسي وفي هذه السنة ضربت السكة باسمه[2].

عُيّن أمراء مكة المكرمة والمدينة المنورة بموجب تقليد، – وهو كما سبقت الإشارة – نوع من الرسائل الخاصة بالتعيين في الوظائف العليا، حيث تميزت بصيغة المخاطبة وهي: تقليد شريف بأن يفوض إلى المجلس العالي الأميري ... على أجمل العوائد وأكمل القواعد[3].

وقد اتبع المماليك سياسة تعيين أكثر من أمير على المنطقة الواحدة وتبعاً لذلك كان يصدر تقليدان من الأمراء في مكة المكرمة والمدينة المنورة على حدٍ سواء ففي سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م) تولى اثنان من أبناء الشريف محمد بن أبي سعد بن أبي نمي وهما عطيفة وأبو الغيث إمرة مكة المكرمة مناصفة[4]، وفي المدينة المنورة تولى الشريف مالك بن منيف إمرة المدينة مناصفة مع الشريف عز الدين جماز، وعند وفاة الشريف مالك في حدود سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) أعطي ابنه بدر الدين مالك ما كان لأبيه، وكتب تقليده بنصف إمرة المدينة المنورة[5].

وبالانتقال إلى المهام الموكولة إلى أمراء مكة المكرمة والمدينة المنورة يمكن القول بأن هذه المهام ارتكزت بشكل أساسي على المحافظة على الحرمين الشريفين والمحافظة على سلطة الدولة المملوكية في مكة المكرمة والمدينة المنورة ويمكن تفصيل مهام أمراء مكة المكرمة من خلال يمين حلفه الشريف أبو نمي للمنصور قلاوون سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وأهم ما جاء فيه[6]:

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠٢.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٨٣، وفي نفس السنة أرسل الظاهر بيبرس كسوة الضريح النبوي الشريف إلى المدينة المنورة. العيني، عقد الجمان، ج١، ص٣٧٥.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص١٠٤، وانظر: ابن فضل الله العمري، ص١١٠، وقامت الأسس حسب الأصول القبلية للحكام.

(٤) ابن الوردي، التاريخ، ج٢، ص٢٤٢. وللمزيد حول نفس الموضوع انظر: العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٥١.

(٥) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٨٥؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٤٧.

(٦) ابن عبد الظاهر، التشريف، ص٢١٢ (جمع المحقق)؛ ابن الفرات، التاريخ، ص٢٤٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣١٨-٣١٩؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٢٤٣-٢٤٤.

١- الالتزام بالطاعة للسلطان قلاوون، وإقامة الخطبة باسمه في الكعبة المشرفة وتداول النقد المملوكي الصادر باسمه.

٢- إيصال كسوة الكعبة المشرفة المرسلة من المنصور قلاوون وتعليقها على الكعبة في كل موسم والالتزام بعدم تعليق كسوة غيرها.

٣- رفع راية الدولة المملوكية في موسم الحج.

٤- تسهيل السُبل على الحجاج وحمايتهم وتأمين المشرب لهم.

أما أمير المدينة المنورة فيمكن استخلاص أهم المهام الموكولة إليه من خلال أنموذج وصية أوردها ابن فضل الله العمري في التعريف فتتلخص بما يلي[١]:

١- رفع راية الدولة المملوكية في موسم الحج.

٢- العناية بالحجاج وتسهيل السبل عليهم.

٣- مقاومة أهل البدع والعمل على تطبيق السنة النبوية الشريفة.

٤- الرفق بالعربان من أهل البادية.

٥- التأهب والاستعداد لحماية المدينة.

ثانياً: العلاقات الخارجية

تمهيد

إن التعرف على الجهات الخارجية الخاصة التي كانت تُوجَّه الرسائل الديوانية إليها لذو أهمية كبيرة؛ فالتعرّف على تلك الجهات والدوائر الخارجية والعلاقات معها يدل من جهة على سعة الشبكة التي كان الديوان يتصل برسائله بها، ومستوى العلاقات المتبادلة بين الدولة المملوكية وتلك

---

[١] ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٤٤-١٤٦.

الجهات من جهة أخرى، كما يدل تنوّع الرسائل الموجهة إليها ونوعيتها على ما كانت الدولة تتمتع به من مظاهر القوة والنفوذ وعلوّ المكانة بين الكيانات السياسية التي كانت معاصرةً لها ونوع العلاقات معها، هذا وسيرتكز شرح هذه العلاقات الخارجية على أساس استخلاص الأسس التي شكلت هذه العلاقات مع الدول الخارجية من خلال الرسائل المتبادلة بين الجانبين، وإذ تعد أولويات السلطنة المملوكية الأساس في تشكيل العلاقة مع دولة أو منطقة ما، إلا أن الأساس في هذا الموضع من الدراسة هو المراسلات وطبيعتها وانعكاساتها في شكل العلاقة القائمة.

من هنا يأتي شرح العلاقة وفقاً لحجم المراسلات ووفقاً لأهمية الرسائل المتبادلة مع الدول الخارجية أو المناطق، وفيما يلي شرح لهذه العلاقات:

أ. العلاقات مع الممالك الفرنجية (الصليبيين) في الشام

بعد أن نجح المماليك في الانتصار على المغول في معركة عين جالوت في سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م أدرك السلطان الظاهر بيبرس خطورة المرحلة التي تمر بها الدولة، وبمهارته السياسية وأثناء حروبه مع المغول والفرنجة (الصليبين) في بلاد الشام، عقد حلفاً مع الإمبراطورية البيزنطية العدو اللدود للفرنجة (الصليبيين) بالشام ومغول القبجاق أو القبيلة الذهبية عند بحر قزوين الذين اعتنقوا الإسلام وعلى علاقة عدائية مع مغول فارس الوثنيين[1].

بهذا دخل السلطان الظاهر بيبرس حروبه مع الفرنجة (الصليبيين) والمغول ضامناً حياد المغول القبجاق والإمبراطورية البيزنطية، واستطاع في مدة سلطنته – التي امتدت من سنة (٦٥٩هـ–٦٧٦هـ/١٢٦١–١٢٧٧م)، استرجاع الكثير من المدن والقلاع والأراضي من الفرنجة (الصليبيين). ومع هذا كله نجده يعقد مهادنات مع الممالك الفرنجية في الشام قد يسبقها أو يتبعها

---

[1] زيتون، عادل، تاريخ المماليك، جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠١م، ص ٢٣، وسيشار له: زيتون، تاريخ المماليك.

مراسلات، وحذا المنصور قلاوون حذو الظاهر بيبرس في تنظيم العلاقة مع الفرنجة (الصليبيين) على أساس المهادنات.

يتميز شرح العلاقات مع ممالك الفرنجية في الشام بسمة خاصة، وهي ارتكازها على نوع خاص من الرسائل، لها أهمية كبيرة تنبع من تنوعها ودلالاتها، وهي تفيد في شرح أسس العلاقة القائمة مع الفرنجة.

المراسلات الخاصة بالمهادنات:

تشير المصادر إلى مراسلات بين السلاطين المماليك والفرنجة (الصليبيين) كانت غالباً تُرسل بغرض إقرار الهدن القائمة، أو بغرض عقد هدنة جديدة، ومن أهمها رسالة بعثها السلطان الظاهر بيبرس إلى الفرنجة في يافا وأرسوف سنة (٦٦١هـ/ ١٢٦٣م) بعد طلبهم فسخ الهدنة القائمة من أيام الأيوبيين ثم تراجعهم عن المطالبة بالفسخ، وقد بينت الرسالة بأن ما أحرزه الفرنجة من مكاسب في هذه المنطقة كان بسبب الموقف الضعيف للصالح إسماعيل، وأثناء صراعه مع الصالح نجم الدين أيوب، ومما ورد فيها: "وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد من الصالح إسماعيل لإعانة مملكة الشام ... وقد صارت مملكة الشام وغيرها لي وأنا لا أحتاج إلى نصرتكم"[(١)] وقد علق ابن عبد الظاهر على مطالبات الفرنجة بالقول: "وكانت كتبهم قبل توجه السلطان مضمونها طلب فسخ الهدنة، والندم عليها، وصارت عند قرب السلطان – وصوله إلى الشام – ترد كتبهم بأنهم باقون على العهد مستمسكون بأذيال المواثيق"[(٢)].

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٢٥٦؛ وانظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٥٦؛ المقريزي، السلوك، ج١، قسم ٢، ص ٤٦٤؛ وحول دوافع الصالح إسماعيل انظر: حسن، صفوان طه، تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار الفكر، عمان، ٢٠١٠م، ص١١٩، وسيشار إليه: حسن، تاريخ الأيوبيين والمماليك.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٥٣.

المهادنات المعقودة مع الفرنجة (الصليبيين)

نُظِمَت العلاقات بين الدولة المملوكية والفرنجة المحتلين للمدن الشامية من خلال الهدن، ويمكن حصرها على النحو التالي:

الهدن المعقودة في عهد السلطان الظاهر بيبرس

السنة	المملكة الفرنجية	متولي عقد الهدنة	ملاحظات
٦٦٥هـ/١٢٦٦م	صيدا	الرسل	مناصفة
٦٦٥هـ/١٢٦٦م[١]	مملكة صور		تكون هونين وتبنين للمسلمين
٦٦٥هـ/١٢٦٦م[٢]	مملكة بيروت	ملكة بيروت	
٦٦٥هـ/١٢٦٦م[٣]	مقدم الاستبار في حصن الأكراد والمرقب		الفسخ من حق الظاهر بيبرس
٦٦٦هـ/١٢٦٧م	مملكة عكا	رسل هيو بن هنري بن بوهيمند	تدخل جزيرة قبرص في الهدنة صيدا مناصفة الوطأة للفرنج والجبليات للظاهر بيبرس
٦٦٩هـ/١٢٦٩م[٤]	انطرطوس ومع مقدم بيت الاستبار في حصن المرقب		
٦٦٠هـ/١٢٦١م	طرابلس	البرنس صاحب طرابلس	عشر سنين
٦٦٩هـ/١٢٦٩م	صور		كانت قد شملتها المناصفة سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م وسنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م وفي هذه الهدنة عشر بلاد خالصة لهم وللسلطان الخمس والقرى مناصفة
٦٧٠هـ/١٢٧١م	عكا	صاحب عكا	
٦٧٣هـ/١٢٧٤م[١]	عكا وقبرص وطرابلس		مراسلات خاصة بتأكيد الهدنة

---

(١) حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، ص ٣١٦-٣٢٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٧٦-٢٧٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٦٣-٢٧٠.

(٤) المقريزي، السلوك، ج١، قسم ٢، ص ٥٩١؛ وانظر نص الهدنة عند : حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، ص٢٨٣-٢٩١.

الهدن المعقودة زمن السلطان المنصور قلاوون

السنة	المملكة الفرنجية	متولي عقد الهدنة	ملاحظات
٦٨٠هـ/١٢٨١م[٢]	الاستبارية في عكا		يدخل في هذه الهدنة قلعة المرقب ونقض الفرنج فيها الهدنة وتمكن الأشرف خليل من تحريرها سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م
٦٨٠هـ/١٢٨١م[٣]	طرابلس	بيمند	بعض الفرنج في طرابلس الصلح سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م وتمكن قلاوون وتحريرها
٦٨١هـ/١٢٨٢م[٤]	الفرسان الداويه بعكا والساحل الشامي وداوية انطرطوس	المقدم الكليام ديباجوك	
٦٨٢هـ/١٢٨٥م[٥]	فرسان الاستبارية والداويه		

عرض عام لبنود الهدن الموقعة مع الفرنجة (الصليبيين)

خرج السلطان الظاهر بيبرس مع الخليفة العباسي إلى الشام في سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م)، وما أن سمع به حكام يافا وعكا وبيروت الصليبين حتى بعثوا يطلبون عقد هدنة بين السلطان الظاهر ورسل عكا ويافا، ونصت على ما يلي[٦]:

١. رجوع عسكر المسلمين المتجهة إلى بعلبك بقصد الإغارة عليها.

---

(١) ابن الفرات، التاريخ، مجلد ٧، ص ٢٦٢-٢٧٢.

(٢) بيبرس، الدوادار، زبدة الفكرة، ص ٢٢١ وما بعدها؛ ابن عبد الظاهر، التشريف، ص ٨٢ وما بعدها؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص ٧٣-٧٧.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ملاحق الجزء الأول، ص ٩٧٥-٩٧٧؛ حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، ص ٢٩٩-٣٠١.

(٤) ابن عبد الظاهر، التشريف، ص٢٠-٤٣.

(٥) ابن عبد الظاهر، التشريف، ص ٣٤-٤٣؛ ابن الفرات، مج ٧، ص ٢٦٢-٢٧٢؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص ٣٠٦-٣١٦.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ص ٣٢٣.

٢. إمهالهم بشأن العلوفات والأقوات حين تدبير الحال – بسبب ارتفاع الأسعار.

٣. تقرر الصلح على ما كان عليه أيام الناصرية (الناصر يوسف الأيوبي).

٤. إطلاق أسرى المسلمين من الأيام الناصرية إلى وقت توقيع الهدنة.

٥. توجهت معهم رسل المسلمين لأخذ العهود والمواثيق.

وفي نفس السنة عقدت هدنة بين السلطان الظاهر ومتملك بيروت سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م).

مطالب الفرنج[١]:

١. المطالبة بالتعويض عن زرعين.

٢. نقل أسرى الصليبيين إلى نابلس.

رد السلطان الظاهر على مطالبهم[٢]:

١. إرجاع أسرى الصليبيين من نابلس إلى دمشق بسبب مماطلتهم بأسرى المسلمين.

٢. استعمال الأسرى في العمائر بدمشق.

٣. أخذت مقابل زرعين، مرج عيون، ولم أسلم لكم شبراً واحدا من أرض المسلمين

٤. إذا بقيتم على العهد فنحن لا نغير عهودنا.

٥. إذا اخترت غير ذلك، فالجهاد هو شغلنا.

ثم وردت كتبهم يتنصلون ويجيبون وبقي الحال موقوفا.

الهدنة بين السلطان الظاهر ونواب ارسوف ويافا والتزم السلطان الظاهر بيبرس بموجبها بما يلي[٣]:

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ص٣٠٣.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ص٣٢٣؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص ٥٣٨.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ص ٣٦٢.

١. أن لا ينزل أحداً من المسلمين في زرع.

٢. عدم الاعتداء على أشجار الفرنج.

٣. عدم التعرض إلى مواشيهم.

وعقدت هدنة بين السلطان الظاهر ومقدم الاسبتارية في حصن الأكراد والمرقب في سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، وكانت مدة الهدنة عشرة سنين وعشرة شهور وعشرة أيام، وكان مضمون الهدنة[1]:

١. تسري هذه الاتفاقية (الهدنة) على جميع المماليك الحمصية والشيزرية والحموية وبلاد الدعوة.

٢. الفلات الصيفية والشتوية من حمص إلى منطقة المناضات تكون مناصفة بين السلطان الظاهر والنصف لبيت الاسبتار.

٣. أن يحمي السلطان الظاهر بلد المناصفات، مقابل حماية بيت الاسبتار بلاد المسلمين الداخلة بالهدنة.

٤. أخذ الدواب التي تدخل من العرب أو التركمان أو الفلاحين إلى بلاد المناضات مناصفة بين الطرفين.

٥. مناضة صيد السمك على الشاطئ الغربي لنهر العاصي بين الطرفين.

٦. إبطال القطائع عن عينتاب وشيرز ومملكة حماة التي كانت تدفع للاسبتار.

---

[1] النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٢٩٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٣٤-٣٧؛ غوانمة، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، ط١، دار الفكر للنشر والتوزيع، ص٨١، وسيشار له: غوانمة، معاهدات الصلح؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٢٦١-٢٧٠.

وعقد السلطان الظاهر هدنة مع ملك عكا في هيو بن هنري في سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م)، وبعث السلطان الظاهر بيبرس من أجل استحلاف مقدم الأسبتار كلا من الأمير فخر الدين المقري والقاضي شمس الدين بن قريش[١]. ونصت الهدنة على:

١. تكون حيفا للفرنج ولها ثلاث ضياع وبقية بلادها مناصفة بين الفرنج والمسلمين.

٢. تكون الكرمل مناصفة بين الطرفين.

٣. عثليت لها خمس قرى والباقي مناصفة بين الطرفين.

٤. القرين عشر قرى والباقي مناصفة مع السلطان.

٥. بلاد صيدا المنطقة الوطاة للفرنج، والجبال للسلطان.

٦. تدخل قبرص في الهدنة ومدة الهدنة عشر سنوات.

وعقد المنصور قلاوون مع حكام عكا وصيدا وعثليت هدنة سنة (٦٨٢هـ/١٢٨١م) عقد هدنة مدتها عشرة سنين وعشرة أشهر وعشر أيام، وتضمنت ما يلي[٢]:

١. تسري هذه الهدنة على جميع بلاد السلطان والمناطق المجاورة.

٢. تدخل جميع السواحل والموانئ على البحر فيها.

٣. الأمان من كلا الطرفين للداخلين والخارجين منهما.

٤. تكون جميع البلاد الكاوية آمنة من السلطان الملك المنصور وولده الملك الصالح

٥. عدم تجديد أي قلاع أو بروج أو حصون في عكا وعثليث وصيدا.

٦. عدم التجارة من كلا الطرفين بالممنوعات مثل السلاح.

٧. رد الأخيذة إذا أخذت من الطرفين وإذا فقدت دفعت قيمتها.

٨. حرية تنقل السفن في السواحل من جهة السلطان.

---

[١] النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٢٩٨؛ غوانمة، معاهدات الصلح، ص٨٢.

[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٥٦-٦٩.

ب. العلاقات مع المغول

استطاع المماليك الانتصار على المغول في معركة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) بمنطقة الأغوار في سهل مرج ابن عامر[1]، وكانت العلاقات بين المماليك والمغول بعد هزيمتهم بعين جالوت عدائية تارة، وودية تارة أخرى، ويأتي تناول موضوع العلاقات مع المغول وفقاً للحقيقة التاريخية في انقسام المغول إلى قسمين هما: القسم الأول: مغول العراق وبلاد فارس، والقسم الثاني: مغول القفجاق.

وعلى الرغم من التأثير القوي للمغول في هذه المرحلة من تاريخ الدولة الإسلامية بشكل عام والدولة المملوكية بشكل خاص إلا أن حجم المراسلات من حيث نوع الرسائل المتبادلة كان بسيطاً إذا ما قيس بطول فترة الصراع مع المغول وقوة تأثيرها على الأوضاع السياسية في الدولة المملوكية، وتكاد الرسائل تقتصر على رسائل ودية أو رسائل تهديد ووعيد أو رسائل عن عقد صلح. وتميزت الرسائل الودية بالتتابع والاستمرارية وترافق ذلك مع تطور العلاقات الدبلوماسية، بين المماليك ودولة المغول القفجاق.

وفيما يلي عرض الرسائل الهامة بين الطرفين وفقاً لمضمون كل رسالة وتأثيرها في العلاقات بين الطرفين:

١- مغول العراق وبلاد فارس:

العلاقات العدائية: كانت العلاقات بين مغول فارس والعراق غالباً عدائية وتناولت الرسائل

---

(١) ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٢٠٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٣٣؛ العريس موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر المملوكي)، دار اليوسف، بيروت، ٢٠٠٥م، ص١٩٧. وسيشار له: العريس، موسوعة التاريخ الإسلامي.

بين الطرفين، التهديد والوعيد لبعضهما البعض، وكان من أهمها رسالة هولاكو إلى السلطان قطز وكان مما جاء[١]:

١. تحتوي الرسالة على الوعيد والتهديد "وأيقظناكم إذ حذرناكم".

٢. طالب الملك المظفر قطز بالطاعة أو تبعية الضيافة.

ولكن رد السلطان المملوكي قطز كان حاسماً وشديدا، حيث عقد اجتماعا عاما للأمراء وشاورهم بنص الكتاب، وكان رأي بيبرس، السلطان فيما بعد، قتل الرسل والطواف برؤوسهم في الأسواق وعلقت على باب زويله بالقاهرة[٢].

ومن الرسائل الأخرى رسالة بعث بها كيختو – كيخاتو- سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م) رسالة إلى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون رسالة تهديد مضمونها: "المطالبة بحلب، لأن أباه هولاكو قد فتحها من قبل وإذا لم يلبَّ هذا الطلب هدد بغزو الشام"[٣].

وكان جواب السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون، بأن أخبره بأنه عازم على أخذ بغداد، وردها إلى دار الإسلام، وبادر بالكتابة إلى نواب الشام من أجل الاستعداد لمواجهة التتار[٤].

ومن الرسائل الأخرى أيضاً رسالة بعث بها محمود غازان الرسل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون يطلب عقد صلح بين المغول في فارس والمماليك، وقد حاول أن يبرر غزوه لبلاد الشام، وكانت الرسالة تحمل ملامح التهديد والوعيد[٥].

---

(١) أنظر نص رسالة (كتاب) هولاكو في المقريزي، السلوك، ج١، ص٥١٤؛ وانظر بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٥٠، عاشور، فايد، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤، ص٤٧.وسيشار إليه لاحقاً: عاشور، العلاقات بين المماليك والمغول.

(٢) بيبرس الدوادار، المصدر السابق، ص٥٠؛ عادل زيتون، ص٢١.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ت٣، ص٨٧٨؛ فايد عاشور، ص١٢٩.

(٤) المقريزي، المصدر السابق، فايد عاشور، المصدر السابق، ص١٢٩.

(٥) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٣٥٣، وانظر النص من ص٣٥٢ – ٣٥٢.

وقد رد الناصر محمد على رسالة محمود غازان مع حسام الدين المجيدي والقاضي عماد الدين بن السكري وشمس الدين محمد بن القيتي، وأوضح في رسالته أن المغول هم البادون بالعدوان، وبأنه لن يرسل هدية حتى يرسل غازان، وعاب على محمود غازان تخريب المساجد[١].

العلاقات غير العدائية (الودية) مع مغول العراق وبلاد فارس

رغم العلاقات العدائية التي اتسمت بها العلاقة بين المماليك ومغول فارس، ولكن كان هناك علاقات ودية وحسنة معهم، خاصة بعد إسلام العديد من ملوكهم، فتم تبادل الرسائل الودية بين الطرفين، كما جرت محاولات لتحديد أسس هذه العلاقة من خلال صلح عقد زمن السلطان المنصور قلاوون، وفيما يلي مظاهر تطور العلاقة تبعاً لطبيعة المراسلات بين الطرفين:

في سنة (٦٦٧هـ/١٢٦٨م) أرسل ملك المغول رسالة إلى السلطان الظاهر بيبرس يطلب منه الصلح ويطالبه بالرضوخ والخضوع مثل قوله: " فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا"[٢].

وقد رد السلطان الظاهر بيبرس على الرسالة قائلا: "اعلم أن وراءه بالمطالبة، ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض"[٣].

وفي سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م، وصلت رسالة من ملك المغول الجديد وهو السلطان أحمد تكودار[*] إلى السلطان الملك المنصور، جاء فيها أن ملك المغول اعتنق الإسلام، وأن الفضل في

---

[١] أنظر نص الكتاب، بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٣٥٦ – ٣٦١.

[٢] المقريزي، السلوك، ج١، ص٥٧٤؛ العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص٣٣٦.

[٣] العيلي، عقد الجمان، ج١، ص٥٤٩؛ العبادي، المصدر السابق، ص٢٣٦؛ رجب محمود، تاريخ دولة المماليك، ص١٥٦؛ بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص٦٥، شوكت حجة، العلاقات بين دولة المماليك ودولة الليخائية فارس، ط أولى، دار اليازودي، ٢٠١١، ص ١٦٨.

[*] هو تكودار بن هولاكو بن تولى بن جنكزخان، كان ملكا شهما خبيرا بأمور الرعايا، سالكا أحسن المسالك، متبعا دين الإسلام، لا يصدر عنه إلاّ ما يوافق الشريعة، تأثر كثيرا بمستشاره الشيخ كمال الدين عبد =

ذلك يعود إلى الله تعالى، والإقرار بالوحدانية والشهادة بمحمد ﷺ وتصديق نبوته، وأن الاتفاق على تنصيبه بعد والده في اجتماع مجلس السلطة المسمى (قوريلتاي، قورلتاي، قرلطاي) ملكا للمغول. " وهو المجمع التي تجتمع فيه آراء الإخوان وأصحاب العقول والأذهان، وجميع الأمراء والخلان، وأرباب الرتب والأديان، وزعماء البلاد"[١]. أهل الحل والعقد عند المغول.

كما جاء فيها، أن الحكم صار يقوم على الإسلام ونواميس الشرع الشريف بالعدل، وصدور العفو العام عن أصحاب السوابق، وإصلاح أمور الأوقاف التي تهم المسلمين من المشاهد، والمساجد والمدارس والربط بموجب عوائدها القديمة إلى مستحقيها بشروط واقفها، وتحريم على العساكر ما لا يرضي الله تعالى من المنكرات وغيره، وتسيير قوافل الحج إلى بيت الله الحرام، وتأمين سبلها وتسيير قوافلها، وإطلاق حرية التجارة في البلاد، وعدم مصادرة مواردهم، من قبل الشحاني[٢] والقرأغول[٣] في الأطراف[٤].

وكان رد المنصور قلاوون يتمثل في[٥]:

١. الترحيب بالرسالة من قبل السلطان بالقاهرة التي *دعتها* الرسالة باسم "دار السلام".

=الرحمن- النويري، نهاية الأرب =كان أبوه مملوكا روميا في خدمة الخليفة العباسي المعتصم آخر خلفاء بغداد- الذي أشار عليه بالصلح مع المغول قلاوون. قتله أرغون أخوه بسبب إسلامه وتولى الحكم بعده في سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م. أنظر = اليونني في ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٢١١ – ٢١٣؛ الخزنداري، قرطاي العزي (٧٠٨هـ/١٣٠٧م)، تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط١، بيروت، صيدا: المكتبة العصرية للتوزيع والنشر، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص٢٩٩.

(١) الخزنداري، المصدر السابق، ص ٢٨٧.

(٢) الشحاني: مفردها: شحنة، لفظ فارسي، معناه: رئيس الشرطة أو العس، مهنة حراسة البلد، ويعرف مجموعهم باسم شحنكية. أنظر الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م، ص٢٦٩ – ٢٧٠. وسيشار له: الخطيب، معجم المصطلحات.

(٣) القراغول: بمعنى المخفر، والجندي المراقب في البرج، وهي كلمة تركية شاع تداولها. أنظر الخطيب، معجم المصطلحات، ص ٣٥٠ – ٣٥١.

(٤) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٢٢٠؛ ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ٤٤.

(٥) الخزنداري، مجموع النوادر، ص ٢٨٩- ٢٩٠؛ بيبرس الدودار، ص ٢٢٠- ٢٢١.

٢. الثناء على حاملي الرسالة وهم: قطب الدين الأتابك (أقضى القضاة) الأتابك محمود قاضي سيواس(*)، والأمير بهاء الدين أتابك السلطان، مسعود صاحب الروم، والأمير شمس الدين الصاحب، وهو من أصحاب ماردين(*).

٣. الاحتراز على الرسل حين وصولهم إلى البيرة(*).

٤. الثناء على ملك المغول تكودار وأن يعينه الله على تحمل المسؤولية وأن يثبته على الإسلام.

وكان ترحيب السلطان المنصور قلاوون برسالة تكودار قد اقترن بالموافقة على عقد الصلح فتم عقده وتضمن البنود التالية(١):

١. الأخذ بما جاء بالرسالة إصلاح أمور الأوقاف في المشاهد والمساجد والمدارس.

٢. حقن دماء المسلمين، واجتماع كلمة المسلمين، والصفح عما سبق من الهنات فيما بينهم.

٣. عدم بث الجواسيس لما يلحق المسلمين من أذى وضرر بين الطرفين.

٤. إصدار الأوامر إلى نواب البيرة والرحبة وعنيتاب بعدم التعرض إلى تجار المغول وأخذ الأيمان عليهم.

٥. بيان أن الجهاد الهدف منه هو نصرة الدين.

٦. الثناء على ما جاء بالرسالة بخصوص الحج وهذا واجبات تؤدى.

(*) سيواس: مدينة مشهورة ببلاد الروم بها قلعة صغيرة، كثيرة الخيرات والثمرات والأهـل، وأهلهـا مـسلمون ونصارى والمسلمون فيها تركمان. ويقال بها وفقا على علف الطيور في الشتاء عند وقـوع الـثلج، يـشتري الحبوب وينثر على الأسطحة للطيور. أنظر القرماني، أحمد بن يوسف الدمـشقي، (ت١٢٨٣هـ/١٨٦١م)، أخبار الدول وآثار الأول، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، ج٣، ص٣٩٠ – ٣٩١.

(*) مدينة مشهورة بها قلعة على تلة جبل، يكثر فيها زراعة العنب، وهي آسيا الصغرى. أنظر القرمائي، المصدر السابق، ص٤٨٦

(*) البيرة: المقصود بها مدينة بها قلعة وأسواق عامرة على حافة نهر الفرات، ولها وادي يعرف بوادي الزيتون، ربة أشجار وأعين، أنظر القرماني، المصدر السابق، ج٣، ص ٣٢٤

(١) الخزنداري، مجموع النوادر، ص٢٨٩ – ٢٩٠، بيبرس الدوادار، ٢٢٠، ٢٢١.

٧. المصاحبة والمصادقة هو الإقرار بما جاء في جواب الرسالة.

وقد حدد السلطان المنصور قلاوون مع الملك أحمد تكودار موعداً للاجتماع، ولكن الأحداث تلاحقت بمقتل تكودار.

وكان أحمد تكودار قد بعث إلى أهل بغداد رسالة سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م)، تضمنت دخوله في الإسلام، وأنه تسلطن على مملكة التتار، وأنه أظهر شعائر الإسلام، وأنه أعلى كلمة الدين، وبنى الجوامع والمساجد والأوقاف ورتب القضاة، وانقاد إلى الأحكام الشرعية، وألزم أهل الذمة بلبس الغيار(١)، وضرب الجزية عليهم(٢).

٢- مغول القفجاق (القبيلة الذهبية)(*)

توصف العلاقة بين دولة المماليك ومغول القفجاق بأنها ودية تتركز على مبادئ الإسلام الحنيف، فبعد أن أسلم حاكم المغول بركه خان قامت علاقات ودية وزادت أواصر التقارب والصداقة مع دولة المماليك، خاصة إذا علمنا أن هناك عداءاً بين الدولة المملوكية ومغول فارس(٣). وقد برزت هذه العوامل من خلال الرسائل التي تم تبادلها بين الطرفين. وفيما يلي مظاهر العلاقة الودية بين الطرفين من خلال المواضيع التي اشتملت عليها الرسائل:

وردت أولى الرسائل زمن السلطان الظاهر بيبرس في سنة (٦٦١هـ/١٢٦٣م) وكانت مرسلة من بركه خان وجاء فيها: "فليعلم السلطان أني ماريَتُ هولاكو الذي من لحمي ودمي لإعلاء

---

(١) الغيار: ما يلبسه أهل الذمة ليتميزوا به عن المسلمين، وهو أن يخيطوا في ثيابهم الظاهرة ما يخالف لونها، الأصفر لليهود والأزرق للنصارى. أنظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٦٣، الخفاجي، شفاء الغليل، ص٢٢٥

(٢) الخزنداري، المصدر السابق، ص٢٩٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٦٢.

(*) نسبة إلى اللون الذهبي التي اشتهرت به خيامهم. أنظر رجب، تاريخ دولة المماليك، ص١٥٤

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ص ٤٦٥.

كلمة الله العليا تعصباً لدين الإسلام، لأنه باغٍ، والباغي كافر بالله ورسوله، وحمدت الله كثيرا للتوضيح للسلطان أنه موفق الخيرات والسعادات، لأنه أقام إماماً من بني العباس"[١].

وقد رحّب السلطان الظاهر بيبرس برسل السلطان بركه وبعث إليه برسالة جوابية تضمنت[٢]:

١- حث السلطان بركه على الجهاد.

٢- طالب السلطان بركه بمبايعة الخليفة العباسي كما بايع رسله.

٣- الدعوة إلى السلطان بركه بالنصر على أعدائه.

٤- إبلاغ السلطان بركه أنه دعا له على منابر مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف والقاهرة ودمشق.

وقد ذكر رسل الظاهر أنهم شاهدوا في بلاط بركه إماماً خاصاً لكل أمير، أو أميرة، وأنهم شاهدوا الأطفال يحفظون القرآن ببلاد القفجاق[٣].

ومن خلال ما تضمنته المراسلات بين الظاهر بيبرس وبركه خان يمكن القول أنها أسست لعلاقة الود بين دولة المماليك ومغول القفجاق فلم تنقطع العلاقة بموت السلطان بركه في سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م)، إذ بعث خليفته منكوتمر إلى السلطان الظاهر بيبرس عدة سفارات تعبّر عن الصداقة والمحبة بين الدولتين[٤]. كما استمرت العلاقات على هذا النسق في عهد السلطان المنصور قلاوون، حيث بعث قلاوون برسالة إلى منكوتمر في سنة (٦٧٩هـ/١٣٨٠م) مضمونها[٥]:

---

(١) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ٨٢.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ص٣٤٨ – ٣٤٩؛ بيبرس الدوادار، المصدر السابق، ص ٨٢؛ رجب محمود، المصدر السابق، ص١٥٢؛ سعيد عاشور، ص ٢٣٤.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٧٠ – ١٧١؛ العيني، عقد الجمان، ج٩، ص٣٦٠ – ٣٦٣، النويري، نهاية الأرب، ج١٠٥،٣-١٠٦.

(٤) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٩٣.

(٥) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ١٩٣.

١- أخبار السلطان قلاوون منكوتمر أنه بعث هدية الأميرين شمس الدين سنقر الغتمّي، وسيف الدين بلبان تركي.

٢- أنه حمّل الرسل مشافهة كما حمّلهم السلام.

٣- حمل الأميرين معهم هدية حتى لا يكون السلام خاليا ولا فارغاً.

٤- الدعاء للسلطان بالتوفيق والارتقاء إلى الأحسن.

وبقيت العلاقات على نفس النسق، ويتضح ذلك حين بعث السلطان الناصر محمد إلى السلطان أزبك برسالة في سنة (٧١٥هـ/١٣١٦م) تضمنت: طلب الزواج من بعض الجهات الجنكزية أي أميرة من بيت جنكيز خان والرغبة في توثيق روابط الصداقة والمودة بين العائلتين والدولتين.

وكان رد السلطان أزبك يدل على الموافقة، وجاء فيه: تلبية لرغبة السلطان، جهزتُ لأخي السلطان الناصر ما كان قد طلب وعينت له ابنة من البيت الجنكزخاني. وقد وصلت الأميرة التترية واسمها وبنية، ويقال طولونية إلى الإسكندرية عن طريق البحر واستقبلت استقبالاً كبيراً ودخل بها السلطان بعد بضعة أيام[١].

وذكر القلقشندي أن العلاقة بقيت ودية مع مغول القفجاق إلى عهد السلطان أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد والسلطان جاني ابن أزبك، وفحوى هذه الرسائل التشريف والتقدير والاحترام المتبادل[٢].

ج- العلاقة مع مملكة أرمينيا الصغرى وعاصمتها سيس

كانت العلاقة بين المماليك ومملكة أرمينا الصغرى على وجه العموم عدائية، خاصة أن ملك أرمينيا الصغرى، لم يترك جهداً إلاّ وساعد به المغول ضد الدولة المملوكية[٣]. وفي سنة

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٣٠٤-٣٠٥.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص ٢٩٥-٢٩٦.

(٣) شوكت مجه، دولة المماليك والدولة إيلخانية فارس، ص ١٩٣.

(٦٩٦هـ/١٢٦٧م) تم الصلح مع متملك (حاكم) سيس التكفور بن هيثوم والسلطان الظاهر بيبرس بسبب تمكن المماليك من أسر ولده، وقد تعهد متملك (حاكم) سيس للظاهر بيبرس من خلال هذا الصلح بدفع الأموال مقابل فدية ابنه، وتسليم مجموعة من القلاع للسلطان الظاهر بيبرس، وكان شرط الظاهر بيبرس استنقاذ الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من أيدي التتار، حيث كانوا قد أسروه في حلب، فوافق صاحب سيس على هذا الشرط مقابل أن يعطيه مهلة، وتبين أنه استخدم الحيلة مع التتار، حيث استنقذ سنقر الأشقر وأوصله إلى دمشق بعد ثلاثة عشرة يوماً[١].

ويلاحظ أن الكثير من المراسلات تمخض عنها فرض الجزية على صاحب سيس، لهذا كان تردده في دفع الجزية سبباً مباشراً لإرسال المماليك التجاريد العسكرية لترغمه على دفع الأموال التي كان يقطعها[٢].

٤- العلاقات مع المدن التجارية الإيطالية (البندقية[٣] وجنوة[٤])

كان تنظيم التجارة وحماية سواحل الدولة المملوكية وموانئها هو الركيزة الأساسية التي قامت عليها العلاقة بين دولة المماليك والمدن الإيطالية، وقد سعى الطرفان لتحقيق هذا الهدف عن طريق المراسلات العادية أو عن طريق توقيع الهدن التي قامت دولة المماليك بعقدها لضمان التزام البنادقة والجنويين بتعهداتهم اتجاه الدولة المملوكية أو لتجديد هذه الالتزامات، خاصة في الاحداث

---

(١) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ٢٣٠.

(٢) بيبرس الدوادار، المصدر السابق، ص ٢٣٠-٢٣١، ٣٠٦، ٣٦٤، ٣٨٣، ٣٨٨.

(٣) البندقية: جزيرة في البحر المتوسط، بيوتها في البحر، وتخترق المراكب أكثرها، تتردد بين الدور ومركب الإنسان على باب داره، يطلق على ملكهم الدوك. ودنانيرهم أفضل دنانير الفرنجة، وإليها ينسب الجوخ البندقي الخائن على سائر الجوخ، انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٣٨٢-٢٨٣؛ القرماني، أخبار الدول، ط١، عالم الكتب، بيروت، ج٣، ص٣٣١.

(٤) جنوة: من جزر البحر المتوسط بالقرب من البندقية، بها جنان داودية، وبها مرس جيد مأمون وهي على حافة البحر، وبها أنواع الفواكه، وبها عيون ماء كثير، أنظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٣٨٢-٣٨٤.

الطارئة التي كانت تشكل تهديداً لسواحل وموانئ الدولة المملوكية، ويأتي بيان أسس العلاقـــة مـــن خلال المراسلات على النحو التالي:

١- البندقية

ارتبطت البندقية مع دولة المماليك بعلاقات تجارية قوية، فكان لها قناصل في المدن والموانئ الكبرى من أجل رعاية مصالحها، وكانت هناك جالية تقيم في القاهرة ولها حوانيت ودكاكين[١].

وقد عمل السلاطين المماليك على حماية الجاليات التجارية الفرنجية؛ ففي سنة (٦٥٢هــ/١٢٥٤م) طلب تجار البنادقة إبعاد سوق السمك المجاور لفنادقهم، واستجابت الدولة لذلك، وتم نقله إلى مكان آخر، وفي عهد السلطان الظاهر بيربس (٦٥٩هــ/١٢٦١م) قدم التجار شكوى في الإسكندرية بسبب الضوضاء والسكارى القريبة من فنادقهم، فتم ترحيل الحانات إلى مناطق بعيدة[٢].

وقد نظمت العلاقات مع البندقية على أساس الهدنة التي عقدت سنة (٦٨٩هــ/١٢٩٠م) بين السلطان المنصور قلاوون وبين حاكم برشلونة الريدراكون، حيث قامت على وضع ضوابط للنشاط البحري لتجار البندقية، فقد نصت الهدنة على ما يلي[٣]:

١- أن يتحمل حاكم برشلونة المسؤولية الكاملة عن أي تجاوزات لتجار البندقية أو لملوك الفرنجة والتزامه بالتصدي لأي هجوم على أراضي (سواحل) الدولة المملوكية ويسخر سفنه ومراكبه وجنوده لهذا الغرض.

---

(١) بيرس الدودار، زبدة الفكرة، ص٩٠.

(٢) زيتون، تاريخ المماليك، ص١٩٦.

(٣) ابن عبد الظاهر، التشريف، ص١٥٩ – ١٦٠؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٨٦.

٢- أن يلتزم برد أي طلب بالمساعدة ضد المماليك قد يطلبه الفرنجة في أوروبا أو البنادقة أو الفرنجة (الصليبيين) في سواحل عكا وصور.

٣- أن يلتزم بتبليغ السلطان المنصور قلاوون عن أي تحركات يقوم بها ملوك أوروبا والبنادقة ضد السلطان المملوكي.

٤- أن يلتزم بتبليغ السلطان المنصور قلاوون بكافة المستجدات وعدم إخفاء الأخبار عنه.

وقد حلف كل من ملك برشلونه، والسلطان المنصور قلاوون على الهدنة ومما حلف به المنصور قلاوون: " أقول وأنا قلاوون بن عبد الله الصالحي، والله، والله، وحق دين الإسلام، وحق القرآن العظيم، الذي يعتقده المسلمون بأن هذا الصلح والصداقة تقرر بيني وبين الملك الريدراغون... ما دام وافيا باليمين يحلّفه رُسلي بها هو وإخوته، عن نفسي وعن أولادي"، وبنفس الصيغة حلف الأشرف خليل ابن سلطان المنصور[1].

ونظمت العلاقات بين الدولة المملوكية والبندقية بعد وقعة الإسكندرية وفق الأسس التالية[2]:

١. أن السفن التي أغارت على الإسكندرية لا تمت للبنادقة بصلة.

٢. أن البنادقة لم يساعدوا الملك بطرس ولم يشتركوا إلى جانبه.

٢- جنوه

أقامت جنوة الإيطالية علاقات تجارية مع دولة المماليك، شأنها في ذلك شأن البندقية، رغبة منها في حماية مصالحها التجارية، وهم لا يقلون عن البنادقة في حماية مصالحهم التجارية، ويشير ابن واصل (ت٦٩٨هـ/١٣٩٧م) إلى وصول رسل إلى السلطان الظاهر بيبرس في سنة

---

(١) ابن عبد الظاهر، التشريف، ص ١٦٠-١٦٢؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٨٦.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢٨٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٤-٢٥؛ ابن شاهين الناصري، نيل الأمل، ج١، ص٣٧٣-٣٧٥؛ عاشور، مصر والشام، ص٣٧٥.

(٦٦١هـ/١٢٦٢م) من قبل مقدم الجنوية، وقيام الظاهر بيبرس بالإحسان إلى الرسل وحمل الضيافات إليهم والزيادة في إكرامهم والاجتماع بهم بحضور الأمراء والناس[١].

وقد نظم المماليك العلاقة مع جنوه في المراحل التالية وفق هدنة عقدت في عهد المنصور قلاوون سنة (٦٨٦هـ/١٢٨٧م) نصت على ما يلي[٢]:

١. الاحترام والمحافظة على القادمين من بلاد السلطان من المراكب والسفن وما تحمله في بلاد كمون الجنوية.

٢. يكرم جميع الجنوية ويحترمون ويحفظون في بلاد السلطان.

٣. حرية التجارة بين الطرفين وحفظ حقوق كل منهما.

٤. عدم التعرض إليهم بأي أذية من كلا الطرفين.

٥. لا عدوان على المال ولا نفس لا في مجيئهم ولا في أرواحهم من الطرفين.

٦. عدم التعرض إليهم أثناء مقامهم أو سكناهم.

٧. من يسافر من المسلمين معهم أو مع غيرهم لا يتقوى عليه أحد[٣].

وقد تأثر نشاط الجنويين التجاري بشكل عام أثر وقعة الإسكندرية؛ فبعد أن قصد تجار الاسكندرية بلاد العراق براً من أجل التجارة، رفض السلطان أويس إدخالهم إلى بغداد، واشترط عليهم الرجوع عن دخول بغداد وإصلاح ما أفسدوه بالإسكندرية وإحضار كتاب موقع من سلطان مصر بدخولهم طاعته[٤]. فاضطر الجنويون إلى مراسلة المماليك ففي سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ص ٣٧٩.

(٢) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٦٦- ١٦٧.

(٣) المصدر السابق، ص١٦٧.

(٤) سعيد عاشور، مصر والشام، ص٣٧٦.

أرسل متملك جنوة رسلاً محملين بالهدايا ورسالة إلى السلطان الأشرف شعبان وكان مضمون الرسالة[١]:

١- الاعتذار عن وقعة الإسكندرية ونفي علمه.

٢- التعهد للسلطان المملوكي بالقبض على ملك قبرص وقتله

٣- تسليم ما لديه من أسرى المسلمين في وقعة الإسكندرية وهم ستون رجلاً.

وأرسل الجنويون رسالة أخرى في عام (٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، موجهة من البرك متملك جنوة إلى الأشرف شعبان ومضمونها الطلب من الأشرف تمكين تجار جنوه من النزول في ميناء الإسكندرية، هذا مع هدية أرسلها للأشرف شعبان[٢].

هـ- العلاقات مع القوى الأوروبية في البحر المتوسط

لا يمكن لدولة مثل المماليك أن تترك مصالحها التجارية في البحر المتوسط دون أن يكون لها علاقات مع هذه القوى الأوروبية الموجودة كجزر داخل البحر المتوسط، وأهم هذه القوى: صقلية، قبرص.

١- صقلية:

تمثلت العلاقات المملوكية الصقلية في عهد السلطان الظاهر بيبرس بتبادل السفراء بين الدولة المملوكية وصقلية. وأشار ابن واصل إلى أنه مكث سفيراً مقيماً في صقلية لدى الإمبراطور منفرد بن فردريك (٦٥٩-٦٦١هـ/١٢٦١-١٢٦٢م). كما تم تبادل الهدايا بين الطرفين، والإفراج عن بعض أسرى عين جالوت[٣].

---

[١] ابن شاهين الظاهري، نيل الأمل، ج١، ص ٣٨٥.

[٢] المقريزي، السلوك، ج٤، ص٣٠٥؛ ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ج١، ص٣٩٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص٥٩.

[٣] ابن واصل، مفرج الكروب، ص٣٢٩؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص٥٤٢؛ عاشور، مصر والشام، ص٣٧٥.

وأشار المقريزي إلى أن شارل الأنجوي ملك صقلية أقام علاقات حسنة مع السلطان الظاهر بيبرس، وأرسل هدايا إلى السلطان الظاهر بيبرس، وبعث بكتاب على لسان أحد كبار موظفيه جاء فيه: "بأن مخدومه أمره أن يكون أمر الملك الظاهر نافذاً في بلاده، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه"[١].

أما العلاقات بين الدولة المملوكية وصقلية في عهد السلطان منصور القلاوون فقد نظمت وفق هدنة عقدها المنصور قلاوون مع الملك أرغون وأخيه ملك صقلية، وكان أهم بنودها[٢]:

١. تنظيم التجارة.

٢. احترام السيادة لكلا الدولتين.

٣. إطلاق الأسرى من كلا الجانبين.

٤. تأمين الثغور والأساطيل لكلا البلدين.

٢- قبرص:

كانت العلاقات بين جزيرة قبرص والدولة المملوكية تتسم غالباً بالتوتر، وكانت رسالة السلطان الظاهر بيبرس إلى نواب يافا وأرسوف التي بعث بها في حدود سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م) من أهم رسائل التي عبرت عن موقف المماليك اتجاه قبرص حيث تضمنت تهكماً واضحاً على حاكم قبرص، حيث وصفه بأنه لا ملك عظيم ولا صاحب حصن منيع ولا قائد جيش كما حمّل الظاهر بيبرس نواب يافا وأرسوف مسؤولية اعتداء حاكم قبرص على رسل دولة المماليك وقيامه بنهب التجار وطالبه بفكاك الأسرى[٣].

---

(١) المقريزي، ج١، ص ٥١٣؛ عاشور، مصر والشام، ص٣٧٥.

(٢) حمادة، الوثائق السياسية، ص ٨٤.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ص ٢٦٤- ٢٦٥.

ويكشف ارسال الرسالة إلى الفرنجة (الصليبيين) في الشام وليس إلى حاكم قبرص عن ترفع السلطان الظاهر بيبرس عن مراسلته وتكشف عن إلمام الظاهر بيبرس بأي تحالف للفرنجة في الشام مع قبرص وعلمه بأنهم يتسترون على مراكبه، واعتبر هذا التحالف خرقاً لشروط الهدنة المعقودة معهم مما دفعهم إلى إرسال رسالة لتأكيد التزامهم بالهدنة والاستعداد لفكاك الأسرى[١].

و- العلاقات مع مملكة الصرب (السرب)

إحدى الممالك الأوروبية التي كان لها علاقات مع الدولة المملوكية، ويبدو من خلال حج ملك الصرب النصراني إلى الأماكن المقدسة في فلسطين أنها كانت علاقات ودية، وبموجب كتاب الأمان الذي أصدره السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى الفراكس ملك الصرب من عندما حج هو وزوجته وأتباعه، ومضمون كتاب الأمان[٢]:

١. نص الأمان على أن يكونوا "آمنين على أنفسهم وأموالهم".

٢. أنَّ هذا الأمان أعطي إلى ملوك أوروبيين قبلهم.

٣. أنْ يعاملوا معاملة حسنة دون أي مضايقة وتقدم لهم الرعاية طوال فترة حجهم.

ز- العلاقات مع الدولة البيزنطية

استطاع السلاطين المماليك بمهارتهم السياسية اكتساب الحلفاء في الخارج ضد أعدائهم. حيث حالف المماليك الدولة البيزنطية ضد الفرنجة (الصليبيين) في بلاد الشام[٣]. كما وطد السلاطين المماليك العلاقة مع الدولة البيزنطية لضمان مرور آمن لرسل الدولة المملوكية إلى أراضي دولة المغول القفجاق، وكذلك لتأكيد رعاية الدولة المملوكية لشؤون المسلمين في أراضي الدولة البيزنطية

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ص ٣٦٥.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٢٦، ٣٢٧؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص ٥١٠-٥١١.

(٣) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ٧٠؛ رجب محمود، تاريخ دولة المماليك، ص ١٢٧؛ عادل زيتون، ص٣٢.

وخاصة في القسطنطينية. فاتسمت العلاقة بين الدولة البيزنطية والمماليك بالاستقرار إلا في حالات نادرة كانت تشهد خلافاً بين الطرفين في تبادل السفراء والهدايا بين الجانبين.

وكان من مظاهر العلاقات الودية بين الطرفين الاتفاق الذي تم بين السلطان الظاهر بيبرس والإمبراطور ميخائيل سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م) ونص على ما يلي[١]:

١. استجابة السلطان الظاهر بيبرس لطلب الإمبراطور في إيفاد بطرك من النصارى الملكانيين ليرعى شؤون الطائفة في دولته. فتم الاتفاق على إرسال الرشيد الكحال. وسافر معه الأمير فارس الدين أقوش المسعودي سفيراً إلى الامبراطور البيزنطي.

٢. ترحيب الامبراطور ميخائيل بإشراف المماليك على جامع القسطنطينية ورحّب بإيصال الفرش الخاصة به من الدولة المملوكية مثل الحصر، والسجاد الفاخر والقناديل كما أمر الإمبراطور بتجديده.

وكان استقرار العلاقات من وجهة نظر السلاطين والمماليك مشروطاً بضمان المرور الآمن لرسل الدولة المملوكية إلى دولة مغول القفجاق حين اعترضت قوات الامبراطور البيزنطي رسل السلطان الظاهر بيبرس أثناء سفرهم عبر بلاده إلى بركة خان حاكم دولة مغول القفجاق، ما اعتبر الظاهر بيبرس هذا الأمر إخلالاً بشروط الاتفاق الموقع معه – وكما سبقت الإشارة – ارتكز الظاهر بيبرس على اليمين الذي حلفه الامبراطور البيزنطي ووظفه ضده لتأكيد اخلاله بشروط اليمين على هذا الاتفاق حيث غضب السلطان الظاهر بيبرس غضباً شديداً. وجمع السلطان رجال الدين المسيحي والعلماء ليُشهدهم أن الإمبراطور البيزنطي خالف "الأيمان". فاستدرك الإمبراطور غلطته بسرعة، وأطلق رسل السلطان الظاهر بيبرس وسمح لهم بالسفر إلى بركة خان وقام بإرسال الهدايا إلى السلطان الظاهر بيبرس يسترضيه[٢].

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ص ٣٣٤-٣٣٥؛ عاشور، ص ٣٧١.

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ص ٥١٤، ٥٣٧؛ عاشور، مصر والشام، ص ٣٧٠.

وقد بيّنت المصادر التاريخية المملوكية، أن العلاقات الودية مع الدولة البيزنطية استمرت بعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس، وذكرت المصادر أن السلطان المنصور قلاوون لما تولى السلطنة أرسل إلى الإمبراطور ميخائيل الثامن سفارة على رأسها الأمير ناصر الدين الجزري، ومعه بطرك الأقباط حنا السابع سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، وحملهم السلطان المنصور قلاوون رسالةً بيّن فيها رغبته في إبقاء المودة والصداقة بين الجانبين. وكان رد الإمبراطور على الرسالة ببذل الوداد والصداقة على ما هي عليه، وسأل السلطان المنصور يميناً يتمسك به[١].

وكما سبقت الإشارة في موضوع الأيمان الخاصة بالمهادنات كتب نص اليمين مع النص الأصلي للهدنة في بلاط الامبراطور البيزنطي وحلف الامبراطور اليمين وأرسله مع الرسل إلى القاهرة فتم ترجمة النسخة إلى العربية – وكما سبق ذكره– كتبت نسخة يمين حلف عليها المنصور قلاوون وحضر الشهود ورسول السلطان إلى الإمبراطور الأمير ناصر الدين ابن الجزري وبطريرك الإسكندرية، ورسل الإمبراطور، وقد أشرك المنصور قلاوون في الهدنة ابنيه الملك الصالح ولي عهده والأشرف خليل[٢].

وقد نصت الهدنة على ما يلي[٣]:

١. عدم شن الإمبراطور حرباً على بلاد السلطان.
٢. عدم إعاقة الرسل الذين يعبرون دولة الأشكري (الدولة البيزنطية).
٣. حرية التجار في التنقل في الذهاب والإياب وفي البر والبحر.

---

(١) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ٢٠٩؛ عاشور، مصر والشام، ص ٣٧٠.

(٢) ابن عبد الظاهر، التشريف، ص ٢٠٤-٢٠٩؛ ابن الفرات، التاريخ، مجلد ٧، ص٢٣٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٨٩، حمادة، وثائق الغزو المغولي والحروب الصليبية، ص ٥٠٠.

(٣) بيبرس الدودار، زبدة الفكرة، ص٢٠٩؛ ابن الفرات، تاريخ مجلد٧، ص٢٢٨، القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٨٦-٨٧؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص ٤٩٨-٥٠١.

٤. طلب الإمبراطور أن يشتري خيولاً أصيلة.

ولم تتغير العلاقة الودية بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة المملوكية. عند إعتلاء الإمبراطور أندرونيف الثاني سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م)، فقد أرسل رسالة إلى السلطان المنصور قلاوون ومعها هدية مكونة من حملٍ من الحرير الأطلس وأربعة أحمال من البسط. وكان رد السلطان قلاوون بأن غمر رسل الإمبراطور بالعطايا[(١)].

كما سارت العلاقات وفق هذا النسق في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث بعث الإمبراطور البيزنطي رسالة ومعها هدية جليلة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٦٠٢هـ/١٢٠٥م)، تضمنت الرسالة المطالبة بإعادة كنيسة المصلبة في بيت المقدس إلى أصحابها – كانت حُولت إلى مسجد في عهد السلطان الظاهر بيبرس وكان جواب السلطان الناصر محمد على الرسالة يتمثل بالموافقة على إعادة الكنيسة إلى ما كانت عليه سابقاً بعد استشارته علماء المسلمين. والاستجابة لطلب الامبراطور في التسامح مع أهل الكتاب. والسماح بإنشاء كنائس جديدة في دولته[(٢)].

وظلت المودة والصداقة قائمة بين الإمبراطورية البيزنطية وبين الدولة المملوكية، ففي سنة (٧٧١هـ/١٣٦٩م)، أرسل الإمبراطور حنا الخامس سفارة إلى السلطان المملوكي لإزالة الأثر السيئ الذي أحدثته حملة بطرس لوزجنان على الإسكندرية سنة ١٩٦٧م[(٣)].

---

(١) بيبرس الدودار، زبدة الفكرة، ص ٢٣٩؛ عاشور، مصر والشام، ص ٣٧١.

(٢) ابن شاهين الظاهري، نيل الأم، ج١، ص ٢٨٥.

(٣) ابن شاهين الظاهري، نيل الأمل، ج١، ص ٣٨٥، عاشور، مصر والشام، ص ٣٧٢.

ح- العلاقات مع بلاد النوبة

ارتبطت سياسة الدولة الملوكية تجاه بلاد النوبة بعاملين أساسيين، الأول: جغرافي تمثّل بموقع النوبة على حدود الدولة المملوكية من الجهة الجنوبية[1]، وقد حرصت الدولة على تأمين الحدود الجنوبية البرية من جهة أسوان والبحرية من جهة البحر الأحمر.

أما العامل الثاني، فيتمثل بالعرف السائد تجاه بلاد النوبة منذ الفتح الإسلامي لمصر على يد عمرو بن العاص، حيث فرضت الجزية على أهلها واعتمد هذا التنظيم كأساس للتعامل مع بلاد النوبة منذ الفتح وحتى العصر المملوكي، وشهدت هذه الفترة امتناع بعض الحكام أو مماطلتهم في دفع الجزية، وعدّ ذلك مظهراً من مظاهر تمردهم وسببا مباشرا لغزو بلادهم[2].

وجاءت سياسة السلاطين المماليك ضمن هذا الإطار، حيث تشير المصادر إلى أن امتناع بعض حكام النوبة، عن دفع الجزية أو قيامهم بالتعدي على أراضي أو موانئ الدولة المملوكية كان سبباً مباشراً لغزو بلادهم وإخضاعها، ثم رضوخهم للشروط المفروضة عليهم، وقد احتوت المصادر المملوكية على نص يمين بالولاء حلف بها مشكد ملك النوبة الجديد للسلطان الظاهر بيبرس عام (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م)[3]، وهو يفيد في إبراز طريقة معاملة الدولة المملوكية لحكام

---

[1] بلاد النوبة: قاعدتها مدينة دُنقُله، وتقوم النوبة على الحدود الجنوبية الغربية للديار المصرية في حين تقع بلاد البحيرة على الحدود الجنوبية الشرقية فيما بين بحر القلزم (الأحمر) وبين نهر النيل. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢٢، ص ٢٦٤ – ٢٦٥؛ وانظر ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٧ حيث يقول فأما الحد القبلي فينتهي عند ضفة القلزم حيث عيذاب على بلاد الحداربه (عرب البجاه) إلى الروم من بلاد النوبة خلف الجنادل التي على مصب النيل إلى جبال المعدن إلى صحراء الحبشة.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٨، ص ٢٦٦.

[3] أنظر نص اليمين عند: المقريزي، السلوك، ج١، ص٢، ملحق رقم (٥)، ص ٩٧٣ – ٩٧٤؛ ابن الفرات، التاريخ، مج٧، ص٤٩٥؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص ٤٧٠ – ٤٧١.
مشكد: ذكرت المصادر لجوئه إلى الظاهر بيبرس لاستعادة ملكه من قريبه الملك داود وقد اختلفت في إيراد اسمه وصلة قرابته بداود فوردت كالتالي: " شكنده ابن عم داود" عند ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص١٢٩، "مرتشكر ابن أخت داود" عند بيبرس الدوادار، مختار الأخبار. مرقشنكز عم داود عند القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢٦٦.

النوبة، حيث تولى مشكد الحكم بمساعدة المماليك بعد حملة عسكرية أرسلها السلطان الظاهر بيبرس لقتال الملك داود ملك النوبة ووقف تعدّيه على أراضي الدولة المملوكية، ونجحت الحملة في تعقب داود والقبض عليه وإخضاع بلاد النوبة[١]. وقد اعترف الملك الجديد مشكد من خلال اليمين بسلطة الدولة وقد احتوى اليمين شروطاً التزم بها مشكد، وجاءت على النحو التالي[٢]:

١- أن يكون حاصل بلاد النوبة مناصفة يقدم سنويا، النصف للسلطان المملوكي بيبرس والنصف الآخر لبلاد النوبة[٣] ينفق منه على عمارتها وتحصينها.

٢- الالتزام بتقديم قطيعة[٤] سنوية وهي: ثلاثة فيلة، وثلاث زرافات، وخمس من إناث الفهود، ومائة جواد أصهب، وأربعمائة رأس من الأبقار الجياد المنتخبة.

٣- دفع جزية سنوية تجبي عن كل بالغ عاقل من أهل البلاد ومقدارها عن الفرد " دينار عيناً".

٤- أن تكون بلاد العُلى وبلاد الجبل[٥] خالصاً (خاصة) للسلطان الظاهر بيبرس.

٥- الالتزام بتحصيل وجمع أموال الملك داود وأقربائه وأتباعه الأحياء ومن مات منهم، وإرسالها إلى الباب العالي (السلطان الظاهر بيبرس في القاهرة).

٦- الالتزام بتعقب العربان في بلاد النوبة والقبض عليهم وإرسالهم إلى السلطان في القاهرة.

---

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٥٢، ٥٣، ٢٩، ١٣٠؛ بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ٥٥-٥٦.

(٢) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص١٢٩.

(٣) أوصى الظاهر بيبرس الأمراء المكلفين بغزو النوبة أن يكون النصف والربع لمشكد والربع خالصاً للسلطان الظاهر بيبرس. أنظر: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ١٢٩ ومن الواضح أن هذا الشرط قد تغير.

(٤) استخدم مصطلح البقط للإشارة إلى المال الذي فرضه المسلمون على النوبة بعد الفتح وظل يستخدم حتى العصر المملوكي. للمزيد حول الأصل اللغوي للفظ وتاريخ استخدامه أنظر السلوك، ج١، ق٣، ص٧٥٢، هامش (٤). ويفيد ما أورده ابن الفرات في تمييز البقط عن الجزية على أهل النوبة ويكون البقط عادة من الحيوانات الغريبة والرقيق، ابن الفرات، التاريخ، مجلد ٧، ص ٤٩. ولفظ (pact) يعني (agreement) أي معاهدة، واستخدم في المصادر العربية بهذا الشكل بقط، وهو يعني المعاهدة التي تمت بين المسلمين وبلاد النوبة عند فتح بلاد النوبة واشترط فيها ما تدفعه بلاد النوبة للمسلمين.

(٥) بلاد الجبل، عرفت بولاية الجبل وتضم جزائر ميكائيل، وعمل الدو.

٧- الالتزام بتبليغ الظاهر بيبرس بكل ما يستجد من أمور وإطلاعه على الأخبار السيئ منهـــا والحسن.

٨- الرجوع للظاهر بيبرس في اتخاذ القرارات وتجنب ما يضر منها بمصلحة الدولة المملوكية.

٩- الدخول في حلف مع الدولة المملوكية يترتب عليه موالاة من والاه السلطان الظاهر بيبرس ومعاداة من عاداه.

من خلال مطالعة ما جاء في يمين ملك النوبة يمكن أن نتبين بعض الأفكار التي تعد مؤشراً على توجهات السياسة المملوكية نحو النوبة وهي: حرص الدولة على تـــأمين حـــدودها الجنوبيـــة والجزية وفيما يلي عرض لذلك:

١- حرص الدولة المملوكية على تأمين حدودها الجنوبية:

ارتبطت الأحداث التي سبقت تنصيب الملك مشكد على حكم النوبة بتجاوزات قام بها الملـــك داود، وتمثلت بمهاجمة داود لثغر عيذاب[١] في محرم من عام (٦٧١هـ/ ١٢٧٢م) [٢]، وقتل ونهب من وصل إليه من تجار جاءوا من عدن، ومن تجار جاءوا من مصر[٣]، وكان رد المماليك علـــى هذا الحدث يتمثل بتجهيز حملة عسكرية بإشراف الظاهر بيبرس، قادها اثنان من كبار الأمراء، وهم شمس الدين آمشنقر الفارقاني، وعز الدين أيبك الأفرم، ورافقهما مشكد الذي كان قد لجأ إلى البلاط المملوكي[٤].

---

[١] عيذاب: مرفأ هام على بحر القلزم (البحر الأحمر) في صحراء قفر وكان مرسى للمراكب التي تأتيه من اليمن والحبشة والهند كما كان يقصده الحجاج الذين يتوجهون من مصر إلى جدة. ابن شدا، تاريخ الملك الظـــاهر، ص٢٢، هامش (٨).

[٢] العيني، عيذاب عقد الجمان، ج٢، ص١٠٥؛ ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٥٣.

[٣] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ٥٣.

[٤] بيبرس الدوادار: مختار الأخبار، ص ٥٥؛ ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ١٢٩.

وأمر الظاهر بيبرس كل من الأميرين أيبك وآمشنقر"أنهما إذا فتحا البلاد يسلمانها إليه"[1]، أي المشكد.

وعكست بنود اليمين الذي أداه مشكد مظاهر نجاح الحملة، وبالتالي نجاح المماليك في بسط سيطرتهم على النوبة، وعلى الطريق بينها وبين حدود الدولة المملوكية؛ فبعد هزيمة داود وتنصيب مشكد قرر قادة الحملة مع " إشي" وهو صاحب بلاد الجبل، وكان على خلاف مع داود، أن تكون الدد وإبريم (وهما قلعتان حصينتين قريبتين من أسوان، بينهما سبعة أيام) خاصة للسلطان الظاهر بيبرس[2] وأن يحمل من هذه المنطقة التي تقدر مساحتها بربع بلاد النوبة ما يجني بها من الأقطان والتمر " مع الحقوق الجاري بها العادة "[3]. وقد فوض قادة الحملة لـ " إشي " أمر نيابة السلطنة فيها، وشرطا له الالتزام بنجدته إذا قصده عدو[4].

٢- إلزام النوبة بدفع الجزية:

فرضت الجزية على أهل النوبة، وتم تحديد مقدارها في نص اليمين، وقد فرضت الجزية بإجراءات قام بها قادة الحملة، انسجمت مع العرف الإسلامي المتبع، وهو تخيير النصارى من أهل البلاد حيث "عُرض عليهم الإسلام أو القتل أو القيام بالجزية فاختاروا القيام بالجزية، وقد ورد ذلك في نص اليمين بهذه الشروط"[5].

---

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ١٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(٣) بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ٥٦.

(٤) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ١٣٠.

(٥) بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ٥٦؛ أنظر ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص١٣٠، هامش(٣) وفيه توثيق لرأي المؤرخ الغربي موير.

وقد شكل التزام النوبة بدفع الجزية عاملاً رئيسيا في استقرار العلاقات مع دولة المماليك، وكان الامتناع عنها عاملا من عوامل توتر العلاقات وسببا مباشرا لغزوها، ففي عام (٧١٦هـ/١٣١٥م) امتنع الملك "كرنيس" عن أداء الجزية، فغزت جيوش المماليك النوبة، واقتيد "كرنيس" إلى القاهرة، وأقام المماليك عليها رجل من أهلها يسمى " نشلي"، كان قد قدم إلى القاهرة وأسلم، وقد بقي في الحكم إلى أن قتله أهل النوبة عام (٧١٩ه/١٣١٩م)ـ، وفي مدة خلع الملك الأول " كرنيس" وإقامته في القاهرة اعتنق الإسلام فأعيد إلى الحكم بمساعدة المماليك وحسب القلقشندي: " انقطعت الجزية عنهم – أهل النوبة– منذ أسلم ملوكهم"[١].

ط- العلاقات مع الحبشة

قامت بين الدولة المملوكية ومملكة الحبشة النصرانية[٢]، علاقات ودية فرضتها حاجة الدولتين إلى تنظيم شؤونهما، وتمثل ذلك في حرص الدولة المملوكية على تأمين استقرار حدودها الجنوبية، وتأمين التجارة، وحرص الحبشة على تنظيم شؤون سكانها من النصارى من طائفة اليعاقبة المرتبطين ببطريرك كنيسة الإسكندرية[٣].

وكانت أهم الرسائل التي تم تبادلها بين الدولة المملوكية والحبشة رسالة ملك الحبشة (محر أملاك) إلى السلطان الظاهر بيبرس المرسلة سنة (٦٧٣هـ/١٢٧٤ – ١٢٧٥م)[٤]. وقد وصلت الرسالة ضمن رسالة الملك المظفر صاحب اليمن، ويذكر الأخير في كتابه أن صاحب الحبشة قد

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢٦٦ .

(٢) ملك ملوك الحبشة وهو نصراني يحكم على تسعة وتسعين ملكا ومنهم سبعة مسلمون. ابن فضل الله العمري، التعريف، ص٤٨؛ وانظر ابن الفرات، مج٧، ص ٢٣.

(٣) ابن فضل الله العمري: التعريف، ص ٤٩.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٣، ص٢١١ وذكر أن وصول الكتاب كان عام ٦٧٢هـ ثم أورد الخبر كاملا في أحداث ٦٧٣هـ. ابن الفرات، مج٧، ص ٢٣.

قصدني في حاجة عند مولانا السلطان، وقد سيرت كتابه عطف كتابي. وتـشتمل الرسـالة علـى الأمور التالية[1]:

١. استيضاح ملك الحبشة عن مطران تم إرساله من مصر مرورا بقوص ويؤكد الملك أنـه لـم يصل.

٢. طلب مطران يتصف بسعة العلم والزهد وأن يتم إرساله عبر اليمن عن طريق مدينة عوان.

٣. التزام ملك الحبشة بإرسال ما يطلبه السلطان من ضريبة أو أية أموال وذلك عن طريق نواب الملك المظفر صاحب اليمن الذي يضمن إيصاله إلى نواب السلطان المملوكي في اليمن.

٤. يعتذر ملك الحبشة عن تأخره في إرسال رسل إلى السلطان المملوكي لانشغاله بأمور داخليـة في مملكته.

٥. يشير ملك الحبشة إلى انتظام المسلمين في جيش الحبشة، وذكر بأن عددهم مائة ألف فـارس مسلم، كما بيّن كثرة عدد الجيش من النصارى.

٦. التزام ملك الحبشة بطاعة السلطان الظاهر بيبرس وتكريس جيوشه لخدمته.

٧. ضمان إكرام من يصل من رسل السلطان، وتفسير تأخر أحد الرسل في بلاده بأنـه مـرض بالجدري بسبب طبيعة البلاد وما بها من وخم، فتم الحجر عليه بسبب حالته.

وقد قام الظاهر بيبرس بإرسال رسالة إلى ملك الحبشة في نفس السنة تضمنت ما يلي:

١. احتوت على عبارات الإطراء المعتادة في المراسلات ولعل أهمها وصف الـسلطان الظـاهر بيبرس لـ محر أملاك بنجاشي عصره.

---

[1] ابن الفرات، مج٧، ص ٢٤؛ النويري في نهاية الأرب، ج٣، ص ٢١١ يمر الطريق إلى امحرا من مدينة عوان اليمنية على ساحل بلاد الحبشة. أنظر: ابن الفرات، مج٧، ص ٢٣؛ بيبرس الدوادار، مختار الأخبار، ص ٥٣.

٢. تأكيد من السلطان الظاهر بيبرس عدم وصول رسل من الحبشة يطلبون المطران، وإنما كان وصول الرسول كان إلى اليمن، حيث انتظر عند المظفر، حتى يسير إليه الجواب.

٣. تطرق السلطان الظاهر بيبرس إلى كثرة عساكر المسلمين في الحبشة ودعا الله بأن يكثر مـن عساكر الإسلام.

من خلال ملاحظة الرسائل يمكن القول أن العلاقات قامت على مرتكز أساسي وهو تنظـيم شؤون نصارى الحبشة وما يرتبط به من سيطرة المماليك على المرجعية الدينية للنصارى وحاجـة أهالي الحبشة لهذه المرجعية حيث كان معتقد دين النصرانية لطائفة اليعاقبة في الحبشة لا يجيـز تعمد معمودي إلا باتصال من البطريرك وأن كرسي البطريرك كنيسة الإسكندرية، ويتطلب الأمـر أخذ مطران تلو الآخر من الإسكندرية إلى الحبشة[١].

ويعطي احتضان الدولة المملوكية لكنيسة الإسكندرية ضمانا للدولـة المملوكيـة، وسـلاحا تستطيع استخدامه في أي وقت تجاه بلاد الحبشة، خاصة إذا أدركت النفوذ الكبير لرجال الدين فـي الحبشة وعن ذلك يقول ابن فضل الله العمري مشيرا إلى ملك الحبشة: " فيحتاج إلى أخذ مطران بعد مطران من عنده، وإلا كان شمخ بأنفه على المكاتبة لكنه مضطر إلى ذلك ولأوامر البطريرك عنده ما لشريعته من الحُرْمه"[٢].

---

(١) ابن فضل الله العمري: التعريف، ص ٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٩.

الفصل الثالث

التنظيم الإداري من خلال الرسائل الديوانية

أولاً: التنظيم الإداري في مركز الدولة في القاهرة

ثانياً: التنظيم الإداري في نيابات الشام

أولاً: التنظيم الإداري في مركز الدولة في القاهرة

أ. البلاط السلطاني

كانت قلعة الجبل هي مركز الحكم في العصر المملوكي[١]؛ فعند سيطرة المماليك على الحكم انفردت القلعة عن غيرها من المباني في مدينة القاهرة وشكلت المكان الأنسب والأكثر حصانة لإقامة السلطان والجهاز الحاكم في الدولة.

كانت قلعة الجبل تقع في الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة القاهرة، وقد بنيت على جبل المقطم بأمر من صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م)[٢] ولم يسكنها صلاح الدين ولا أبناؤه من بعده[٣]، وقيل أن الملك العادل بن العادل (أخو صلاح الدين) هو أول من اتخذها مكاناً للحكم بعد أن انتقل إليها من دار الوزارة الكبرى سنة (٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م)[٤].

وفي العصر المملوكي وبعد أن اتخذها السلاطين المماليك مركزاً للحكم ازدادت أهميتها، وفي هذه الدراسة الخاصة بالرسائل الديوانية سنتحدث عن مظاهر تنظيم الشؤون الأمنية والإدارية في القلعة.

---

(١) عاشور، نظم الحكم والإدارة، ص ٢١، ماجد، عبد المنعم، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م، ص١١– ١٣.

(٢) الصديقي البكري، أبو السرور بن محمد بن علي (ت ١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨م) قطف الأزهار من الخطط والآثار، مخطوط مصور بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، رقم الشريط ٣٤، ورقة ١٣٣، وسيشار له : الصديقي البكري، قطف الأزهار، ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، من ١٤٠، المقريزي، الخطط، ج٢، من ٥٠٤، جومار، إدم فرانسوا، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة : أيمن فؤاد السيد، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨٨م، ص ٣٠، وسيشار له : جومار، وصف مدينة القاهرة.

(٣) ابن فضل الله العمري، مسالك الإبصار، ص ١٤١، القلقشندي، مع الأعشى، ج٣، من ٤٢٣– ٤٢٤، المقريزي، الخطط، ج٢، من ٢٠٤– ٢٠٥، ريمون، القاهرة تاريخ حاضره، ص ٨٤ – ٨٦.

(٤) ابن فضل الله العمري، مسالك الإبصار، ص ١٤٠.

١. حراسة القلعة

نظم المماليك حراسة القلعة وفق ترتيبات خاصة واتضحت هذه الترتيبات من خلال ما صدر من تذاكر على لسان المنصور قلاوون موجهة إلى إبنه وولي عهده الصالح علاء الدين علي لينوب عنه في مدة غياب قلاوون عن القاهرة وكان أهم هذه الترتيبات[١]:

- تنظيم نوبات الحراسة على أبواب القلعة وأسوارها ومراقبة المساحين داخل القلعة.
- لا يسمح لقريب أو متنكر بالدخول إليها.
- تكثيف إجراءات الحراسة في أوقات خروج الصالح علي من القلعة أو رجوعه إليها.
- تفقد المناطق المحيطة بالقلعة.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الترتيبات كانت بمثابة توجيهات توكل مهمة تنفيذها إلى نائب القلعة وقد وردت التفاصيل الكاملة في الوصية الخاصة بنائب القلعة.

٢. اجتماعات السلطان بالأمراء والمماليك

عرفت بأوقات الخدمة للإشراف المباشر من قبل السلطان عليها وفي حال غيابه كان ولي عهده أو من ينوب عنه يتولى هذه المهمة، كما ورد في نص إحدى التذاكر التي بعثها المنصور قلاوون إلى ولي عهده الصالح علاء الدين علي[٢].

٣. الإشراف على تقديم الخدمات داخل القلعة

كان الإشراف الإداري والأمني وتوزيع المهام داخل القلعة يتم وفق أسس واضحة وبإشراف مباشر من الأستادار. فقد دلت الوصية الخاصة بمتولي هذه الوظيفة[٣] على مسؤوليته المباشرة عن هذا الجانب.

---

[١] العسقلاني، الفضل المأثور، ص ١١٩. انظر حراسة القلاع عند ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٣، ص٧، وحول نظام المناوبة في الحراسة انظر : ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ٢، ص ٤١٥.

[٢] العسقلاني، الفضل المأثور، ص ١٢٧.

[٣] انظر نص الوصية عند: ابن فضل الله العمري، التعريف.

والاستادار لفظ فارسي مركب من أستا ومعناها الأخذ، ودار معناها الممسك[1]. وهو لقب يطلق على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه وتمثُل أوامره فيه وإليه أمر بيوت السلطان وخواص الأمراء وتجهيز ما تحتاج إليه[2]. لذا قد يصل عدد الأستاداريه إلى أربعة موزعين على البيوت يرأسهم من يسمى أستادار العالية[3].

وكان للأستادار مهام أخرى فهو التكلم في إقطاعات الأمراء مع الدواوين والفلاحين وغيرهم أي في توزيع الاقطاعات على الأمراء بعد أن يحددها السلطان ويقصد بالدواوين الكتّاب الذين يدونون متعلقات الأمير[4].

أما المهام الموكولة للأستادار بموجب الوصية فتمثلت بالإشراف على خدمات ومرافق هامة داخل القلعة وهي:

- **الأسمطة:** وهي الموائد السلطانية وكانت تمد في طرفي النهار من كل يوم أسمطة كبيرة لعامة الأمراء ومنها ثلاثة تمد واحداً بعد واحد في الزمان (تلو الآخر) الأول لا يأكل منه السلطان، والثاني بعده يسمى الخاص قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل، ثم الثالث بعده ويسمى الطارئ

---

(1) ماجد، عبد المنعم، نظم دولة سلاطين المماليك، ص ١٧، هامش (٢). وسيشار له: ماجد، نظم سلاطين المماليك. بيوت السلطان: وهي القصور السلطانية في القلعة وتعرف بالأدر السلطانية والدور السلطانية والأدر الشريفة ومنها دور الحريم السلطانية التي تعرف بالقياع. انظر : ابن فضل الله العمري. مسالك الأبصار، ص ١٤٣، ١٠٣، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٢٦، طرخان، إبراهيم، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٣١٠- ٣١١. وسيشار له: طرخان، دولة المماليك الجراكسة.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٢٤٩، البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٨، وانظر : ماجد، نظم سلاطين المماليك، ص ١٧.

(3) ماجد، نظم سلاطين المماليك، ص ١٧.

(4) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م) : معيد النعم ومبيد النقم، ط٢، تحقيق : حمد علي النجار وآخرون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٢٦ المتن وهامش (٦) من الصفحة وسيشار له : السبكي، معيد النعم.

ومنه مأكول السلطان. أما في المساء فيمد سماطان الأول ثم الثاني ويسمى الخاص. ويؤكل من جميع هذه الأسمطة ويوزع الباقي[١].

أما واجب الأستادار في تفقد الأسمطه فيتمثل بالإشراف على مواعيد مدها ومراقبة تجهيزها للتأكد –على الأرجح– خلوها من السم. فقد ورد في نص الوصية ما يشير إلى ذلك في عبارة: "وليبدأ بِمَهَمْ السماط المقدم الذي يقدم وما يتنوع فيه من كل مطْعَم وما يُمَدْ منه في كل يوم بُكْرةً والعصر ... وأحوال المطبخ الكريم الذي منه ظهور تلك المخافي، ووفاء ذلك الكرم الوافي"[٢].

- **الشراب خاناه:** لفظ مركب من شراب وهو ما يشرب وخاناه وهي المكان أو الموضع. والشراب خاناه هو بيت الشراب[٣]. ويحتوي على أدوات الشراب النفيسة من أنواع الصيني الفاخر والشوكات والكيزان وطاسات نحاسية وغير ذلك، كما تصنع فيه وتوضع: أنواع الأشربة، والحلوى، والسكر، والفواكه، والعطريات، وحتى الأدوية والعقاقير. لذا كان يطلق عليها أيضاً الدواء خاناه[٤].

وكان واجب الأستادار في تفقد الشراب خاناه يتمثل في الإشراف على عملية فحص العقاقير وتقدير أهميتها وصلاحيتها، وفرز ما هو للسلطان وما هو خاص بالتفرقة[٥].

---

(١) دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص ٩٢– ٩٣، وانظر : البقلي التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١٨٥.

(٢) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٣٤، وحول محتويات الأسمطة انظر : القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٢– ١٣.

(٣) دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص ٩٧، وانظر : السبكي، معيد النعم، ص ١٣٩، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٩.

(٤) ماجد، نظم سلاطين المماليك، ص١٩، وانظر : القلقشندي صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨– ٩ وصنفها ضمن حواصل السلطان المعبر عنها بالبيوت.

(٥) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٣٤.

- **الطست خاناه:** أو الطشت خاناه. وفيها أدوات غسل الملابس الخاصة بالسلطان والساكنين في القلعة وفيها أيضاً ما يتعلق بالحمامات مثل الوقود والمباخر والطاسات والمناشف[1].

وكان واجب الأستادار في الإشراف على الطست خاناه أن يستخدم فيها من عرفوا بالعفاف والأدب[2].

- **الفراش خاناه:** وهي مكان حفظ الملابس[3] وأقمشة الخيام التي تستخدم في الحرب والصيد والنزهة والأسفار وفيها الفرش التي تستخدم للقصور أو المساجد كالسجاجيد والبسط[4].

وقد دلَ أدراج الفراش خاناه ضمن الوصية الموجهة للأستادار على مسؤوليته المباشرة على محتوياتها[5].

ب- الوظائف العسكرية (أرباب السيوف)

١- نائب السلطنة في القاهرة (نائب الحضرة ونائب الغيبة)

يعدّ صاحب هذه الوظيفة بمثابة الوكيل عن السلطان، وساعده الأيمن في تصريف شؤون الدولة، وكما قال ابن فضل الله العمري كان نائب السلطنة سلطاناً مختصراً بل هو السلطان الثاني، ويطلق على القائم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها[6].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٩، وهي من ضمن حواصل السلطان وقد أشار إليها بالطشت خاناه، ماجد، نظم سلاطين المماليك، ص ٢٠.

(٢) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٣٤، وانظر : القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٦٨.

(٣) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٣٥، وحول أنواع الخيام وأهميتها بالنسبة للسلاطين المماليك انظر : القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٨.

(٤) ماجد، نظم سلاطين المماليك، ص٢٣.

(٥) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٣٥.

(٦) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٣٥، وانظر : السبكي، معيد النعم، ص ٣٧.

وكانت نيابة السلطنة في العصر المملوكي على نوعين[١]:

النوع الأول: نائب الحضرة: وينوب عن السلطان في حضرته.

النوع الثاني: نائب الغيبة: وينوب عن السلطان في أثناء غيبته، وهو أقل شـأناً مـن نائـب الحضرة[٢].

وقد أطلق على نائب السلطنة: كافل المملكة الشريفة وملك الأمراء[٣]. وخوطب بـ: "كافـل الممالك الشريفة مصراً وشاماً وسائر البلاد الإسلامية أو الممالك الإسلامية المحروسة"[٤].

ومن خلال نصوص التقاليد التي أعطيت إلى نائب السلطنة من قبـل الـسلاطين المماليـك والوصايا التي وجهت إليه كانت صلاحيات نائب السلطنة تشمل المهام السياسية والإدارية، ثم المهام العسكرية، ثم المهام الاقتصادية، وسنبين فيما يلي هذه المهام على حِدة اعتماداً على ما جـاء فـي نصوص الرسائل الديوانية:

المهام السياسية والإدارية لنائب السلطنة

أشارت المصادر المملوكية إلى أن نائب السلطان: "كان يحكـم فـي كـل مـا يحكـم فيـه السلطان"[٥]، وفي هذا إشارة إلى أهمية منصبه وتأكيد صلاحياته وكانت صلاحيات نائب الـسلطنة تشمل الأمور التالية:

---

(١) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١١٦، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٢٦، عاشور، مصر والشام، ص ٢٨١.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٢٦، القلقشندي، صـبح الأعـشى، ج١، ص ١٤٦، ص ٤٢٤، عـادل زيتون، تاريخ المماليك، ص ١٣٠، عاشور، مصر والشام، ص ٢٨١.

(٣) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٨٥، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥ ص ٤٢٧، وج ٨، ص ٥٨، الخطيب، مصطفى، معجم المصطلحات التاريخية، ص ٤٢٠.

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ٨٦.

(٥) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ٨٦، وانظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٣٣.

١- مناصرة السلاطين ومعاضدتهم

جاء في نسخة تقليد نيابة السلطنة على لسان السلطان: "وعَدَق به مصالح الأقاليم ما يــصرفه بيمين"[١]، فعندما خرج الــسلطان الملــك المنــصور قــلاوون إلــى قتــال المغــول فــي ســنة (٦٧٩هـــ/١٢٨٠م) أصدر مرسوماً إلى زين الدين كتبغا المنصوري نائباً عنه فقال: "يعتمد عليهــا المجلس العالي الأميري الزيني كتبغا نائب السلطنة في مهمات الديار المصرية وأحوالها ومصالحها وما يترتب بها[٢].

٢- الرد على المراسيم الواردة

وبَينَ المرسوم –المذكور– من المنصور قلاوون إلى كتبغا ذلك حيث جاء فيه: "ويطالع بأن المرسوم ورد بكذا ويعود الجواب بما يعتمد في ذلك[٣].

٣- استطلاع الأخبار

وجاء في نص المرسوم – المذكور – أهمية استطلاع الأخبار خاصة في القاهرة: "والأمور المختصة بالقاهرة ومصر المحروستين ... لا يتجرأ أحد على أحد، ولا يقوى قوي على ضعيف ... بأن لا يمشي أحد بالمدينة ولا ضواحيها ... بغير ضرورة"[٤].

٤- تفقد أحوال الرعية وما تحتاج إليه

وجاء في تقليد بكفالة نيابة السلطنة من إنشاء الشهاب محمود الحلبي ما نــصه: "وأن تقــر عيون الرعايا بإلقاء مقاليد العدل والإحسان إلى يديه"[٥]، كما ورد ذلك في النص المذكور – سابقاً – لكتبغا على لسان السلطان المنصور قلاوون: "ويحترز في أمر الداخل ... ولا يستخدم فــي ذلــك

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٣٩، ويقصد بزين الدين كتبغا السلطان الذي تولى الحكم بعد ســلطنة الناصر محمد الأول (٦٩٤- ٦٩٦هـــ/١٢٩٤- ١٢٩٦م).

(٢) ابن الفرات، التاريخ، ص ١٩٦، حمادة، الوثائق السياسية، ص ٣١، تدقيق ص ٣١.

(٣) ابن الفرات، التاريخ، ج٧، ص ١٩٧.

(٤) المصدر نفسه، مج ٧، ص ١٩٧.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٣٦.

غريب ولا من فيه ريبه"[1]. وطالبه كذلك بتفقد بيت الأسرى الموجودين في الحبوس: "وتفتقد قيودهم وتوثق في كل وقت ويضاعف الحرس في الليل"[2].

٥- أخذ الرعية بالرفق والإحسان

جاءت مراسيم السلاطين إلى نواب السلطنة بأخذ الرعية بالرفق والإحسان إليهم، ومرجع ذلك كله، العدل والمساواة بينهم، ومما جاء في تقليد بكفالة السلطنة في سنة (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، كتب به عن السلطان الملك أبي بكر ابن الناصر محمد بن قلاوون إلى الأمير طقزدمر أمير مجلس ما نصه: "واستندت إلى ما أمر الله تعالى به من العدل والإحسان في الأحكام ... والرفق رعاة الإسلام"[3].

المهام العسكرية لنائب السلطنة

وكانت المهام العسكرية لنواب السلطة تشمل ما يلي:

١- تجهيز الجيوش وضبط استعداداتها

وجاءت هذه المهام استناداً إلى أهمية منصب نائب السلطة؛ ففي نسخة تقليد صدر سنة (٧٠٨هـ/ ١٣٠٧م) وصف نائب السلطنة بمدبر الدول مقدم العسكر، أمير الجيوش[4] وذُكِرَ بأهمية ملاحظة الجيوش وتفقد العسكر ليكونوا على أهبة الاستعداد[5].

٢- الاهتمام بالثغور

الثغور هي المحارس التي تكون على حدود الدولة مع الأعداء، فلا بد أن تكون القوات المرابطة فيها على استعداد كامل لمواجهة أي طارئ على الحدود مع الأعداء؛ فقد ورد في نسخة

---

[1] ابن الفرات، التاريخ، مج ٧، ص ١٩٧.

[2] المصدر نفسه، مج ٧، ص ١٩٨.

[3] القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ١٤٣.

[4] النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص ١٠٥، وانظر : حمادة، الوثائق السياسية، ص ٢١٤.

[5] العسقلاني، الفضل المأثور، ص ١٣٢.

تقليد الأمير زين الدين كتبغا من قبل ما نصه: "الثغور المحروسة تلاحظ أمورها ومهماتها ... وأحوالها وحفظها والاحتراز على المعتقلين بها، والتيقّظ لمهمات الثغر"[1]. وورد في نسخة تقليد الأمير سيف الدين سلار المنصوري في سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٧م نيابة السلطنة من قبل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ما نصه: "وأوامره المطاعة في إمرة الجيوش وحياطة الثغور والتي غدت بدوام فكاهته مبتسمة على أجمل عوائده"[2].

٣- تفقد العساكر وعرضها

أورد ابن فضل الله العمري من خلال وصية لنائب السلطنة عبارة تنص على هذه المهمة وهي: "وتفقد العساكر المنصورة وعرضها، وأنها منهم لنوامل الخدمة وفرضها"[3].

المهام الاقتصادية لنائب السلطنة

أوضحت نسخ التقاليد لنيابة السلطنة كثيراً من الأمور الاقتصادية. توجّب على نواب السلطنة أن يأخذوها بعين الاعتبار ونجملها فيما يلي:

١- توريث الإقطاعات لمن يستحق

اعتمدت الدولة المملوكية نظام الإقطاع في شؤونها الحياتية، ومنحت الأمراء والجند والعربان الإقطاعات الكبيرة. وفي نسخة التذكرة الموجهة للأمير كتبغا المنصوري، نائب السلطنة في سنة (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م) أوامر من السلطان المنصور قلاوون أن يكون منصفاً في توزيع الإقطاعات وإعطاء من يتوجب إعطائه، ومن وجب عليه القطع يقْطع[4].

---

[1] ابن الفرات، التاريخ، مج ٧، ص ١٩٨.

[2] النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص ١٠٥، حمادة الوثائق السياسية، ص ١٠٤- ١٠٥.

[3] ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٢٢، وانظر : القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٤٦.

[4] ابن الفرات، التاريخ، مج ٧، ص ١٩٦.

وفي وصية لنائب السلطنة أوردها ابن فضل الله العمري تضمنت تعليمات أخرى بشأن الإقطاعات اتضح فيها، أن الإقطاع يورث للابن الذي يستحق أو يلغى عنه فقال: "ومن قتل من الجند أو مات وخلف ولداً يصلح لإقطاعه يعين له ليقوم بمخلفيه"[١].

٢- الأوقاف

اهتم سلاطين الدولة وأمراؤها بالأوقاف، حيث حبست عليها أعمال الخير طلباً للأجر والثواب؛ ففي وصية لنائب السلطنة، تركيز واضح على الأوقاف حيث ورد فيها: "وإجراء الأوقاف على شرط كل واقف"[٢].

٣- الوقوف إلى جانب مباشري الأموال

طالب ابن فضل الله العمري في الوصية التي أوردها ما يجب أن يقوم به نائب السلطنة، حيث قال: "أن يعاضد مباشري الأموال عدم الخروج عما سلف من عدل هذه الأيام وتحسين ما لديه، وتحصين ما لديه"[٣].

٢- الوالي

تناولت المصادر المملوكية منصب الوالي ضمن أرباب السيوف، فأظهرت خصوصية المنصب والجهة أو المحيط الذي مارس الوالي صلاحياته من خلاله؛ فقد عَرفَه ابن فضل الله العمري تحت مسمى "والي حرب"، وعرف القلقشندي الولاة تحت مسمى ولاة الشرطة في الحاضرة المعروفين في الديار المصرية بولاة الحرب، ويبلغ عددهم (في عصره) ثلاثة، وهم والي القاهرة ويأتي في المرتبة الأولى يليه في المرتبة والي الفسطاط والثالث والي القرافه، ويحكم في القرافه

---

(١) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٢٢، وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٤٧.

(٢) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٢٢، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ١٤٧.

(٣) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٢٢، وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ١٤٦.

وهي تربة بين القاهرة والفسطاط ورتبته أمير عشرة وكان يتبع والي الفسطاط إلى أن جمعت المنطقتين تحت إدارة واحدة(١).

وقد أُلْزِمَ الولاة بمهام واضحة وردت من نصين الأول: نص منفرد لوصية خاصة بالوالي تبين أسس عمله(٢)، والثاني نص التذكرة التي أصدرها السلطان المنصور قلاوون لابنه وولي عهده الصالح علاء الدين علي وأشار عليه بتطبيقها في مدة غيابه عن مصر وتضمنت تعليمات لوالي القاهرة وهي حسب المنصور قلاوون ضم القواعد والضوابط الخاصة بالدولة وعدم إغفالها أو تجاوزها(٣). ومن خلال النصين يمكن تحديد أهم مهام وصلاحيات الوالي بما يلي:

المهام الأمنية الطارئة(٤)

- مراقبة أبواب المدينة.
- حفظ السجون.
- مراقبة الطرقات.
- معاقبة شاربي الخمر.
- الإشراف على إخماد الحرائق وتأمين الأدوات اللازمة لإطفائها.
- منع ذوي الدعارة من الاجتماع في أماكن الفساد.

---

(١) ابن فضل الله العمري التعريف، ص ١٣٩، القلشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٢٤، وقد ميزهم عن ولاة قلعة الجبل واختصاصهم حفظ أبوابها.

(٢) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٣٩- ١٤١.

(٣) العسقلاني، الفضل المأثور، ص ١١٩- ١٢٠.

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٤٠، العسقلاني، الفضل المأثور، ص ١١٩- ١٢٠، وانظر : ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٣٢٤.

الصلاحيات العامة[1]

- الإشراف على تنفيذ العقوبات المفروضة على المخالفين.
- ملاحقة المخالفين من التجار والحق في تأديبهم.
- تتبع أماكن عصر الخمور ومعاقبة أصحابها ومصادرة خمورهم.
- تتبع عمليات الزغل (غش النقد) ومعاقبة القائمين عليها.

٣- أمير آخور

لفظ مركب من لفظين الأول أمير والثاني فارسي وهو آخور ومعناه العَلَف فيكون معنى أمير آخور أمير العلف. وكانت مهمة أمير آخور الإشراف على اسطبل السلطان وخيوله. وما فيه من الخيل والإبل وما تحتاج إليه من السلاح وما في الإسطبل من أدوات كالعربات والسروج[2].

وكان لمتولي وظيفة أمير آخور مهام متعددة عكست مظاهر العناية بالخيول وتجهيزها لأداء أغراض مختلفة في المجتمع العسكري المملوكي. ويأتي عرض هذه المهام من خلال الوصية الموجهة لأمير آخور وذلك على النحو التالي[3]:

- الاستعداد الكامل في كافة الأوقات لتجهيز مواكب السلاطين.
- الإشراف على ما يحويه الاصطبل من خيول وغيرها وحصر المراعي وأماكنها وإحصاء كميات الأعلاف وتجهيزها.

---

(1) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٤٠، ، عاشور، نظم الحكم والإدارة، ص ٣١- ٣٢.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٦٩، البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الاعشى، ص ٤٧، وانظر ابن كنان : حدائق الياسمين، ص ١١٥، وآخور عند لفظ فارسي معناه الاصطبل.

(3) انظر نص الوصية عند : ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٣٧- ١٣٩، القلقشندي، صبح الاعشى، ج١١، ص ١٦٩- ١٧٢.

- الإشراف على ما يُدْخَل إلى الاسطبل من خيول القود التي تجلب من العربان أو ما يشترى من المواريث ومراقبة ما يولد من الخيول والتحقق منها للحيلولة دون تبـديلها أو الادعـاء بموتها.
- إحصاء ما يَنْفُق من الخيول.
- الإشراف على خيول المراكب والسباق.
- اختيار الغلمان العاملين في الاسطبل من ذوي الخبرة والخُلْق الحسن وخاصـة الأوشـاقيه (الارجاقية) وهم الذين يقولون ركون الخيل للتسيير والرياضة.
- الإشراف على البغال الخاصة بحمل الذخائر إلى القلعة وكذلك البغال التي تحمـل عليهـا الكوسات التي تدق البشائر.
- حسن استقبال أمراء العربان واستمالتهم لضمان ترددهم إلى القاهرة لجلـب الخيـول إلـى السلاطين.
- تدريب من يقفون في حضرة السلطان من مسيري الخيول أو البغال على أصـول الخدمـة ومنعهم من الاختلاط مع السوقة من العامة.

٤- الأمراء* والأجناد

شكل الأمراء والأجناد شريحة هامة وواسعة في المجتمع المملوكي، تم تنظيمها وفق أسـس واضحة ميزت العصر المملوكي بأكمله. ويتضمن هذا الموضع من الدراسة لمحـة عـن طبقـات الأمراء والأجناد ومراتبهم وبعض ملامح تنظيمهم وذلك من خلال بعض أنواع الرسائل الديوانية.

---

* تولى الأمراء الوظائف المختلفة والمتفاوتة بحسب مراتبهم سواء كانت في الإدارة العسكرية أو في الإدارة المالية. للمزيد انظر : صنومط، الدولة المملوكية، ص ٦٦ – ٧٤.

طبقات الأمراء

قُسّم الأمراء بحسب مراتبهم إلى أربعة أقسام هي[1]:

- **الطبقة الأولى: مقدمو الألوف (أمراء المئين)** ويتولى الواحد منهم الإمرة على مئة فارس ضمن جيش السلطان في الحروب وقد يزادوا عشرة أو عشرين وهم أعلى درجات الأمراء ويتولـون كبرى الوظائف في الدولة ومن هذه الطبقة يكون السلطان أو نائب السلطنة. ويتراوح عدد مـن يصلون هذه الرتبة في الدولة إلى حوالي أربعة وعشرين أميراً.
- **الطبقة الثانية: أمراء الطبلخاناه** ويتولى الواحد منهم الإمرة على أربعين فارساً أو أكثر قد يصل إلى سبعين أو ثمانين فارساً حسب إقطاع الأمير ومن هذه الفئة يختار أمير آخور وبعض نواب القلاع.
- **الطبقة الثالثة: العشرينات والعشروات** ويتولى الواحد منهم الإمرة على عشرة مماليك. وقد زاد بعض هؤلاء الأمراء مماليكهم إلى العشرين فعرفوا بأمراء العشرينات ومن هذه الطبقة يعـين صغار الولاة واستادار الصحبة.
- **الطبقة الرابعة: أمراء الخمساوات** وهي اقل الطبقات عدداً وهي تمثل الأمراء الأبناء الذين توفي آباؤهم وأنعم السلطان على كل أمير منهم بخمسة مماليك وهم من حيث المرتبة كأكابر الجند.

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٤- ١٥ وانظر السمات والإعداد لكل فئة عند عدوان، أحمـد محمـود محمد، العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٥م، ص ٣٢- ٣٣ وسيـشار له: عدوان، العسكرية الإسلامية، شبارو، عصام محمد، السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم الـسياسي والحضاري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤م، ص ١٢٨- ١٣١. وسيشار له : شبارو، السلاطين فـي المشرق، منومط، الدولة المملوكية، ص ٦١- ٦٣. وعنده اختلاف في أن أمير المئين قد يحكم في الحرب على ألف فارس.

فئات الأجناد[1]

تكون الجيش المملوكي من ثلاث فرق رئيسية هي:

- **الفئة الأولى: المماليك السلطانية** وهم أرفع المماليك قدراً وأقربهم إلى السلطان وتشمل هذه الفئة الخاصكية: وهم الذين يلازمون السلطان في خلواته ويُشكل منها حرسه الخاص. والقرانصة أو القرانيص: وهم مماليك السلاطين القدامى المتوفون. الأحلاب أو الجبلان: وعرفوا أيضاً باسم المشتروات وهم المماليك الذين يشتريهم السلاطين الجدد الذين يتولون الحكم. والمماليك السيفية وهم مماليك الأمراء الذين نقلوا إلى خدمة السلطان بسبب وفاة أو سحب أو نزع الإمرة عن سادتهم.
- **الفئة الثانية: أجناد الحلقة** وهي أساس الجيش المملوكي وقد تألفت من بعض فئات المماليك السلطانية كالسيفية والقرانيص كما ضمت فئات أخرى مختلفة كالمتعمين والتتار (المغول) الوافدين إلى أراضي الدولة وبعض أرباب الصنائع كما اعتبر من ضمن هذه الفئة العربان والأكراد والتركمان حيث اعتُمد على هؤلاء في حماية أطراف الدولة.
- **الفئة الثالثة: أجناد الأمراء** وهم يتبعون أمراءهم مباشرة وكان جيش الأمير يتوقف في عدده على حسب رتبته.

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٦ وقد ذكر الأجناد في طبقتين فقط هما : المماليك السلطانية وأجناد الحلقه، عدوان، العسكرية الإسلامية، ص ٣٣- ٣٦، شبارو، السلاطين في المشرق العربي، ص ١٣٥- ١٣٦، ضومط، انطوان خليل، الدولة المملوكية (التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري)، ط٢، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٢م، ص٣١- ٣٤، ٥٦، ٥٧. وسيشار له: ضومط، الدولة المملوكية.

المناشير الإقطاعية الخاصة بالأمراء والأجناد

أمر السلاطين المماليك بتعيين اقطاعات للأمراء والأجناد. وتظهر المصادر الأسس الدقيقة التي روعيت عند إصدار المناشير فقد اعتمد في إصدارها على طبقات الأمراء وفئات الأجناد أي على اختلاف مرتبة المُقْطَع فجاءت في ثلاث طبقات هي:

- **مناشير الطبقة الأولى من الأمراء** وكانت تعطى لمقدمي الألوف سواء كانوا من أبناء السلاطين أو الخاصكيه ولمقدمي الألوف في نيابات الدولة وولاياتها[١].

ومن الأمثلة على مناشير هذه الطبقة المنشور الذي كُتب للأمير بدر الدين بيدرا استادار المنصور قلاوون والمنشور الذي كُتب للأمير بدر الدين بيليك الأيدمري سنة (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م) [٢]. كما كان هذا القسم من المناشير يعطى للأمراء العرب من آل الفضل كالمنشور الذي كتب للأمير مهنا بن عيسى سنة (٧٣٤هـ/١٣٣٤م) بأمر من السلطان الناصر محمد[٣].

- **مناشير الطبقة الثانية من الأمراء** وكانت تعطى لأمراء العشرينات والعشرات ولأمراء الطبلخاناه في مصر والشام ممن لم يبلغوا الحد الأدنى أي ممن لهم دون الأربعين طواشيا سواء كانوا من الخاصكيه أو من أبناء السلاطين[٤] كما كانت تعطى للأمراء المقدمين من نواب القلاع الشامية[٥]. وقد أورد القلقشندي نماذج متعددة تظهر الصيغ الواجب استخدامها لكتابة هذا القسم من المناشير[٦].

---

(١) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٢٥، ومسالك الأبصار، ص ١٠٨، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٦٣- ١٦٤، ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص ١٥٠، طرخان، النظم الإقطاعية، ص ١٢٣.

(٢) ابن الفرات، التاريخ، مج ٧، ص ١٨٤- ١٨٥، حمادة، الوثائق السياسية، ص ٢٤٢- ٢٤٣، وحول نماذج النصوص انظر : القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٧٢- ١٧٣، ١٨٠- ١٨٧.

(٣) انظر نص النشور عند : اليوسفي نزهة الناظر، ص ٢٠٨- ٢١٠.

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٢٥، طرخان، النظم الإقطاعية، ص ١٢٣.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ، ١٦٤، السحماوي، الثغر الباسم، ص ٨٣٨، وانظر : ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ص ١٥٢.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ١٩٣-٢٠٠.

- **مناشير الطبقة الثالثة** وكانت تعطى لأمراء العشرات من مصر والشام وبعض أمراء الطبلخاناه من التركمان والأكراد[١].
- **مناشير الطبقة الرابعة** وكانت تعطى للمماليك السلطانية وأجناد الحلقة ورجال الحلقة في مصر والشام على حدٍ سواء[٢].

كانت الأسس المذكورة من أبرز مظاهر تنظيم فئة الأمراء والأجناد خلال العصر المملوكي كما شهد هذا العصر أعرافاً متبعة لتوزيع المناشير على مستحقيها من الأجناد خاصة وذلك لتأكيد حقهم القانوني في حيازة الإقطاع فكان التوزيع يتم في مناسبة رسمية عرفت بيوم العرض حيث يقوم السلطان باستعراض جنوده بيوم العرض أكثر من مرة خلال سلطنته ليستوثق من القادرين على الخدمة والموالين له. ويستبعد المرضى والعاجزين والمشكوك بولائهم وتوفير اقطاعاتهم لتوزيعها على من هم أكثر لياقة وكفاءة وولاء[٣].

إضافة إلى التوزيع في يوم العرض وجدت حالات خاصة يتم فيها تبديل الإقطاع أو الزيادة عليه أو تجديده[٤] فكانت المناشير التي تكتب في هذه الحالات ذات صيغ خاصة وعرفت باسم الحالات التي صدرت لأجلها كالتجديدات والزيادات والتعريفات[٥].

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ١٦٤، السحماوي، الثغر الباسم، ص ٨٣٨، طرخان، النظم الإقطاعية، ص ١٢٤، وحول مناشير اقطاعات التركمان على وجه الخصوص انظر : المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٣١.

[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ١٦٤، ١٦٦، السحماوي، الثغر الباسم، ص ٨٣٨، طرخان، النظم الإقطاعية، ص ١٢٤.

[٣] طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص ٢١٨.

[٤] انظر أمثلة على هذه الحالات عند : بيبرس الدوادار، زبدة الفكره، ص ٤٢٤، النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص ٩٥ و ج ٣١، ص ١٨٤، طرخان، النظم الإقطاعية، ص ٢٦١، ٢٦٩.

[٥] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ١٦٦.

ووجدت حالات أخرى وهي حالات طارئة كتبت المناشير على أثرها تمثلت في المعارك أو في الحملات العسكرية التي كان يقودها السلاطين المماليك ضد الفرنجة (الصليبيين) أو ضد المغول، ففي سنة (٦٦١هـ/١٢٦٣م) وأثناء إشراف السلطان الظاهر بيبرس على تحصين المدن الشامية ضد الفرنج توقف في مدينة الناصرة ليلاً وفي خيمة أُعدّت له اجتمع بين يديه وزيره الصاحب فخر الدين بن حنا ورئيس ديوان الإنشاء فخر الدين بن لقمان وعدد من موظفي الديوان وعدد من موظفي ديوان الجيش وذلك بغرض كتابة المثالات والمناشير "فكتب بين يديه في تلك الليلة ستة وخمسون منشوراً كباراً بخطب لأمراء كبار"[١].

كما قام الظاهر بيبرس بمنح الاقطاعات لمن أبلى بلاءً حسناً في المعارك التي خاضها مع المغول؛ فحين هزمهم في موقعة البيرة سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٥م) كافأ المقاتلين وكتب أمثلة باقطاعات لمن قاتل في المعركة[٢].

الإعفاء من الخدمة العسكرية

تعامل السلاطين المماليك مع حالات تسريح الأمراء والأجناد من الخدمة العسكرية وفق إجراءات خاصة تتمثل بإعطاء الفرد منهم أحد صفتين هما: البطال[٣] أو الطرخان[٤] وقد تشابهت هاتين الصفتان من حيث المعنى الاصطلاحي حيث يترتب عليهما استرجاع الاقطاعات واستبدالها

---

[١] المقريزي، السلوك، ج١، ص ٢، ص ٤٩٠.

[٢] النويري، نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٢٦٣- ٢٦٤.

[٣] البطال في اللغة من بطل الشيء ذهب ضياعاً وخسراً، والإبطال إفساد الشيء وإزالته. وبطل الذخير من حد نصر بطالة أي تعطل فهو بطال، انظر : الزبيدي مادة بطل.

[٤] كلمة تركية عرفت عند المغول منذ أيام جنكيز خان والطراخين هم المعفيون من الإسهامات العسكرية الإجبارية للمزيد انظر: Ayallon, D: The Mamluk Military society, collected studies, London, 1979, p 29- 32.

برواتب أو مخصصات[1] كما تزامن ذلك مع نفي بعضهم أو إلزام البعض الآخر بالإقامة في أماكن محددة.

أطلق مصطلح البطال على الأمير أو الجندي الذي أعفي من الخدمة نتيجة غضب السلطان عليه ومن الأمثلة على ذلك حادثة عزل الأمير علم الدين سنجر الجاولي الاستادار من وظيفته ونفيه إلى دمشق بطالاً وذلك سنة (٧٠٦هـ/١٣٠٧م) [2] ومن الأمثلة على الأجناد البطالين أحد الجند ويدعى فخر الدين محمد بن ملكسيو الدمشقي وبحسب المؤرخ ابن الفرات كان له مكانه عند صلاح الدين الأيوبي وفي العصر المملوكي بَطُلَ من الخدمة زمن السلطان الظاهر بيبرس ولم يزل بطالاً إلى أن توفي سنة (٦٧٤هـ/١٢٧٦م) [3] ومن الأمثلة الأخرى أيضاً جماعة من الجند البطالين ألزموا بالبقاء في القاهرة في حدود سنة (٧١٤هـ/١٣١٤م) إلا أنهم تمكنوا من الهرب إلى المغرب[4].

إضافة إلى هذه الحالات التي أوجبت الإعفاء من الخدمة وجدت حالات طالب فيها الأمراء أنفسهم بأن يتم إعفاؤهم مثل الأمير سيف الدين كراي المنصوري الذي "سأل الإعفاء من الإمرة"[5].

---

(١) انظر : دهمان معجم الألفاظ التاريخية، ص ٦٦ حيث عرف الخبز بأنه الراتب والمخصصات وتجمع على أخباز ولكن المصادر التاريخية تشير إلى أن خبز الأمير هو ما يجنيه من الاقطاعات الممنوحة له فعلى سبيل المثال أشارت المصادر بعبارة : قطع خبز الأمير الكبير بدر الدين بكتاش عند إخراج إقطاعه أنظر المقريزي، السلوك، ج٢، ص ١، ص ١٨، وانظر نفس الحادثة : أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٣٩٤، ابن الوردي، التاريخ، ج٢، ص ٢٤٧.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ١، ص ٢٦. وانظر : النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص ٨٨. وقد استكمل كلا المؤرخين الرواية بالقول : "ثم أنعم عليه بعد وصوله إلى دمشق بإمرة طبلخاناه".

(٣) ابن الفرات، التاريخ، مج ٧، ص ٦٢.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص ١٦٥، .Ayallon, The Mamluk Military, p 39

(٥) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ١، ص ٣٧. وقد كانت الحادثة سنة (٧٠٧هـ/١٣٠٨م) ولم يستمر كراي بطالاً حيث أنعم عليه بالإمره وولي نيابة دمشق، انظر : أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٣٩٤، أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٢٤٧.

أما مصطلح الطرخان فقد أطلق على الأمير الذي أُعفي من الخدمة بسبب كبر سنه أو ضعفه ونظراً للصبغة الرسمية للطرفانيات والأسباب الموجبة لإعفاء الأمراء من الخدمة ينظر إليها بأنها مرتبة أكثر احتراماً وبأنها تشكل نوعاً من الإحالة على المعاش[1].

وكانت الطرخانيه وثيقة رسمية تعطى للأمير بعد تسريحه من الخدمة العسكرية وبحسب القلقشندي يستطيع من خلالها "أن يقيم حيث شاء ويرتحل متى شاء تارة بمعلوم يتناوله مجاناً وتارةً بغير معلوم"[2] أي أنه ينفق على نفسه أحياناً من خلال راتب أو من خلال إقطاع يمنح له كما أنه يحتفظ بلقب أمير[3].

وتتسم حالات إصدار الطرخانيات بندرتها وعدم مطابقتها للأسس الواردة في الوثيقة مثل حادثة الأمير سيف الدين طاز الذي أفرج عنه من السجن سنة (٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م) ونفي إلى القدس ثم "جاء تقليده* بأن يكون طرخاناً، ينزل حيث شاء من بلاد السلطان، غير أنه لا يدخل ... مصر"[4].

وتجدر الإشارة إلى وجود وظائف عسكرية كان لموظفيها دوراً هاماً في الحياة السياسية والإدارية في العصر المملوكي ولكنها تخرج عن الإطار الخاص بهذه الدراسة فلم ترد حولها نصوص رسائل ديوانية أو أن ما ورد كان رسائل لموظفين تولوا خارج القاهرة مثل نيابات الشام.

---

(١) Ayallon, The Manluk Militany p. 25, 31.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٥١، البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٣٠، طرخان، النظم الإقطاعية، ص ٢٧٥– ٢٧٦.

(٣) طرخان النظم الإقطاعية، ص ٢٧٥– ٢٧٦.

* التقليد هنا للإشارة إلى الصفة الرسمية وهو غير تقليد التعيين.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص ٣٠.

جـ- الوظائف الديوانية (أرباب الأقلام)

١- الوزير

تشير المصادر التاريخية المملوكية، إلى أن منصب الوزارة تراجع نتيجة وجود نائب السلطنة، وهذا ما عبر عنه القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) عن منصب الوزير قائلاً: "وهي أجلّ الوظائف وأرفعها رتبة في الحقيقة"[١].

وقد أشار ابن الفضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م) إلى تراجع الوزارة إلى الوراء قائلاً: "وربّها (صاحبها) ثاني السلطان لو أنصفت وعرفه حقه، لكنها لما حدثت عليها النيابة تأخرت وقعد بها مكانها"[٢]. بل بلغ فيه الأمر أن يصبح كناظر المال، ولا تمتد يده في الولاية والعزل[٣].

وثمة ملاحظة أخرى أن وزراء عهد السلطان الظاهر بيبرس وأبنائه من (٦٥٩- ٦٧٨هـ/ ١٢٦١- ١٢٨٠م). أعطيت لهم صلاحيات واسعة، ومنهم الوزير بهاء الدين علي بن عمر بن حنا[٤].

وكذلك الوزراء في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، فكان ابن السعلوس[٥] أشهر من تولى هذا المنصب وكان في منصب الوزارة سنة (٦٩٠هـ/ ٢٠٩١م) [٦].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٨؛ الطرسوسي، نجم الدين إبراهيم بن علي (ت٧٥٨هـ)، تحفة الترك في ما يجب أن يُعمل في المُلك، تحقيق ودراسة: رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٢م، تحفة الترك، ص٨٩. وسيشار له: الطرسوسي، تحفة الترك.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٨؛ عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص٢٨٢.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٨؛ العريس، موسوعة التاريخ المملوكي، ص٩٦.

(٤) ابن حنا، استوزره السلطان الظاهر سنة ٦٥٩هـ - ٦٧٧ حين وفاته، وفوض إليه الظاهر المملكة، وساس الأحوال وكان محسناً إلى الفقراء، ولم تزل حرمته وافرة وكلمته نافذة، أنظر البرزالي، المقتضى على الروضتين، ج١، ص ٤٤٢- ٤٤٣.

(٥) ابن السلعوس: هو الصاحب شمس الدين محمد بن فخر الدين عثمان بن أبي الرجابن السلعوس، كان تاجراً في دمشق، ثم عين تقليد وزيراً، وكانت الوزارة في عهد تتعدى صلاحيات واسعة واستخف بالناس، انظر البرازالي، المقتضى على الروضتين، ج٢، ص ١٥٦ - ٢١٧.

(٦) النويري، نهاية الأرب، جزء ٣١، ص ١٩١. وانظر : نص التقليد ص ١٨٩/ ١٩٠.

ولما آلت السلطنة إلى السلطان الملك محمد بن قلاوون في سلطنة الثالثة (٧٠٩-٧٤٠هـ/١٣١٠- ١٣٣٩م) عين خمسة وزراء على التوالي قبل أن يقوم بإلغاء الوزارة، كما ألغى نيابة السلطنة[١]. وكان آخر وزرائه هو الأمير علاء الدين مغلطاي[٢] من أرباب السيوف، تم تعيينه في سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م إلى سنة ٦٢٩هـ/ ١٣٢٩م، حيث ألغيت الوزارة، ثم أعيدت بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ولكنها فقدت مكانتها التاريخية[٣].

كانت الوزارة في العصر المملوكي على نوعين: النوع الأول: وزير صحبة، وهو الذي يرافق السلطان في أسفاره، وحجه، وحروبه، وكان يعين من أرباب الأقلام، وهو الذي يصرّف شؤون الوزارة[٤]. **والنوع الثاني:** الوزير الذي كان يختار من أرباب السيوف وهو وزير الحضرة إذ كان يحضر مجالس السلطان، ومعه صلاحيات تصريف شؤون الدولة، ويدق على بابه الطبلخاناه[٥].

ومن خلال مطالعتنا للتقاليد الصادرة للوزراء في الدولة المملوكية كان هناك صلاحيات للوزير يقوم بها أثناء توليه الوزارة وهي:

المهام الإدارية والسياسية للوزير:

أشارت المصادر المملوكية إلى أن الوزير كان يتولى المهام التالية:

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٢٠.

(٢) الامير علاء الدين مغلطاي، حج بالركب المصري سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م وتولى نيابة حلب في ٦٣١هـ/١٣٣٠م، أنظر المقريزي، السلوك، ج٣، ص٧، ٦٦، ٧٥، ١١٥.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص١٣٤؛ السيوطي المصدر السابق، ج٢، ص٢٢٠.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٣١، المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، حاشية، رقم (٢)، ص٦٢٧.

(٥) دق الطبلخاناة: وتدق على بابهم الموسيقى وتكون الطبلخاناة في القلعة صحبة السلطان في اسفاره أنظر ابن طولون، نقد الطالب لزغل المناصب، ص٦٢؛ الدباغ، الموجز في تاريخ الدول الإسلامية، ط٣، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١، ص٢٠٣.

١- النظر في أحوال الدولة وقواتها ودواوينها

كلف السلطان الوزير بموجب التقليد أن ينظر في الأقاليم في كل شؤونها من قوانين ودواوين وحساب[١].

٢- تحري الأفضل عند التولية والتحقق عند العزل[٢]

ومما جاء في نص أحد التقاليد: "فلا تمضي في ذلك ولاية ولا عزل، ولا منع ولا بذل، ولا عقة ولا حل، إلا وهو معدوق بآرائه، متوقف على تنفيذه وإمضائه"[٣] وجاء في تقليد آخر "ولا يمضي عزلاً ولا ولاية إلا بعد تتبعه الواجب في ذلك"[٤].

٣- اختيار الولاة والنواب من أصحاب الكفاءة

تضمنت التقاليد التي أعطيت للوزراء مطالبة من السلاطين بأن يحسنوا اختيار نواب الأقاليم والموظفين من أصحاب الرأي والقدرة، وفي نسخة تقليد الوزارة للصاحب تاج الدين محمد بن معز الدين سنة (٦٩٣هـ/ ١٢٩٢م) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ما يشير إلى ذلك حيث جاء فيه: "والمطلوب لهذا الدستور الذي تعين له دون الأكفاء وإن لم يكن غير أهله من أهله"[٥]. كما اشتملت الوصايا التي تعطى للوزراء على ضرورة اختيار الكفاة الأمناء، وتجنب الخونة وإن كانوا ذوي غناء[٦].

---

(١) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ٤١٧؛ صبح الأعشى، المصدر السابق، ج١١، ص٢٧٧.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص٢٨٤.

(٣) ابن فضل الله العمري التعريف، ص١٢٤؛ وانظر النص عند القلقشندي، صبح الأعشى، ح١١، ص٢٧٨.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص٢٧٣، وانظر ج١١، ص٢٨٧.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص٢٧٢، وانظر: النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص٤٦٤.

(٦) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٢٤.

٤- **مراقبة الولاة وأصحاب الأقاليم**

طالب السلطان الوزير أن يكون عادلاً ويراقب ولاة الأمور؛ ففي أحد نصوص التقاليد ورد قوله: "ويمنع الولاة من ظلم الرعايا باعتبار أحوالهم دون أقوالهم".

٥- **الاهتمام بالقضاة وولاة الحكم**

حثت التقاليد التي قلد بها الوزراء الوزارة على الاهتمام بالقضاة وولاة الأحكام والعناية برتبهم وبأمواله فلا تعطى الرتب العالية إلا لمن هو أهل لها[١]، وهذا يكون مقابل شروط على القضاة الالتزام بها حددها العسقلاني وهي[٢]:

١. أن لا يتخذوا حجاباً ولا بوابين يمنعون الناس.
٢. أن يجلسوا بأواوين المدارس حتى في أيام الجمع للفصل في القضايا الشرعية.
٣. الالتزام بدار العدل وعدم المغادرة إلاّ بعذر.
٤. الاهتمام بدار العدل وعدم المغادرة إلاّ بعذر.

المهام الاقتصادية للوزير

ورد كثير من الإشارات إلى الصلاحيات الاقتصادية في تقليد أي وزير من قبل السلاطين المماليك وتتمثل بما يلي:

١- **النظر في الأموال العامة للدولة**

وردت إشارات إلى هذه المهمة في تقليد الصاحب بهاء الدين بن حنا في سنة ٦٩٣هـ/ ١٣٩٢م الذي صدر على لسان السلطان الناصر محمد بن قلاوون ورد ما نصه: "وله النظر في أحوالها وأموالها. ومراتبها ورواتبها وتعريفها ومعروفها"[٣].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص٢٨٣.

(٢) العسقلاني، الفضل المأثور، ص١٣١.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص٢٦٨، ٢٧٦- ٢٨١.

٢- **تنزيه العساكر عن أكل الحرام:** ووردت الإشارة إلى ذلك بالقول: "ويتجنب إطعام الجند منه فإن الدرهم الحرام ما يقاتل"[١].

المهام العسكرية للوزير

وتشمل الأمور التالية:

١. الاهتمام بالثغور وحصون المسلمين[٢].

٢. رعاية الجيش والجند[٣].

٣. النظر في مصالح كل إقليم وتوفير الجند له وإن يكون هؤلاء الجنود على أهبة الاستعداد[٤].

٤. عدم التعرض إلى أرزاق الجنود من الرواتب والجامكية (مرتب ثابت من الطعام وغيره) [٥].

٥. الإكثار من العسس بالليل[٦].

٢- كاتب السر

سبقت الإشارة إلى المحطات التي مرت بها رئاسة ديوان الإنشاء وظهور مسمى كاتب السر ونعنى في هذا الموضع من الدراسة بتسليط الضوء على تصنيف أصحاب هذه الوظيفة واستخلاص المزيد من المهام الموكولة إليهم.

---

(١) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصلح الشريف، ص١٢٤، وانظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص٢٨٧.

(٢) أنظر نص تقليد بهاء الدين بن حنا عند السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢١٧- ٢١٨؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص٢١٨. وانظر القلقشندي، المصدر السابق، ج١١، ص٢٦٨.

(٣) انظر نص تقليد عند القلقشندي، ص٢٧٨ السبكي، معيد النعم، ص٢٧.

(٤) انظر القلقشندي صبح الأعشى، ج١١، ص٢٨٣.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص٢٧٨ السبكي معبد النعم، ص٢٧.

(٦) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص٢٨٣.

عين كتّاب السر –وكما مر سابقاً– بموجب تقليد، ومن الأمثلة على ذلك ما صـــدر للقاضـــي شهاب الدين بن فضل الله العمري بكتابة السر، والذي جاء فيه: "فلذلك رُســم بـــالأمر الـــشريف. وليبسط قلمه في تنفيذ مهمّ الممالك من نهيه وأمره، وليحفظ ما أودعه من خفـــيّ ســـرّه، ولـــيلاحظ المهمات بفكره، وليحافظ على ما يعرفه من رضانا طول دهره"[١].

وكانت المهمة الرئيسية لكتّاب السر تتمثل بتسلم الكتب الواردة إلى السلطان، وكتابة أجوبته، وأخذ خط السلطان عليها، وتصريف المراسيم، وروداً وصدوراً، والجلوس لقراءة القصص بـــدار العدل والتوقيع عليها، بعد إيصالها للسلطان وتوضيحها له وتنظيم كل الكتّاب في ديـــوان الإنـــشاء وأهم ما يختص به كاتب السر هو كتم سر السلطان[٢].

٣- ناظر الجيش

كانت وظيفة ناظر الجيش من الوظائف الهامة في الدولة المملوكية، وصاحب هذه الوظيفة يتم تنصيبه بموجب توقيع من السلطان. ويختص بالنظر في الاقطاعات في مصر والشام[٣]، وقـــد اهتم المماليك بهذا المنصب وبمن سيتولاه، ومما دل على أهميته أنه كان يتم اختيار الفقهاء والقضاة ليتولوا هذا المنصب[٤].

وكان يساعد ناظر الجيش في عمله موظف كبير عرف باسم نقيب الجيش، وكان من مهامـــه احضار أي جندي يطلبه السلطان ويتولى تجهيز المواكب السلطانية[٥].

---

(١) بيبرس الدادر، ص٤١٨، المريزي، المصدر السابق، ج٢، قسم، ١، ص٢٧.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٤٢، عقد الجمان، ج٢، ص٢٦٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٣١٥- ٣١٦.

(٤) النعيمي، محي الدين عبد القادر بن محمد بن عمر، الدارس في تاريخ المدراس، فهرست: محمد إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، ج١، ص ٣٢٧. وسيشار له : النعيمي، الدارس.

(٥) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٣٣.

وكان يطلق لقب العسكر على نقيب الجيش وكانت هذه الوظيفة تتم بتعيين مباشر من السلطان نفسه الذي كان يدقق في اختيار نقيب الجيوش، ومما كان يوكل إليه كـذلك إمـرة موكـب الحـج أيضاً[1].

ومما ورد في بعض التواقيع الخاصة بناظر الجيش والصادرة على لسان السلطان: "فليباشر هذه الوظيفة المباركة، وليحُلَ ذراها الأسمى، ولجمل اطلاعه على الجيوش المنـصورة حتـى لا يغادر منها اسماً. محرراً للاقطاعات وعلم خفاياها فيما نَهِبُه ونقطعه، ونصله ونقطعه..." [2].

وتتلخص المهام الموكلة إلى ناظر الجيش بما يلي[3]:

- تسلم الأوراق الخاصة بالإقطاع من البلاد المختلفة، لأنه الشخصية الأولى بعد السلطان في أمور الإقطاع.
- تحري الدقة في مقادير الاقطاعات بأرجاء الدولة المملوكية، والتشاور مـع الـسلطان بـشأنها والعناية بها.

٤- ناظر الخاص

وعرف أيضاً بناظر المال وهذه الوظيفة مُحدثة أحدثها السلطان الناصر محمد بن قـلاوون حين أبطل الوزارة، ويتم تعيين صاحبها بموجب توقيع، وكانت مهمته ضبط واردات الدولة ونفقاتها ولا يلي هذه الوظيفة إلا ذو العدالة البارزة من أهل العلم والديانة. كما أنه موكل بالتحدث فيما هـو

---

(١) ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد (ت ٨٥٢هـ/١٣٦١م)، الدرر الكامنـة فـي أعيـان المائة الثامنة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٠م، ج١، ص٤١٦. وسيشار له : ابن حجـر، الـدرر الكامنة.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ٣١٥- ٣١٦.

(٣) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٢٠- ١٢١؛ طرخان، النظم الاقطاعية، ص ١١٩.

خاص بمال السلطان، لذا أصبح متوليها كالوزير لقربه من السلطان وتصرفه في تدبير جملة الأمور[1].

ومن التواقيع الواردة ما نصه: "فليباشر محاققاً على حقوق بيت المال حيث كانت محاققة من يعلم أنه مطلوب بذلك من جميع الأمة. مجرياً عوائد الحسبة على ما ألف من تدبيره، وعُرف من إتقانه وتحريره..." [2].

وكذلك ما كُتب به للقاضي شمس الدين موسى بن عبد الوهاب في الأيام الناصرية ومما ورد في هذا التوقيع: "وليقدم تقوى الله والأمانة فهما أفضل ما يقدم. وليحتفظ على الخزائن العالية. وليثمّر الجهات التي إليه مرجعها، والأموال التي يدوم إليه من العيّ تطلعها..."[3].

وفي توقيع آخر لنظر المال: "فليباشر هذا المنصب الكريم بتدبيرٍ يصلح الفاسد، وينفق الكاسد، ويكبت الحاسد، ويكثّر الأموال، ويسعد الأحوال، ويثمّر الذخائر، ويسر السرائر..."[4].

د- الوظائف الدينية

رتب القلقشندي الوظائف الجليلة، التي اضطلع بها العلماء دون غيرهم فذكر منها[5]:

- قضاء العسكر، وعين له أربعة قضاة على المذاهب الأربعة.
- إفتاء دار العدل وهي الجلوس في دار العدل لحل الخصومات.
- الحسبة ووكالة بيت المال، وهي كما ذكر القلقشندي وظيفة "عظيمة الشأن رفيعة المقدار".
- الخطابة وهي من أنفس الوظائف على حد قول القلقشندي.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ٣١٠.
(2) المصدر نفسه، ج١١، ص ٢١٦-٢١٧.
(3) المصدر نفسه، ج١٢، ص ٣١٠- ٣١٢.
(4) المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٣١٣- ٣١٤.
(5) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤.

- الإمامة بالجوامع والمساجد والمدارس والتدريس بأنواعه.

وكان العلماء هم الصفوة الذي يتولون الوظائف الإدارية، والاجتماعية، والدينيـة، وكانـت وظائفهم ترتبط بجميع شرائح المجتمع، بحكم امتداد الشرع والفقه في الشؤون الاجتماعية، والعائلية والتجارية والتعليمية والإدارية وغيرها من المجالات[١].

وقد ذكر ابن تغري بردي أن العلماء والفقهاء، أسندت إليهم وظائف ديوانية كديوان الإنـشاء وكاتب السر في السلطنة، وكذلك وكالة بيت المال وهي وظيفة عظيمة الشأن موضوعها التحـدث فيما يتعلق بالمبيعات والمشتريات من مصالح، وهي وظائف غاية في السمو والأهمية[٢].

١- قاضي القضاة

عمد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عام (٦٦٣هـ/١٢٦٥م) إلى تعيـين أربعـة قـضاة للمذاهب السنية الأربعة، وقد جاء هذا التعيين على حساب المذهب الشافعي، المذهب الرسمي الوحيد للدولتين الأيوبية والمملوكية[٣].

وكما هو الحال في مصر كان الأمر مشابهاً في نيابات الشام الأخرى، فقد عين فيها القـضاة على المذاهب الأربعة وقد أسند القاضي الشافعي بدمشق تعيين القضاة في باقي نيابات الشام[٤].

---

(١) لابدوس، ايرا، مدن الشام في العصر المملوكي، نقله إلى العربية وقدم له : سهيل زكار، دار الاحسان، دمـشق ١٩٨٥، ص ١٧٤. وسيشار له : لابدوس، مدن الشام؛ زيادة، نقولا، دمشق في العصر المملـوكي، مؤسـسة فرنكلن للنر، نيويورك وبيروت، ١٩٦٦م، ص ١٥٦. وسيشار له : زيادة، دمشق.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٢، ص ٣٤١.

(٣) المقدسي، أبو حامد محب الدين بن خليل (ت ٨٨٨هـ/١٤٨٣م)، دول الاسلام الشريفة البهية، تحقيق: صـبحي لبيب، المتحدة للنشر، د. م، ١٩٩٧، ص ٣٥. وسيشار له : المقدسي، دول الاسلام الشريفة؛ شبارو، عـصام، القضاء في الاسلام، دار النهضة العربية بيروت، ١٩٩٥، ص ٤٤. وسيشار له : شبارو، القضاء في الاسلام.

(٤) ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص ٣٨؛ عاشور، العصر المماليكي، ص ٢٠٧.

وقد تحولت مناصب القضاة الأربعة، في الشام، إلى مؤسسة رسمية، سميت (بالمجلس السامي) الذي يتبع مؤسسة القضاء في مصر، والتي سميت (بالمجلس العالي)، وكان لها نفوذ كبير في الدولة والمجتمع[1].

ومارس قاضي القضاة إلى جانب منصب القضاء مهمات مثل تعيين القضاة وعزلهم، ومحاكمة الوزراء، وتسطير كتب بيعة وخلع الخلفاء، وعقد زواج السلاطين والخلفاء والأمراء، وأحياناً يتولون الحسبة والنظر في المظالم، فضلاً عن الفتيا[2].

٢- المحتسب

الحسبة هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله. وتقوم على مراقبة المصالح العامة للناس وخاصة الأسواق وكان تعيين المحتسب في الدولة المملوكية يتم بموجب توقيع، ومما ورد في بعض تواقيع المحتسبين: "ويمنع من يتعرض باليسار، إلى ما لهم بغير حق، أو يضيّق الاحتكار. ويعرفهم بالمحافظة على الحق في المعاملات قواعد تحريمها وتحليلها. ويأمر أهل الأسواق بإقامة الجماعات والجمع. وليحمل كلاً منهم على المعاملات الصحيح والعقود التي غدت لها الشريعة الشريفة مبيحة[3].

---

(١) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٠٦- ١٠٧.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ط٥، ج ١٤، ص ٢٦٢، ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق ودراسة: مصطفى عبد القادر عطاالله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ج٦، ص ٢٣٦؛ شبارو، القضاء في الاسلام، ص ١٠٧.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١١، ص ٢٠٨- ٢٠٩.

ثانياً: التنظيم الإداري في نيابات الشام

أ. نيابات الشام (أقسامها والسمات العامة لنيابة دمشق)

شملت بلاد الشام في العصر المملوكي سورية الطبيعية (وهي حالياً سوريا ولبنـــان والأردن وفلسطين) وتبدأ حدودها من الجنوب من العقبة[١] على البحر الأحمر ثم تتجه نحو الشمال الغربـــي لتصل إلى مدينة رفح على ساحل البحر المتوسط، أما المناطق الشرقية فمن العقبة جنوباً إلى نهــر الفرات عند مدينة الرحبة، ثم تنحرف إلى مدينة مرعش[٢] ومنها إلى طرسوس[٣] على ساحل البحر المتوسط، أما حدها من الشمال فهو جبال طوروس الفاصلة بين تركيا وبلاد الــشام، وتمتــد مــن الشمال إلى الجنوب ٨٥٠ كم ومن الشرق إلى الغرب مسافة ٣٥٠ كم أما ساحلها فطوله ٧٥٠ كــم ومساحتها ٤٠٠,٠٠٠ كم٢[٤].

---

(١) العقبة : مدينة على ساحل بحر القلزم " البحر الأحمر " مما يلي الشام، وهى أخر الحجاز وأول الــشام؛ يــاقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار صادر، بيــروت، ١٩٩٦، ج٢، ص ٢٩٢. وسيشار له: ياقوت، معجم البلدان.

(٢) مرعش: مدينة في الثغور بين بلاد الشام وبلاد الروم وبها حصن بناه مروان بن محمد آخر الخلفاء الأيــوبيين، ثم زيد في عمارتها أيام الخليفة هارون الرشيد. ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص ١٢٦.

(٣) طرسوس: مدينة بين أنطاكية وأذنة بنيت في عهد هارون الرشيد، وهي ثغر من ثغور المسلمين. ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣١– ٣٢، القرماني، أخبار الدول، ج٣، ص ٤١١.

(٤) الشلبي، فيصل، بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية الثانيــة (١٣٨١– ١٥١٧م) دار الزمــان، د. ن، ٢٠٠٨م، ص٧١. وسيشار له: الشلبي، بلاد الشام.

مرعش : مدينة في الثغور بين بلاد الشام وبلاد الروم وبها حصن بناه مروان بن محمد آخر الخلفاء الأيوبيين، ثم زيد في عمارتها أيام الخليفة هارون الرشيد. ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص ١٢٦.

طرسوس: مدينة بين أنطاكية وأذنة بنيت في عهد هارون الرشيد، وهي ثغر من ثغور المسلمين. ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣١– ٣٢، القرماني، أخبار الدول، ج٣، ص ٤١١.

وقد قام التقسيم الإداري لبلاد الشام على أساس نظام الوحدات الإدارية المعروفة بالنيابات وهو تقسيم يتفق مع طبيعة بلاد الشام الجغرافية وكان معروفاً في العصور السابقة للعصر المملوكي[١].

وقد ارتبط هذا التقسيم بعوامل تاريخية تمثلت بمراحل الصراع مع المغول ومع الفرنجة (الصليبيين)؛ فبعد انتصار المماليك على المغول في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م[٢] أنشئت اثنتان من أكبر نيابات الشام وهي دمشق وحلب سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م[٣]، ومع توالي اخضاع المدن الشامية لسيطرة المماليك قسمت بلاد الشام إلى ست نيابات اختلفت من حيث منزلتها. وتجمع المصادر المملوكية على أن نيابة دمشق كانت أجلّها وأكبرها. وأطلق عليها في كثير من الأحيان "مملكة الشام" و "نيابة الشام"[٤].

ونظراً لتفاوت منزلة نيابات الشام صُنِّفَت إلى نيابات كبار وهي إضافة إلى دمشق نيابة حلب، وصفد وطرابلس، وحماه والكرك[٥]. ثم تأتي في المرتبة الثانية كل من نيابة حمص ونيابة

---

(١) عاشور، سعيد، عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، ط٢، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٩م، ص٣٠٤ وسيشار له: عاشور، العصر المماليكي.

(٢) سالم، السيد عبد العزيز، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مطابع رمسيس، الإسكندرية، ١٩٧٦م، ص ٣٠٠، وسيشار له سالم، طرابلسل الشام، الزبيدي، العصر المملوكي، ص ١٩٣، العريس، موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٢١٥.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ص ٥١٨، ابن الوردي، التاريخ، ج٢، ص ٢٠٣، عاشور، مصر والشام، ص ٣٠٥.

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ٨٨، ٩٥، ٢٥٩، ٢٦٢، القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٢، ص ١٥٥، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٢، ابن كنان، المراكب الإسلامية، ص ٢، ٥، ٥٧، ١١٣- ١٣٦، بني يونس، ولاية البلقاء، ص ١١٠.

(٥) ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، ص ١١٧، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٥، ٢١٣، الزبيدي، مفيد، العصر المملوكي (٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٨- ١٥١٧م) دار أسامة، عمان، ٢٠٠٣م، ص ١٩٣، وسيشار له : الزبيدي، العصر المملوكي.

غزة[١]، وكانت هذه النيابات تقسم بدورها إلى أقسام أصغر أطلق عليها حسب تعبير القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨هـ) اسم النيابات الصغار[٢]. ويتبع النيابات الكبرى أو الصغرى وحدات إدارية أطلق عليها اسم ولايات أو أعمال[٣].

وضَمت نيابة دمشق عدة نيابات صغيرة وولايات[٤]، مثل القدس[٥] وصرخد وعجلون[٦] وبعلبك[٧] ومصياف[٨] والرحبة[٩]، أما ولايات دمشق فهي الرملة[١٠] وبيسان[١١]

---

(١) ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، ص ١٩٤، ٢١٦.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٢، ص ٧٢٦، بني يونس، ولاية البلقاء واستدارية الأغوار، ص ١١٠.

(٣) ابن فضل الله العمري، مسالك الإبصار، ص ٢١٢- ٢١٥، البخيت محمد عدنان، مملكة الكرك في العهد المملوكي، (د.ن)، عمان، ١٩٧٦م، ص ١٣. وسيشار له: البخيت، مملكة الكرك.

(٤) ابن فضل العمري، مسالك الأبصار، ص ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠- ١٩١، عاشور، مصر والشام ص ٣٠٤- ٣٠٥، العريش، العصر المملوكي، ص ٢١٥، الشلبي، بلاد الشام، ص ٧٩- ٨١.

(٥) أصبحت القدس نيابة في سنة ٧٧٧هـ/ ١٢٧٥م ونيابتها امرة طبلخاناه. انظر : القلقشندي، صبح الأعشى، ص ١٩٩؛ غوانمة، تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الزرقاء، ١٩٨٢، ص ١٦. وسيشار له : غوانمة، نيابة بيت المقدس.

(٦) عجلون : من أعمال الأردن تقع على جبل يسمى عوف، وحدوده من القبلة وادي الزرقاء الفاصل بين بلد" عجلون "وبين بلد الصلت، فكل ما هو في قبليه فمن عمل " الصلت" ، وكل ما هو من شماليه من عمل" عجلون " ومن الشرق ينتهي بعضه إلى بلاد تعرف " بالحبابية " من أعمال "عجلون " ، وليست من جبل عوف .ولكنها داخلة في الولاية، ابن شداد، عز الدين، الأعلاق الخطيرة، ج١، ص٧.

(٧) بعلبك: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام من جهة الساحل، ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٤٥٣.

(٨) مصياف: هي بلدة جليلة و بها أنهر صغار من أعين و لها بساتين، و لها قلعة حصينة وهي مركز الدعوة الإسماعيلية، ومصياف عن بارين "بعرين" في جهة الشمال على مسافة فرسخ، وعن حماه من جهة الغرب مسير يوم. أبو الفداء الأيوبي، تقويم البلدان، ٣٣٩.

(٩) الرحبةُ: هي قرية من قرى دمشق، بينها وبين دمشق يوم، ياقوت، معجم البلدان،ج ، ص٣.

(١٠) الرملة: مدينة قديمة وجدت في العصر البيزنطي، جدد بناءها سليمان بن عبد الملك عندما كان أميرا على فلسطين؛ قيل سماها بهذا الاسم لكثرة وتعد الممر الذي يصل مدينة يافا بالقدس، اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٤٢٤هـ/٨٩٦م) كتاب البلدان، وضع حواشيه وعلق عليه محمد أمين ضناوي، ط ١، دار الكتب العلمية ، بيروت، ٢٠٠ م، ص ١١٦ .

(١١) بيسان: مدينة في غورالشام وهى مدينة عربية كنعانية دعاها الكنعانيون" بيت شان" . ياقوت، مجم البلدان، ج١، ص٥٢٧.

والبقاع[١] والبلقاء[٢] وبيروت وصيدا[٣] وقارا[٤] وعمل بانياس[٥]، والشعراء، ونوى[٦]، وإذرعات[٧]، وبصرى[٨]، وزرع[٩].

أما نيابة حلب فلها أهميتها لوقوعها في الأجزاء الشمالية للدولة المملوكية وهي محور للعلاقات المتوترة بين المماليك من جهة وجيرانهم التركمان والمغول والعثمانيين من جهة ثانية[١٠].

وتضم حلب مجموعة من النيابات الصغرى أهمها[١١] نيابة شيزر وبهنسه، وقلعة الروم، والرُها، وكركر[١٢] أما ودريكي، ودرندة، والابلستين وإياس وملطية[١٣] وطرطوس وأذنه فكلها داخل بلاد الأرمن[١٤].

---

(١) البِقَاع :جمع بقعة .موضع يقال له بقاع كلب قريب من دمشق وهو أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق فيها قرى كثيرة، ابن شداد، الأعلاق ، ج١، ص٦٧.

(٢) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبتها عمان وفيها قرى كثيرة، ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٥٨٠.

(٣) صيدا : مدينة فيف نيقية قديمة تقع على ساحل البحر المتوسط، وصفها الجغرافيون العرب بأنها مدينة كبيرة عامره الأسواق رخيصة الأثمان محدقة البساتين والأشجار، وهى متصلة بجبل لبنان خضعت للسيطرة الصليبية ٥٠٤ هـ/ ١١١٠م وأصبحت . إقطاعية صليبية. ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) ذيل تاريخ دمشق، ط1 ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت، ١٩٠٨م، ص١٧١.

(٤) قارا : قرية كبيرة والمنزل الأول من حمص المقاصد إلى دمشق، وكانت آخر حدود حمص .ياقوت، معجم البلدان،ج٢، ص١٦٨.

(٥) بانياس : كورةٌ ومدينةٌ صغيرةٌ وحصنٌ بسواحل حمص على البحر، ولعلّها سُمِّيت باسم الحكيم بلنياس صاحب الطلمسات" ياقوت، معجم البلدان، ج١ص٤٨٩.

(٦) نوى: قرية في الشام من أعمال دمشق، ياقوت، معجم البلدان،ج٣ص٥٦.

(٧) أذرعات: بالفتح ثم السكون وكسر الراء وعين مهملة وألف وتاء. كأنه جمع أذرِعة جمع ذراع جمعُ قلة. وهو بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعَمان ينسب إليه الخمر، ياقوت، معجم البلدان،ج١، ص١٤٧.

(٨) بصرى: مدنة بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران. ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٤٤١.

(٩) زرع: زرّا التي تدعى اليوم زرع من أعمال حوران. ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص١٣٥.

(١٠) العريس، موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٢١٦، الزبيدي، العصر المملوكي، ص ١٩٤.

(١١) حمزة، عادل، نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٥٣– ٥٥. وسيشار له: حمزة، نيابة حلب.

(١٢) كركر: حصن قرب ملطية بينها وبين آمد، وكركر أيضاً حصن .بين سميساط، وحصن زياد، ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٥١٥.

(١٣) ملطية: مدينة تقع في الحوض الأعلى لنهر الفرات، وكانت من الثغور الشامية، تقع شمالي (سميساط). منها كانت تنطلق الصوائف لغزو بلاد الروم. هدمها الروم وجدد بناءها هارون الرشيد، ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص ٢١٠.

(١٤) حمزة، نيابة حلب، ص ٥٤– ٥٥، الزبيدي، العصر المملوكي، ص ١٩٤.

أما نيابة طرابلس، فكانت تشمل عدد من النيابات الصغار مثل حـصن الأكـراد، وحـصن عكار[(١)]، ونيابة بلاطنس، وصهيون، واللاذقية[(٢)].

وشملت نيابة صفد عدة أعمال هي: ولاية (بر صفد)، ولاية تبنين[(٣)]، ولاية صـور، ولايـة الشقيف[(٤)].

أما نيابة حماة، فيتبعها ثلاث ولايات هي (بر حماه)، وبارين[(٥)]، والمعرة[(٦)] وأخيـراً نيابـة الكرك، وتضم أربعة أعمال وهي عمل (بر الكرك)، وعمل الـشوبك، وعمـل زغـر[(٧)]، وعمـل معان[(٨)].

---

(١) حصن عكار: هذا الحصن يقع على مسافة يوم من مدينة طرابلس نحو الشرق، قبل سمي باسم بانيه محرز بن عكار استو لى عليه الافرنج وبقي بيدهم حتى سقط بيد الظاهر بيبرس سنة (٦٦٩هـ)، أبو الفداء، المختـصر، ج٤، ص١٠.

حصن عكار: هذا الحصن يقع على مسافة يوم من مدينة طرابلس نحو الشرق، قبل سمي باسم بانيه محرز بن عكار استو لى عليه الافرنج وبقي بيدهم حتى سقط بيد الظاهر بيبرس سنة (٦٦٩هـ)، أبو الفداء، المختـصر، ج٤، ص١٠.

(٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ٢٠٢– ٢٠٥، عاشور، مصر والشام، ص ٣٠٧– ٣٠٨.

(٣) تبنين: قلعة تقع في مقابل مدينة صور على بعد عشر ة أميال إلى الجنوب الشرقي من مدينة بانيـاس ولقـد خضعت لهيئة فرسان الاسبتارية سنة ١١٥٧م وعندها كانت تفرض المكوس على تجارة العبور المـارة بتلـك المنطقة الخاضـعة للسيادة الصليبية. ابن جبير، محمد بن أحمد الكتاني (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، الرحلة المسماة تذكرة بالأخبار في ات فاقيات الأسفار، علق عليه إبراهيم شمس الـدين، ط ١، دار الكتـب العلميـة، بيـروت، ٢٠٠٣م، ص٢٣٤. وسيشار له: ابن جبير، الرحلة؛ الصوري، الصوري، وليم، تاريخ الحـروب الـصليبية، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣م، ج١، ص٥٢٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٥١، الطراونة، طه ثلجي، مملكة صفد في عهد المماليـك، دار الآفـاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٩٤– ٩٨، ١٠٤– ١٠٩. وسيشار له : الطراونة، مملكة صفد.

(٥) بارِين: بكسر الراء وياء ساكنة والنون، والعامة تقول بعرين، مدينة بين حلب وحماه من جهة الغـرب، يـاقوت، معجم البلدان، ج١، ص٣٨١.

(٦) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبـصار، ص ١٩٥– ١٩٧، القلقـشندي، صـبح الأعـشى، ج٤، ص ٢٣٩، جبران، نعمان محمود، مملكة حماة في العهدين الأيوبي والمملوكي الأول (٥٧٠–٧٨٣هـ/١١٧٤–١٣٨١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨١م، ص١٨. وسيشار له: جبران، مملكة حماة.

(٧) زغر: قرية بمشارف الشام، ياقوت، معجم البلدان،ج٣، ص١٤٣.

(٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٥٦– ١٥٧، البخيت، مملكـة الكـرك، ص ٢٦، الزبيـدي، العـصر المملوكي، ص ١٩٥.

أما حماة فقد ابقى المماليك على الايوبيين فيها حيث عفا المظفر قطز عن الملــك المنــصور الثاني الايوبي صاحب حماة وأقره على حكمها في عام (٦٥٩هــ/١٢٦١م) [١].

ولم تصبح حماة نيابة مملوكية إلا في سنة (٧٤٢هــ/ ١٣٤١م) [٢]، أي عنــد مــوت آخــر ملوكها من بني أيوب المؤيد على سنة (٧٤١-٧٤٢هــ/ ١٣٤٠- ١٣٤١م)، وأما نيابة الكرك فقــد أنشئت فــي ســنة (٦٦١هـــ/ ١٢٦٢م) [٣] ويرجــع تــاريخ إنــشاء نيابــة صــفد إلــى ســنة (٦٦٤هــ/١٢٦٦م)[٤] ومثلها نيابة طرابلس التي تأخرت إلى سنة (٦٨٨هــ/ ١٢٨٩م) حتــى تــم تحريرها من الصليبيين على يد السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨- ٦٨٩هــ/ ١٢٧٩- ١٢٨٩م) [٥]

وفي سياق الحديث عن أقسام نيابات الشام يأتي شرح سمات نيابة الشام (دمشق) والتي تتميز عن غيرها من نيابات الشام، وتتمثل هذه السمات بما يلي:

- سعة المناطق التابعة لنيابة الشام[٦] (دمشق) وقد أطلق عليها القلقشندي "مملكة الشام"[٧] وشــملت أجزاء كبيرة من الأراضي الأردنية والفلسطينية واللبنانية مــع مــا حولهــا مــن الأراضـــي السورية[١].

---

(١) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٢٤٥؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص ٥١٥؛ جبران، مملكة حماة، ص٨٣-٨٤.

(٢) ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص ٧٤٢؛ سبانوا، مملكة حماة، ص ١٣٤.

(٣) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ٨١؛ النقريزي، السلوك، ج١، ص ٥٥١؛ البخيت، مملكة الكرك، ص ٧٢.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦١؛ الطراونة، مملكة صفد، ص ٢٧١.

(٥) ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، ص ٢٠١- ٢٠٥؛ خرابشة، سليمان، نيابــة طــرابلس فــي العــصر المملوكي، الجامعة الاردنية، عمان، ١٩٩٣، ص ٩١. وسيشار له: خرابشة، نيابة طرابلس.

(٦) ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، ص ١٨٧- ١٩٥؛ ابن كنان، المواكــب الإســلامية، ج٢، ص ١٧- ٣٢.

(٧) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٢، ص ١٥٥- ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٢؛ بني يونس، ولاية البلقاء، ص ٢١٠.

- حاشية نائبها تماثل حاشية السلطان، ويعبر اليوسفي (٧٥٩هـ/١٣٥٨م) عن ذلك بقوله: "فعند زيارة السلطان إلى دمشق يشاهد حاشية سلطانية شبيهة بتلك الموجودة بمصر"[٢]. وهذا ما دعا ابن كنان الصالحي (ت ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م) إلى القول: "وللنائب من الحاشية مثل السلطان"[٣].

- مساواة الوظائف بدمشق مع مثيلتها بالقاهرة، وخصها ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م) بذلك حيث قال: "وليس هذا في بقية بلاد الشام"[٤] ثم قال: "حتى لو حضر السلطان إليها جريدة وجد بها كل الوظائف القائمة بدولته"[٥].

- تمتع نائب الشام بمميزات وصلاحيات لم تكن موجودة لأي نائب في بلاد الشام ومن هذه الميزات والصلاحيات:

١- أطلقت عليه المصادر المملوكية اسم "الكافل"[٦] ويخاطب بالمكاتبات السلطانية "بكافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس"[٧].

٢- أطلق على نائبها ملك الأمراء تمييزاً له عن بقية نواب الشام الآخرين لقيامه مقام السلطان، حيث يخدمه جميع الأمراء، مثلما يُخدم السلطان[٨] ومن النواب الذين حملوا هذا اللقب الأمير

---

(١) انظر: ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، ص ١٨٥- ١٩٥؛ ابن كنان، المواكب الإسلامية، ج٢، ص ١٧- ٣٢.

(٢) اليوسفي، نزهة الناظر، ص ٦٢- ٦٣.

(٣) ابن كنان، المواكب الإسلامية، ج٢، ص ١٧- ٣٢؛ وانظر: القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ١٩.

(٤) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٧٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٧٧.

(٦) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٨٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ٢٩.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٩١.

(٨) صالح بني يحيى، تاريخ بيروت، ص ٨٦؛ عاشور، نظم الحكم والإدارة، ص ٢٨٣.

تنكز بن عبد الله الحسامي[1]، الذي تولى نياية الشام مـن سـنة (٧١٢-٧٤٠هــ/ ٧١٢-١٠٧٧م) ويصف المقريزي الأمير تنكز بقوله: "وكان تنكز بزي الملـوك مـن العـصائب والكوسات ولم تجر عادة نائب قبله بذلك"[2].

٣- كان لنائبها الإمرة على الجيش المملوكي حيث تذكر المصادر المملوكية أن الأمير تنكز قاد الجيوش الشامية والمصرية وتبعه عسكر صفد وحمص وحماة وطرابلس[3] وفتح بها جميعاً ملطية في عام (٧١٥هـ/ ١٣١٥م) وبهذا الصدد يقول ابن كثير (ت ٧٧٤هـــ/ ١٣٧٢م): "وفي نهار الجمعة سادس عشر ربيع الأول دخل تنكز دمشق وفي خدمته الجيوش الـشامية والمصرية وخرج الناس للفرجة"[4].

٤- ربط جميع نواب الشام بنيابة دمشق؛ ففي سنة (٧١٤هـ/ ١٣١٤م) أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة (٧٠٩ – ٧٤٠هـ/ ١٣٠٨- ١٣٣٩م) مرسوماً سلطانياً إلى جميع نواب الشام وبموجب هذا المرسوم: "كتب لنواب حلب وحماة وحمص وطـرابلس وصفد بأن أحداً منهم لا يكاتب السلطان، وإنما يكاتب الأمير تنكز بن عبد الله نائب الـشام، ويكون هو المكاتب في أمرهم للسلطان"[5]، وعبر ابن حجر العسقلاني عن هذا الربط بقوله:

---

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص ٣٠٨- ٣١٠؛ ابن تغري بردي، النجـوم الزاهـرة، ج١٠، ص ٣٣٧؛ عاشور، مصر والشام، ص ٢٨٣.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٥٠١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص ٧٥؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٥٠١.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص ٧٥؛ وانظر : البرزالي، المقتضى علـى الروضـتين، ج٤، ص ١٨٧؛ دهمان، ولاة دمشق، ص ١٥٨.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٤٩٦؛ وانظر : ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص ٣٠٨- ٣١٠.

"وكتب له تفويض في جميع مملكة الشام وأن النـواب بأسـرها تكاتبـه بمـا يكاتبـه بـه السلطان"[1].

٥- التدخل في عزل بعض النواب: لما تمتع نائب دمشق بصلاحيات واسعة، أصبح النواب في بلاد الشام تحت سلطته، فمن رضي عنه بقي في نيابته ومن خالف عُزِلَ. وأمثلة على ذلك، عندما رفض نائب صفد الأمير سيف الدين بلبان سنة (٧١٢- ٧١٤هـ/ ١٣٩٢-١٣١٤م) أن يكاتب الأمير تنكز نائب الشام، فكتب به تنكز حتى عزل، وحمل مقيداً إلى القاهرة[2].

وفي سنة (٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م) شكا الأمير تنكز نائب الشام، الأمير طينال نائب طـرابلس عند السلطان فعزل من نيابة طرابلس "ونقل إلى نيابة غزة إهانة له"[3].

وفي سنة (٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م) خلع نائب صفد الأمير أرقطاي عن طريق نائـب الـشام الأمير تنكز[4].

٦- الزيارة السنوية للقاهرة: حظي نائب الشام بزيارة سنوية إلى عاصـمة الدولـة المملوكيـة القاهرة، وهذه الزيارة لم يحظَ بها النواب الآخرون وتتم هذه الزيارة بموجب مرسوم سلطاني يصدره السلطان ففي سنة (٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م) يشير ابن الجزري (ت ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م) إلى أن الأمير (سيف الدين تنكز قد سافر من دمشق إلى مصر يوم الأحد حادي عـشر ذي الحجة سنة تسع وعشرين بمرسوم سلطاني)[5].

---

[1] ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص ٣١٠.

[2] المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٤٢٦؛ الطراونة، مملكة صفد، ص ٢٧٥.

[3] المقريزي، السلوك، ج٣، ص ١٦٤- ١٦٥.

[4] المقريزي، السلوك، ج٣، ص ١٩٧؛ الطراونة، مملكة صفد، ص ٢٧٦.

[5] ابن الجزري، تاريخ حوادث الزمان، ص ٣٧٨؛ وانظر : اليوسفي، نزهة الناظر، ص ٦٤- ٦٥.

ب. الوظائف العسكرية في نيابات الشام

١- نائب السلطنة (في نيابات الشام)

كان على رأس كل نيابة نائباً للسلطنة، يقيم في مركز النيابة، مثل دمشق، وحلب، وصفد، وطرابلس، والكرك، وحمص وعجلون، والقدس مثلاً، ويتبع السلطنة المملوكية في القاهرة أو نائب الشام بدمشق، وبالتالي فهو سلطان مصغر أو سلطان مختصر[١].

ومن التقاليد الخاصة بنواب السلطنة ما ورد من تقليدٍ لنيابة السلطنة بصفد لسيف الدين الناصري[٢]، ومما جاء في نص التقليد: "فلذلك رسم بالأمر الشريف: أن نفوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة بصفد المحروسة، تفويضاً يُعلي قدره، ويمضي في عموم مصالحها وخصوصها نهيه وأمره، ويرعف في حفظ سواحلها وموانيها بيضه وحمره ... ويعمّر البلاد بالعدل"[٣].

ومن تلك التقاليد ما ورد أن الملك المنصور قلاوون ولّى الأمير علم الدين سنجر المنصوري سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) نيابة السلطنة ببلاطنس ومما جاء في التقليد: "فلذلك فوَضت إليه النيابة بها على عادة ما تقدمه في النيابة، وحسن الطاعة والإنابة، وبذل الخدمة وصرف الهمة إلى كل مصلحة تجنيه ثمرات النعمة"[٤].

---

[١] ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١١٥؛ بني يونس، ولاية البلقاء واستدارية الأغوار، ص ١١٧، بني يونس، محمد، نيابة عجلون في العصر المملوكي (٦٥٩-٩٢٩هـ/١٢٦١-١٥١٦م) رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، ٢٠٠١م، ص ٢٧. وسيشار له: بني يونس، نيابة عجلون. وانظر عاشور، نظم الحكم والإدارة، ص ٢٦٣؛ حطيط، قضايا من تاريخ المماليك، ص٤٤.

[٢] الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد، مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢، ص ٩٧. وسيشار له: الصفدي، أعيان العصر.

[٣] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ٢٠٥.

[٤] ابن عبد الظاهر، التشريف، ص ٢٩؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص ٢٣٣.

المهام السياسية لنائب السلطنة في نيابات الشام

١- مبايعة السلطان الجديد وحلف اليمين:

كان من مهام نواب السلطنة أخذ البيعة للسلطان الجديد في القاهرة؛ فعندما بويـــع الـــسلطان حسام الدين لاجين بالسلطنة في سنة (٦٩٦هـ/ ١٢٩٥م) قام نائب الشام الأمير غرلوا العادلي (ت ٧١٩هـ/ ١٣١٨م) بأخذ البيعة للسلطان لاجين وحلّف الأمراء بحضور القضاة بدار السعادة وحلف هو وأظهر السرور"[١].

وعندما بويع الملك الاشرف علاء الدين كجك بن الناصـــر محمـــد بالـــسلطنة (٧٤٢ هــــ/ ١٣٤١م) توجه مع البريد الأمير يلك الجمدار لتحليف نائب حلب وأخذ البيعة للسلطان الجديد وسار الأمير بيغرا إلى دمشق بسبب ذلك[٢].

٢- حلف اليمين لولي العهد

دَرَج سلاطين المماليك على إرسال الكتب والمراسيم إلى الولاة والنواب من أجـــل البيعـــة بولاية العهد؛ ففي سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) حَلَفَ السلطان الظاهر بيبرس الناس في القاهرة بولاية العهد لابنه الملك السعيد بركه، ثم بعث مرسوماً إلى النيابات والأقاليم والقلاع وســيّرت الأيمـــان تتضمن حَلْف جميعهم، وكتب لهم تتضمن الفرح بذلك والسرور به"[٣].

ويتعين أن يكتب فيه: "حسب المرسوم الشريف" لصدوره عن السلطان كمـــا يكتـــب فـــي التقاليد"[٤].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٢٧٧؛ دهمان، ولاة دمشق، ص ٨١؛ وحول القيمة الرسمية للمرســوم انظـــر : القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص ١٧٤.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ص ٣٣٩.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ص ٣٢٨.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص ١٦٤.

وعن عهد السلطان الظاهر لولده الملك السعيد يقول القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) على لسان السلطان الظاهر بيبرس: "وخرج أمرنا بأن يكتب هذا التقليد لولدنا الملك السعيد ناصر الدين بركه خاقان"[١].

٤- القبض على المطلوبين

كان من مهام النواب في بلاد الشام القبض على المطلوبين للدولة سواء أكانوا من الأمراء أو غيرهم، وتدبير أمور إيصالهم إلى القاهرة؛ ففي سنة (٧١٥هـ/ ١٣١٥م) كلف الناصر محمد نائب حمص الأمير شهاب الدين قرطاي بالقبض على الأميرين سيف الدين تمر الساقي نائب طرابلس، وسيف الدين بهادر آص أحد الأمراء بدمشق وبهذا الصدد يقول النويري (٧٣٢هـ/ ١٣٣١م): "فلما طلع الفجر إلا والأمير شهاب الدين النائب بحمص والعسكر قد وافاه بالمنزلة وأحاطوا بخيمته فقبضوا عليه ... وقبض على الأمير سيف الدين بهادر في نفس اليوم"[٢].

وحُمِلَ الأول إلى قلعة الجبل بالقاهرة والثاني إلى سجن الكرك ثم حول إلى مصر[٣]. وفي سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م) أصدر السلطان مرسوماً إلى حلب بالقبض على الأمير زامل بن علي من آل الفضل واعتقله الأمير بيبرس، وَحُمِلَ إلى سجن عجلون ثم نقل إلى القاهرة[٤].

٤- تسلّم التقليد لتولي النيابة

سبقت الإشارة إلى أهمية التقليد بوصفه أول الرسائل الرسمية الخاصة لتعيين الموظفين وهناك علاقة متبادلة بين مكانة نيابات الشام وبين التقاليد الممنوحة للنواب، كما أن هناك أعرافاً

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ص ١٦٤.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٧٠؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص ٢٩٣؛ الطراونة، نيابة حمص، ص ١٥٣.

(٣) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص ٣٠٧؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٥٠٢.

(٤) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٣٩- ٤٠؛ المقريزي، السلوك، ج١، قسم ٢، ٣٥٣؛ بني يونس، نيابة عجلون، ص٢٢.

متبعة وهي ضرورة صدور التقليد على لسان السلطان ليحمل النائب الصفة الرسمية وليكون نائباً من السلطان في نيابته؛ فعندما يصدر تقليداً في نيابة الشام تكون صيغته: "يفوض إلى المقر الكريم، أو إلى الجناب الكريم... العالي الأميري الكبيري، الكاملي... نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس"[١].

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بحلب تكون صيغته: "يفوض إلى الجناب العالي، الأميري... نيابة السلطنة الشريفة بحلب المحروسة"[٢].

أما نائب طرابلس فكان تقليده: "صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي السلام وفرت منه أسهمه ... الجانب العالي، الأميري، الكبيري، الكافلي... نيابة السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة"[٣].

وبالنسبة إلى الكرك كان التقليد: "كتب تقليد شرف بأن يفوض إلى المجلس العالي، الأميري، الكبيري، أدام الله نعمته، نيابة السلطنة الشريفة بالكرك المحروس"[٤].

وإن كان التقليد نيابة السلطنة بحماة تكون صيغته: "صدرت هذه المكاتبة إلى الجانب العالي ... نيابة السلطنة الشريفة بحماة المحروسة"[٥].

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بصفد أستبدل بلفظ طرابلس والباقي على نفس الصيغة، وإن كان التقليد بنيابة غزة تكون صيغته: "نيابة السلطنة الشريفة بغزة المحروسة"[٦].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص ٩٩.

(٢) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ٩١؛ القلقشندي، ج١١، ص ١٠٢،؛ حمزة، نيابة حلب، ص ٦١.

(٣) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص٩١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ص ١٠٢؛خرابشة، نيابة طرابلس، ص٩١- ٩٢.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٠٣؛ البخيت، مملكة الكرك، ص ٦٨.

(٥) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ٩٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٠٢.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٠٣.

ومن الأمثلة على تقاليد نواب نيابات الشام أنه في سنة (٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م) كتب تقليد بموجبه أصبح "الأمير سيف الدين قبجاق المنصوري، بنيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس"[١].

أما نيابة حمص ففي عهد السلطان الظاهر بيبرس سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) صدر تقليد إلى الملك الأشرف بنيابة حمص وأعمالها"[٢]. وبموجبه أصبح الملك الأشرف الأيوبي نائباً على حمص، وأرسل إليه شعار السلطنة وأخبره بتغيير لقبه إلى الملك الظاهر"[٣].

وأما التقاليد الخاصة بنيابة الكرك فمن الأمثلة عليها التقليد بتعيين المؤرخ الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار نائباً على الكرك وقد صدر على لسان السلطان المنصور قلاوون سنة (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، ومما جاء فيه: "ولما كان المجلس السامي الأمير الأجل الاسفهسلار[٤]... ركن الدين فخر الإسلام حصن السلاطين بيبرس المنصوري نائب السلطنة بالكرك المحروس... خرج الأمر العالي السلطاني الملكي ..."[٥].

ومن التقاليد أيضاً تقليد بنيابة السلطنة بصفد للأمير سيف الدين قطلمش السلحدار والصادر على لسان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧١٠هـ/١٣٠٩م)، ومما جاء في التقليد: "ولما كان

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص ٣٢٩؛ وانظر : ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٣٧٢.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١١٧؛ البويني، ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص ١٠٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٤٥؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٠٧؛ الطراونة، نيابة حمص، ص ٣٠.

(٣) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٨، تحقيق : محمد أمين، تقديم : سعيد عاشور، ج٣، ج٥، تحقيق : نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤- ١٩٨٩، ج ٣، ص ٤٥٣- ٤٥٣. وسيشار إليه : ابن تغري بردي، المنهل الصافي؛ الطراونة، نيابة حمص، ص ٣١.

(٤) الاسفهسلار : لقب عسكري فخري عرفته التنظيمات الإدارية قبل العصر الايوبي. واسفه : مقدم بالفارسية، وسلار تعني العسكرية باللغة التركية. انظر : الشريدة، خالد سليمان، إدارة بلاد الشام في العصر الأيوبي، دار عماد الدين، عمان، ٢٠١١م، وسيشار له : الشريدة، إدارة بلاد الشام. وعرفها البقلي بأنها كلمة اعجمية معناها قائد الجيش للمزيد انظر : البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الاعشى، ص ٣٢.

(٥) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ٢٥٦- ٢٥٧.

الجناب العالي هو السيف الذي عانق الدولة نجاده ... اقتضت آراؤنا الشريفة ... أن نفوض إليه من أمور رعايانا ... فلذلك رسم بالأمر الشريف أن نفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بصفد المحروسة"[(١)].

المهام الاقتصادية والعسكرية لنائب السلطنة في نيابات الشام

١- حفظ موارد الدولة في النيابات

كلّف السلاطين نواب الشام القبض على مَن تعدى على أملاك الناس وينقل إلينا المقريزي (ت ٩٤٥هـ/ ١٤٤١م) أن الأمير طشتمر رفض أوامر السلطان، وأخذ قصرَ معين واستولى على ما فيها من القند والعسل والسكر فكلف السلطان نائب الشام قطلوبغا الفخري بالقبض عليه، وإرساله إلى القاهرة[(٢)].

٢- تشجيع التجارة

بسبب وفرة الإنتاج الزراعي والصناعي والمعدني في بلاد الشام نشطت حركة التجارة الداخلية والخارجية، وشجع نواب نيابات الشام التجارة، حيث أقاموا الفنادق والاستراحات على الطرق؛ ففي سنة (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م) عهد السلطان الظاهر بيبرس يذكر قرطاي الخزنداري (ت ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م) أنه: عُمِلَ على نهر الشريعة قنطرة عظيمة، وانتفع بها التجار والمسافرون نفعاً كثيراً"[(٣)].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ٢٠٤.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ص ٣٦٥- ٣٦٧؛ بني يونس، ولاية البلقاء، ص ٢١٣.

(٣) قرطاي الخزنداري، تاريخ مجموع النوادر، ص ٢٥٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٤٠- ١٤١؛ بني يونس، ولاية البلقاء، ص ٢٧٧.

وعندما تولى الأمير منجك دمشق للمرة الثانية سنة (٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م) أصدر أمراً ونصه "وعزل الطرقات من الحجارة من الكسوة إلى الغور"[١].

وأمر نائب الشام الأمير علاء الدين الطبنغا الحاجب الناصري في سنة (٧٤١هـ/ ١٣٤١م) كافل الشام بتعديل طريق البريد من طيبة[٢] إلى زحر[٣] للابتعاد عن مخاضات الشريعة الكبرى والبحث عن مخاضات نيابية عند خوضها[٤].

٣- تعمير القلاع وترميمها وإدارتها

إذا نظرنا نظرة عامة إلى نيابة الشام جميعها وحتى النيابات العقاد، نلاحظ على الأقل وجود قلعة واحدة لم يكن أكثر فهذه القلاع بحاجة إلى شحنها بالجند والعتاد والترميم وغيرها من الإصلاحات، ولدينا من الشواهد التاريخية الكثير من هذه الإصلاحات، ونكتفي بإيراد بعض الأمثلة عليها؛ فعندما اعتلى السلطان الظاهر بيبرس سدة الحكم، وتسلم قلعة عجلون سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) اهتم بها كبقية قلاع الشام وأصدر مرسوماً بذلك وهذا ما أشار إليه المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) بقوله: "فبنيت ونظف خندقها وحملت إليها العدد وجرد إليها المماليك والأجناد"[٥].

---

(١) ابن صصرى، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم م. برنتر، جامعة كاليفورنيا بركلي، ص ١٨٨؛ بني يونس، ولاية البلقان، ص ٢٤٣.

(٢) تدعى الآن الطيبة وهي مركز لواء يتبع لمحافظة اربد شمال الأردن وحول موقعها ضمن مراكز البريد انظر: البرزالي، المتضى على الروضتين، ج٣، ص ٤٦٠.

(٣) إحدى القرى التابعة لمحافظة اربد شمال الأردن وهي إلى الغرب منها.

(٤) انظر البرزالي، المقتضى عن الروضتين، ج٣، ص ٤٦٠؛ العودات، يعقوب، القافلة المنسية من أعلام الأردن، ١٩٠٩-١٩٧١م، الدار العربية، عمان، ٢٠٠٩م، ص ١٠١. وسيشار له: العودات، القافلة المنسية؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ص ٤٥٣؛ بني يونس، ولاية البلقاء، ص ٣٤٢.

(٥) المقريزي، السلوك، ج١، ص ٤٤٦؛ بني يونس، نيابة عجلون، ص ١٤٧.

وأصدر السلطان الظاهر بيبرس مرسوماً بتعيين الأمير عز الدين آبيك العلائي وبموجبه تـم نقش على جدرانها تتويجاً بذلك ونصه: "عمل أيام مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين: "أعزّ الله أنصاره بنظر العبد الفقير الراجي عفو الله وغفرانه ملك الأمراء. عز الدين أيبك العلائـي بتاريخ العشرين من شعبان سنة تسع وخمسين وستمائة"[١].

وأصدر السلطان الملك المنصور قلاوون مرسوماً بتعيين الأمير سيف الدين الباسطي نائباً في قلعة صرخد والأمير عز الدين والياً عليها وكان ذلك في سنة (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م) وأصدر تـذكرة بذلك جاء فيها: "تذكرة مباركة نافعة لكثير من المصالح جامعة يعتمد عليها الأميران سـيف الـدين وعز الدين عند توجههما إلى قلعة صرخد المحروسة"[٢]. ومن مهام الأميرين كما جاء في التذكرة: "يتقدمان أسوار القلعة المنصورة وأبراجها وبداناتها وأبوابها وما يحتـاج إلـى إصـلاح وتـرميم وعمارة"[٣].

وفي سنة (٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م) حدثت زلزلة عظيمة هدمت ثلاثة أبراج من قلعـة الكـرك، فأصدر السلطان الظاهر بيبرس مرسوماً "خرج بموجبه الأمير علاء الدين أيدغدي الشجاعي مـن دمشق لعمارة ما تهدم"[٤].

---

(١) العابدي، محمود سليمان، الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن، جمعية عمـال المطـابع التعاونيـة، عمـان، ١٩٧٣م، ص ٢٢٢؛ المومني، سعد محمد، القلاع الإسلامية في الأردن دراسة تاريخية أثرية اسـتراتيجية، دار البشير، عمان، ١٩٨٨م، ص ١٥٢؛ بني يونس، نيابة عجلون، ص١٤٧.

(٢) ابن عبد الظاهر، التشريف، ص ١٩٤– ١٩٥؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص ٣٣٧.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٢٣٩– ٢٤٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ١٩٥– ١٩٦.

المهام المتعلقة بالنواحي الاجتماعية

ضم المجتمع في بلاد الشام سكان المدن والأرياف والبوادي، وأجناس وأعراق مختلفة، وانقسم المجتمع إلى طبقات واتبّع الناس مذاهب مختلفة من مسلمين ونصارى ويهود، وكوّن المماليك لأنفسهم طبقة مختلفة من سائر السكان، فلم يندمجوا مع الناس، حتى اختاروا أنهم زوجاتهم من بنات جنسهم، وعاشوا في عزلة وفجوة بين الحكام والشعب[1].

لذا كُلّف نواب السلطنة بالاشراف على تنفيذ المراسيم المتعلقة بفئة أهل الذمة حيث جرت العادة بإرسال نسخ من هذه المراسيم إلى الشام؛ ففي سنة (٧٥٥هـ/ ١٣٥٣م) أصدر السلطان الملك الصالح صالح ابن الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً شريفاً ألزم أهل الذمة بشروط العهدة العمرية جاء فيه: "مرسوم شريف بأن يعتمد جميع طوائف اليهود والنصارى والسامرة بالديار المصرية، والبلاد الإسلامية المحروسة وأعمالها، حكم عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه"[2].

كما تولى نواب السلطنة في الشام مهمة نقل رسائل السلاطين إلى الزعامات المحلية لتعريف السلاطين بدورها مثل زعماء التنوخيين وهم عشائر كثيرة اعتنقت الدرزية وانتشرت في جهات مختلفة من لبنان، ومن أشهرهم آل بحتر، الذين كان لهم دور في مساعدة المماليك في قتال المغول وخاصة التصدي لقوات غازان خان تتار فارس في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون[3].

---

(١) الزبيدي، العصر المملوكي، ص ٢٢١– ٢٢٢؛ العريس، موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٢٢٢؛ عاشور، مصر والشام، ص ٣١٢– ٢١٤؛ بني يونس، نيابة عجلون، ص٦٣– ٧٦.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٨٢.

(٣) عاشور، مصر والشام، ص ٣١٦– ٣١٧؛ العريس، موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٢٢١؛ حتي، فيليب، لبنان في التاريخ، ترجمة: أنيس فريحة ومراجعة نقولا زيادة، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، (بيروت – نيويورك)، ١٩٥٩، ص٣١٤.

وكان لآل بحتر أيضاً دور في الصراع مع الفرنجة. ونظراً للدور الذي قاموا به في مساعدة المماليك أصدر السلطان الظاهر بيبرس مرسوماً إلى الأميرين جمال الدين وزين الدين بسبب ما قدماه من المناصحة والمطالعة بالإخبار ومساعدة عساكر الدولة المملوكية ضد الفرنجة ومما جاء في هذا المرسوم: "إلى الأميرين المختارين المحترمين الأخصين المجاهدين جمال الدين وزين الدين فخري القبايل (القبائل) والعشاير (العشائر) ... تتضمن سلامنا عليهما وإهداء تحيتنا إليهما"[(١)]. وتولى نواب دمشق إيصال المرسوم إلى الأميرين وتبليغ سلام السلطان الظاهر بيبرس وتقديره لما قدّماه من خدمة للدولة[(٢)].

ومنحت الدولة المملوكية المناشير بالاقطاعات الكبرى لآل بحتر التنوخيين، ويذكر صالح بن يحيى أنه وجد منشوراً من الملك الاشرف خليل بن قلاوون تاريخه يرجع إلى سنة (٦٩١هـ/١٢٩٢م) باسم الأميرين ناصر الدين الحسين وابن عمه شهاب الدين أحمد حجي". ويبين أن الإقطاع الذي حصلا عليه "أنهما مستجدين في الخدمة في الحلقة الشامية في جهات قدرون، ورمطون، وطردلا، وعين كسور"[(٣)]. لذا وأثناء تولي الامير تنكز الحسامي نيابة دمشق، وعند إجراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون "الروك الناصري"، بعث تنكز إلى الناصر محمد يخبره أن أملاك أمراء الغرب (آل بحتر) قديمة معهم. فجاء مرسوم الناصر محمد أن تستمر بأيديهم[(٤)].

---

(١) صالح بن يحيى، (ت ٨٤٠هـ/ ١٤٣٧م)، تاريخ بيروت، تحقيق: فرنسيس هورس اليسوعي، وكمال سليمان الصليبي وآخرون، دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية)، بيروت، لبنان، ١٩٦٩م، ص ٦٣. وسيشار له : صالح بني يحيى، تاريخ بيروت.

(٢) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٦٣.

(٣) المرجع نفسه، ص٨٤.

(٤) المرجع نفسه، ص٨٤، ٨٧.

٢- نائب القلعة (في نيابات الشام)

كان منصب نائب القلعة يأتي بعد منصب نائب السلطنة في الأهمية، ومركزه في قلعة المدينة كدمشق وطرابلس، وصفد، وحلب، والكرك. ولا تكاد تخلو أي نيابة من النيابات في بلاد الشام من القلاع الكبيرة منها والصغيرة. وقد اعتمدت أسس خاصة لمكتابة نواب القلاع الشامية فكان رسم المكاتبة إلى نائب قلعة دمشق: "صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي ... نائب القلعة المنصورة بدمشق المحروسة"[١].

أما نائب قلعة حلب فقد كان رسم المكاتبة له: "صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي ... نائب القلعة المنصورة بحلب المحروسة"[٢].

وكان يكتب إلى نائب قلعة الكرك بهذه الصيغة: "هذه المكاتبة إلى المجلس السامي، وإلى القلعة المنصورة بالكرك المحروس"[٣].

أما نائب قلعة حمص فكان يكتب له: "رسم بالأمر ... أن يرتب فلان في نيابة قلعة حمص المنصورة"[٤].

وقد جرت العادة أن يصدر تقليد مباشر لتعيين نواب القلاع في النيابات الكبار؛ ففي سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) عين الأمير علاء الدين مغلطاي نائبا لقلعة دمشق في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة (٧٠٩- ٧٤٠هـ/١٣٠٨- ١٣٢٩م) [٥]، وفي سنة (٦٦٤هـ/

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص ١٨٥.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص ١٨٨؛ حمزة، نيابة حلب، ج٢، ص ٦٧.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٧، ص ١٩٨؛ البخيت، مملكة الكرك، ص ٨٨.

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ١٩١، ج١٢، ص ٣٢٤- ٣٢٥؛ الطراونة، نيابة حمص، ص ٤٧.

(٥) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٣، ص ٨٧٢.

١٢٦٦م) عُيّن الأمير سيف الدين والياً لقلعة عجلون في سلطنته الظاهر بيبرس (٦٥٩- ٦٧٦هـ/ ١٢٦١- ١٢٧٧م)[١].

هذا مع احتفاظ نائب النيابة في الإشراف على عمل نائب القلعة، ومن ذلك التقليد الذي أصدره الملك الناصر بن قلاوون بإسناد نيابة صفد للأمير سيف الناصري سنة (٧٣٤هـ/١٣٣٣م) حيث جاء فيه: "أن يُرتب في النيابة بقلعة صفد المحروسة، على عادة ما تقدم وقاعدته في التقرير- وخوطب بالقول: "وحفظ هذه القلعة من طوارق الليل والنهار، وكثّر رجالها لتباري بهم النجوم... وتألفهم على موالاتنا حتى لا تجد أنت ولا هم إلى المزيد مزيداً، وتفقد الذخائر والآلات ... وانفع في وقت الحاجة مما تكنزه الخزائن من درهمها ودينارها"[٢].

٣- المهمندار (في نيابات الشام)

المهمندار اسم فارسي مركب من لفظين أحدهما مهمن بفتح الميمين ومعناه الضيف والثاني دار ومعناه ممسك، والمعنى إجمالاً القائم على أمره أي الضيف[٣]. ويتولى المهمندار لقاء قصاد الملوك ورسلهم خاصة من العربان الواردين على السلطان، وينزلهم دار الضيافة ويتحدث بأمرهم[٤]. وقد وجدت هذه الوظيفة بنيابات الشام الكبرى كدمشق، وصفد وطرابلس والكرك وحلب[٥].

---

(١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ؛ بني يونس، نيابة عجلون، ص ٤٦.

(٢) حمادة، الوثائق السياسية، ص ٢٧١، ٢٧٢.

(٣) البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الاعشى، ص ٣٣٤.

(٤) ابن كنان، المواكب الإسلامية، ج٢، ص ١٦؛ السبكي، معيد النعم، ص ٣١.

(٥) ابن كنان، المواكب الإسلامية، ج٢، ص ١٦؛ حمزة، نيابة حلب، ص ٢٧؛ البخيت، مملكة الكرك، ص ٨٨؛ خرابشة، نيابة طرابلس، ص ٩٦.

وعيّن المهمندارية في نيابات الشام بموجب توقيع الإنشاء في القاهرة، ومن الامثلة على ذلك توقيع صدر لغرس الدين بن خليل الطناحي للمهمندارية في دمشق ونصه: "توقيع كريم باستقرار الجناب العالي، الاميري، الكبيري، الغرسي، عضد الملوك والسلاطين، خليل الطناحي ... ... في وظيفة المهمندارية، بحكم شعورها، ... عوضاً عن حسام الدين بن حسن بن صاروجا".

وهناك توقيع بالمهمندارية في نيابة حلب، كتب لغرس الدين الطناحي وهذا يوضح أنه تولى هذه الوظيفة في أكبر نيابتين في الشام هما نيابة دمشق وحلب، ومما جاء في التوقيع: "رسم بالأمر الشريف ... فليباشر هذه الوظيفة مباشرة تحمده فيها الموارد ... وتشكره بالقصد السنة القصاد، وتذكرة البريدية بالخبر في كل واد ... وليجعل التقوى أمامه وينتهي لهم من القِرى ما يهيئه المضيف ... وليتلقّهم بوجه الإقبال"[1].

٤- الدوادار (في نيابات الشام)

الدوادار اسم فارسي مركب من لفظين أحدهما عربي وهو الدواة والثاني دار وتعني ممسك[2]. والدوادار هو الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير، ووظيفته تبليغ الرسائل عن السلطان أو الأمير، وإبلاغه بعامة الأمور وتقديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر إلى باب السلطنة وتقديم البريد، وأخذ خط السلطان على عموم المناشير والتواقيع والكتب[3] وقد استحدثت الوظيفة زمن السلطان المنصور قلاوون[4].

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٢، وانظر : حمزة، نيابة حلب، ص ٢٧.

(٢) البقلي، التعريف بمصطلحات الأعشى، ص ١٣٩.

(٣) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١١٨؛ القلقشندي : ج٤، ص ١٩- ٢٠.

(٤) البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الاعشى، ص ١٣٩.

ولدينا من الشواهد التاريخية ما يدل على وجود هذه الوظيفة في نيابات الشام وممن تـولى الدواداري في نيابة طرابلس الامير عز الدين ايبك بن عبد الله في حدود سنة (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) والامير اقتمر عبد الغني المتوفى سنة (٧٦٠هـ/١٣٥٨م) [١].

وفي سنة (٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م) عزل عن الدوادارية بالشام الأمير ناصر الدين محمد الدويدار السيفي[٢] أما الدوادار في صفد فقد تولاها الأمير شهاب الدين أحمد في سنة (٧٥٣هـ/١٣٥٢م) والأمير يلبغا السالمي في حدود سنة (٧٩١هـ/١٣٨٩م) [٣].

٥- مقدم البريد (في نيابات الشام)

كان يقوم على تقدمة البريد أمير من أصحاب الرتب الرفيعة، وواجباته إبلاغ مقر السلطنة بما يجري في النيابة، إضافة إلى تلقيه الرسائل[٤]، ووجدت هذه الوظيفة في كل النيابات الكبرى في بلاد الشام[٥] ورتبته أمرة عشرة أو خمسة أو امرة خمسة وجندي[٦]. وكان في كل مركز خان لتزويد الخيل والدواب بالعلف والماء ونزل للمسافرين ومسجد للصلاة[٧].

٦- شاد الدواوين (في نيابات الشام)

ويطلق على متوليها أيضاً بـ (مشد الدواوين) وموضوعها التحدث في استخراج الأموال السلطانية ويعين عليها أمير طبلخاناه أو أمير عشرة[٨].

---

(١) خرابشة، نيابة طرابلس، ص ٩٦.

(٢) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٣، ص ٦٠٤، ٧٥٦.

(٣) ابن الفرات، تاريخ، ج٩، ص ٥٩، ١٥٥؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٨٦٦؛ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص ٢٧٦؛ الطراونة، مملكة صفد، ص ٢٤٢.

(٤) خرابشة، نيابة طرابلس، ص ٩٨؛ البخيت، مملكة الكرك، ص ٩٠.

(٥) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ١٩٤.

(٦) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ١٨٩- ١٩٠، البخيت، المصدر السابق، ص ٩١.

(٧) القلقشندي، المصدر السابق، ج٤، ص ١٩٦.

(٨) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٩٦.

ج. الوظائف الديوانية في نيابات الشام

١- كاتب السر (في نيابات الشام)

وجدت هذه الوظيفة في نيابة دمشق، وحلب، وطرابلس، وحماة، وصفد والكرك. ومن الشواهد التاريخية في نيابة دمشق تعيين الأمير سيف الدين أرغون السمري تم عوض عنه بأيام يسيرة بالأميرة علم الدين الطرقشي وكان ذلك في سنة (٧٣١هـ/ ١٣٣٠م) [١].

وفي سنة (٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م) كان الأمير بدر الدين بن الخشاب مشد الدواوين بدمشق[٢] وتولى هذه الوظيفة في طرابلس الأمير محمد بن أبي بكر في سنة (٧١٥هـ/١٣١٥م)، وشرف الدين عيسى التركماني في سنة (٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) وصلاح الدين صلاح الذي تولى هذا المنصب في سنة (٧٤٥هـ/١٣٤٤م) [٣].

وأول شاد الدواوين بحلب كان الأمير علاء الدين أيدكين الشهابي الذي عيّن في سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م). وفي سنة (٧٣٧هـ/١٣٣٦م) عيّن الأمير علم الدين سنجر الحمصي شادا للدواوين بحلب[٤].

وتولى هذه الوظيفة في نيابة صفد الأمير عثمان بن محمد بن لؤلؤ الدمشقي في سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م والأمير بهادر الكركي في حدود سنة (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) [٥].

---

(١) ابن الجذري، حوادث الزمان، ج٢، ص ٤٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص ٥٨٦.

(٣) ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج٤، ص ٢٤٩؛ المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٥٩٨؛ السخاوي، الضوء الدمع، ج٣، ص ١٠٣؛ خرابشة، نيابة طرابلس، ص ٩٦.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ١٥٢؛ الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص٣؛ عادل حمزة، نيابة حلب، ج٢، ص ٢٧- ٢٨.

(٥) ابن حجز العسقلاني، المصدر السابق، ج٣، ص٦٥، ج٢، ص ٣٢؛ الطراونة، مملكة صفد، ص ٢٤٣.

وكانت كتابة السر في نيابات الشام تضاهي كتابة السر بالديار المصرية في الرياسة ورفعة القدر، وكان يتم تعيين كاتب السر من الأبواب السلطانية بالقاهرة[١]، ومن الشواهد التاريخية على هذه الوظيفة في نيابات الشام، ففي دمشق كان شمس الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين محمود كاتباً للسر في سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٨م) [٢]، وكان القاضي شرف الدين أبو بكر شمس الدين محمد بن القاضي شهاب الدين محمود كاتباً للسر بدمشق في حدود سنة (٧٣٢هـ/١٣٣١م) [٣]، وفي سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م، كان القاضي محيي الدين ابن فضل الله العمري كاتباً بدمشق أيضاً، وفي سنة (٧٣٤هـ/١٣٣٣م) كان شرف الدين بن شهاب الدين الحلبي[٤].

وأما كتاب سر حلب فكان منهم بهاء الدين علي بن أبي سوادة الذي تولى سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م[٥]، ومن الذين تولوا كتابة السر أيضاً بحلب شرف الدين يعقوب ابن عبد الكريم بن أبي المعالي الحلبي توفي سنة (٧٢٩هـ/١٣٢٨م) وتولى بحلب أكثر من مرة، وفي سنة (٧٣٣هـ/١٣٣٢م) تولى القاضي تاج الدين محمد بن الزين كتابة السر بحلب وليس الخلعة وباشر "وأبان عن تعفف عن هدايا الناس[٦]. وأما نيابة طرابلس فكان أول من تولى كتابة السر فيها مجد الدين يوسف بن محمد بن محمد القباقبي الذي توفي سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م)، والأمير بدر الدين محمد ابن نجم الدين ابن مكي الذي جمع بين وكالة بيت المال وكتابة السر وكانت وفاته سنة (٧٤٢هـ/١٣٤١م) [٧].

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ١٩٥.

(٢) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص ١٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ٥١٢.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٨٦، ٦٦٠.

(٥) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٢٥٤.

(٦) ابن الوردي، ج٢، ص ٢٥٤، ٢٩٣؛ حمزة، مملكة حلب، ج٢، ص ٣٦- ٣٧.

(٧) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص ٢٩١؛ ابن الفرات، تاريخ الفرات، م٨، ص ١٩٨؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٣٥١؛ خرابشة، نيابة طرابلس، ص ١٠١.

أما نيابة صفد فقد تولى هـذه الوظيفـة الـشيخ شـهاب الـدين أحمـد بـن غـانم سـنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م)[1] وتولى كتابة السر في أما نيابة الكرك عبد الرحمن بن داود علم الـدين مـن نصارى المدينة وعلاء الدين علي بني عيسى المقيري[2].

٢- ناظر الجيش (في نيابات الشام)

كان ناظر الجيش يتولى التحدث في الإقطاعات وترتيب الحواصل الخاصة بالمماليك، ويقوم بالنظر في مال الجيش بالنيابة، وتجنيد من يرى فيه الفائدة والقدرة في الحـرب، ويعتبـر الممثـل العسكري للدولة في النيابة ويطلع الدولة أولاً بأول عن أحوال الجيش في النيابة، ويثبت ما يتلقاه من أوامر ومناشير سلطانية في سجل خاص للجيش[3] وكان يكتب له بالألقاب الآتية: "الجانب الكـريم، العالي، المولوي، القضائي، الكبيري، العالمي، الفاضلي، الكاملي، الماجدي، الأوحدي، الأثيري.... ضياء الإسلام والمسلمين، أحد الفضلاء في العالمين، خالصة السلوك والسلاطين"[4].

ويعين ناظر الجيش من الأبواب السلطانية في القاهرة وليس لنائب السلطنة صلاحيات تعيين ناظر الجيش في نيابته[5].

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٨، ص ١٩- ٢٠٠؛ الطراونة، مملكة صفد، ص ٢٤٥.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم، م١٢، ص ٧، السخاوي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م، م٢، ص ٢٥٨؛ وسيـشار لـه: الـسخاوي، الضوء اللامع؛ البخيت، مملكة الكرك، ص٩٧.

(٣) السبكي، معيد النعم، ص ٤٨؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، ص ١٢٠- ١٢١؛ القلقـشندي، صـبح الاعشى، ج٤، ص ٢٢٠، ج ٨٩، ص ٣١٤، البخيت، مملكة الكرك، ص ٩٨، الشلبي، بلاد الشام المملوكيـة، ص ١٠٦، حمزة، نيابة حلب، ج٢، ص ٤٠؛ عاشور، نظام الحكم والإدارة، ص ٢٨٤.

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٩٨؛ القلقشندي، صبح الاعـشى، ج١١، ص ١١٩؛ حمزة، نيابة حلب، ج٢، ص ٤١.

(٥) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٢، ص ٩٦، ١٩٠، ج٤، ص ٢٢، ١٦٠، ١٩٠، حمـزة، نيابـة حلـب، ج٢، ص٤٠.

ومن الشواهد التاريخية على من تولى هذه الوظيفة في نيابات الشام، قطب الدين بن شيخ السلامية الذي تولى نظر الجيش في دمشق من سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٨م) واستمر إلى سنة (٧٣٤هـ/١٣٣٣م)، حيث عين بعده فخر الدين ابن الحلّي[١].

وممن تولوا هذه الوظيفة في نيابة حلب أمير لاجين بن عبد الله العينتابي وكانت وفاته في سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م)، والقاضي بهاء الدين حسين بن جمال الدين سليمان بن ريان[٢].

وأما نيابة صفد فقد تولى هذه الوظيفة فيها شمس الدين محمد بن الحافظ سنة (٧١٦هـ/١٣١٦م) [٣].

وكان أول من تولى هذا المنصب في نيابة طرابلس هبة الله مسعود حشيش سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م وشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري سنة (٧١٠هـ/١٣١٠م)، وولي شمس الدين محمد بن داود بن الحافظ الحنفي ونظر الجيش بصفد وطرابلس وتوفي سنة (٧٣٤هـ/١٣٣٤م)[٤]

وممن تولى الوظيفة في نيابة الكرك علي بن محمد المذحجي الآمدي، وكان وفاته في سنة (٦٧٤هـ/١٢٧٥م) [٥]. وأحمد بن علي بن شجاع تاج الدين وكانت وفاته في سنة (٧٢١هـ/١٣٢١م) [٦]. وزكي الدين المأمون عبد الله بن عبد الكافي بن عبد الرحمن بن محمد بن

---

(١) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص ٢٤٩، ص ٣٧٨، ٤٥٢، ٥١٤، ج٣، ص ٦٦٠.

(٢) اليونني، ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص ١٧٤؛ أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص ١٤٥؛ ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص ٣٤٢؛ عادل حمزة، نيابة حلب، ج٢، ص ٤١.

(٣) الصفدي، الوفي بالوفيات، ج٢، ص ١٩، ٦٤- ٦٥، ج٤، ص٣٦٥؛ الطراونة، مملكة صفد، ص ٢٤٩.

(٤) ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج٣، ص ٦٥؛ الصفدي الوافي بالوفيات، ج٧، ص ١٦٥، خرابشة، نيابة طرابلس، ص ١٠٢.

(٥) ابن الفرات، تاريخ، م٧، ص ٦٠- ٦١؛ البخيت، مملكة الكرك، ص ٩٨.

(٦) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، م١، ص ٢٨٢؛ البخيت، مملكة الكرك، ص ٩٨.

عبد السالم الحميري الصنهاجي المالكي، وجمال الدين سليمان بن أبي الحسن بن سليمان بن ريان[١].

٣- ناظر المال (في نيابات الشام)

يتولى نظار المال الإشراف على الشؤون المالية داخل النيابة من واردات ومصروفات وأرزاق، ويساعده عدد من الموظفين كان يتم تعيينهم من قبل النائب في النيابة[٢]. ويتم تعيين ناظر المال بموجب مرسوم سلطاني في القاهرة[٣].

ومن الشواهد التاريخية على من تولوا هذه الوظيفة في نيابات الشام الكبرى الشيخ نجم الدين ابن أبي الطيب نظر المال سنة (٧٣٧هـ/١٣٣٧م) [٤] ومن الذين تولوها نيابة الكرك علاء الدين علي بن محمد بن خطاب الباجي وكانت وفاته سنة (٧١٤هـ/١٣١٤م) [٥].

وفي نيابة طرابلس تولى هذا المنصب شرف الدين يعقوب بن عبد الكريم في سنة (٧١٢هـ/١٣٠٢م) [٦] وفي نيابة حلب تولى ضياء الدين أبو المعالي بن النصيبي الحلبي المتوفى سنة (٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م) ومحيي الدين محمد بن أبي حامد المهذب المعري تولى سنة (٧١٤هـ/١٣١٤م)[٧].

---

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص ٢٨٢؛ ج٢، ص ١٤٥- ١٤٦؛ البخيت، مملكة الكرك، ص ٩٨- ٩٩.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٣٢؛ المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٦٩؛ خرابشة، نيابة طرابلس، ص١٠٢.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٢، ص ٢٠٨، ص ٢٧٦.

(٤) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٣، ص ٩٢٤، ص ١٠١١.

(٥) ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج٣، ص ٦٠- ٦١؛ البخيت، مملكة الكرك، ص ٩٩.

(٦) خرابشة، نيابة طرابلس، ص ١٠٣.

(٧) ابن حبيب، تذكرة النبية، ج١، ص ١٩٦؛ ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص ٢٦٢؛ حمزة، نايبة حلب، ج٢، ص ٤٢- ٤٣.

د- الوظائف الدينية في نيابات الشام

١. قاضي القضاة (في نيابات الشام)

طُبِّق قرار السلطان الظاهر بيبرس بتعيين قضاة القضاهة على المذاهب الأربعة في نيابات الشام وبدأ أولاً في دمشق ثم عممهم على باقي النيابات. وفي نيابة دمشق نُفذ في السنة التالية، ثم عُمِمَ على باقي النيابات المملوكية للمذاهب الأربعة الشافعي، الحنبلي، المالكي، الحنفي، ويتم تعيين قضاة قضاء للمذاهب الأربعة في جميع نيابات الشام الكبرى، ووجد قاضٍ واحد على الأقل في النيابات الصغرى.

وإبان شمول بلاد الشام كتبت تقاليد القضاة ثلاثة مذاهب هي: تقليد شمس الدين عبد الله محمد بن عطا الحنفي قاضي قضاة الحنفية، وتقليد زين الدين أبي محمد عبد السلام بن علي بن عمر الزاواوي، قاضي قضاة المالكية، والثالث تقليد شمس الدين بن عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلي قاضي قضاة الحنابلة فصار بدمشق أربعة قضاة مع الشافعي شمس الدين أحمد، خلكان[1]، وعبر المقريزي عن ذلك قائلاً: فصار الحال كما هو ديار مصر[2].

وفي سنة (٧٣٣هـ/١٣٣٣م) كان قاضي القضاة الشافعية بدمشق علم الدين بن الأنصاري، وقاضي القضاة الأضاف عماد الدين الطرسوسي الحنفي، وقاضي قضاة المالكية شرف الدين المالكي، وقاضي قضاة الحنابلة علاء الدين المنجا الحنبلي[3].

---

[1] المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٣١.

[2] المصدر نفسه، ج٢، ص ٣١.

[3] ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٣، ص ٥٨٦.

ونكتفي في ذكر قاضٍ واحد أو اثنين لكل نيابة، إضافة إلى النيابــات الــصغار. للــذكر لا للحصر؛ ففي سنة (٦٩٠هــ/ ١٢٨٩م) كان بدمشق قاضي القضاة شهاب الدين الخــوبي الــشافعي وقاضي القضاة حسام الدين الحنفي وقاضي القضاة جمال الدين محمد الزواوي المالكي[١].

وفي سنة (٧٣٣هــ/ ١٣٣٢م) كان قاضي القضاة الشافعية بدمشق علم الدين بن الانصاري، وقاضي القضاة الاضاف عماد الدين الطرسوسي الحنفي، وقاضي قضاة المالكيــة شــرف الــدين المالكي، وقاضي قضاة الحنابلة علاء الدين المنجا الحنبلي[٢].

أما نيابة حلب فقد فوض السلطان الظاهر بيبرس قضاة حلب إلى القاضي الشافعي كمال الدين بن الأستاذ في سنة (٦٦٢هــ/١٢٦٣م) [٣]. وكان منهم من عينوا في حلب بعد ذلك وقاضي الحنابلة موسى بن فياض أبي البركات المقدسي الصالحي في سنة (٧٤٨هــــ/١٣٤٩م) واســتمر خمــساً وعشرين سنة وكانت وفاته سنة (٧٧٨هــ/١٢٧٩م)[٤] وقاضي القضاة أحمد بن ياسين ابن محمــد الرياحي المالكي[٥].

وفي نيابة طرابلس كان قاضي قضاة الشافعية أحمد بن أبي بكر بن منــصور بــن عطيــة الإسكندري الذي تولى سنة (٧٠٧هــ/١٣٠٧م)[٦].

وفي سنة (٧٧٦هــ/١٣٧٤م) كان أول قاضي قضاة المذهب المالكي في طــرابلس محمــد القباعي[٧] أما في الكرك فكان قاضي قضاة الشافعية عز الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم الأسيوطي

---

(١) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج١، ص ٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص ٥٨٦.

(٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص ٢٣٠– ٢٣١.

(٤) ابن حجر العسقلاني، ج٤، الدرر الكامنة، ص ٢٣٢.

(٥) ابن تغري بردي والنجوم الزاهرة، ج١٠، ص ١٩٠؛ ابن شاهين الظاهري، نيل الأمل، ج٣، ص ٢٢٦؛ حمزة، نيابة حلب، ج٢، ص ٢٥١.

(٦) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص ٧٠؛ خرابشة، ص ١٠٤.

(٧) خرابشة، نيابة طرابلس، ص ١٠٤.

الشافعي سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م وبقي مدة ثلاثين سنة يقضي بين الناس وكانت وفاته سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م[١]. والقاضي محمد أحمد بن عيسى بن موسى بن سليم المقيري تولى قضاء الكرك بعد موت والده في سنة (٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م)[٢].

وفي نيابة صفد القاضي عبد الكريم القبياتي للمذهب المالكي، والقاضي صدر الدين محمد بن أبي بكر بن عياش الخابوري قاضياً للمذهب الشافعي وكانت وفاته (٧٦٩هـ/١٣٦٧م) [٣].

أما نيابة حمص فكان القضاة يعيّنون من قبل نائب دمشق إلى سنة (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) حيث أصبح تعيين القضاء بموجب مرسوم سلطاني في القاهرة[٤]. ويذكر ابن كثير ذلك، فإنه في سنة (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) وفي هذا الشهر – رمضان – خرج قضاء حمص عن نيابة دمشق بمرسوم سلطاني مجدداً للقاضي شهاب الدين البارزي وعن كيفية حصول هذا الأمر يذكر ابن كثير قائلاً: "وذلك بعد مناقشة كثيرة وقعت نيابة، البارزي وبين قاضي القضاة تقي الدين السبكي – وانتصر له بعض الدولة – واستخرج له المرسوم المذكور"[٥].

وبالعودة إلى الأسس المتبعة في كتابة تواقيع قضاة القضاة يلاحظ تميز قاضي قضاة الشافعية بعبارة: "المجلس العالي[٦] أو المجلس العالي للشافعي" أما قضاة على المذهب الحنفي والمالكي والحنبلي سواء بالشام وطرابلس وصفد وحلب فقد تميزوا بعبارة "المجلس السامي بالياء"[٧].

---

(١) اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج٤، ص ٢٧٤؛ البخيت، مملكة الكرك، ص ١٠١.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص ٦٠- ٦١؛ الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٥٤، غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ط٢، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٨٢م، ١٩٦، ١٩٧.

(٣) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج١، ص ١٣٩؛ السخاوي، وجيز الكلام، ج١، ص ١٦٠؛ ابن شاهين الظاهري، نيل الامل، ج٢، ص ٢١٤، الطراونة، مملكة صفد، ص ٢٥٤.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص ٢٦٨- ٢١٩.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، وانظر : مبارك الطراونة، نيابة حمص، ص ٥٦.

(٦) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٢، ص ٣٦.

(٧) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٩٩.

أما التوجيهات والمهام التي أعطيت لقضاة القضاة في الشام بموجب التواقيع فتتمثل فـيمكن إجمالها بما يلي:

- العدل في تطبيق أحكام الشرع الشريف[١].
- الاهتمام بأمر أموال الأيتام والمحافظة عليها: "وليكن أمر الأموال المهم المقدم لديه" المرجع.
- التأدب بآداب القضاء.

٢. المحتسب (في نيابات الشام)

تشير المصادر إلى اهتمام المماليك بتفعيل دور المحتسب في نيابات الشامية. وكـان تعيـين محتسب دمشق من قبل السلطان بالقاهرة بموجب مرسوم شريف ورسم المكاتبة له بالمجلس السامي بالياً[٢]. أما في حلب فيشير القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) أن محتسب حلب كان يكتب له مـن الأبواب السلطانية ثم استقر تعيينه من نائب السلطنة فقال: "فالطالب كتابة جميعه عن نائب السلطنة بها"[٣].

ومن الشواهد التاريخية في نيابات الشام الكبرى على من تولى هـذه الوظيفـة تـاج ابـن الشيرازي في مدينة دمشق محتسباً ومضافة إليه وكالة بيت المال في سنة (٦٩٠هـ/١٢٨٩م) [٤]. وفي سنة (٧٣٥هـ/١٣٣٤م) تولى ابنه هذه الوظيفة[٥]. وفي نيابة حلب شغل هذه الوظيفة محمد بن عبد الرحمن ابن هبة بن النصيبي (ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م) [٦]. وبعد القاهر بن عبد الله بن يوسف بن

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٢، ص ٤٠، ج٤، ص ٣٨، ج١٢، ص ١٨٢- ١٨٣.

(٢) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٩٩؛ القلقشندي، المصدر السابق، ج١٢، ص ١٠٠.

(٣) القلقشندي، المصدر السابق، ج١٢، ص ١٦٠.

(٤) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج١، ص ٤١.

(٥) ابن الجزري، صبح الاعشى، ج١، ص ٣٨٦؛ ج٢، ص ٧٥٣.

(٦) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٣، ص ٩٤٥؛ حمزة، نيابة حلب، ج٢، ص ٢٦٠.

السقام الحلبي (ت ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م)[١]. وتولى القاضي ناصر الدين بن شية حسبة طرابلس بالإضافة إلى بيت المال[٢].

ويذكر القلقشندي أن وظيفة المحتسب كانت موجودة في كل من نيابة الكرك وصفد[٣]. وممن تولوا الحسبة في نيابة حمص محمد بن علي بن أبي الكرم الحمصي في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[٤].

ويمكن تحديد أهم واجبات المحتسب وصلاحياته من خلال مرسوم صادر عن السلطان في القاهرة إلى ناظر حسبة دمشق الشريفة لم يحدد تاريخه وتمثلت صلاحياته من خلال المرسوم الشريف بما يلي[٥]:

١. له التصرف المطلق في فتح الحوانيت.
٢. منع أصحاب السلع من التعدي إلى غير ما أحله الله ولا تدعُ غير ما أحلّه الله له من المكاسب.
٣. مراقبة الأسواق وتفقد الأسواق مما يتولد فيها من المفاسد.
٤. القصاص من المدلسين والكاذبين في الأسواق.

ومن مهامه[٦]:

- مراقبة دار الضرب (أماكن سك النقد).

---

(١) السخاوي، وجيز الكلام، ج١، ص ٤٨- ٤٩، ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج٢، ص ٢٣٩.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٢٣٤، ج١٢، ص ٤٧٠؛ خرابشة، نيابة طرابلس، ص ١٥٦.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٢٣٤؛ وانظر ابن شاهين الظاهر، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٢؛ الطراونة، مملكة صفد، ص ٢٥٧؛ البخيت، مملكة الكرك، ص ٩٩.

(٤) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج٤، ص ٦٢؛ الطراونة، نيابة حمص، ص ٦٠.

(٥) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٢، ص ٦٠؛ وانظر : ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٧٩- ١٨٠.

(٦) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٧٩- ١٨٠.

- التأكد من بيع العقاقير عند العطارين.

٣. الخطابة (في نيابات الشام)

إحدى الوظائف الدينية الجليلة، وكان على من يتولاها أن يرفع من صوته أثناء الأذان، ويدعو للسلطان بالهداية والصلاح، وأن لا يطيل فيها، وأن يختار الكلمات المفهومة للناس ولا يتكلف السجع[١].

ورسم المكاتبة إلى الخطيب بالشام (دمشق) بالمجلس السامي بالياء ويتم تعيين الخطيب بموجب مرسوم شريف من السلطان المملوكي بالقاهرة[٢].

ومن الذين تولوا الخطابة بالجامع الأموي زين الدين الفارقي (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٢م) وعين بموجب مرسوم شريف في سلطنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثانية، وكذلك القاضي تقي الدين السبكي الذي تولى خطابة الجامع الأموي وكانت وفاته سنة (٧٥٦هـ/١٣٥٥م) [٣].

ويذكر الجزري في سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٧م) أنه وصل إلى دمشق على طريق البريد من القاهرة ودخل دار السعادة وسلم على نائب السلطنة، وقدم له تقليده بخطابة جامع دمشق، وتدريس الشامية الجوانية[٤]. وبموجب هذا التقليد تولى خطابة الجامع الأموي[٥].

وممن تولى وظيفة الخطابة بالمجامع المنصوري بطرابلس الشيخ زين الدين عمر بن علي بن أبي بكر المقري وكانت وفاته سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) [٦].

---

[١] السبكي، معيد النعم، ص ٦٥، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٠، ١٩٢.

[٢] ابن فضل الله العمري، ص ٩٩؛ القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٦٩.

[٣] ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج٢، ص١٨٥؛ القلقشندي، المصدر السابق، ج٤، ص٧٢.

[٤] ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص١٨٥.

[٥] المصدر نفسه، ج٢، ص١٨٥.

[٦] ابن قاضي شهبة، تاريخ م١، ج٣، ص٩٩؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٢، ص١٩١؛ خرابشة، نيابة طرابلس، ص١٠٦.

ومن الذين تولوا منصب الخطابة في نيابة حمص، الشمس محمد بن موسى بن عبد الله بن سليمان السبكي الحمصي[١] وشمس الدين محمد بن يوسف التدمري[٢].

ويلاحظ مما سبق حرص المماليك على تفعيل دور الخطيب في المدن الشامية، ويمكن استخلاص أهم التوجهات من خلال ما جاء في المرسوم السلطاني لخطيب الجامع الأموي بدمشق أبو محمد عبد الله بن مروان المعروف بزين الدين الفارقي[٣] وتمثلت بأهمية القِصر في الخطبة واختيار الموضوع الذي يناسب الوقت حيث ورد منها: "وليجعل خطبة كل وقت مقصورة على حكمة مقصودة "خير الكلام ما دل ببلاغته".

أما واجبات الخطيب فقد حددها ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) من خلال الوصية الخاصة بخطيب الجامع وتتمثل بما يلي[٤]:

١. مراعاة حق هذه الرتبة الشريفة التي ما أعدت إلا لإمام غيره.
٢. رفع الصوت بالتهديد والوعيد وخفضه "بلين القلوب القاسية".
٣. الشروع بالتوبة قبل الخطبة.
٤. اختيار الخطبة بما يناسب الحوادث.
٥. أن يؤم المصلين بالصلاة.
٦. المحافظة على الصلاة بأوقاتها.

---

(١) طرابلس، ص١٠٦.
(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص١١٥.
(٣) ابن الجزري، المصدر السابق، ج٤، ص٥٩٣.
(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص٧١ – ٧٢.

٤. نقيب الأشراف (في نيابات الشام)

إحدى الوظائف الدينية في بعض نيابات الشام، يتولاها نقيب الأشراف في النيابة ومهمته التدقيق في نسب الأشراف والتثبت منه ويمنع الاعتداء عليهم، وكان يعبر عنها في زمن الخلفاء المقتديين بنقابة الطالبين[١].

وكانت العادة بمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من رؤوس الأشراف في النيابة ويكتب إلى نقيب الأشراف "الأميري" ولو كان صاحب قلم (من أرباب الأقلام)، ويكتب له من الأبواب السلطانية بالقاهرة، بموجب مرسوم شريف، وأحيانا يستقل نواب السلطنة بدمشق وحلب وغيرها بتعيين نقيب الأشراف بتوقيع كريم، وهذه الوظيفة من الوظائف المعتبرة وهي مختصة بشخص واحد[٢].

ومن الشواهد التاريخية على ذلك أنه في نيابة دمشق كان نقيب الأشراف في سنة (٦٩٥هـ/١٢٩٤م) الشريف زين الدين بن عدنان الحسيني[٣]. وأحياناً كانت تشغر وظيفة نقيب الأشراف بدمشق كما هو الحال في سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٥م)، فهذا ابن الجزري (ت ٧٣٨هـ/١٣٣٧م) يقول: "ولم يكن يومئذ للأشراف نقيب[٤]. وفي سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥م) كان نقيب الأشراف بدمشق هو الشريف شرف الدين عدنان بن عدلان الحسيني واستمر إلى سنة (٧٣٣هـ/١٣٣٢م).

---

[١] العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٣١ – ١٣٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٨، ١٣٧، ٢٢٨، ج٩، ص٢٥٦، ج١١، ص١١٨، ج١٢، ص٤٥٥، ٤٥٦؛ خرابشة، نيابة طرابلس ص١٠٦.

[٢] التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٨٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٨، ١٣٧؛ ١٤٠، ص٢٧٧، ج١١، ص١٦١.

[٣] ابن الجزري، حوادث الزمان، ج١، ص٢٧٩.

[٤] المصدر نفسه، ص٣٢٩.

وممن تولى هذه الوظيفة بحلب أيضاً الشريف العلاء علي بن حمزة بن علي الحسني وكانت وفاته في سنة (٧٥٢هـ/١٣٥١م) [1]. والسيد الشريف بدر الدين محمد بن علي بن حمزة بن علي بن زهر بن الحسن بن زهرة[2]. وفي سنة(٧٦٦هـ/١٣٦٥م) توفي نقيب الأشراف بحلب السيد الشريف حسن بن محمد بن حسن الحسني[3]. وتولى هذه الوظيفة بمدينة طرابلس الأمير كمال الدين محمد البلدي في سنة (٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م) [4].

ولم يتوفر لدينا معلومات عن بقية النيابات في بلاد الشام كصفد والكرك وحمص، كما أنني لم أتعرض إلى بقية وبدءاً الوظائف في نيابات الشام ولذلك لكثرتها وتفاصيلها، وإنما اكتفيت بما تناولته من هذه الوظائف المختلفة بدأ من أرباب السيوف والأقلام والوظائف الدينية.

---

(١) ابن البرازلي، المصدر السابق، ج٤، ص٧؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج٢، ص٣٣.

(٢) ابن شاهين الظاهري، نيل الأمر، ج١، ص٢٧٢، وانظر ابن قاضي شهبة، تاريخ ج٣، ص٧٠ – ٧١.

(٣) ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ج١، ص٣٢٦.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٣٦٥.

الخاتمة

من خلال دراستنا للرسائل الديوانية في العصر المملوكي ومن خلال البحث في بداية كتابة الرسائل الديوانية، يلاحظ أن الأسس الأولى لكتابة الرسائل الرسمية بدأت منذ تأسيس الدولة الإسلامية؛ ففي رسائل الرسول ﷺ كانت البسملة أقدس وأهم العبارات التي زين بها رسائله عليه السلام، ثم دخلت كتابة الرسائل الديوانية مرحلة جديدة خلال العصر الأموي، حيث تم تأسيس ديوان الرسائل، كما وُضعت الأسس الأولى لكتابة الرسائل الديوانية، وثق نتاج كتّاب الإنشاء مشكلاً مرجعاً أساسياً لكتابة الرسائل في العصور الإسلامية، وفي العصر العباسي شهدت كتابة الرسائل ازدهاراً عكس التطور الأدبي لهذا العصر، وتولى كتابة الإنشاء عدد من أدباء العصر العباسي فأضافوا أساليبَ جديدةً لكتابة الرسائل.

ورُفدت كتابة الرسائل الديوانية في المراحل التالية بدعامات جديدة تمثلت بتصنيف الكتب التي تعنى بأساليب وفنون كتابة الرسائل وبصفات كتّاب الإنشاء، وكان ذلك خلال العصر الفاطمي والعصر الأيوبي.

أما في العصر المملوكي فقد سارت كتابة الرسائل الديوانية ضمن نفس المسار من حيث ازدهار ديوان الإنشاء، وتوثيق كتّاب الإنشاء للموروث الأولي، والاستفادة منه والزيادة عليه، هذا بالإضافة إلى قدرة كتاب الإنشاء على صياغة رسائل ديوانية تلبي حاجات خاصة متنوعة كالسياسية منها والإدارية.

قامت هذه الدراسة انطلاقاً من القيمة التاريخية للديوان وللرسائل الديوانية الصادرة عن السلاطين المماليك، وعلى أهمية توضيح هذه القيمة ضمن دراسة تاريخية سياسية وإدارية للرسائل الديوانية، وتم البحث في ذلك في محاور عدة إطارها تمهيد تاريخي وثلاثة فصول ويمكن إجمال أهم ما خلصت إليه على النحو التالي:

ارتكز التمهيد على تتبع البدايات الأولى لكتابة الرسائل الديوانية، وظهر من خلاله أن كتابة الرسائل الرسمية حاجة ملحة، وأن أهم ما يميز الرسائل هو التنوع التراكمي وفقاً لاتساع الدولة وتطور أسس كتابتها وفقاً للتطور الفكري في الدولة الإسلامية، أما ديوان الإنشاء فقد عكس تطوره مظاهر عناية الخلفاء المسلمين بكتابة الرسائل الديوانية.

الفصل الأول فقد قام على البحث في أنواع الرسائل الديوانية والجهة المكلفة بالإشراف عليها، وظهر من خلاله تعدد أنواع الرسائل الديوانية خلال العصر المملوكي، حيث شملت الجوانب السياسية كالمبايعات، والعهود، والمهادنات، والجوانب الإدارية؛ كالتقاليد والتواقيع والتفاويض والمراسيم وما شابهها من رسائل لإدارة الدولة، كما ظهر من خلال هذا الفصل أهمية التعريف بكل نوع من أنواع الرسائل، ولمحة عن الأسس الأدبية اللازمة لكتابتها، وربطها بأمثلة تاريخية تفيد في مجال التعريف بها.

كما أظهرت دراسة ديوان الإنشاء خلال هذا الفصل على أهمية الديوان بوصفه مؤسسة إدارية هامة من مؤسسات الدولة.

الفصل الثاني والذي تضمن البحث في الخلافة والسلطنة والعلاقات الخارجية من خلال الرسائل الديوانية، أظهر القيمة التاريخية للرسائل من نوع المبايعات والعهود في شرح منصب الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية، كما أظهر أن المهادنات بوصفها وثائق سياسية ذات فائدة كبرى في استخلاص ملامح العلاقات الخارجية للدولة المملوكية.

وأظهر الفصل الثالث – والذي تضمن البحث في التنظيم الإداري من خلال الرسائل الديوانية– فقد أظهر أن رسائل التعيين في وظائف الدولة كالتقاليد والتواقيع والمراسيم وغيرها من الرسائل ذات العلاقة كانت دليلاً على ترتيب الوظائف في الدولة المملوكية، كما كانت نصوص الرسائل من هذا النوع بمثابة أسس رسمية تبين واجبات موظفي الدولة والمهام الموكولة إليهم.

وأخيراً أظهرت عملية التنقيب عن الرسائل الديوانية ومحاولة تصنيفها أن هذه الرسائل معيناً لا ينضب، وهي مجالاً خصب لدراسات أخرى تبحث من جوانب الحيــاة المختلفــة فــي العــصر المملوكي.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية المخطوطة

- الصديقي البكري، أبو السرور بن محمد بن علي ت ١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨م، قطف الأزهار من الخطط والآثار، مخطوط وصور بمركز الوثائق والمخططات بالجامعة الأردنية، رقم الشريط

ثانياً: المصادر العربية المطبوعة

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، أُسد الغابة من معرفة الصحابة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.
- البرزالي، أبو محمد عالم الدين القاسم بن محمد بن يوسف الاشبيلي الدمشقي (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٩م)، المقتفي على الروضتين، (المعروف بتاريخ البرزالي)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦م.
- البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ)؛ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- بيبرس الدوادار، ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري، (ت٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، التحفة الملكوية في الدولة التركية، نشره وقدم له ووضع فهارسه، عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م.
- بيبرس الدوادار، مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، تحقيق: عبد اللطيف صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٣م.

- بيبرس، الدوادار، ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠١م.
- ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوفي، ج٨، تحقيق محمد أمين، تقديم سعيد عاشور، ج٣، ج٥، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤- ١٩٨٩.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- ابن جبير، محمد بن أحمد الكتاني (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، الرحلة المسماة تذكرة بالأخبار في اتفاقيات الأسفار، علق عليه إبراهيم شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.
- ابن الجزري، تاريخ حوادث الزمان، تحقيق عمر عبد السلام، تدمري، المكتبة العصرية، (بيروت – صيدا)، ١٩٩٨م.
- الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس، (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م)، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد أمين، مراجعة: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م.

- ابن حجر العسقلاني، أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علـــي (ت٨٥٢ /هـــــ ١٣٦١م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائـــرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ١٩٧٢.
- ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هــ/١٤٤٩م)، إنباء الغمـــر بأبنـــاء العمر، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
- الحلبي، شهاب الدين محمود (ت ٧٢٥ هــ)، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق: أكـــرم عثمان يوسف، الجمهورية العراقية، دار الرشيد، ١٩٨٠م.
- ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي (ت ٥٦٢هــ/١١٦٦م)، التذكرة الحمدونيـــة، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م.
- الخزنداري، قرطاي العزي (٧٠٨هــ/١٣٠٧م)، تاريخ مجموع النوادر ممـــا جـــرى للأوائـــل والأواخر، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط١، بيروت، صيدا: المكتبة العـــصرية للتوزيـــع والنشر، ١٤٢٦هــ/٢٠٠٥م.
- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هــ/١٤٠٦م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيـــروت، ١٩٩٢م، (مج١ مقدمة ابن خلدون).
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد (ت ٦٨١هــ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبنـــاء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤.
- خليفة بن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط الليثي العصفري (ت ٢٤٠هــ/٨٥٤م)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، (دار القلم، دمشق– بيروت) و(دار الرسالة، بيـــروت)، ١٩٧٧م.

- ابن دقماق، الجوهر الثمين، تحقيق: محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، سير أعلام النبلاء ط٢، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، إشراف: شعيب الارنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٨م.
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م): معيد النعم ومبيد النقم، ط٢، تحقيق: حمد علي النجار وآخرون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٣م.
- السحماوي، شمس الدين محمد (ت٨٦٨هـ/١٤٦٤م)، الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم (المعروف باسم المقصد الرفيع الهادي لديوان الإنشا للخالدي)، دراسة وتحقيق: أشرف محمد أنس، القاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٩م.
- السخاوي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.
- السخاوي، وجيز الكلام، تحقيق بشار عواد وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨.
- ابن سعد، محمد بن منيع الزهري، (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، كتاب الطبقات الكبير (المعروف بالطبقات الكبرى) تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠١م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، عُني بتحقيقه: إبراهيم صالح، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، (د.م)، ١٩٦٨م.
- ابن شاكر الكتبي، محمد (ت ٧٦٤ هـ)، عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر ونبيله عبد المنعم داوود، الجمهورية العراقية، دار الرشيد، ١٩٨٠م.

- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٧م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق محمد زاهد الحسن، ووعزت العطار الحسيني، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م.
- ابن شاهين الظاهري، زين الدين عبد الباسط بن خليل الظاهري الحنفي (ت٩٢٠هـ/١٥١٥م) نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م.
- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت٦٨٤هـ/١٢٨٢م)، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء: أحمد حطيط، دار فرانز شتاير، فيسبان، ١٩٨٣م.
- صالح بن يحيى، ٨٤٠هـ/ ١٤٣٧م، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي، وكمال سليمان الصليبي وآخرون، دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية)، بيروت، لبنان، ١٩٦٩م.
- ابن صصرى، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، ط١، تحقيق ولـيم م. بيرنتر، جامعة كاليفورنيا بركلي.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، باعتناء: ريد رينغ، دار فرانزشتايز، فيسبادن، ١٩٨٢.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد، مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٧م.
- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ وقيل ٣٣٦هـ)، أدب الكتاب (المعروف بأدب الكاتب)، نسخة وعني بتصحيحه: محمد بهجة الأثري، بغداد، (د.ن)، ١٣٤١هـ.
- ابن الصيرفي، أبو القاسم علي بن منجب (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م)، كتاب نتاج المذاكرة، تحقيق، إبراهيم صالح، دمشق، دار البشائر.

- الصيرفي، الخطيب الجوهري علي بن داود، (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دار الكتاب، القاهرة، ١٩٧١م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك (المعروف بتاريخ الأمم والملوك)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٧.
- الطرسوسي، نجم الدين إبراهيم بن علي (ت٧٥٨هـ)، تحفة الترك في ما يجب أن يُعمل في المُلك، تحقيق ودراسة: رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٢م.
- ابن الطقطقي، محمد بن علي المعروف بابن طباطبا (ت ٧٠١هـ/١٣٠١م)، الفخري في الآداب السلطانية، تحقيق: عبد القادر مايو، مراجعة: أحمد فرهود، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٧م.
- ابن عبد الظاهر محي الدين (ت ٦٩٣هـ/١٢٩٢م) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل ومحمد النجار، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م.
- ابن عبد الظاهر، محي الدين (ت ٦٩٣هـ/ ١٢٩٢م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، د. ن، الرياض، ١٩٧٦م.
- العسقلاني، شافع بن علي الكاتب(ت ٧٣٠هـ/١٣٣٠م) الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، (صيدا، بيروت) ١٩٩٨.
- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق ودراسة: مصطفى عبد القادر عطاالله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

- العيني، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧.
- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر، عبق عليه ووضع حواشيه: محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) تقويم البلدان، تصحيح م. رينود، ماك كوكين دي سلان، دار صادر، بيروت (د.ت).
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥م) تاريخ ابن الفرات، حققه وضبط نصه: قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين.
- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م.
- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (دولة المماليك الأولى)، دراسة وتحقيق: دوروتيا كرافوليسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٩٨٦م.
- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد الأسدي الدمشقي، (ت٨٥١هـ/ ١٤٤٨م)، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٧م.
- القرماني، أحمد بن يوسف الدمشقي، (ت١٢٨٣هـ/١٨٦١م)، أخبار الدول وآثار الأول، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).
- ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق، ط ١، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

- القلقشندي، أحمد بن يحيى (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: محمد حسين شمس الدين وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.
- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي (ت٧٤٧هـ)، البداية والنهاية، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
- ابن كنان، محمد بن عيسى (ت ١١٥٣هـ)، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تحقيق ودراسة: حكمت إسماعيل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م.
- ابن كنان، محمد بن عيسى (ت ١١٥٣هـ)، حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق: عباس صباغ، دار النفائس، بيروت، ١٩٩١م.
- الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الأحكام السطانية (د.ن)، بغداد، ١٩٨٩م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرح وضبط: عفيف حاطوم، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥م.
- المقريزي، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتبة العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- المقريزي، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دولا لملوك، حققه واعتنى بنشره، محمد نصطفى زيادة، وسعيد عبد الفتاح عاشور، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.
- ابن منظور، إسماعيل بن محمد الإفريقي (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٨٥م.

- ابن ناظر الجيش، تقي الدين عبد الرحمن بن محب الدين محمد التميمي الحلبي، (ت٧٨٦ هـ/ ١٣٨٤م)، تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: رودولف فسلي، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، د.ت. نشر الكتاب في مجلد واحد.
- إبن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م)، الفهرست، تحقيق وضبط: يوسف علي الطويل، فهرسة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: علي بو ملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصري، بيروت، ٢٠٠٤م.
- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر، (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦.
- ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله الرومي، (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم الأدباء، أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.
- ــــــــــــ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م، ج٢.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ/٨٩٦م) كتاب البلدان، وضع حواشيه وعلق عليه محمد أمين ضناوي، ط ١، دار الكتب العلمية ، بيروت، ٢٠٠٢م. ص ١١٦.
- ــــــــــــ، أحمد بن أبي يعقوب، بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م)، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م.
- أبو يعلى الحنبلي، الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه ماجد الفقي، ط٢، القاهرة ١٩٦٢م.

- اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت ٧٥٩هـ /١٣٥٨م)، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق ودراسة: أحمد حطيط، عالم الكتب ، بيروت، ١٩٩٦.
- اليونيني، قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة العارف العثمانية، حيدر أباد الركن، (الهند)، ١٩٥٥م.

ثالثاً: المراجع العربية الحديثة

- الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مصر، دار النهضة العربية، ١٩٧٨.
- الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ، دار النهضة العربية، مصر، ط ١٩٨٧.
- البرهاوي، رعد محمود، خدمات الوقف الإسلامي، دار الكتاب الثقافي، ط١، اربد، ٢٠٠٦.
- بطانية، محمد ضيف الله، دراسات في تاريخ الخلفاء الأمويين. دار الفرقان (عمان- اربد)، ١٩٩٩م.
- بطاينة، محمد ضيف الله، الحضارة الإسلامية، دار الفرقان، (عمان- اربد)، ٢٠٠٢م.
- البقلي، محمد قنديل، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣.
- حبشي، حسن، ديوان الإنشاء نشأته وتطوره، بحث ضمن كتاب أبو العباس القلقشندي وكتابة – صبح الأعشى، تقديم: أحمد عزت عبد الكريم،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.
- حجة، شوكت، العلاقات بين دولة المماليك ودولة الليخائية فارس، ط أولى، دار اليازودي، ٢٠١١.
- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ط٧، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م.

- حسن، أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٥.
- حسن، صفوان طه، تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار الفكر، عمان، ٢٠١٠م.
- حمادة، محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي (٦٥٦-٩٢٢هـ/١٢٥٨-١٥١٦م) "دراسة ونصوص"، مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٩٨٠م.
- حمادة، محمد، ماهر، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي (٤٨٩-١٢٠٦هـ/ ١٠٩٦ - ١٤٠٤م) (دراسة نصوص)، ط ٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦.
- حمزة عادل، نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- الحياري، مصطفى، الإمارة الطائية في بلاد الشام، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٧.
- خرابشة، سليمان، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٣.
- الخطيب، عبد الكريم؛ الخلافة والإمامة، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥.
- خماش، نجدة، الإدارة في العصر الأموي، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٠.
- الدباغ، مراد مصطفي، موسوعة بلادنا فلسطين، دار الهدي، كفر قرع، ٢٠٠٠م.
- الدوري، عبدالعزيز، النظم الإسلامية، بغداد، جامعة بغداد، ١٩٨٨.
- الرزاز، حسن، عواصم مصر، دار الشعب، القاهرة، ١٩٩٥.
- رستم، سعد، الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، الأوائل للنشر واالتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤م.
- الزبيدي، مفيد، العصر المملوكي (٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٨- ١٥١٧م) دار أسامة، عمان، ٢٠٠٣م.

- زكار، عبد القادر، نصوص مختارة من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨١.
- زناتي، أنور، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١١.
- سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢م.
- سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ الدولة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٣.
- سالم، السيد عبد العزيز، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مطابع رمسيس، الإسكندرية، ١٩٧٦م.
- سبانو، أحمد غسان، مملكة حماة الأيوبية، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٤.
- سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، الجماميز، مكتبة الآداب ومطبعتها، ١٩٥٥م.
- سيد، أيمن فؤاد الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد) القاهرة الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠م.
- شامي، يحي، موسوعة المدن العربية والإسلامية، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٣م.
- شبارو، عصام محمد، السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤م.
- شُرَّاب، محمد بن محمد حسن، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، دار القلم، دمشق، ١٩٩٠م.
- الشلبي، فيصل، بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية الثانية (١٣٨١– ١٥١٧م) دار الزمان، د.ن، ٢٠٠٨م.

- صفوت، أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، (الجزء الثاني/ العصر الأموي)، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٣٣م.
- صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة (الجزء الثالث/ العصر العباسي الأول)، المكتبة العلمية، بيروت.
- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣م.
- الصياد، فؤاد، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٠م.
- ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، دار المعارف، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢م.
- ــــــــــــ، تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات مصر الشام)، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤م.
- الطاهري، حمدي، الموسوعة العربية، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٩٩٥.
- الطراونة، طه ثلجي، مملكة صفد في عهد المماليك، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢م.
- الطراونة، مبارك محمد، نيابة طرابلس، في العهد المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الاردنية، عمان، ١٩٩٦م.
- طرخان، إبراهيم، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك بحث ضمن موسوعة الحضارة الإسلامية، القاهرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٧.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٠م.

- عاشور، سعيد، عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، ط٢، دار النفــائس، بيــروت، ١٩٩٩مم.
- عاشور، فايد، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤م.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، دار النضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦م.
- عبد الدائم، عبد الله، "التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين"، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٥م.
- عبد اللطيف، حمزة، القلقشندي في كتابه صبح الأعشى (عرض وتحليل)، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦١م.
- عدوان، أحمد محمود محمد، العسكرية الإسلامية في العصر المملــوكي، دار عــالم الكتــب، الرياض، ١٩٨٥م.
- العريس، محمد، موسوعة التاريخ الإسلامير (العــصر المملــوكي)، دار اليوســف، بيــروت، ٢٠٠٥م.
- عيسى بك أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط٢، دار الرائد العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ط٢، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٨٢م.
- غوانمة، تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الزرقاء، ١٩٨٢م.
- غوانمة، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، ط١، دار الفكر للنشر والتوزيع.
- ماجد، عبد المنعم، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المــصرية، القاهرة، ١٩٦٧م.

- المجموعة الكاملة لآثار ابن المقفع، تحقيق: مصطفى لطفي المنفلوطي، والشيخ طاهر الجزائري، تقديم: عمر أبو النصر، (د،ن)، (د.م)، ١٩٦٦م.
- محاميد، حاتم محمد، التطورات في نظام الحكم والإدارة في مصر الفاطمية، القدس، (د.ن)، ٢٠٠١م.
- محمد بني يونس، محمد، ولاية البلقاء واستدارية الأغــوار فـــي العـــصر المملـــوكي (٦٥٩-٩٢٩هـ/١٢٦١-١٥١٦م) رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة الجنان، طرابلس، ٢٠١١م.
- ___________، نيابة عجلون في العصر المملوكي (٦٥٩-٩٢٩هـ/١٢٦١-١٥١٦م) رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، ٢٠٠١م.
- مصطفى، محمود، الأدب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي، المؤسسة المصرية العامة، ودار الكتاب العربي، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦٧.
- مقامي، نبيلة إبراهيم، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالـــث عشر، القاهرة، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، ١٩٩٤م.
- المومني، محمود عبدالله، خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان (١٠١ - ١٠٥هـ/٧٢٠ - ٧٢٤م)، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٩٩١م.
- النبراوي، فتحية، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ط٢. الدار السعودية للنشر والتوزيع جدة، ط٧، ٢٠٠٥م.
- الهروط، عبد الحليم حسين، الرسائل الديوانية في مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر (المضمون والأهمية والشكل)، دار جريد، عمان، ٢٠٠٦م.

رابعاً: المراجع الأجنبية المترجمة:

- البخيت محمد عدنان، مملكة الكرك في العهد المملوكي، (د.ن)، عمان، ١٩٧٦م
- جبران، نعمان محمود، مملكة حماة في العهدين الأيوبي والمملوكي الأول (٥٧٠-٧٨٣هـ/١١٧٤-١٣٨١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨١م.
- جومار، آدم فرانسوا، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة: أيمن فؤاد السيد، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨٨م.
- حطيط، أحمد، قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري، دار الفرات، بيروت، ٢٠٠٣م.
- الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.
- ريمون، اندريه: القاهرة تاريخ حاضره، ترجمة: لطيف فرج، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٤م.
- زيتون، عادل، تاريخ المماليك، جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠١م.
- ضومط، انطوان خليل، الدولة المملوكية (التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري)، ط٢، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٢م.
- طرخان، إبراهيم، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٦٠م.
- طقوش، محمد، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٧م.
- العابدي، محمود سليمان، الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٧٣م.
- العودات، يعقوب، القافلة المنسية من أعلام الأردن، ١٩٠٩-١٩٧١م، الدار العربية، عمان، ٢٠٠٩م.

- فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ترجمة: أنيس فريحة ومراجعة نقولا زيادة، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر (بيروت – نيويورك) سنة ١٩٥٩م.
- لابيدوس، ايرا، مدن الشام في العصر المملوكي، نقله إلي العربية وقدم له : سهيل زكار، دار الإحسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٥م.
- المومني، سعد محمد، القلاع الإسلامية في الأردن دراسة تاريخية أثرية استراتيجية، دار البشير، عمان، ١٩٨٨م.

خامساً: المراجع الأجنبية:

- Ayallon, D; The Mamluk Military Society,collected studies, London, 1979.

الملاحـــق

ملحق رقم (١)

نص هدنة

نسخة الهدنة واليمين على الهدنة التي عقدت بين المنصور قلاوون وبين ليفون بن هيتون متملك (حاكم) سيس سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٦م)

نقلاً عن: ابن عبد الظاهر، التشريف، ص ٩٣-١٠٢

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدين أبي الفتح قلاون الملكي الصالحي، وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين على خلد الله سلطانهما وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعثليث وبلادها التي انعقدت عليها هذه الهدنة وهم السنجال ارد كفيل المملكة بعكا وحضرة المقدم الجليل افرير كليام ديباجوك مقدم بيت الديوية وحضرة المقدم الجليل افرير نيكول للورن مقدم بيت الاسبتار والمرشان الاجل افرير كورات نايب مقدم بيت الاسبتار الامن لمدة عشر سنين كوامل وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع الأول سنة اثنين وثمانين وستماية للهجرة النبوية صلوات الله على صاحبها وسلامه الموافق للثالث من حزيران سنة ألف وخمسمائية وأربعة وتسعين للاسكندر بن فيلبس اليوناني على جميع بلاد السلطان وولده وهي التي في تملكها وتحت حكمها وطاعتهما وتحويه يدهما يوميذ من جميع الأقاليم والمماليك والقلاع والحصون والأعمال والمدن والقرى والمزارع والاراضي وهي مملكة الديار المصرية حرسها الله تعالى وما بها من الثغور والقلاع والحصون الإسلامية وثغر دمياط وثغر الاسكندرية المحروسين ونستروة وسنترية وما ينسب إليها من المواني والسواحل والبرور وثغر فوّة وثغر رشيد والبلاد الحجازية وثغر غزة المحروس وما معها من الموانئ والبلاد والمملكة الكركية والشوبكية وأعمالها والصلت وأعمالها وبصرى وأعمالها ومملكة بلاد الخليل صلوات الله عليه وسلامه ومملكة القدس الشريف وأعمالها والأردن وبيت لحم وأعماله وبلادها وعسقلان وأعمالها وموانئها وسواحلها ومملكة يافا والرملة وميناؤها وقيسارية ومينازعها وسواحلها وأعمالها وارسوف وأعمالها وقلعة قاقون وأعمالها وبلادها ولد وأعمالها وأعمال العوجاء وما معها من الملاحة والفتوح السعيد وأعمالها ومزارعها وذكر بقية بلاد الإسلام التي معها من الملاحة والفتوح السعيد وأعمالها ومزارعها وذكر بقية بلاد الإسلام التي هي في مملكة الملك المنصور وولده ثم ذكر بعد ذلك ما صيغته وجميع ما هو لمولانا السلطان وولده من البلاد التي عينت في هذه الهدنة المباركة والتي لم تعين وعلى جميع العساكر وعلى جميع الرعايا من ساير الناس أجمعين على اختلافهم وتغاير أنفارهم وأجناسهم وأديانهم القاطنين فيها والمترددين إليها ومنها من ساير بلاد المسلمين وعلى جميع التجار والسفار والمترددين في البر والبحر والسهل والجبل في الليل والنهار يكونون امنين مطمئنين في حالتي صدورهم وورودهم على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وحريمهم وبضايعهم وغلمانهم واتباعهم ومواشيهم ودوابهم وعلى جميع ما يتعلق بهم وكلما تحوي ايديهم من ساير الأشياء على اختلافها من الحكام بمملكة عكا وذكر ما قدمنا شرحه من اسمايهم ومن جميع الفرنج والفرسان الداخلين في طاعتهم وتحويه مملكتهم الساحلية ومن جميع الفرنج على اختلافهم الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في الهدنة وكل واصل إليها في بر أو بحر على اختلاف أجناسهم وأنفارهم لا ينال بلاد السلطان وولده ولا حصونهما ولا قلاعها ولا بلادهما ولا ضياعهما

ولا عساكرهما ولا جيوشهما ولا عربهما ولا تركمانهما ولا أكرادهما ولا رعاياهما على اختلاف الاجناس والانفار ولا ما تحويه أيديهم من المواشي والاموال والغلال وساير الأشياء منهم بغدر ولا سوء ولا يخشون من جهتهم أمراً مكروهاً ولا إغارة ولا تعرضاً ولا أذية وكذلك كلما يستفتحه ويضيفه السلطان وولده على يدهما وعلى يد نوابهما من عساكرهما من بلاد وحصون وقلاع وملك وأعمال وولايات براً وبحراً سهلاً ووعراً. وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت الآن عليها هذه الهدنة المباركة وهي مدينة عكا وبساتينها وأراضيها وطواحينها وما يختص بها من كرومها وما لها من حقوق حولها وما تقرر لها من بلاد في هذه الهدنة وذكر أسماء البلاد التي استقرت الآن عليها هذه الهدنة ثم ذكر بعد ذلك ما صيغته وتكون جميع هذه البلاد العكاوية وما عين في هذه الهدنة المباركة من البلاد الساحلية آمنة من السلطان الملك المنصور وولده الملك الصالح وآمنة من عساكرهما وجنودهما ومن خدمتها وتكون هذه البلاد المشروحة الداخلة في هذه الهدنة المباركة الخاص منها وما هو مناصفة مطمينة هي ورعاياها وساير أجناس الناس فيها والقاطنين بها والمترددين إليها على اختلاف أجناسهم وأديانهم والمترددين إليها من جميع بلا الفرنجية والتجار والسفار والمترددين منها وإليها في بر وبحر في ليل أو نهار وسهل وجبل امنين على النفوس والأموال والأولاد والمراكب والدواب وجميع ما يتعلق بهم وكلما تحويه أيديهم من الاشياءعلى اختلافها من السلطان وولده ومن جميع من هو تحت طاعتهم لا ينالهم ولا ينال هذه البلاد المذكورة التي انعقدت الهدنة عليها سوء ولا ضرر ولا إغارة ولا ينال إحدى الجهتين المذكورتين الإسلامية والفرنجية من الأخرى ضرر ولا أذية ويكون ما تقرر انه يكون خاصاً للفرنج حسبما بين أعلاه لهم وما تقرر أن يكون للسلطان ولولده يكون خاصاً لهما والمناصفات تكون كما شرح ولا يكون للفرنج من البلاد والمناصفات إلا ما شرح في هذه الهدنة وعُين فيها من البلاد وعلى أن الفرنج لا يجددون في غير عكا وعثليت وصيدا مما هو خارج عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات لا قلعة ولا برجاً ولا حصناً قديماً ولا مستجداً وعلى أنه متى هرب كايناً من كان من بلاد السلطان وولده إلى عكا والبلاد الساحلية المعينة في هذه الهدنة وقصد الدخول في دين النصرانية ولا يتنصر رد إلى أبوابها العالية بجميع ما يروح معه بشفاعة معه بعد أن يعطى الامان وكذلك إذا حضر أحد من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ويقصد الدخول في دين الإسلام وأسلم باراداته يرد جميع ما معه ويبقى عرياناً وإن كان ما يقصد الدخول في دين الإسلام ولا يُسلم يُرد إلى الحكام بعكا كفيل المملكة والمقدمين بجميع ما يروح معه بشفاعة بعد أن يعطى الامان وعلى أن الممنوعات المعروف منعها قديماً تستقر على قاعدة المنع من الجهتين ومتى وجد صحبة أحد من تجار بلاد السلطان وولده من المسلمين وغيرهم على اختلاف أديانهم وأجناسهم شيء من الممنوعات بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة مثل عدة السلاح وغيره تعاد على صاحبه الذي اشتراه منه ويعاد إليه ثمنه ولا يؤخذ ماله استهلاكاً ولا يؤذي بسبب ذلك لا هو ولا ماله وكذلك إذا طلع تجار الفرنج من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة على اختلاف أجناسهم وأديانهم ووجد معهم شيء من الممنوعات مثل عدة سلاح وغيره يعاد على صاحبه الذي اشتراه منه ويعاد إليه ثمنه ويرد ولا يؤخذ ماله استهلاكاً ولا يؤذي وللسلطان ولولده أن يفتصلا فيمن يخرج من بلادهما من رعيتها على اختلاف أديانهم وأجناسهم بشيء من الممنوعات وكذلك كفيل المملكة بعكا والمقدمون لهم أن يفتصلوا في

رعيتهم الذين يخرجون بالممنوعات من بلادهم الداخلة في هذه الهدنة ومتى أخذت أخيذة من الجانبين أو قتل قتيل من الجانبين على أي وجه كان والعياذ بالله ردت الأخذة بعينها إن كانت موجودة أو قيمتها إن كانت مفقودة والقتيل يكون العوص عنه بنظيره من جنسه فارس بفارس وبركيل ببركيل وتاجر بتاجر وراجل براجل وفلاح بفلاح فإن خفي أمر القتيل والأخيذة كانت المهلة في الكشف أربعين يوماً فإن ظهرت الأخيذة أو تعين أمر المقتول ردت الاخيذة بعينها ويكون العوض عن القتيل بنظيره وإن لم تظهر كانت اليمين على والي المكان المدعى عليه وثلث نفر يقع اختيار المدعي عليهم من تلك الولاية وإن امتنع الوالي عن اليمين حلف من الجهة المدعية ثلثة نفر تختارهم الجهة الأخرى قيمتها وإن لم ينصف الوالي ولا رد المال انهى المدعي أمره إلى الحكام من الجهتين وتكون المهلة بعد الانهاء أربعين يوماً ويلزم الولاة من الجهتين بالوفاء بهذا الشرط ومتى اخفوا قتيلاً أو أخيذة أو قدروا على أخذ حق ولم يأخذه كل واحد في ولايته يتعين على الذي يوليه من ملوك الجهتين اقامة السياسة فيه من اخذ الروح والمال والشنق والانكار التام على من يتعين عليه الانكار إذا فعل ذلك في ولايته وأرضه وإن هرب أحد بمال واعترف ببعضه وانكر بعض ما يدعى به عليه لزمه أن يحلف أنه لم يأخذ سوى ما رده فإن لم يقتنع المدعي بيمين الهارب حلف والي تلك الولاية إنه لم يطلع على أنه وصل معه غير ما رده وإن أنكر أنه لم يصل معه شيء. أصلاً يستحلف الهارب أنه لم يصل معه للمدعي شيء ويحلف والي تلك الجهات على أنه لم يصل معه شيء. وعلى أنه إذا انكسر مركب من مراكب تجار السلطان وولده التي انعقدت عليها الهدنة ورعيتها من المسلمين وغيرهم على اختلاف أجناسهم وأديانهم في ميناء عكا وسواحلها والبلاد الساحلية التي انعقدت عليها الهدنة كان كل من فيها آمناً على الانفس والاموال والامتاع والمتاجر فإن وجدوا أصحاب هذه المراكب التي تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم إليهم وإن عدموا بموت أو غرق أو غيبة يحتفظ بموجودهم ويسلم لنواب السلطان وولده وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد السلاحلية المنعقدة عليها الهدنة للفرنج يجري لها مثل ذلك في بلاد السلطان وولده ويحتفظ بموجودها إن لم يكن صاحبها حاضراً إلى أن يسلم لكفيل المملكة بعكا والمقدمين ومتى توفي أحد من التجار المترددين الصادرين والواردين على اختلاف أجناسهم وأديانهم من بلاد السلطان وولده في عكا وصيدا وعثليث والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة يحتفظ على ماله إلى أن يوصل إلى نوابها وكذلك التجار الصادرين والواردين المترددين من عكا وصيدا وعثليث والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة على اختلاف اجناسهم وأديانهم إذا توفي أحد في البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة يحتفظ على ماله إلى حين يسلم إلى كفيل المملكة بعكا والمقدمين وعلى أن شواني السلطان وولده إذا عُمرت وخرجت لا تتعرض لأذية من البلاد الساحلية التي انعتقدت عليها هذه الهدنة ومتى قصدت هذه المذكورة جهة غير هذه الجهات وكان صاحب تلك الجهات معاهداً للحكام بمملكة عكا فلا تدخل إلى البلاد التي انعتقدت عليها هذه الهدنة ولا تتردد منها وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشواني المنصورة معاهداً للحكام بمملكة عكا والبلاد التي انعقدت عليها الهدنة فلها إن تدخل إلى بلادها وتتزود منها وان تكسر شيء من هذه الشواني والعياذ بالله في ميناء من موانئ البلد التي انعقدت عليها الهدنة وسواحلها فإن كانت قاصدة من له مع مملكة عكا ومقدمي موتها عهداً ولم يكن لهم معهم عهد فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت حفظها ويمكن رجالها من الزوادة واصلاح ما انكسر منها والعود

إلى البلاد الإسلامية ويبطل حركة ما ينكسر منها والعياذ بالله أو يرميه البحر هذا إذا كانت قاصدة بلاد من له مع مملكة عكا ومقدميها عهد فإن لم يكن لها معهم عهد فلما أن تتزود وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة وتتوجه إلى الجهة المرسوم لها بقصدها ويعتمد هذا الفصل من الجهتين وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجية وغيرهم من جوا البحر لقصد الحضور لمضرة السلطان وولده في بلادهما المنعقد عليها هذه الهدنة فيلزم نايب المملكة والمقدمين بعكا أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة في الهدنة بمدة شهرين وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين فيكون كفيل المملكة بعكا والمقدمون بريين من عهدة اليمين في هذا الفصل ومتى تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم فاي من سبق الخبر إليه من الجهتين يعرف الجهة الأخرى بما سبق الخبر إليه من أمرهم وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية والعياذ بالله عدو من التتار وغيرهم في البر وانحازت العساكر الإسلامية من قدام العدو ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بمضرة فلكفيل المملكة بعكا والمقدمين بها أن يدرأوا عن نفوسهم ورعيتهم وبلادهم بما يصل قدرتهم إليه وإن حصل والعياذ بالله جفل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة فيلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ويكونون امنين مطمئنين بما معهم وعلى أن النايب بملكه عكا والمقدمين بها يوصون في ساير البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليها أنهم لا يمكنون حرامية البحر من الزواة من عندهم ولا من حمل ماء وإن ظفروا بأحد منهم يمسكونه وإن كانوا يبيعون عندهم بضايع فيمسكم كفيل المملكة بعكا والمقدمون حتى يظهر صاحبها وتسلم إليه وكذلك يعتمد السلطان وولده ويعتمد في أمر الحرامية هذا الاعتماد من الجهتين وعلى أن الرهاين بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة كل من عليه منهم مبلغ وعلى أن الرهاين بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة كل من عليه منهم مبلغ أو غلة فيحلف والي ذلك المكان الذي منه الرهينة ويحلف المباشر والكاتب في وقت واحد هذا الشخص رهينة أنه عليه كذا وكذا من دراهم أو غلة أو بقر أو غيره فإذا حلف هذا الشخص رهينة أنه عليهخ كذا وكذا من دراهم أو غلة أو بقر أو غيره فإذا حلف الوالي والمباشر والكاتب قدام نايب السلطان وولده على ذلك يقوم أهل الرهينة عنه بما للفرنج عليه ويطلقونه وأما الرهاين الذين أخذوا منسوباً إلى الجفل والاختشاء أنهم لا يهربون إلى بلاد الإسلام ويمتنع الولاة والمباشرون من اليمين عليهم فاوليك يطلقون وعلى أنه لا يجدد على التجار المسافرين الصادرين والواردين من الجهتين حتى لم تجر به عادة ويجروا على عوايدهم المستمرة إلى آخر وقت ويؤخذ منهم الحقوق على العادة المستقرة ولا يجدد عليهم رسم ولا حق ولا تجر به عادة وكل مكان عرف باستخراج الحق فيه استخرج بذلك المكان من غير زيادة من الجهتين ويكون التجار والسفار والمترددون آمنين مطمئنين محفزين من الجهتين في حالتي سفرهم وإقامتهم وصدورهم وورودهم بما صحبتهم من الاصناف والبضايع التي هي غير الممنوعة وعلى أنه ينادى في البلاد الإسلامية والبلاد الفرنجية الداخلة في هذه الهدنة انه من كان من فلاحي بلاد الإسلام يعود إلى بلاد المسلمين مسلماً كان أو نصرانياً وكذلك من كان من فلاحي بلاد الفرنج يعود إلى بلاد الفرنج مسلماً كان أو نصرانياً معروفاً قرارياً من الجهتين ومن لم يعد بعد المناداة يطرد من الجهتين ولا يمكن فلاحوا بلاد المسلمين من المقام في بلاد الفرنج المنعقد عليها هذه الهدنة ولا فلاحوا بلاد الفرنج من المقام في بلاد الفرنج المنعقد عليها هذه الهدنة

ولا فلاحوا بلاد الفرنج من المقام في بلاد المسلمين التي انعقدت عليها هذه الهدنة ويكون عود الفلاح من الجهة إلى الجهة الخرى بأمان وعلى أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت إليها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب كبيرهم وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ويصلي بالكنيسة الاقساء والرهبان وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة وإذا نقبت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمي براً ولا يحط حجر منها على حجر لأجل بناية ولا يتعرض إلى الاقساء ولا الرهبان وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصليب بغير حق ويلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة من نفسهما وعساكرهما وجنودهما ومن جميع المتحرمة والمتلصصين والمفسدين ممن هو داخل تحت حكمهما وطاعتهما ويلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين بها حفظ هذه البلاد الإسلامية المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة من نفسهم وعساكرهم وجنودهم وجميع المتحرمة والمتلصصين والمفسدين ممن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم بمملكتهم الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ويلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت بها الحكام بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة القيام بما تضمنته هذه الهدنة من الشروط جميعها شرطاً شرطاً وفصلاً فصلاً والعمل بأحكامها والوقوف عند شروطها إلى انقضاء مدتها ويفي كل منهم بما حلف من الإيمان المؤكدة من أنه يفي بجميع ما في هذه الهدنة على ما خلفوا به تستمر هذه الهدنة المباركة بين السلطان وولده وأولادهما وأولاد أولادهم وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعثليث وهم السنجال اود والمقدمون المذكورون فلان وفلان إلى أخرها لا تتغير بموت أحد ملوك الجهتين ولا بتغير مقدم وتولية غيه بل تستمر على حالها إلى آخرها وانقضايها بشروطها المحررة وقواعدها المقررة كاملة تامة ومتى انقضت هذه الهدنة المباركة أو وقع والعياذ بالله فسخ كانت المهلة في ذلك أربعون يوماً من الجهتين وينادى برجوع كل أحد إلى وطنه بعد الاشهار ليعود الناس إلى موطنهم آمنين مطمئنين ولا يمنعوا من السفر من الجهتين ولا تبطل بعزل أحد الجهتين وتستد أحكامها متتابعة متوالية بالسنين والشهور والايام إلى انقضايها ويلزم المعزول والمتولي حفظها والعمل بشروطها إلى آخر مدتها المعينة تستمر هذه الهدنة بشروطها وفصولها وفروعها وأصولها ويجري الحال فيها على أجمل الحالات إلى آخرها وعلى جميع ذلك وقع الرضا والصلح والاتفاق وحلف عليها من الجانب والله الموفق.

نسخة اليمين التي حلف السلطان الملك المنصور عليها في هذه الهدنة المباركة أقول وأنا والله والله والله وبالله وبالله وتالله وتالله وتالله والله العظيم الطالب الغالب الضار النافع المدرك المهلك عالم ما بدا وما خفا عالم السر والعلانية الرحمن الرحيم وحق القرآن ومن أنزله ومن أنزل عليه وهو محمد ابن عبد الله ﷺ وما يقال فيه من سورة سورة وآية آية وحق شهر رمضان انني افي بحفظ هذه الهدنة المباركة التي استقرت بيني وبين مملكة عكا والمقدمين بها على عكا وعثليث وصيدا وبلادها التي تضمنتها هذه الهدنة التي مدتها عشرة سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشرة ساعات أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستماية للهجرة من أولها إلى آخرها وأحفظها والتزم بجميع شروطها المشروحة فيها وأجري الامور على أحكامها إلى انقضاء مدتها ولا أتأول فيها ولا في شيء منها ولا استفتي فيها طلباً

لنقضها ما دام الحاكمون بمدينة عكا وصيدا وعثليث وهم كافل المملكة بعكا ومقدم بيت الديوية ومقدم الاسبتار ومقدم بيت اسبتار الامن الان ومن يتولى بعدهم في كفالة مملكة أو تقدم بيت بهذه المملكة المذكورة وافين باليمين التي يحلفون بها لي ولولدي الملك الصالح ولأولادي على استقرار هذه الهدنة المحررة الآن عاملين بها وبشروطها المشروحة فيها إلى انقضاء مدتها ملتزمين بأحكامها وإن نكثت في هذه اليمين فيلزمني الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المشرفة حافياً حاسراً ثلاثين حجة ويلزمني صوم الدهر كله إلا الايام المنهي عنها ويذكر بقية شروط اليمين والله على ما نقول وكيل نسخة يمين الفرنج التي حلفوا بها في هذه الهدنة والله والله والله وبالله وبالله وبالله وتالله وتالله وتالله وحق المسيح وحق المسيح وحق المسيح وحق الصليب وحق الصليب وحق الصليب وحق الاقانيم الثلثة من جوهر واحد المكني بها عن الاب والابن والروح القدس اله واحد وحق اللاهوت المكرم الحال في الناسوت المعظم وحق الانجيل المطهر وما فيه وحق الاناجيل الاربعة التي نقلها متى ومرقس ولوقا ويحنا وحق صلواتهم وتقديساتهم وحق التلاميذ الاثنى عشر والاثنين وسبعين والثلثماية وثمانية عشر المجتمعين بالبيعة وحق الصوت الذي نزل من السماء على نهر الأردن فزجره وحق الله منزل الانجيل على عيسى بن مريم روح الله وكلمته وحق الست مارية أم النور مارت مريم ويوحنا المعمودين ومرتمان ومرتماني وحق الصوم الكبير وحتى ديني ومعبودي وما اعتقده من النصرانية وما تلقيته من الاباء والاقساء المعمودية انني من وقتي هذا وساعتي هذه قد اخلصت نيتي واصفيت طويتي في الوفاء للسلطان المنصور ولولده الملك الصالح ولأولادهما بجميع ما تضمنته هذه الهدنة المباركة التي انعقد الصلح عليها على مملكة عكا وصيدا وعثليث وبلادها الداخلة في هذه الهدنة المسماة فيها التي مدتها عشرة سنين كوامل وعشرة أشهر وعشرة ايام وعشر ساعات أولها يوم الخميس ثالث حزيران سنة ألف وخمسماية وأربعة وتسعين للاسكندر بن فيلبس اليوناني واعمل بجميع شروطها شرطاً شرطاً والتزم الوفاء بكل فصل في هذه الهدنة المذكورة إلى انقضاء مدتها وإني والله والله وحق المسيح وحق الصليب وحق ديني لا أتعرض إلى بلاد السلطان وولده ولا إلى من حوته وتحويه من ساير الناس أجمعين ولا إلى من يتردد منها إلى البلاد الداخلة في هذه الهدنة بأذية ولا ضرر في نفس ولا في مال وانني والله وحق ديني ومعبودي أسلك المعاهدة والمهادنة والمصافاة والمصادقة وحفظ الرعية الإسلامية والمترددين من البلاد السلطانية والصادرين منها وإليها طريق المعاهدين المتصادقين الملتزمين كف الاذية والعدوان عن النفوس والاموال والتزم الوفاء بجميع شروط هذه الهدنة على انقضايها. ما دام الملك المنصور وافياً باليمين التي حلف بها على الهدنة ولا انقض هذه اليمين ولا شيئاً منها ولا استثنى فيها ولا في شيء منها طلباً لنقضها ومتى خالفتها أو نقضتها فاكون برياً من ديني واعتقادي ومعبودي وأكون مخالفاً للكنيسة ويكون عليّ الحج إلى القدس الشريف ثلثين حجة حافياً حاسراً ويكون عليّ فك ألف أسير مسلمين من أسر الفرنج وإطلاقهم وأكون برياً من اللاهوت الحال في الناسوت واليمين يميني وأنا فلان والنية فيها بأسرها نية السلطان الملك المنصور ونية ولده الملك الصالح ونية مستحلفي لهما بها على الانجيل المكرم لا نية لي غيرها والله المسيح على ما نقول وكيل تمت الهدنة والايمان والله أعلم.



ملحق رقم (٢)

نص هدنة مع يمين

نسخة الهدنة التي عقدت بين السلطان المنصور قلاوون والامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن وذلك سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)

نقلاً من القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٤، ص٨٤ -٩٠

إذ قد أراد السلطان العظيم النسيب العالي العزيز الكبير الجنس الملك المنصور سيف الدين قلاوون صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب أن يكون بينه وبين مملكتي محبة فمملكتي أيضاً تؤثر ذلك وتختار أن يكون بينها وبين عز سلطانه محبة ولهذا وجب أن يتوسط هذا الأمر يمين واتفاق لتدوم المحبة التي بهذه الصورة فيما بين مملكتي وعز سلطانه ثابتة بلا تشويش فمملكتي من هذا اليوم (وهو) يوم الخميس الثامن من شهر ايار من التاريخ التاسع لسنة ستة آلاف وسبعماية وتسع وثمانين لآدم يكون أواخر المحر سنة ثمانين وستماية تحلف بأناجيل الله المقدسة والصليب المكرم المحيي أن مملكتي تكون حافظة للسلطان العظيم النسب العالي العزيز الكبير الجنس الملك المنصور سيف الدين قلاوون صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب ولأولاده ولوارثي ملك عز سلطانه محبة مستقيمة وصداقة كاملة نقية ولا يحرك ملكي أبداً على عز سلطانه حرباً ولا على بلاده ولا على قلاعه ولا على عساكره ولا يحرك ملكي أحداص على حربه بحيث أن هذا السلطان العظيم النسب العالي العزيز الكبير الجنس الملك المنصور سيف الدين قلاون صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب يحفظ مثل ذلك لمملكتي ولولد مملكتي الحبيب الكمنينوس الانجالس الدوقس البالالوغس الملك لبراندرونيقوس ولوارثي مملكتنا محبة مستقيمة وصداقة كاملة نقية ولا يحرك عز سلطانه على مملكتنا حرباً قط ولا على بلادنا ولا على قلاعنا ولا على عساكر مملكتنا ولا يحرك أحداً آخر أيضاً على حرب مملكتنا وأن يكون للرسل المسيرون من عز سلطانه وكذلك يعودوا على عز سلطانه وأن لا يحصل للتجار الواردين من بلاد عز سلطانه إلى بلاد مملكتي جور ولا ظلم بل يكون لهم مباح أن يعملوا متاجرهم ونظير هذا التجار الواردين إلى بلاد عز سلطانه من بلاد مملكتي لا يجدون من أحد جوراً ولا ظلماً بل يكون لهم مباح أن يعملوا متاجرهم وكما أن التجار المزمعين أن يردوا إلى بلاد عز سلطانه من أهل بلاد ملكي يقومون بالحق الواجب على بضايعهم فليقم كذلك التجار الواردين من بلاد عز سلطانه إلى بلاد ملكي بالحق الواجب على بضايعهم وأن حضر من بلاد سوداق تجار وأرادوا السفر إلى بلاد عز سلطانه فلا ينال هؤلاء تعويق في بلاد ملكي بل في عبورهم وعودهم يكونوا بلا مانع ولا عايق بعد القيام بالحق الواجب على بضايعهم في بلاد ملكي ومثل ذلك أن وافى تجار من أهل بلاد عز سلطانه وأرادوا العبور إلى بلاد سوداق يعبروا من بلاد مملكتي بلا عايق ولا مانع وكذلك إذا عادوا وهذا كله يعد القيام بالحق الواجب وهؤلاء التجار الذين من أهل بلاد عز سلطانه بلا عايق ولا مانع ما خلا إن كانوا نصارى لأن شرعنا وترتيب ديننا لا يسمح لنا في أمر النصارى بهذا ولما أن كان في بلاد عز سلطانه مماليك نصارى روم وغيرهم من أجناس النصارى متمسكين بدين النصارى ويحصل القوم منهم العتق فليكن للذين معهم عتايق مباح ومطلق من عز سلطانه أن يعدوا في البحر إلى بلاد مملكتي وكذلك إن أراد أحد من أهل بلاد عز سلطانه أن يبيع مملوكاً نصرانياً هذه صورته لأحد من رسل مملكتي أو لتجار واناس من بلاد

مملكتي أن لا يجد في هذا تعويقاً بل يشتروا المذكور ويعدوا به في البحر إلى بلاد مملكتي بلا عايق وأيضاً إن أراد هذا السلطان العظيم النسيب أن يرسل إلى بلاد ملكي بلا عايق وأيضاً إن أراد هذا السلطان العظيم النسيب أن يرسل إلى بلاد ملكي بضايع متجر وارادت مملكتي أن ترسل إلى بلا عز سلطانه بضايع متجر فليكن هكذا وهو أن أراد عز سلطانه أن تكون بضايع متاجره في بلاد ملكي منجاة من القيام بكل الحقوق فلتكن أيضاً بضايع متاجر مملكتي في بلاد عز سلطانه منجاة مثل ذلك من كل الحقوق وإن أراد أن تقوم متاجر ملكي في بلاده بالحقوق الواجبة فلتكن أيضاً متاجر عز سلطانه تقوم في بلاد ملكي بالحقوق الواجبة مثل ذلك وأيضاً أن يطلق عز سلطانه لملكي أن يرسل أناساً من بلاد مملكتي إلى بلاد عز سلطانه فيسيرون لي خيلاً جياداً ويحملونها إلى بلاد ملكي وكذلك إن أراد عز سلطانه شيئاً من خيرات بلاد ملكي فمملكتي أيضاً تطلق لعز سلطانه أن يرسل أناسه ليسيروه ويحملوه إلى عز سلطانه ولما كان في البحر كرسالية من بلاد غريبة وقد يتفق في بعض الأوقات أن يعملوا خسارة في بلاد ملكي كذلك يجدون هؤلاء الكرسالية قوماً من بلاد عز سلطانه فيعملون لهم خسارة ثم إن هؤلاء الكرسالية يفعلون هذا بالاتفاق في تخوم بلاد ملكي لأجل هذا صار إذا حضر قوم من بلاد مملكتي إلى بلاد عز سلطانه يمسكون من أهل بلاد عز سلطانه ويغرمون ولهذا فليصر مرسوم من عز سلطانه في كل بلاده إن أحداً من أهل بلاد مملكتي لا يغرم بهذا السبب ولا يُمسك وإن عرض أن يقول أحد من أهل بلاد عز سلطانه أنه غرم أو ظلم من أحد من أهل بلاد ملكي فليعرف ملكي بذلك وإذا كان الذي صنع الغرامة من أهل بلاد ملكي فملكي يأمر وتعاد تلك الخسارة إلى بلاد عز سلطانه وكذلك أن قال أحد من أهل بلاد مملكتي أنه ظلم أو غرم من أحد من أهل بلاد عز سلطانه يأمر عز سلطانه وتعاد الغرامة إلى بلاد ملكي أيضاً إذ قد ازمعت المحبة أن تصير بهذه الصورة وتكون الصداقة بين ملكي وعز سلطانه خالصة حتى أنه أرسل يقول لملكي على معونة ونجدة ملكي في البحر لمضرة العدو المشترك فمملكتي تفوض هذا الأمر إلى اختيار عز سلطانه أن يرتب في نسخة اليمين مع بقية الفصول المعينة فيه كيف ويأبى صورة تعين وتنجد مملكتي في البحر وإن كان لا يريد نجدة ومعونة فيه كيف ويأبى صورة تعين وتنجد مملكتي في البحر وإن كان لا يريد نجدة ومعونة مملكتي فمملكتي تسمح بهذا الفصل أن لا يضعه عز سلطانه في نسخه يمينه وهذه اليمين إذاً يحفظه ملكي لعز سلطانه ثابتاً غير متزعزع إن كان هو السلطان العظيم يحلف لي يميناً مثلها وإنه يحفظ المحبة لمملكتنا ثابتة غير متزعزة والسلام.

(فلما) عربت هذه اليمين كتبت نسخة يمين للسلطان الملك لمنصور (صورته) (أقول وأنا فلان) أنه لما رغب حضرة الملك الجليل كرميخاييل الدوقس الانجالس الكمنينوس البالاولوغس ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى أكبر ملوك المسيحية أبقاه الله أن يكون بين مملكته وبين عز سلطاني محبة وصداقة ومودة لا تتغير بتغير الأيام ولا تزول بزوال السنين والاعوام وأكد ذلك بيمين حلف عليها تاريخها يوم الخميس ثامن شهر أيار سنة آلاف وسبعماية وتسع وثمانين لآدم صلوات الله عليه بحضور رسول عز سلطاني الامير ناصر الدين ابن الجزري والبطرك الجليل انبا سيوس بطرك الاسكندرية وحضر رسولاه فلان وفلان إلى عز سلطاني بنسخة اليمين بطرك الاسكندرية وحضر رسولاه فلان وفلان إلى عز سلطاني بنسخة اليمين (ملتمسين) أن يتوسط هذا الأمر أيضاً يمين واتفاق من عز سلطاني لتدوم المحبة فيما بين

مملكته وعز سلطاني وتكون ثابتة مستمرة على الدوام والاستمرار فعز سلطاني من هذا اليوم وهو يوم الاثنين مستهل شهر رمضان المعظم سنة ثمانين وستماية للهجرة النبوية المحمدية على صاحبها أفضل الصلوات والسلام يحلف بالله العظيم الرحمن الرحيم عالم الغيب والشهادة والسر والعلانية وما تخفي الصدور وبالقرآن العظيم وبمن انزله وبمن أنزل عليه وهو النبي الكريم محمد ﷺ على استمرار الصداقة واستقرار المودة النقية للملك الجليل كرميخاييل ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى ولولد مملكته الحبيب الكمنينوس الانجالس الدوقس البالاولوغس الملك الاندرونيقوس ولوارثي مملكة ملكه ولا يحرك عز سلطاني أبداً على مملكته حرباً ولا على بلاده ولا على قلاعه ولا على عساكره في بر ولا بحر ولا يحرك عز سلطاني أحداً آخر على حربه بحيث أن الملك الجليل كرميخاييل يحفظ مثل ذلك لعز سلطاني ولملكي ولبلادي ولقلاعي ولعساكري ولولدي الملك الصالح علاء الدين علي ولوارثي ملكي من أولادي ويستمر على هذه الصداقة والمودة النقية ولا يحرك ملكه على عز سلطاني حرباً قط ولا على بلادي ولا على قلاعي ولا على عساكري ولا على مملكتي ولا يحرك أحداً آخر على حرب مملكة على سلطاني في البر ولا في البحر ولا يساعد أحداً من اضداد عز سلطاني ولا اعدائي من ساير الاديان والاجناس ولا يوافقه على ذلك ولا يفسح لهم في العبور إلى مملكة عز سلطاني لمضرة شيء منها بجهده وطاقته وان الرسل المسيرين من مملكة عز سلطاني إلى بر بركة وأولاده وبلادهم وتلك الجهات وحبر سوداق وبره يكونون آمنين مطمئنين مطلقاً لهم أن يعبروا في بلاد مملكة الملك الجليل كرميخاييل من أولها إلى آخرها بلا مانع ولا عايق ارسلوا في بر أو بحر على ما يقتضيه مصلحة ذلك الوقت لمملكة عز سلطاني ولهم وأن يتوجهوا إلى حيث يسيرهم عز سلطاني في تلك البلاد وكذلك يعودون إلى مملكة عز سلطاني امنين مطمئنين غير ممنوعين بجميع من يصل معهم من رسل تلك الجهات وغريبا وكل من معهم من مماليك وجواد وغير ذلك وأن لا يحصل للتجار الواردين من بلاد مملكة الملك الجليل كرميخاييل إلى بلاد عز سلطاني جور ولا ظلم ويترددون آمنين مطمئنين يعملون متاجرهم ولهم الرعاية في الصدور الورود والمقام والسفر بحيث يكون لتجارة مملكة عز سلطاني في بلاد مملكة الملك الجليل كرميخاييل مثل ذلك ويكونون مرعيين لا يجدون من أحد في بلاد مملكة الملك الجليل كرميخاييل جوراً ولا ظلماً ومن عليه حق واجب في الجهتين على ما استقر عليه الحال يقوم به من غير حيف ولا ظلم وأن من حضر من التجار من سوداق وغريباً بمماليك وجوار يمكنهم مملكة الملك الجليل كرميخاييل من الحضور بهم إلى مملكة عز سلطاني ولا يمنعهم وأن الكرسالية متى تعرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين في البحر وبسبب الكرسالية إلى رعية مملكة الملك الجليل كرميخاييل يسير عز سلطاني إليه في طلبهم ولا يتعرض أحد من نواب مملكة عز سلطاني إلى هذا الجنس بسببهم إلى أن يتحقق أنهم آخذون أو يظهر عين المال معهم على ما تضمنه نسخة يمين الملك الجليل كرميخاييل ولمملكة الملك الجليل كرميخاييل من بلاد عز سلطاني مثل ذلك وعلى أن الرسل المترددين من الجهتين من عز سلطاني ومن مملكة الملك الجليل كرميخاييل يكونون آمنين مطمئنين في سفرهم ومقامهم براً وبحراً وتكون رعية بلاد عز سلطاني ورعية بلاد مملكة الملك الجليل كرميخاييل في الجهتين من المسلمين وغيرهم آمنين مطمئنين صادرين واردين محترمين مرعيين وهذه اليمين لا تزال محفوظة ملحوظة مستمرة مستقرة على الدوام والاستمرار.

ملحق رقم (٣)

نص هدنة

نسخة الهدنة التي عقدت بين المنصور قلاوون وبين الريدراكون البرشلوني وبواعث عقدت سنة (٦٨٦هـ/١٢٨٩م) ويليها نسخة يمين المنصور قلاون ويمين الريدراكون على الهدنة نقلاً عن ابن عبد الظاهر، التشريف، ص ١٥٦ - ١٦٢

استقرت المودة والمصافاة والمصادقة بين مولانا السلطان الملك المنصور السيّد الأجل العالم العادل، سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، سلطان الديار المصرية والبلاد الشاميّة وحلب، سلطان الملوك، ملك الشرْق بأسره، سلطان النوبة – بلاد الملك داود – سلطان البيت المقدّس، سلطان البيت العالي الشريف بمكة، أعزّها الله، سلطان اليمن والحجاز سلطان جميع العرب، سلطان الإسلام جميعهم، سيد الملوك والسلاطين، أبي الفتح قلاون الصالحي وولده– وليّ عهده المولى الملك الأشرف السيد الأجل، والعالم العادل، صلاح الدنيا والدين خليل – والملوك أولاده، وبين حضرة الملك الجليل، المكرّم، الخطير، الباسل، الضرغام، المفخم، البطل، دون ألفرنش الريدراغون وأخيه الملك الجليل المُكرّم الخطير الأسد الضرغام، الرى دون جام صاحب صقلّية وأخويهما دون فلدريك ودون بيدروا، من تاريخ يوم الثلاثاء المبارك، ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية صلوات الله وسلامه وتحياته على صاحبها الموافق ذلك لسبع بقين من شهر أبريل سنة ألف ومائتين تسعة وثمانين لمولد السيد المسيح عيسى عليه السلام. وذلك بحضور رسل الملك الريدراغون، وهم الزعيم الرسول ابن لنجير ستفنس، وريمون الملمان قرارى برشنونة والحكيم داود بن حسداى الإسرائيلي وزير حضرة اللك الريدراغون – وكتّابه بكتابه المختوم بختم الملك المذكور المقتضى معناه أن تصدقهم في جميع ما يقولونه ويقرّرونه من قواعد الصلح والمودة والصداقة، وما يتكفلونه من شروط التي يشترطها مولانا السلطان الملك المنصور على الملك الريدراغون: وأنه يلتزم بجميع هذه الشروط الآتي ذكرُها، ويحلف الملك المذكور عليها، هو وإخوته المذكورين، ووضع الرسل المذكورين خطوطهم بجميع الفصول الآتي ذكرها، بأمره ومرسومه، وأن الملك الريدراغون وإخوته يلتزمون بها.

مولانا السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الأشرف، والملوك أولاده، وقلاعهم وحصونهم وثغورهم، وممالكهم وموانيهم، بلادُهم وسواحلها وبرورها وجميع أقاليمها ومدنها وكل ما هو داخل في مملكتهم ومحسوب منها ومنسوب إليها من سائر الأقاليم الرومية، والعراقية، والمشرقية، والشامية، والحلبية، والفراتية واليمنية، والحجازية، والديار المصرية، والغرب، وحد هذه الأقاليم والبلاد وموانيها وسواحلها، من البر الشرقي والشامي من القسطنطينية والبلاد الرومية، والبلاد الساحلية، واللاذقية، وطرابلس الشام، وجميع الموانئ والبرور إلى ثغر دمياط، وبحيرة تنيس، وحدُّها من البر الغربي من تونس وإقليم إفريقية وبلادها وموانيها، وطرابلس الغرب وثغورها وبلادها وموانيها إلى ثغر الاسكندرية ورشيد، وبحيرة بني لبيس وسواحلها وبلادها وموانيها وما تحويه هذه البلاد المذكورة والممالك التي لم تذكر، والمدائن، والثغور، والسواحل، والمواني، والطرقات في البر والبحر، والصدور، والورود، والمقام، والسفر من عساكر وجنود، وتركمان، وأكراد وعربان، ورعايا، وتجار، وشواني، ومراكب، وسفن، وأموال،

وموانى على اختلاف الأديان، والأنفار، والأجناس، وما تحويه الأيدي من الأصناف، والأموال، والأسلحة والمدد، والأمتعة، والبضائع، والمتاجر، قليلاً كان أو كثيراً، قريباً كان أو بعيداً براً كان أو بحراً، آمنة على النفوس والأرواح والأموال، والحريم والأولاد من الملك الريدراغون ومن إخوته المذكورين أعلاه ومن أولادهم وفرسانهم، وخيّالتهم، ومعاهديهم، وعمائرهم، ورجالهم، ومن كل من يتعلق بهم. وكذلك كل ما سيفتحه الله على يد مولانا السلطان الملك المنصور، وعلى يد أولاد وعساكره وجيوشه من القلاع، والحصون، والبلاد والأقاليم، وأنه يجرى عليه هذا الحكم. وعلى أن تكون بلاد الملك الريدراغون وبلاد إخوته وأولاده وممالكه المذكورة وهي بلاد أرغن وثغورها وأعمالها ما يرقه أعمالها وبلادها، بلنسية وأعمالها وبلادها، إقليم برشنونة وأعمالها وبلادها، صقلية وجزيرتها، وبلادها وأعمالها، برنولية وأعمالها وبلادها، جزيرة مالطة وقوصرة وبلادها وأعمالها، ميرقة ومانسة وبلادها، واربويات وأعمالها، وما سيفتحه الملك الريدراغون من بلاد أعدائه الفرنج المجاورين له بتلك الأقاليم، آمنة من مولانا السلطان الملك المنصور وأولاده، وعساكره وجنوده وشوانيه وعمائره. وهي ومن فيها من فرسان وخيالة ورعايا وأهل بلاد آمنين مطمئنين على الأنفس والأموال والحريم والأولاد في البر والبحر والصدور والورود، وعلى أن المالك الريدراغون يكون هو وأخوته أصدقاء من يصادق مولانا السلطان الملك المنصور والملوك وأولاده، وأعداء من يُعاديه من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية.

وإن قصد الباب برومة، أو ملك من ملوك الفرنج متوّجاً كان أو غير متوّج، كبيراً كان أو صغيراً، أو من الجنويّة أو من البنادقة أو سائر الأجناس على اختلاف الفرنج والروم. والبيوت بيوت الإخوة الديوية والاسبتارية، وجميع أجناس النصارى مضرة مولانا السلطان بمحاربة أو أذية، يمنعهم الملك الريداغون ويردهم ويعمّر شوانيه ومراكبه هو وإخوته، ويقصدون بلادهم ويشغلونهم بنفوسهم عن قصد مضرة بلاد مولانا السلطان وموانيه وسواحله وثغوره المذكورة وغير المذكورة، ويقاتلونهم في البر والبحر بشوانيهم وعمائرهم وفرسانهم وخيّالهم ورجالهم وعلى أنه متى خرج أحد من معاهديهم على مولانا السلطان من الفرنج بعكا وصور وبلاد الساحل وغيرها عن شروط الهدنة المستقرة بينه وبينهم ووقع ما يوجب فسخ الهدنة لا يُعينهم الملك الريدراغون ولا إخوته ولا خيّالته ولا فرسانه ولا أصل بلاده ولا خيّالة، ولا سلاح ولا مال ولا بجدة ولا ميرة ولا مراكب ولا شواني ولا غير ذلك. وعلى أنه متى طلب الباب برومية، وملوك الفرنج والروم والتتار وغيرهم من الملك الريدراغون أو من إخوته، أو من بلاده إنجاداً، أو معاونة، أو خيّالة، أو رجّالة أو مال، أو مراكب أو شواني، أو سلاح، لا يُوافقهم على شيء من ذلك، لا في سرّ، ولا في جهر، ولا يعين أحداً منهم ولا يوافقه على ذلك. ومتى اطلع على أن أحداً منهم يقصد بلاد مولانا السلطان بمحاربة أو بمضرة يسير يعرّف مولانا السلطان بخبرهم وبالجهة التي اتفقوا على قصدها في أقرب وقت قبل حركتهم من بلادهم، ولا يخفيه شيئاً من ذلك، وعلى أنه متى انكسر مركب من المراكب الإسلامية في بلاد الملك الريدراغون وبلاد إخوته ومعاهديه يكون كل من فيها من التجار والبحّارة، والمال والمماليك والجوار آمنين على الأنفس والأموال والبضائع. ويلتزم الملك الريدراغون أن يحفظهم ويحفظ مراكبهم وأموالهم، ويساعدهم على عمارة مركبهم، ويجهزهم وأموالهم وبضايعهم إلى بلاد مولانا السلطان. وكذلك إذا انكسرت مركب من بلاد الريدراغون وبلاد إخوته في بلاد ومولانا السلطان. يكون لهم هذا

الحكم المذكور أعلاه، وعلى أنه متى مات أحد من تجار المسلمين ومن نصارى بلاد مولانـــا الـــسلطان أو ذمة أهل بلاده في بلاد الريدراغون وبلاد إخوته وأولاده ومعاهديه لا يعارضوهم فـــي أمـــوالهم، ولا فـــي بضائعهم، ويحمل مالهم وموجودهم إلى بلاد مولانا السلطان ليفعل فيه ما يختار. وكذلك من يموت في بلاد مولانا السلطان من أهل مملكة الريدراغون وبلاد إخوته ومعاهديه فايم هذا الحكم المذكور أعلاه، وعلى أنه متى عبر على بلاد الملك الريدراغون رسل من بلاد مولانا السلطان قاصدين جهة من الجهات البعيـــدة أو القريبة صادرين أو واردين أو رماهم الريح في بلاد يكون الرسل وغلمانهم وأتباعهم، ومن فضل معهم من رسل الملوك وغيرهم آمنين محفوظين في الأنفس والأموال ويجهزهم إلى بلاد مولانا السلطان. وعلـــى أن الملك الريدراغون لا يمكن الحرامية ولا الكرسالية من التزود من بلاده ولا من حمل ماء، ومن ظفر به من الحرامية يمسكه ويفعل فيه الواجب، ويسير ما يجده معهم من الأسرى المسلمين. ومن البـــضائع والحـــريم والأولاد إلى بلاد مولانا السلطان. وكذلك إن حضر أحد من الحرامية إلى بلاد مولانا السلطان يجرى الحكم فيه لبلاد الريدراغون متى جرى من واحد من بلاد فضية توجب فشخ هذه المهادنـــة، كـــان علـــى الملـــك الريدراغون طلب من فعل ذلك، وفعل الواجب فيه. وعلى أن الملك الريدراغون يفسخ لأهل بلاده، وغيرهم من الفرنج في أنهم يحلبون إلى الثغور الإسلامية الحديد والبياض والخشب وغير ذلك. وعلى أنه متى أسر أحد من المسلمين في البر أو في البحر من مبدأ تاريخ هذه المهادنة من سائر البلاد وشرقها وغربها أقصاها وأدناها ووصارا به إلى بلاد الملك الريدراغون، وبلاد إخوته ومعاهديه ليبيعوه فيلزم الملك الريدراغون فك أسرهم وحملهم إلى بلاد مولانا السلطان. وعلى أنه متى كانت بني تجار المسلمين وتجار بلاد الريدراغون معاملة في بضائعهم وهم في بلاد مولانا السلطان كان أمرهم محمولاً على موجب الشرع الشريف. وعلـــى أنه متى ركب أحد من المسلمين في مراكب الملك الريدراغون، وحمل بضاعته معهم وعـــدمت البـــضاعة، كان على الملك الريدراغون ردها إن كانت موجودة في قيمتها إن كانت مفقودة. وعلى أنه متى هرب أحـــد من بلاد مولانا السلطان الداخلة في هذه المهادنة إلى بلاد الملك الريدراغون وبلاد إخوته، أو توجّه ببضاعة لغيره وأقام بتلك البلاد، كان الريدراغون رد الهارب والمال معه إلى بلاد مولانا السلطان ما دام المـــذكور مسلماً، وإن تنصر فيرد المال الذي معه خاصة. ولمملكة الريدراغون ولمملكة أخيه فيمن هرب من بلادهم إلى بلاد مولانا السلطان، هذا الحكم المذكور أعلاه، وعلى أنه إذا وصل من بلاد الملك الريدراغون وبـــلاد إخوته ومعاهديهم من الفرنج، من يقصد زيارة القدس الشريف، وعلى يده كتاب الملك الريدراغون وختمـــه إلى نائب مولانا السلطان بالقدس الشريف، يفسح له في الزيارة مسموحاً بالحق ليقضى زيارته، ويعود إلـــى بلاده آمناً مطمئناً في نفسه وماله، رجلاً كان أو امرأة، بحيث أن الملك الريدراغون، لا يكتب لأحـــد مـــن أعدائه، ولا من أعداء مولانا السلطان في أمر الزيارة بشيء، وأن الملك الريدراغون يحرس جميـــع بـــلاد مولانا السلطان من كل مضرة، ويجتهد في أن أحداً من أعداء مولانا السلطان لا يصل إلـــى بـــلاد مولانـــا السلطان، ولا ينجدهم على مضرة بلاد مولانا السلطان الملك المنصور، ولا بلاد ولـــده الـــسلطان الملـــك الأشرف، ولا رعاياهم، وأنه يساعد مولانا السلطان وولده الملك الاشرف في البرّ والبحر بكل ما يـــشتهونه ويختارونه، وعلى أن الحقوق الواجبة على من يصدر ويرد ويتردد من بلاد الملك الريدراغون إلى ثغـــرى الإسكندرية ودمياط وإلى الثغور الإسلامية، والممالك السلطانية، وسائر أصناف البـــضائع والتـــاجر علـــى

اختلافها، تستمر على حكم الضرائب المستقرة في الدواوين المعمورة إلى آخر وقت، ولا يحدث عليهم فيها حادث، وكذلك يجري الحكم على من يتردد من البلاد السلطانية إلى بلاد الريدراغون.

تستمر هذه المودة والصداقة على حكم هذه الشروط المشروحة أعلاه بين الجهتين على الدوام والاستمرار، وتجرى أحكامها وقواعدها على أجمل الاستقرار، فإن المملكتين بها قد صارتا شيئاً واحداً ومملكة واحدة، لا تنتقض بموت أحد من الجانبين ولا بعزل والٍ وتولية غيره، بل تؤيد أحكامها وتدون أيامها، وشهورها وأعوامها. وعلى ذلك انتظمت واستقرت في التاريخ المذكور أعلاه، وهو يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وستمائة للهجرة المحمدية صلوات الله وسلامه على صاحبها، الموافق لسبع يقين من شهر أبريل سنة ألف ومائتين تسعة وثمانين لمولد السيد المسيح عيسى عليه السلام.



ملحق رقم (٤)

نص هدنة

نسخة هدنة بين السلطان المنصور قلاوون وبين أهل جنوة والتي عقدت سنة (٦٨٦هـ/١٢٨٧م)

نقلا عن: ابن عبد الظاهر، تشرين الأيام، ص ١٦٦- ١٦٩

أقول – وأنا ألبرت اسبينولا البوذسطا بالرام ذكر كان والكنطابية أوبرت اسبنيولا وكرات دورنا، والمشايخ وأصحاب الرأي والمشورة كمون الجنويّة – أحلف بالله، والله، والله العظيم، وحق المسيح وحق الصليب المقدّس، وحق الإنجيل المقدس، إله واحد، وحق الست مارية وحق الأربعة أناجيل: لوقا، ومتى، ومرقص، ويوحنا، وصلواتهم وتقديساتهم، وحق الصوت الذي نزل من السماء على نهر الأردن فزجره، وحق الآباء المعمودية، وحق الإنجيل المقدس، وحق ديني ومعبودي: إنني ألتزم لمولانا السلطان الملك المنصور السيد الاجل العالم العادل، سيف الدنيا والدين، سلطان مصر والشام وحلب، وسلطان اليمن والحجاز، سلطان بيت مكة، البيت العالي – أعزه الله تعالى – سلطان القدس والبلاد المقدسة، وبلاد الساحل، وفتوحات المسلمين وفتوحاته، سلطان طرابلس الساحل إلى طرابلس الغرب، وسلطان الشرق والغرب، وسلطان الملوك ملك سائر العرب والعجم، سلطان جميع الإسلام قلاون الصالحي، وولده السلطان الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين خليل – الله يحفظهم وينصرهم – بمرسوم البوذسطا والكنطابية، والمشايخ الجنوبية – المذكورين – وجميع الجنويّة: إنهم يحفظون ويحترمون ويكرمون جميع المسلمين لمولانا السلطان الملك المنصور، ولولده السلطان الملك الاشرف يجيئون إلى بلاد مولانا السلطان، والذين يخرجون من بلاد مولانا السلطان، من سائر البلاد والأقاليم، من بلاد الفرنج والروم والمسلمين، من الرسل والتجار وغيرهم سالمين ومكدورين في السفن والمراكب والطرائد والشواني، وغيرها من المراكب والبضائع والنفوس، وأموالهم ومماليكهم وجوارهم في مراكبهم في البر والبحر، وفي جميع أماكن كون الجنويّة، وما يفتحونه من البلاد ويحكمون عليه من تاريخ هذه الهدنة، وما دامت الليالي والأيام والشهور والسنون والأعوام دائما، وأن جميع الجنويّة يكرمون ويحترمون ويحفظون جميع المسلمين، الذين يحضرون إلى بلاد مولانا السلطان، والذين يخرجون ويسافرون منها في البر والبحر، لا يتعرّضون إليهم، ولا يمكنون من التعرض إليهم بأذية، ولا ضرر، ولا عدوان، لا في نفس ولا في مال، لا في مجيئهم ولا في رواحهم. ويكونون آمنين مطمئنين في نفوسهم وأموالهم وأرواحهم، من جميع الجنويّة، وممن تحت حكم كمون الجنويّة – على ما تقدم ذكره – وأنهم يحفظون جميع التجار المسلمين وغيرهم، الذين يسافرون في مراكب الجنويّة وغيرهم، رائحين وجائين في جميع الأماكن التي لكمون الجنويّة وغيرهم، من بلاد الفرنج، وبلاد الروم، وبلاد المسلمين، ويكون من يسافر من المسلمين معهم ومع غيرهم محفوظين آمنين مطمئنين لا يتقوى عليهم أحد ولا يؤذيهم في سفرهم، ولا مقامهم، ولا سُكناهم. وإن سافر أحد من المسلمين في مركب غير مراكب الجنوي من أعداء الجنوية أو غيرهم، لا يتعرضوا لأحد من المسلمين، وإن أخذوا عدوهم، يكون المسلمون جميعهم محفوظين آمنين في نفوسهم وأموالهم ومماليكهم وجوارهم، في رواحهم ومجيئهم، ولا يعوقهم الجنوية بسبب أحد، ولا يأخذوا المسلم عن غيره، ولا يطلبوه بدين ولا بدم، وإن لم يكن ضامناً ولا كفيلاً.

استقرت هذه الفصول، وهذا الصلح وهذه الشروط بين مولانا السلطان الملك المنصور، وولده الملك الأشرف، وبين البودسطا والكنطابية والمشايح والمشيرين من أصحاب الرأي والمشورة كمون الجنوية المذكورين. وحلف على ذلك البرت أسبينولا الرسول المذكور بحضور بونقاص صورلا، ودانيال تنكرد، وافر بجسكير روب، ورمير بوكيكرورا فوا القنصل، وتنكوك فليروى. وكتب بتاريخ تلك عشر مايى سنة ألف ومائتين وتسعين سنة لمولد عيسى عليه السلام.

وكتب بين السطور بالفرنجي نسخة ذلك سطراً، سطراً وكلمة كلمة وكتب الرسول خطة أعلى هذه الهدنة بالفرنجي بيده والكاتب بالفرنجي بين السطور بحاكم البلنكير الجنوى، كاتب الرسول وكمون الجنوية.

نسخة خط الأسقف الذي حلف الرسول

حلف الرسول المذكور البرط أسبينولا ومن حضر صحبته من القناصلة، وتجار الجنويّة، على نسخة هذه اليمين والصلح والفصول المشروحة فيها بتاريخ رابع عشر أيار سنة ستة آلاف وسبعمائة ثمانية وتسعين، بحضوري وأنا الحقير بطرس أسقف مصر، والإنجيل المطهر بين يدي، ويد الرسول وهو واقف مكشوف الرأس، وكتبت ذلك بخط يدى، شهادة عليهم، بأنهم حلّفوا باليمين العظيمة على الإنجيل والصليب بحضور من يضع خطّه من الكهنة والرّهبان.

نسخة خطوط من حضر هذا الحلف

حضرت ذلك وشهدت به، وكتب الوجيه كان وهو الآن أرساني. غيره: حضرت ذلك وشهدت به وكتب أرساني الريس بدير القصر. غيره: حضرت ذلك وشهدت به وكتبه الثرس متى. غيره: حضر ذلك وشهد به ميخاييل الراهب من دير طورسينا. وبعد ذلك بالفرنج خطوط جماعة: بونقاص القنصل الجنوى، أنكيز صاحب السفينة التاجر، دانيال شطر التاجر رافو القنصل، المحتشم دنيسر بركه تنكره.

تحررت هذه الفصول المذكورة، في يوم الأحد ثاني جمادى الأول، سنة تسع وثمانين وستمائة أحسن الله خاتمتها، وقرأ ما فيها من القلم الفرنجي المنقول إلى العربي شمس الدين عبد الله المصورى، وترجم عليه لتحقيق التعريب، والشهادة بصحته سابق الدين الترجمان وعز الدين أيبك الكبكي الترجما في التاريخ المذكور.

ونسخة اليمين التي حلف عليها الرسل

وكتبوا خطوطهم عليها بالفرنجي بحضور الأسقف

والله، والله، وحق المسيح، وحق المسيح، وحق المسيح، وحق الصليب، وحق الصليب، وحق الأب والابن والروح القدس، وحق الست مارية أم النور، وحق الأناجيل الأربعة التي نقلها متى ومرقص ولونا ويوحنا، وحق التلامذة والحواريين، وحق الصوت الذي نزل على نهر الأردن فزجره، وحق ديني ومعبودي واعتقادي، في دين النصرانية، وحق اللاهوت والناسوت والثالوث، وحق السيد اليسوع المسيح الرب المعبود: إنني لم أخف شيئاً مما وجد لهؤلاء التجار المسلمين، من أموالهم ولا بضائعهم، ولا اطلعت على أنه بقي منهم أحد في الأسر، ولا على أنه بقي لهم شيء عند أحد من الجنوية وأخفيته، وكاسرت عنه، وإنني والله وحق المسيح، لم أحضر معي ولا مع رفقتي، مبلغاً عوض ما عدم لهم من السكون ولا من الجنويّة أخذته غير ما أحضرته ثمن السكر، والكتان والفلفل وثمن المركب وهو ألف وستمائة دينار، ولم

أحضر زيادة على ذلك، وإن هذه الجملة المحضرة هي التي أبيع بها المركب، والسكر، والفلفل، والمركب وعدتها من غير زيادة على ذلك ولا نقص. وإن ظهر بعد هذه اليمين ما يخالف شيئا منها وظهر أن نحن أخفينا أحدا من هؤلاء المسلمين أو شيئا من مال هؤلاء التجار، أو خبأناه، أو تركنا، وراءنا، ولم نحضره أو أحضرنا صحبتنا مبلغاً عوض ما علم لهم، وشهد علينا بذلك أحد من جنسنا، أو ممن قبل قوله من غير جنسنا، كان علينا غرامته وقيمته قيمة ما يظهر، وإنني والله، وحق المسيح، ما أخفيت شيئاً من ذلك، وإن كنت قد أخفيت شيئاً من ذلك من مالهم وبضائعهم، أو أعلم من أخفاه، فأكون محروماً من ديني، معتقداً ما يُخالف الرب المسيح ولا هونه، وإنني لم أعلم غير ذلك.

نسخة الشهادة عليهم

شهد – وأنا بطرس أسقف مصر الملكي – على جميع ما في أعلى هذه الورقة، على رسول الجنوية، واسمه ألبرت أسبينولا رسول الجدويّة. وكتبتُ خطي نهار ليس واسع أيار سنة ست آلاف وسبعمائة وثمانية وتسعين.



ملحق رقم (٥)

نص أمان

أعطي للأمير أسد الدين رميثة أمير مكة المكرمة والذي صدر عن لسان السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٣٧هـ /١٣٣٦م)

نقلاً عن: السحماوي، الثغر الباسم، ص٩٩

هذا أمان الله سبحانه وتعالى، وأمان رسوله محمد ﷺ، وأماننا الشريف للمجلس العالي – إلى آخره – بأن يحضر إلى خدمة السنجق الشريف المحروس صحبة فلان، آمناً، على نفسه وماله وأهله وولده، وما يتعلق به لا يخشى حلول سطوة قاصمة، ولا يخاف مؤاخذة حاسمة، ولا يتوقع خديعة ولا مكرا، ولا يخشى سوءا ولا ضرا، ولا يستشعر مخافة، ولا وجلا، ولا يرهب بأساً، وكيف يرهب من أحسن عملاً، بل يحضر إلى خدمة السنجق آمناً على نفسه وماله مطمئناً واثقاص بالله وبرسوله وبهذا الامان الشريف المؤكد الاسباب، المبيض للوجوه الكريم الأحساب، وكل ما يخطر بباله أنا نؤاخذه به فهو مغفور، ولله عاقبة الأمور، وله منا (الأمان والتقديم)، وقد صفحنا الصفح الجميل.

إن ربك هو الخلاق العليم، فليثق بهذا الامان الشريف، ولا ندب به الظنون، ولا يصغى إلى الذين لا يعلمون، ولا يستشر في هذا الأمر غير نفسه ولا يظن إلا خيراً، فيومه عندنا ناسخ لأمسه، وقد قال ﷺ أنه يقول: "أنا عند ظن عبدي بي فليظن فيّ خيراً" (فلتمسك بمعرفة) هذا الامان فإنها وثقي، واعمل عمل من لا يضل ولا يشقى، ونحن قد أمناك فلا تخف، ورغبنا لك الطاعة والشرف، وعفى الله عما سلف، ومن أمناه فلقد فاز، وطب نفساً، وقز عيناً، فأنت أمير الحجاز.



ملحق رقم (٦)

رسالة سلطانية في التهكم وتوبيخ العدو المهزوم وتقريعه

نسخة الرسالة التي بعث بها الظاهر بيبرس إلى مقدم الاسبتار صاحب حصن الأكراد

نقلاً عن ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٣٨٠-٣٨١

قد علم القومص بيمند – جعله الله ممن ينظر لنفسه، ويفكر في عاقبة يومه من أمسه! – نزولنا بعد (حصن الأكراد) على حصن عكار، وكيف نقلنا المنجنيقات إليها في جبال تستصعبها الطيور لاختيار الاوكار، وكيف صبرنا في جرها على مناكدة الأوحال، ومكابدة الأمطار، وكيف نصبنا المنجنيقات على امكنة يزلق عليها النمل إذا مشى، وكيف هبطنا في تلك الاودية التي لو أن الشمس من الغيوم ترى بها ما كان عيّر حبالها رِشا، وكيف صبرت رجالك الذين ما قصرت في انتخابهم، وحسَنُت بهم استعانة نائبك الذي انتخى بهم. وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر، وأن صوت الناقوس صار عوضه "الله أكبر"، ومن بقي من رجالك أطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح، وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بكا النوائح، وأطلقناهم ليحدثوا القومص بما جرى، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفترى، وليروهم الجراح التي أريناهم بها نفاذاً، ولينذروهم لقاء يومهم هذا، ويفهموكم أنه ما بقي ما حياتكم إلا القليل، وأنهم ما تركونا إلا على رحيل، فتعرف كنائسك من حياتكم إلا القليل، وأنهم ما تركونا إلا على رحيل، فتعرف كنائسك وأسوارك أن المنجنيقات تسلم عليها إلى حين الاجتماع عن قريب، وتعلم أجساد فرسانك أن السيوف تقول إنها عن الضيافة لا تغيب، لأن أهل عكار ما سدوا لها جوعاً، ولا قضت من ربها بدمائهم الوطر، وما أطلقوا إلاّ لما عافت شرب دمائهم، وكيف لا وثلاثة أرباع عكار عكر.

يعلم القومص هذه الجملة المسرودة، ويعمل بها، وإلاّ فيجهز مراكبه، ومراكب أصحابه، وإلاّ فقد جهزنا قيودهم وقيوده.



ملحق رقم (٧)

رسالة سلطانية في التهكم وتوبيخ العدو المهزوم وتقريعه

نسخة الرسالة التي بعث بها الظاهر بيبرس إلى بوهيمند حاكم طرابلس وانطاكيا وذلك بعد أن تمكن الظاهر بيبرس من تحرير مدينة طرابلس سنة (٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م) نقلاً من ابن عبر الظاهر الروض الزاهر، ٣٠٩- ٣١٣.

قد علم القومص الجليل (المبجل، المعزز، الهمام، الاسد الضرغام، فخر الامة المسيحية، رئيس الطائفة الصليبية، كبير الامة العيسوية) بيمند المتنقلة مخاطبته – بأخذ أنطاكية منه – من البرنسية إلى القومصية، ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصده، وجعل النصيحة محفوظة عنده، ما كان من قصدنا طرابلس، وغزونا له في عقر الدار، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر، وهدم الاعمار، وكيف كُنِست تلك الكنائس من على بساط الأرض، ودارت الدوائر على كل دار، وكيف جُعلت تلك الجزائر من الاجساد على ساحل البحر كالجزائر، وكيف قُتلت الرجال، واستخدمت الاولاد، وتملكت الحرائر، وكيف قُطعت الأشجار، ولم يترك إلاّ ما يصلح لأعواد المجانيق – إن شاء الله – والستائر، وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي، وكيف استغنى الفقير، وتأهل العازب، واستخدم الخديم، وركب الماشي، وهذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت، وإذا سمعت صوتاً قلتَ فزعاً: "عليّ هذا الفصوت". وكيف رحلنا عنك لكن رحيل من يعود، وأخرناك وما كان تأخيرك إلاّ إلى أجل معدود، وكيف فارقنا بلادك وما بقيت فيها ماشية إلاّ وهي لدينا ماشية، ولا جارية إلاّ وهي في ملكنا جارية، ولا سارية إلاّ وهي بين أيدي المعاول سارية، ولا زرع إلاّ وهو محصود، ولا موجود لك إلاّ وهو منك مفقود، وما منعت تلك المغائر التي في رؤوس الجبال الشاهقة، ولا تلك الاودية التي هي في التخوم مخترقة، وللعقول خارقة، وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك انطاكية خبر، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدّق أننا نبعد عنك، وإن بعدنا فسنعود على الأثر، وها نحن نعلمك بما تم، ونفهمك بالبلاء الذي عمّ.

كان رحيلنا عنك من طرابلس في يوم الاربعاء رابع وعشرين شعبان، ونزولنا أنطاكية في مستهل شهر رمضان وفي حالة النزول خرجت عساكرك للمبارزة، فكُسروا، وتناصروا فما نصروا، وأُسر من بينهم كند اصطبل، فسأل في مراجعة أصحابك، فدخل إلى المدينة، فخرج هو وجماعة من رهبانك، وأعيان أعيانك، فتحدثوا معنا، فرأيناهم على رأيك من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد، وأنهم رأيهم في الخير مختلف، وقولهم في الشر واحد، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت، وأنهم قد قدّر الله عليهم الموت، رددناهم وقلنا: "نحن الساعة لكم نحاصر، وهذا هو الأول في الإنذار والآخر". فرجعوا متشبهين بفعلك، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك، ففي بعض ساعة مرّ شان المرشان، وداخل الرهب الرهبان، ولأن للبلاء القسطلان، وجاءهم الموت من كل مكان، وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان، وقتلنا كل من اخترته لحفظها، والمحاماة عنها، وما كان أحد منهم إلاّ وعنده شيء من الدنيا، فما بقي أحد منا إلاّ وعنده شيء منهم ومنها، فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيل، وديارك والنهاية فيها تصول، والكسابة فيها تجول، وأموالك وهي توزن بالقنطار، وداماتك فكل أربع منهن تباع، فتشتري من مالك بدينار، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كُسرت ونُسرت، وصحفها من الاناجيل المزورة

وقد نشرت، وقبور البطارقة وقد بعثرت، ولو رأيت عدوك المسلم، وقد داس مكان القداس والمذبح، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس، والبطارقة وقد دهموا بطارقة وأبناء المملكة وقد دخلوا في المملكة، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق، وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان وقد زلّت كل منهما وزالت، لكنت تقول: (يا ليتني كنتُ تُراباً)، (ويا ليتني لم أوت بهذا الخبر كتاباً). ولكانت نفسك تذهب من حسرتك، ولكنت تطفي تلك النيران بماء عبرتك. ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من مغانيك، ومراكبك وقد أخذت من السويدية بمراكبك، فصارت شوانيك من شوانيك، ليقنت أن الإله الذي أنطاك أنطاكية منك استرجعها، والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعها ومن الأرض اقتلعها، ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام، وهو دير كوش، وشقيف تلميس، وشقيف كفردبين، وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية، واستنزلنا أصحابك من الصياصي وأخذناهم بالنواصي، وفرقناهم في الداني والقاصي ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان إلاّ النهر فلو استطاع لما تسمى بالعاصي، وقد أجرى دموعه ندماً، وكان يذرفها عبرة صافية فها هو أجراها بما سفكناه فيه دماً.

وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة، وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت بها فتكون إما قتيلا وإما أسيراً وإما جريحاً وإما كسيراً، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهدت الأموات، ولعل الله ما أخرك إلاّ لان تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات ولما لم يسلم أحد يخبرك بما جرى خبرناك، ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك، وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشرناك لتحقق الأمر على ما جرى، وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها مخبراً.



ملحق رقم (٧)

نص مبايعة

نسخة مبايعة بالخلافة للحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفي والتي صدرت على لسان السلطان المنصور أبو بكر بن الناصر محمد سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م)

نقلاً عن: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٥٧-٥٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) إلى قوله (عظيماً) هذه بيعة رضوان، وبيعة إحسان، وجمعية رضي يشهدها الجماعة ويشهد عليها الرحمن، بيعة يلزم طائرها العنق، ويحوم بسائرها ويحمل أنباءها البراري والبحار مشحونة الطرق، بيعة يصلح الله بها الامة، ويمنح بسببها النعمة، ويتجارى الرفاق، ويسري الهناء في الآفاق، وتتزاحم لزهر الكواكب على حوض المجرة الدقاق، بيعة سعيدة ميمونة، شريفة بها السلامة في الدين والدنيا مضمونة، بيعة صحيحة شرعية، ملحوظة مرعية، بيعة تسابق إليها كل نية، وتطاوع كل طوية، ويجتمع عليها شتات البرية، بيعة يستهل بها الغمام، ويتهلل البدر التمام، بيعة متفق عليها الاجماع والاجتماع، ولبسط الايدي إليها انعقد عليها الاجماع، فاعتقد صحتها من سمع الله واطاع، وبذل في تمامها كل امرئ ما استطاع، حصل عليها اتفاق الابصار والاسماع، ووصل بها الحق إلى مستحقه وأقرّه الخصم وانقطع النزاع، يضمنّها (كتاب مرقوم يشهده المقربون) وتلقاه الائمة الاقربون (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، وإلينا ولله الحمد وإلى بني العباس.

أجمع على هذه البيعة ارباب العقد والحل، وأصحاب الكلام فيما قل وجل، وولاة الامور والحكام، وأرباب المناصب والاحكام، حملة العلم والاعلام، وحماة السيوف والاقلام، وأكابر بني عبد مناف، ومن انخفض قدره وأناف، وسروات قريش ووجوه بني هاشم الطاهرة، من بني العبّاس، وخاصة الأئمة وعامة الناس، بيعة تُرى بالحرمين خيامها، وتخفق بالمأزمين أعلامها، وتتعرف بعرفات بركاتها، وتعرف بمنى ويؤمن عليها يوم الحج الأكبر، وتؤم ما بين الركن والمقام والحجر، ولا يُبتغى بها إلاّ وجه الله الكريم، بيعة لا يحل عقدها، ولا ينبذ عهدها، لازمة جازمة، دائبة دائمة، تامة عامة، شاملة كاملة، صحيحة صريحة، متعبة مريحة، ولا من يوصف بعلم ولا قضاء، ولا من يرجع إليه في اتفاق ولا إمضاء، ولا إمام مسجد ولا خطيب، ولا ذو فتوى يسأل فيجيب، ولا من لزم المساجد ولا من تضمهم أجنحة المحاريب، ولا من يجتهد في رأي فيخطئ أو يصيب، ولا محدث بحديث، ولا متكلم في قديم أو حديث، ولا معروف بدين وصلاح، ولا فرسان حرب وكفاح، ولا مخالط للناس ولا قاعدة في عزلة، ولا جمع كثرة ولا قلة، ولا من يستقل بالجوزاء لواؤه، ولا من يعلو فوق الفرقدين ثواؤه، ولا بادٍ ولا حاضر، ولا مقيم ولا سائر، ولا أول ولا آخر، ولا مسر في باطن ولا معلن في ظاهر، ولا عرب ولا عجم، ولا راعي إبل ولا غنم، ولا صاحب أناة ولا بدار، ولا ساكن في حضر وبادية بدار، ولا صاحب عمد ولا جدار، ولا ملجج في البحار الزاخرة والبراري والقفار، ولا من يعتلى صهوات الخيل، ولا من يسبل على العجاجة الذيل، ولا من تطلع عليه شمس النهار ونجوم الليل، ولا من تظله السماء وتقله الأرض، ولا من تدل عليه الاسماء على اختلافها وترفع درجات بعضم على بعض حتى آمن بهذه البيعة وأمن عليها وأمن بها، ومن الله عليه وهداه إليها،

وأقر بها وصدق، وغضّ لها بصره خاشعاً لها وأطرق، ومدّ إليها يده بالمبايعة، ومعتقدة بالمتابعة، ورضي بها وارتضاها، وأجاز حكمها على نفسه وأمضاها، ودخل تحت طاعتها وعمل بمقتضاها، وقـضى بيـنهم بالحق (وقيل الحمد لله رب العالمين).

وإنّه لمّا استأثر الله بعبده سليمان أبي الربيع الإمام المستكفي بالله أمير المؤمنين كـرم الله مثـواه وعوّضه عن دار السلام بدار السلام، ونقله مزكى يديه عن شهادة الإسلام بشهادة الإسـلام، حيـث آثـره بقربه، ومهد لجنبه، وأقدمه على ما قدمه من مرجو عمله وكسبه، وخار له في جواره فريقاً، وأنزله (مـع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً). الله أكبر ليومه لـولا مخلفه كانت تضيق الأرض بما رحبت، وتجزى كل نفس بما كسبت، وتنبأ كل سريرة مـا ادخـرت ومـا جنت، لقد اضطرم سعير إلا أنه في الجوانح، لقد اضطرب متبر وسرير لولا خلفه الصالح، لقـد اضـطر مأمور وأمير لولا الفكر بعده في عاقبة المصالح، ولم يكن في النسب العباسي ولا في البيت المـسترشدي، ولا في غبره من بيوت الخلفاء من بقايا آباء وجدود، ولا من تلده أخـرى الليالي وهي عاقر غير ولـود، من تسلم إليه أمة محمد عقد نياتها وسرطويّاتها إلا واحد، وأين ذاك الواحد؟ هو والله مـن انحـصر فيـه استحقاق ميراث آبائه الاطهار، وتراث أجداده الاخيار، ولا شيء هو إلاّ ما اشتمل عليه رداء الليل والنهار، وهو ولد المنتقل إلى ربه، وولد الإمام الذاهب لصلبه، المجمع على أنه في الايام فرد هذا الانام، وهكذا فـي الوجود الإمام، وأنه الحائز لما زرت عليه جيوب المشارق والمغارب، والفائز بملـك مـا بـين المـشارق والمغارب، الراقي في صفح السماء هذه الذروة المنيفة، الباقي بعد الائمة الماضين ونعم الخليفة، المجتمـع فيه شروط الإمامة، المتضع لله وهو ابن بيت لا يزال الملك فيهم إلى يوم القيامة، الـذي يفـضح الـسحاب نائله، والذي لا يعزه عادله ولا يغره عاذله، والذي ما ارتقى صهوة المنبر بحضرة سلطان زمانه غلا قـال بأمره وقام قائمه، ولا قعد على سرير الخلافة إلاّ وعرف أنّه ما خاب مستكفيه ولا غاب حاكمه، نائـب الله في أرضه، والقائم مقام رسوله ﷺ وخليفته وابن عمه، وتابع عمله الصالح ووارث علمه، سـيدنا ومولانـا عبد الله ووليه أبو العباس الإمام الحاكم بأمر الله، أمير المؤمنين، أيد الله ببقائـه الـدين، وطـوّق بـسيفه الملحدين، وكبت تحت لوائه المعتدين، وكتب له النصر إلى يوم الدين، وكبّ بجهاده على الأذقان طوائـف المفسدين، وأعاذ به الأرض ممن لا يدين بدين، وأعاد بعدله أيام آبائه الخلفاء الراشدين والأئمة المهـديّين، الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وعليه كانوا يعملون، ونصر أنصاره، وقدر اقتـداره، وأسـكن فـي القلوب سكينته ووقاره، ومكن له في الوجود وجمع له أقطاره.

ولما انتقل إلى الله ذلك السيّد ولقي أسلافه، ونقل إلى سرير الجنة عن سرير الخلافة، وخلا العـصر من أمام يمسك ما بقي من نهاره، وخليفة يغالب مزيد الليل بأنواره، ووارث نبي بمثله ومثل آبائه، استغنى الوجود بعد ابن عمّه خاتم الانبياء عن نبي يقتفي على آثاره، ومضى ولم يعهد فلم يبق إذ لم يوجد النص إلا بالاجماع، وعليه كانت الخلافة بعد رسول الله ﷺ بلا نزاع، اقتضت المصلحة الجامعة عقد مجلـس كـل طرف به معقود، وعقد بيعة عليها الله والملائكة شهود، وجمع الناس له (ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلـك يومٌ مشهود) فحضر من لم يُعبأ بمن تخلف، ولم ير بائعه وقد مدّ يده طامعاً لمزيدها وقد تكلّف، وأجمعـوا على رأي واحد استخاروا الله فيه فخار وأخذ يمين لها الإيمان، ويشهد بها الإيمان، ويعطي عليها المواثيق،

وتعرض أمانتها على كل فريق، حتى تقلد كل من حضر في عنقه هذه الأمانة، وحط على المصحف الكريم يده وحلف بالله واتم ايمانه، ولم يقطع ولا استثنى ولا تردد، ومن قطع عن غير قصد أعاد وجدد، وقد نوى كل من حلف أن النية في يمينه نية من عقدت له هذه البيعة ونية من حلف له، وتذمم بالوفاء له في ذمته وتكفله، على عادة ايمان البيعة وشروطها، وأحكامها المرددة، وأقسامها المؤكدة، بأن يبذل لهذا الإمام المفترض الطاعة الطاعة، ولا يفارق الجمهور ولا يفر عن الجماعة الجماعة، وغير ذلك مما تضمنته نسخ الإيمان المكتتب فيها أسماء من حلف عليها مما هو مكتوب بخطوط من يكتب منهم، وخطوط العدول الثقات عمن لم يكتبوا وأذنوا أن يكتب عنهم، حسبما يشهد به بعضهم على بعض، ويتصادق عليه أهل السماء والارض، بيعة تم بمشيئة الله تمامها، وعم بالصوب المغدق غمامها (وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) ووهب لنا الحسن، ثم الحمد الكافي عبده الوافي لمن يضعف على كل موهبة حمده، ثم الحمد لله على نعمة يرغب أمير المؤمنين في ازديادها، ويرهب إلا أن يقاتل أعداءء الله بإمدادها، ويدأب بها من ارتقى منابر ممالكه بما بان من مباينة أضدادها، نحمده والحمد لله ثم الحمد لله، كلمة لا يمل من تردادها.



ملحق رقم (٨)

نص مبايعة

نسخة مبايعة بالسلطنة للظاهر بيبرس والذي صدرت على لسان الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة (٦٥٩ هـ/١٢٦٠م)

نقلا عن: بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ٨٧-٩٠

الحمد لله الذي أضفى ملابس الشرف وأظهر درره وكانت خافيته بما استحكم عليها من الصدف، وشيد ما وهي من علايه حتى أمسى ذكر ما سلف وقيض لنصره ملوكاً اتفق على طاعتهم من اختلف، أحمده على نعمه التي رتعت الاعين منها في الروض الاتف، وأطافه التي وقفت الشكر عليها فليس له عنها منصرف وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له شهادة توجب من الخوف أمنا، وتسهل من الامرو ما كان حزناً، وأشهد أن محمداً عبده الذي جبر من الدين وهنا، ورسوله الذي أظهر من المكارم فنوناً لافتاً، ﷺ وعلى آله وصحبه الذين اوضحت مناقبهم باقية لاتفنى واصحابه الذين أحسنوا في الدين فاستحقوا الزيادة من الحسنى، وبعد فإن أولى الاولياء بتقديم ذكره وأحقهم أن يصبح القلم ساجداً وراكعاً في تسطير مناجيه ويره من سعى وأضحى بسعيه الجميل متقدماً. ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجداً ومنهما وما بدت يد من المكرمات إلا كان زنداً ومعصماً ولا استباح سيفه حمى ووغى إلا اضرمنه وأجراه دما ولما كانت هذا المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني شرفه الله وأعلاه ذكره الديوان العزيز النبوي الامامي المستنصري أعز الله سلطانه تنويهاص بشريف قدره واعترافاً بصنعه الذي تنفذ العبارة المسهبة، ولا تقوم بشكره، وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان، وأذهب ما كان لها من محاسن وإحسان، وعتب دهرها المسئ لها فأعتب وأرضى بها، زمانها، وقد كان حال عليها حوله مغلوب فكان لها سلما بعد أن كان عليها حرباً، وصرف إليها اهتمامه. فرجع من كان متضايق من أمرها وابتغوا وجهها ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفاص وأظهر له من الولاء رغبة في ثواب الله ما لا يخفى وأبدى من الاهتمام بأمر البيعة أمراً لو رآه غيره لامتنع عليه، ولو تمسك بحبله متمسك لانقطع به قبل الوصول إليه، لكن الله ادخر هذه الحسنة ليثقل بها في الميزان ثوابه ويخفف بها يوم القيامة حسابه والسعيد من خفف حسابه، فهذه منقبة أبي الله إلا أن نخلدها في صحيفة صنعه ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف يجمعه بعد أن حصل الإياس من جمعه وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الواقع، وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت في المكارم فرداً، ولا جعل منها بلداً من البلاد ولا حصناً من الحصون مستثنى ولا جهة من الجهات تعد في الاعلى ولا الأدنى، فلاحظ أمور الامة فقد اصبحت لها حاملاً وخلص نفسك من التبعات اليوم، ففي غد تكون مسؤولاً لا سائلاص ودع الاغترار بأمر الدنيا، فما نال أحد منها طايلاً وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها خيالاص زائلاً، فالسعيد من قطع آماله الموصلة وقدم لنفسه زاد التقوى فتقدمه غير التقوى مردودة لا مقبولة وابسط يدك بالاحسان والعدل فقد أمر الله بالعدل والاحسان في مواضع من القرآن، وكفر به عن المرء ذنوباً وآثاراً وجعل يوماً واحداً فيه بعبادة العابد ستين عاماً. وما

سلك أحد سبيل العدل إلا واحسنت ثماره من أفنان ورجع الأمر به بعد تداعي أركانه وهو مشيد الاركان ومحصن به من حوادث زمانه، والسعيد من تحصن من حوادث الزمان وكانت أيامه في الايام أبهى من الاعياد واحسن في العيون من الغرر في أوجه الجياد، وأحلى من العقود إذا حلى بها عطل الاجياد وهذه الاقاليم المنوطة لك تحتاج إلى نواب وحكام وأصحاب رأي من أصحاب السيوف والاقلام فإذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقب عليه تنقيباً واجعل عليه في تصرفاته رقيباً، وسل عن أحواله ففي يوم القيامة تكون عنه مسؤولاً، وبما أجرم مطلوباً، ولا قول منهم إلا من يكون مساعيه حسنات لله لا ذنوباً وأمرهم بالاناة في الامور والرفق ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق، وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق وان لا يعاملوا أحداً على الاحسان إلا بما يستحق وأن يكون لمن تحت أيديهم من الرعية إخواناً يوسعهم براً وإحساناً وأن لا يستحلوا حرماتهم إذا استحل الزمان لهم حرماناً فالمسلم أخو المسلم ولو كان أميرا عليه أو سلطاناً، والسعيد من نسج ولاته في الخير على منواله، واستنوا بسنته في تصرفاته وأحواله، وتحملوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله، وما يؤمرون به أن يمحى ما أحدث سيء السنن وجدد من المظالم التي هي من أعظم المحن وأن تشترى بأبطالها المحامد رخيصة بأغلى ثمن، ومهما جنى منها من الأموال فإنما هي باقية في الذمم حاصلة، وأجياد الخزائن عن أضحت بها خالية فإنما هي الحقيقة منها عاطلة، وهل أشقى ممن احتقب إثماً واكتسب بالمساعي الذميمة ذماص وجل السواد الاعظم يوم القيامة له خصماً وتحمل ظلم الناس فيما صدر عنه عن أعمال وقد خاب من حمل ظلما وحقيق بالمقام الشريف المولوي السلطان الملكي الظاهري الركني أن تكون ظلامات الإمام مردودة بعدله وعزائه تخفف ثقلاص لا طاقة لهم بحمله، فقد أضحى على الإحسان قادراً وصنعت له الايام ما لم تصنعه لمن تقدم من الملوك وإن جاء أخيراً فأحمد الله على أن وصل إلى جانبك إمام هدى يوجب لك مزية التعظيم وينبه الخلايق على ما خصك الله به من هذا الفضل العظيم وهذه أمر يجب أن تلاحظ وتراعى، وأن يوالي عليها حمد الله، فإن الحمد يجب عليها عقلاً وشرعاً، وقد تبين أنك صرت في الامور أصلاً وصار غيرك فرعاً وما يجب أيضاً تقديم ذكره أمر الجهاد الذي أضحى على الامة فرضاص وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضاً، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم وأعد لهم عند المقام الكريم، وخصهم بالجنة التي لا لغو فيها ولا تأثيم وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء أسرعت في سواد الحساد وعرفت منك عزمة هي أمضى ما تجنه ضمائر الاغماد. واشتهرت لك المواقف في سواد الحساد وعرفت منك عزمة هي أمضى ما تجنه ضمائر الاغماد. واشتهرت لك المواقف في القتال هي أشهر واشهى إلى القلوب من الاعياد وبك صان الله حمى الإسلام من أن يبتذل ويعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول. وسيسفك أثر في قلوب الكافرين قروحاً لا تندمل ويك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الايام الأولى فأيقظ لنصرة الإسلام جفناً ما كان غافياً ولا هاجعاً وكن في مجاهدة أعداء الله متبوعاً لا تابعاً وأيد كلمة التوحيد، فما نجد في تأييدها إلا مطيعاً سامعاً، ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها، فتبتسم له الثغور واحتفال يبدل مادجا من ظلماتها بالنور واجعل أمرها على اهتمام بأمرها، فتبتسم له الثغور واحتفال يبدل مادجاً من ظلماتها بالنور واجعل أمرها على الامور مقدماً وشيد منها كلما غادره العدو متهدما فهذه حصون بها يحصل الانتفاع وهي على العدو داعية افتراق لا اجماع والاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاوراص والعدو إليه متلفتاً نافراً لا

سيما ثغور الديار المصرية فإن العدو قد وصل إليها رابحاً وراح خاسراً واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثراً وكذلك الاسطول الذي ترى خليه كالأهله وركائبه سابقة بغير سائق وهو أخو الجيش السليماني فإن ذاك غدت الرياح له حاملة وهذا تكفلت بحلمه المياه السائلة فإذا لحظها الطرف جارية في البحر كانت كالأعلام وإذا شبهتها قال هذه ليال تقلع بالايام.

وقد سنى له الله من السعادة كل مطلب، وأنا لك من أصالة الرأي الذي يريك المعيشة وبسط بعد القبض منك الامل بالسعادة ما كان من كسل، وهداك إلى مناهج الحق وما زالت مهتدياً إليها وألزمك المراشد، فلا تحتاج إلى تنبيه عليها والله يمدك بأسباب نصره ويودعك شكر نعمه، فإن النعمة تستمر بشكره.



ملحق رقم (٩)

نص بولاية العهد بالخلافة

نسخة عهد الخليفة العباسي المعتضد بالله أبو عبد الله محمد لولده المتوكل على الله سنة (٧٦٣هـ/١٣٦١م)

نقلاً عن: السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٨١-٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي ميّز أبناء الخلفاء برُتَب العدالة، وألبس من نشأ منهم على ستر العفاف خلعها المذالة، ورفع قدره على أقرانه حين سلك سبل الرشاد التي أوضحها له.

أحمده على نعمه التي هي على عبده منها له، وأشكره شكراً أستزيد به نعمه وإفضاله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة امرئٍ أخلص بها نيّته ومقاله، واشهد أنّ محمداً عبده ورسوله المخصوص بعموم الرسالة، والمبعوث بأوضح حجّة ودلالة، والصادق الأمين الذي أخلص لله أقواله وافعاله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أولى الصدر والاصالة، والمفاخر الباهرة والجلالة، وسلم تسيلماً كثيراً، ورضى الله عن أول الخلفاء، بعد نبينا محمد المصطفى الذي صحبه بوفاء شيخ الوقار، ومعدن الجود والافتخار، وأنيس سيّد المرسلين في الغار، ذي الكرم العريق، والرأي الوثيق، والإخلاص والتصديق، السابق للنبوة والرسّالة بالتصديق، المكنيّ بعتيق، هو الإمام أبو بكر الصديق، وعن عمى نبيه حمزة والعباس، المطهرين من الدّنس والأرجاس.

وبعد، فالخلافة أشرف ملابس أهل الديانة، وأزهى حُلل الصّيانة، وهي أصل كلّ سيادة يتوصل إليها، ورياسة جلّ الاعتماد عليها، إذ هي أجل المناصب وأنماها، وأشرفها وأرفعها وأسناها، وأنفسها وأعلاها وأغلاها، ومن لوازمها ألاّ يؤتى تقليدها إلا من اتصف بصفاتها المرضيّة، وتحلّى بحلاها المرعية، ورقى بجميل سيرته إلى مراتبها العلية، ولما كان من يأتي اسمه في هذا المكتوب ممن هو حقيق بها لا محالة، وجدير بأن يبلغه حسن الظن منها آماله، إذ كان متصفاً بصفاتها الحميدة، متقيداً بآرائها السديدة، وقد لاحت عليه أثارُ الخلافة وظهرت، وذاعت محامدة واشتهرت، وقامت الأدلة بأهليته لتقليدها، وأنه كفء لتناول طريفها وتليدها، استخار الله سيدنا ومولانا الإمام بأهليته لتقليدها، وأنه كفء لتناول طريفها وتليدها، استخار الله سيدنا ومولانا الإمام المعتضد بالله، المستمسك بتقواه، المراقب له في سرّه ونجواه، أمير المؤمنين، خليفة رب العالمين، أن عم سيد المرسلين أبو الفتح أبو بكر بن سيدنا ومولانا المستكفي بالله أبي الربيع سليمان أمير المؤمنين، أعزّ الله به الدين، وامتع ببقائه الإسلام والمسلمين، وأشهد على نفسه الكريمة، أسبغ الله عليه نعمه العميمة، إنه عهد إلى ولده لصُلْبه الإمام التوكل على الله أبي عبد الله محمد نصر الله به الإسلام وأيّده، ونفع به نفعاً مستمراً مؤيده وجعله ولي عهده، ورضيّه خليفة على الرعية من بعده، لما علم من ديانته وعدالته وكفالته وكفايته ومروءته وحسن قصده، عهدا صحيحاً شرعياً، تاماً معتبراً مرضياً، وفوّض إليه أمر الخلافة تفويضاً صريحاً، وعقد له ولاية العهد على الرعية عقداً صحيحاً وقبل ذلك قبولاً شرعياً، جعله الله لشريعة نبيه محمد ناصراً مؤيداً، وجمع به كلمة الإسلام. وصدّر الإشهاد بذلك في اليوم المبارك يوم الثلاثاء الثالث عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وسبعمائة.



ملحق رقم (١٠)

نص بولاية العهد بالسلطنة

نسخة عهد السلطان الظاهر بيبرس لإبنه الملك سعيد بركه سنة (٦٦٢هـ/١٢٣٦م)

نقلاً عن ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٠٤-٢٠٩

الحمد لله منمى الغروس، ومبهج النفوس، ومزين سماء المملكة بأحسن الأهلة وأضواء البدور، وأشرق الشموس الذي شد أزر الإسلام بملوك يتعاقبون مصالح الانام، ويتناوبون تدبيرهم كتناوب العينين في مهمات الأجساد وملمات الأجسام نحمده على نعمه التي أيقظت جفن الشكر المتغافي، وأوردت منهل الفضل الصافي، وحولت الآلاء حتى تمسكت الآمال منها بالوعد الوفي، وأخذت بالوزن الوافي ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عبد كثر الله عدده وعدده، وأحمد أمسه ويومه ويحمد إن شاء الله غده، ونصلى على سيدنا محمد الذي اطلع به نجم الهدى وألبس المشركين به أردية الردى وأوضح به مناهج الدين، وكانت طرائق قدداً صلى اله عليه وعلى آله وصحبه صلاة (دائمة) لا تنقضي أبداً.

وبعد فإنا لما ألهمنا الله من مصالح الأمم وخولناه من الحرص على مهمات العباد التي قطع به شأفة الكفر وحسم، وأتى بنا والشرك قد علم كل أحد اشتعال ناره، فكان علماً بنار مضرمة، لانار على علم، وقدره من دفع الكفر من جميع الجوانب، وقمعهم من كل جهة حتى رميناهم بالحتف الواصل والعذاب الواصب فأصبح الشرك من الإبادة في شرك، والإسلام لا يخاف من فتك ولا يخاف من درك وثغور الاسلام عالية المبتنى نامية المقتنى جانية ثمار الإدخار من هنا ومن هنا تزاحم بروجها في السماء البروج، وتشاهد الأعداء منها سماء قد بنيت وزينت وما لها من فروج، وعساكر الملة المحمدية في كل طرف من أطراف الممالك تجول وفي كل واد تهيم حين تشعر بالنصر ولكنها تفعل ما تقول، قد دوخت البلاد فقتلت الأعداء تارة الإلمام وتارة بالأوهام، وسلت سيوفها فراعتهم يقظة بالقراع ونوماً بالأحلام نرى أنه قد لذ لنا هذا الأمر التذاذ المستطبب، وحسن لدينا موقعه، فعكفنا عليه عكوف المستجيد. ولبيناه تلبية المستجيب، وشغلنا فيه جميع الأوقات والحواس وتقسمت مباشرته ومؤامرته ساير الزمن حتى غدا أكثر تردداً إلى النفس في الأنفاس، واستنفذنا الساعات في امتطاء الطمر الشوس وادراع محكم الدلاص التي بأنها ومضات برق أو شعاع شموس وتجريد المرهفات التي قد جفت لحاظها الأجفان، وجرت فكا لمياه واضطرمت فكان لنيران، وتفويق السهام التي قد غدت قسيها من أتعابنا لها تأن واعتقال السمهرية التي تفرع الاعداء سنها ندماً كلما فرعت في السن إلى غير ذلك من غارة شعواء تسئ للكفاء الصباح وتصدم كالجبال، وتسير كالرياح ومنازلات كما ستلبت من موجود وكم استنجزت من نصر موعود، وكم مدينة أضحت لها مدنية، ولكن أخرها الله إلى أجل موعود، وكانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع تفرسنا فيه الزيادة والنمو وتوسمنا منه حسن الجنا المرجو، ورأينا أنه الهلال الذي أخذ في ترقى منازل السعود إلى الابدار وأنه سرنا الذي صادف مكان الاختيار له حسن الاختيار، أردنا أن ننسبه في النسب أحالنا الله فسيح غرفة ونشرفه مما خولنا الله من شرفة وأن تكون يدنا ويده تقتطفان من ثمره، وجيدنا وجيده يتحليان بجوهره، وأنا نكون للسلطة الشريفة السمع والبصر وللمملكة المعظمة في التناوب بالاضاءة الشمس والقمر، وأن نحول الأمة منا ومنه بحدين، ويبطشون من أمرنا وأمره بيدين، وأن نربيه على حسن سياسة تحمد الأمة إن شاء اللهخ

عاقبتها عند الكبر، وتكون الاخلاق الملوكية منتشية معه، ومنتشية به من الصغر وتجعل الامة حميدا ونهب لهم منه سلطاناً نصيراً، وملكاً سعيداً، ونقوى به عضد الدين، ونريش جناح المملكة وننجح مطالب الأمة بإيالته، وكيف لا ينجح مطلب يكون فيه بركة، وخرج أمرنا لا برح مسعداً ومسعفاً ولا عدمت الأمة خلفاً منيلاً، ونوا مخلفاً بأن يكتب هذا التقيد لولدنا الملك السعيد ناصر الدين بركة خاقان محمد جعل الله مطلع سعده بالاشراق محفوفاً وأرى الأمة من ميامنه ما يدفع الدهر ويحسن بالتدبير تصريفاً بولاية العهد الشريف على قرب البلاد وبعدها وغورها ونجدها وعساكرها وجندها وقلاعها وثغورها وبرورها وبحورها وولايتها وأقطارها ومدنها وأمصارها وسهلها وجبلها ومعطلها ومعتملها وما تحوى أقطاره وما تنسب للدولة القاهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشام بعد شام، وما يتداخل ذلك فإن قفار وبيد في ساير هذه الجهات وما يتخللها من نيل وملح وعذب فرات ومن يسكنها من خفير ومن جليل ومن بحتلها من صاحب رغاء وثغاء وصليل ومهيل وجعلناه يده في ذلك كله المبسوطة وطاعته المشروطة ونواميسه المضبوطة ولا تدبير ملك كلى إلا بنا، أو بولدنا يعمل ولا سيف ولا رزق إلا بأمرنا، هذا يعمل وهذا نسأل ولا دست سلطنة إلا بأحدنا يتوضح منه الإشراف ولا غبن قائم في روض أمر ونهى إلا ولدينا ولديه تمتد له الاوراق ولا منبر خطيب إلا باسمينا يميس. ولا وجه درهم ولا دينار إلا بنا يشرق، ويكاد تبرجا لا بهرجا يتطلع من خلال الكيس، فليتقد الولد ما قلدناه من أمور العباد وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد. وسنتعاهد الولد من الوصايا بما سينشأ معه تؤما ويمتزج بلحمه ودمه حتى يكاد يكون ذلك إلهاماً لا تعلماً، وفي الولد تحمد الله من نقاء الذهن وصحة التصور ما تتشكل فيه الوصايا أحسن التشكيل وتظهر صورة الإبانة في صفائه الصقيل، فلذلك استغنينا عن شرحها هنا مسرودة، وفيه نحمد من حسن الخليقة ما يحقق أنها بشرق الإلهام موجودة والله لا يعدمنا منه إشفاقاً وبرا ونجعله أبداً للأمة سنداً وذخراً.



ملحق رقم (١١)

نص تقليد

نسخة تقليد الأمير فخر الدين عثمان رئاسة ديوان الإنشاء سنة (٦٧٩هـ/١٢٨٠م)

نقلاً عن: ابن عبد الظاهر، التشريف، ص٢٧-٢٨

الحمد لله الذي خص من وإلى هذه الدولة بالتقدمة والفخر، ورمى من عاداها بالمذلة والقهر، ومد في عمر أيامها حتى يستنفذ الدهر، وحتى توصف أيامها وإن قصرت بالمسار بأن كل شهر يمر منها كالعام واليوم كالشهر، (نحمده) على ما منحها به من تأييد وظفر، ونصر ونشر دعوة من ظافرها بعد الطي، وطوى دعوة من عاندها بعد النشر، (ونشهد) أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة إن دخلت شواهدها تحت الاحصاء فلا تدخل فوايدها تحت الحصر، (وأن) محمداص عبده ورسوله الذي جعل به الهداية في المبدأ والشفاعة في المعاد يوم الحشر، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تسعد بعد الشقاء وتجبر بعد الكسر، (وبعد) فإن الله سبحانه وتعالى لما مكن لنا في الأرض، وجعل بيدنا البسط والقبض، وأرنا كيف نصنع الجميل ونجمل الصنع، وكيف نجبر قلب من جعل في أيامنا جبره بعد الصدع، وكيف تصبح أنجم ذوي الاقدار في سماء مملكتنا نيرة المطالع وكيف يلقى الخير في عراضها من رامه إذا كان على الخير في غير أيامنا مانع، وكيف نحل التقدمة في من إذا رفل في حللها قيل هذا هو أحق ممن كان، وهذا الذي ما برحت التقدمة في بيته في صدر الزمان، وهذا الذي إذا ذكر آل فضل وآل على كانت له مرتبة الشرف، ولا غرو أن تكون مرتبة الشرف لعثمان، رأينا أن لا يمتطى صهورة العز إلا أهلها، ولا ينسخ الآية لمن تقدم في التقدمة إلا خير منها أو مثلها، ولا يتسلم رايتها إلا من تعقد عليه الخناصر، ولا يتسم ذروتها إلا من هو أحق بها وأهلها في الأول والآخر، (ولما) كان المجلس السامي الأمير فخر الدين عثمان بن الامير مانع ابن هبة هو المراد بهذا القول الحسن، والروح لجسد هذه المدح التي تسر السر والعلن، والحقيق من الإحسان بكل ماء والجدير بأن والخصيص من سوالف الخدم بما، والمفضل على ساير النظراء ولو قيس بثمن، اقتضى حسن الرأي الشريف أن خرج الأمر العالي، لا زال ذو القدر في أيامه يرتفع، وذو الفضل في دولته لا يعز عليه مطلب عز ولا يمتنع، وذو الاصالة يجتمع له فيها من النعماء مالا يلتم له في غيرها ولا يجتمع. (وأن) يفوض له التقدمة على العربان بالشام المحروس، وهم من يأتي ذكره على ما يستقر عليه الحال في ترتيبهم، وأن يكون منازل اللازم لعه حفظها، بعدا وقربا، حضرا وبدوا، عامرا وغامرا، رايحا وغاديا، من الرستن إلى الملوحة والعرب، آل فضل وآل على، حيث شاءوا نزلوا بمنزلة المذكور، أو بمنزل الامير شمس الدين محمد بن أبي بكر، والخدمة واحدة، والكلمة على اتفاق المصالح متعاضدة، فليكن للتقوى جسد روحها لا بل روح جسدها، ولجموع القبايل أوحد عددها، إذ أصبح الأول من عددها، وقطب فلكها الذي على تدبيره مدارها، وعلى تقريره اقتصادها واقتصارها، وعلى تقدمته تعويلها، وإلى نسبة إمارته جملتها وتفصيلها، وليجمعهم على الطاعة فإن الطاعة ملاك الأمر الآمر، وأس الخير للبادي والحاضر، وليعلم أن لكل منهم بيتاً به يعرف، أو علمية أصالة بها يعرّف، ومنزلة يرثها الولد عن الوالد، ومشيخة ترجع من ذلك البيت إلى ذلك الواحد، فليحفظ لهم الانساب، وليرع لهم الاسباب، وإذا أمروا بأمر من مهام الدولة يتلو عليهم ادخلوا الباب، واللام له ولهم مخايض تحفظ ومفاوز تلحظ، ومطارح لا تلفظ،

ومشاتي ومصايف، ومقانص ومصارف، ومرابع ومراتع، ودنو واقتراب، وإغارة ونهيض، وبرق ووميض، فليرتب ذلك أجمل ترتيب، وليسلك فيه خير مهذب وتهذيب، وليردع الصادى، ويلاحظ الرايح والغادي، وليؤمن ذلك تأميناص تطرب أنباؤه المحدو والحادى، وعليهم عداد مقرر، وقانون محرر، فليكن على يد شاده شادا، ولسبب تأييدهم مادا، ويعلم أنه وإن كان قد أغمض من حقوقه فيما مضى، وأعرض عنه في الزمن الأول من انقضى، وقدم عليه من كان دونه، وقد رد الله له أبكار الأمر وعونه، فلا يجعل لقائل عليه طريقاً، ولا يدخل في أمر يقال عنه فيه: كان غيره به حقيقاً، بل يفوق من تقدم في الخدمة والهمة، والصرامة والعزمة والله تعالى يوزعه شكر النعمة.



ملحق رقم (١٢)

نص تقليد

نسخة تقليد بنيابة السلطنة في بلاطنس للأمير علم الدين سنجر المنصوري والذي صدر سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م)

نقلاً عن: ابن عبد الظاهر، التشريف، ص ٢٦-٢٧

أما بعد حمد الله على نعم توالى رفدها، ووجب شكرها وحمدها، وعذب لذوى الآمال وردها، والصلاة على سيدنا محمد الذي رفع الله به لقريش مجدها، وعلا جدها، وعلى آله وصحبه صلاة لا يحصى عدها، ولا يحصر حدها، فإنه لما كان فلان ممن قدمه تقادم خدمه، وتعالى به إلى العلياء تسامى هممه، وترفع به حسن ولائه حتى أعلت الدولة من شأنه، ورفعت من علمه واستكفته على مصون الحصون، وجادت عليه بصوب إحسان روى الأماني فأضحت نضرة الغصون، واستأمنته فما أخلف الظن، وقلدته فحسن في جيده ما قدم من من، وكانت مملكته أبلاطنس المحروسة المملكة التي شمخت بأنفها على الممالك علواً وسمت علوا وسامت الجوزاء سمواً، لا يستحفظ عليها وفيها إلا من يوفى الاغراض في المحافظة ويوفيها، وكان مجلس الامير علم الدين هو عين هذه الاوصاف، والوارد من حسن الطاعة المورد الصاف، قد ربى في الخدمة مربى أربى بقدره وأحله من محفل التبجيل بصدره، اقتضى حسن الرأي الشريف أن خرج الأمر العالي بأن تفوض إليه النيابة الشريفة بهذه القلعة المحروسة، وأن تكون بأوانس صفاته الجميلة مأنوسة، فلذلك فوضت إليه النيابة بها على عادة من تقدمه في النيابة، وحسن الطاعة والإنابة، وبذل الخدمة وصرف الهمة، إلى كل مصلحة تجنيه ثمرات النعمة، فليكن فيما استحفظ كفوا، وليورد الرعية من حسن السيرة صفوا، وإذا تعارض حكما الانتقام والعفو وكان الذنب دون الحد فليقدم عفوا، وعليه بالعدل فإنه زمام الفضل، ومادة للمدة المحكمة وجاء للتوفيق في نتيجة كل خير ومقدمة، والقلعة ورجالها وذخايرها وأموالها وعمالها وأعمالها وجندها وأبطالها، فليمعن النظر في ذلك بكرة وأصيلا، وإجمالاً وتفصيلاً، وتحصناً وتحصيلاً، وتقريباص للخيرا وتوصيلا، وعليه بالتمسك بأذيال الشريعة المطهرة، وأحكامها المحررة، تمسكا يطيب ثناؤه، وينعم بالعرف آناؤه، ويوفر من الحسنات والاحسان عناؤه، والقلعة فهي الوديعة عند أمانته، والدرة المستحفظ عليها حسن صيانته، فعليه بحفظها نهاراً وليلاً، ورجلاً وخيلا، وأنواباص ونواباً، وفتحاً وغلقاً، ومنابح وطرقاً، وحفظة وحرسا، ومقيلاص ومعرسا، وخرجا ودخلا، وخراجا وفعلا، وإنفاقاً وصرفا، وردعا وكنا، وقهرا لمن سلك سبيل الفساد، ومقابلة لمن أظهر العناد، بما يسوس الأمر، ويقيم حد الزجر، ويؤمن المناهج، ويحدد المباهج، والوصايا كثيرة فليكن مما ذكر من ذلك على بصيرة، أعانه الله على ما ولاه، ورعاه فيما استرعاه، والخط الكريم أعلاه، حجة بمضمونه ومقتضاه.



ملحق رقم (١٣)

نص تقليد

نسخة تقليد بإمرة مكة المكرمة للأمير اسد الدين رمثية بن أبي نمي والذي صدر على لسان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٣١ه/١٣٣٠م)

نقلا عن: حمادة، الوثائق السياسية، ص ٢٦١-٢٦٣

الحمد لله الحكيم، فالشريف من اتبع أوامره، العظيم، فالسعيد من اتقى غضبه بأعماله الزاكية ونياته الطاهرة، الكريم، فالفائز من سلك مراضيه في الدنيا ليأمن في الآخرة، ومن أخاف عاكف حرم اللنه وباديه فقد باء بالافعال الخاسرة، ومن عظم شعائر الله فقد رفل في حلل الاقبال الفاخرة.

نحمده على ألطافه الباطنة والظاهرة، ونشكره ونرجوه وما زال ينجح راجيه ويزيد شاكره، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من اتخذ الحق ناصره، وأودع إخلاصها ضمائره، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعثه الله من الحرم فألف القلوب النافرة، وفتح مكة فطهرها من الزمرة الكافرة، وقال في ذلك اليوم: من أغلق عليه بابه فقد أمن، فأمسى أهلها ونفوسهم بالأمن ظاهرة. صلى عليه وعلى آله بني الزهراء، وعلى صحبه النجوم السافرة وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن الحكم بالعدل شعارنا، وبالله اقتداؤنا واقتدارنا وفي الاحسان رغبتنا، وفي كل عنق منتنا، نصفح ونمنح، ونرعى من أمسى قديم الهجرة في ولايتنا وأصبح، ونقيم من أهل البيت لحفظ ذلك البيت الاصلح فالاصلح، ونقدم من لم يزل مقدماً وإلى صوب الصواب بجنح فينجح، وننجي من الهلكة من لاح له منهج الخير فسلكه فأفلح.

وكانت مكة المعظمة هي أم القرى والبلد الامين المجزل فيه القرى نشأ الإسلام في بطحائها، وحرّمها الله فلا ينفر صيدها، ولا يعضد شجرها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد تأكيداً لتشريفها وإعلائها، وطلعت شمس النبوة من شعابها، وغسلت الذنوب بوبل سحابها، فيها زمزم وكزة جبريل، وفيها بدأ الوحي والتنزيل، وإليها أعنقت الركاب ففي كل أبطح للمطي مسير ومسيل، فكم أتى إليها من سائر الناس سائر، وكم أتى إليها الناس راجلاص على كل ضامر، فالرحمة مستقرة بين نواحيها والعيون تتملى بأنوار تلك الاستار حق تجتليها، والشفاء تتشرف بتقبيل ذلك الحجر الذي يشهد لها في غد ويقيها، فطوبى لمتقيها، وسحقاً لن أخاف وفد الله فيها. ونحن قد بصرنا الله بخدمة بيتها المحرم وحرمها المعظم، وكرر إليها حجنا وكرمه. فلله الحمد أن كرر حجنا وكرم ومما برحنا نقيم في إمارتها من العترة النبوية كل شريف النسب وكل من يكتسب فيها رضى الله تعالى، وكل امرئ وما اكتسب، فمن اصلح منهم اقمناه، ومن حاد عن الطاعة وجحد النعمة أزلناه، ومن أخاف فيه السبيل لم نجعل له إلى الخير سبيلاً، ومن استقام على الطريقة توكلنا على الله وولبناه وكفى بالله وكيلاً.

وكان فلان هو الذي ما زالت خواطرنا الشريفة تقدمه على بني أبيه وتختاره أميراً وتجتبيه، وربما سلفت من بيته هنات صفحنا عنها الصفح الجميل، وما قابلناهم إلا بما يليق لمجدهم الحسنى الحسن الاصيل، والإمرة وإن كانت بيد غيره هذه المدة، فما كان في الحقيقة أمير عندنا سواء لأنه كبير.

والآن وقد اقتضت آراؤنا الشريفة أن نقيمه في بلده أميراً مفرداً إليه بشار، وأن نصطفيه، وإنه عندنا لمن المصطفين الأخيار، وأن نجعل الكلمة واحدة ليأمن النزيل والجار، ومتى تجاذب الأمر كلمتان فسد نظامه، ومتى أفرد الحكم حسنت أحكامه، ومتى توحد الأمر زال الاختلاف وزاد الائتلاف وأقبلت أيامه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه إمرة مكة المشرفة على عادة والده، فليتقلد ما فوضناه إليه من الإمرة والنيابة بمكة المعظمة شاكراً ما أنعم الله به عليه من مراضينا التي لا نجاة لمن لم ينل منها نصيباً موفوراً ــ ولا فوز لمن لم يدرك منها حظاً كبيراً، وليشرع في تمهيد البلاد من إزالة المظلمة، وليطهرها من كل مجترئ على الله تعالى في البقعة المحرمة، ولا يقرب من في قلبه مرض فيعديه، ولا يرجع لمن فيه شقاق ظاهر في صفحات وجهه وفلتات فيه، وليعلم أن هذا بلد حرام حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، وصيّر حج بيته على مستطعيه من الفرض، وجعله للناس معاداً ومعاذاً، وقال ﷺ يوم عرفة: إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.

فلمينع الدماء من أن تراق، والأموال من أن تؤخذ بغير استحقاق والظلم في البلد الحرام حرام، وبنو حسن أحق باتباع سنة الإسلام واتق الله لتلقاه بالوجه الابيض والعمل الأغر، واتبع سنة جدك، فعلى اتباعها حث وأمر، والق وفد الله في البر والبحر بالحسنى فهم أضيافه وأمن الحج ليتم نسكه وطوافه.

هذا تقليدنا لك أيها الشريف، فطب نفساً بمراضينا، وصفحنا عما مضى ومنحنا الرضى حقاً يقيناً، لأننا نتحقق أن الاحسان يحرسنا ويقينا، إن شاء الله تعالى.



ملحق رقم (١٤)

نص مرسوم خاص بتعليمات صادرة عن السلاطين

نسخة مرسوم بتعليمات تتعلق بأهل الذمة صدر على لسان السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٣٤هـ/١٢٣٦م)

نقلاً عن: اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٠٨ – ٢١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

"الحمد لله مظهر هذا الدين المحمدي على كل دين، ومؤيد بنا الإسلام وأهله وما حق بنا المشركين، الذي قهر بتأييدنا جميع الاعداء، وحقن بعفونا وحلمنا دماء الكافرين، نحمده على ما أولانا من فضله العميم، ونصره المبين، ونشكره شكراً نستزيد به من كرمه (وسيجزى الله الشكرين) "آل عمران: ١٤٤"، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة باليقين، ونشهد أن سيد البشر محمداً عبده ورسوله سيد المرسلين، وخاتم الأنبياء الذين أرسلهم إلى العاملين، وأن عيسى ابن مريم عبده ورسوله الذي بشر بمبعثه، ويمن برسالته قبل ظهور دينه المبين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه خصوصاً على مؤيد شرعه أول خلفاء المسلمين، وعلى من فتح البلاد، وضرب الجزية على أهل الكتاب في كل ناد، وأعلن بالتأذين، وعلى من جهز جيش العسْرة رثوقا بضمان سيد المرسلين، وعلى ممرق جموع الكفر وجامع شمل المسلمين، صلاة باقية مستمرة إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد: فإن الله تعالى لما أقامنا لنصرة الإسلام وأهله، وصرفنا في عقد كل أمر وحله، وأيدنا بنصره وعصمنا بحبله، لم نزل نعلي كلمة الإيمان، ونظهر شعائر الإسلام في كل مكان، ونقف عند الأوامر الشرعية، لتكون كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، وكان جماعة من مفسدي النصارى قد تعدوا وطمعوا، وتمادوا في المخالفة إلى ما يقتضي نقض العهود، وبغوا (ومكروا مكراً كباراً) "نوح: ٢٢" (فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) "نوح: ٢٥"، وتعرضوا لرمي نيران أطفأها الله بفضله، ومكروا مكراً سيئاً (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) "فاطر: ٤٣" اقتضى رأينا الشريف أن نأخذهم بالشرع الشريف في كل قضية، ونجدد عليهم العهود العمرية، وأن يقرر لى من شمله عفونا ممن ضعف منهم ضعف الجزية ما تكون به أنفسهم تحت سيوفنا مرتهنة، ونضرب عليهم في لباسهم وحرماتهم الذلة والمسكنة، فلذلك رسم بالامر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري، لا يزال ناصر الدين بجوده وعدله، مظهر دين الحنيفية على الدين كله، أن تستقر الجزية على سائر النصارى بالوجه القبلي ضعف ما عليهم الآن، فيؤخذ من كل نصراني ماليتان: المستقرة أولاً واحدة، والزيادة نظير ذلك، للخاص الشريف، مهما كان مستقراً بسائر النواحي في الوجه القبلي في الاقطاع حسب ما قررت في الروك المبارك الناصري، يكون للمقطعين، والزيادة الثانية المضاعفة الآن تكون للخاص الشريف، وأن يلبس سائر النصارى في جهة من الجهات الديوانية، والاشغال السلطانية، وكذلك لا يستخدم أحدٌ من الامراء أحداً من النصارى عنده، وأن يبطلوا جميعُهم من الجهات التي كانوا يخدمون بها، والحذر ثم الحذر من أن أحداً منهم يخرج عما رسمنا به، ومن فعل ذلك منهم كانت روحه قبالة ذلك، ولا ينفعه بعدها فدية ولا جزية، ويحسم مادة فسادهم، وينكشف بذلك ما أظهروه من سوء اعتمادهم، فليثبت حكم هذا المرسوم الشريف،

وليدخل تحت أمره المطاع من سوء اعتمادهم، فليثبت حكم هذا المرسوم الشريف، وليدخل تحت أمره المطاع كل قوي وضعيف، وليستقر ضرب هذه الجزية استقراراص بلا زوال، مستمراً بدوام الايام والليال، باقية بدوام الأعوام والسنين، مخلدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فإنها حسنة ساقها الله تعالى لدولتنا الشريفة ومئوية، وذخيرة صالحة لم تزل في صحائفنا الطاهرة مكتوبة، ومعدلة نشرها الله تعالى على يدينا في الآفاق، وأجر يكون ثوابه عند الله باق، وسبيل كل واقف عليه – والياً ومثوبة، وذخيرة صالحة لم تزل في صحائفنا الطاهرة مكتوبة، ومعدلة نشرها الله تعالى على يدينا في الآفاق، وأجر يكون ثوابه عند الله باق، وسبيل كل واقف عليه – والياً ونائباً، وحاضراً وغائباً، وناهياص وآمراء، وشاداً وناظراً ومأموراً وأميراً، وكبيراً وصغيراً – الانتهاء عند هذا التحذير، فيبادرون إلى امتثال هذا المرسوم الشريف ويسمعونه، ويسارعون إلى العمل بما فيه وينفذونه، ويقفون عند حكمه ويمتثلونه (فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه) "البقرة: ١٨١"، والله تعالى يُعْلِي منار الإسلام ويزيده قوة وإظهاراً، ويجعل الدائرة على أعداء الدين، ولا يذر على الأرض من الكافرين ديّاراً، يُعدُّ الخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه، وكتب في سابع عشرين جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة حسب الأمر الشريف.



ملحق رقم (١٥)

نص تذكرة

نسخة تذكرة لولي العهد الصالح علاء الدين علي والتي صدرت على لسان والده السلطان المنصور قلاوون

نقلا عن: العسقلاني، الفضل المأثور، ص١١٨-١٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم هذه تذكرة مباركة نافعة بما يتأمله المقام العالي، السلطاني، الملكي، الصالحي، العلائي، أعزّ الله نصره، ملاحظاً، ويكون راجعاً إليه، ومُسْنِداً عنه، ومتمسكاً به، ومراقباً له، ومستكثراً منه. وبالله تعالى التوفيق.

"قد علم الولد – نصره الله – ما أعطانا الله تعالى من هذا الملك العظيم، والنعمة التامة، والسلطان المتمكن، وما نحن عليه من خوف من الله، وخضوع العظمة الله، واتكال في أمورنا على الله، واستنادٍ إلى قوّة الله، واعتقادٍ أن النصر إنما هو من عند الله، فيكون هذا اعتماد الولد في أموره كلّها، وأحواله جميعاً. والله حسبنا ونعم الوكيل".

فصل

"وللمملكة الشريفة قواعد وضوابط وقوانين لا يجب الإغفال عن مُهمٍّ منها".

فمن ذلك ما يُعتمد في غيبتنا أحسن الله عاقبتها، وجعلها مُقْرَنةً بالنصر والتأييد، والظّفر على ما عوّد برحمته وفضله. أنّه يتقدم بملازمة المجرّدين بالقلعة المحروسة، وتفقدهم وأخذهم بالملازمة، وأن أحداً منهم لا يخل بنوبته على العادة في مراكز القلعة، وأبوابها وأسوارها ظاهراً وباطناً، وعلى الاعتقالات والحُبُوس في الليل والنهار والصباح والمساء، وفي أوقات ركوب الولد ونزوله. وتكون أبواب القلعة محفوظة بالأمراء والمقدمين والبحرية على العادة، ولا يُفسح لغريب ولا لمتنكر ولا لمحمولٍ في طلوع القلعة. ويعتمد العادة في تجريد جماعةٍ من الجُنْد حول القلعة في جهة الجبل، ومن جهة القرافة، وعند دار العدل يحضرون في كل عشيّة، ويثبتون بخيولهم وغلمانهم طائفين بالقلعة، وحافظين لجهة الثغر. ويتقدم بتجريد جماعةٍ عند والي مصر وجماعةٍ بالقرافة يطوفون، ويتقدم بتجريد جماعةٍ بالقاهرة يفرّقهم في المدينة وفي الحُسيْنية، وفي الأحكار وفي الشارع، ويطوفون بالنوْبة، ومعهم جماعة من جهة ولاية القاهرة، ويحترزون على الأبواب.

ونوصي المجلس السامي الأمير علم الدين والي القاهرة على الاعتقالات وحفظها وحفظ من بها من المعتقلين والأسارى، ويؤكد عليه في حفظهم وضبط أمرهم، والاحتراز على الحبوس وعلى الدُّروب والأبواب، ويؤكد عليه في منع ذوي العُدوان الذّعارة من الاجتماع في مظانّ الفساد، وأماكن العيث. والإنكار على من يمشي في الليل بغير حاجةٍ، أو يخرج لا لضرورة، ويوقع الإنكار على ذوي الفساد، وشراب المنكرات، وإقامة حدود الله فيمن يوجد سكراناً أو على حالةٍ منكرة، ويعفي آثار المنكرات كلّها، وإزالة ما تركنا لله الحمل الكثير من ضمانه لأن يُعطل ويُبطل. ولا يظهر الولد في هذه الحسنة على جميع الوُلاة، ويشدد ويغلّظ وينكر ويحذر. ويشهر من يتجرّأ أو يخالف أمر الله تعالى والمراسم المطاعة، ويعتمد السياسة التامة في ذلك. ويعتمد الولد أمر الله في كل سارقٍ وقاتل وجارح، ويحمل الأمر في ذلك على

موجب الشرع الشريف، فالشرع يجمع كل شيء، ومن قتل يُقتل، ومن سرق يُقطع. كل ذلك بالحق والشرع الشريف. وكذلك في جميع البلاد يأمر بذلك.

ويتقدّم الولد إلى وُلاة الأعمال بحراستها وحفظها من المفسدين، ويكتب الحُجج على مشايخ البلاد وخُفرائها بحفظها في الليل والنهار، والمساء والصباح، والغُدُوّ والرواح، وإخراج بيوت شعرٍ ينزل بها الخُفَراء من القرية إلى القرية، لتأنيس الطرقات وحفظها، وإجابة المستصرخ، ولحاق المتعرّي، وإدراك الهارب، وإمساك المفسد.

وتتقدّم إلى الوُلاة بالمُناداة بأنّ السّفارة لا يسافرون إلاّ بالنهار، وأنهم لا يغرّرون بنفوسهم ولا بأموالهم، ومن غرّر كان إثمه في عنُقه. ولا تجعل الوُلاة ذلك حُجة للخُفرا بل يُلزِمُهُم بكل ما يُعدَم. وكلما يؤخذ، وكل من تُعُدّي عليه، ويُعرّفهم أنّ الفساد في الليل والنهار إنما هو طريق الاحتراز، وإلاّ كلّما يؤخذُ لهم يُلزمون به.

<u>**فصل**</u>

يؤكدّ الولد – نصره الله – في تدريج الحمام الرسايلي لأجل البطايق /٨٥ب/ وألاّ يُسيّر إلاّ الطيور الجيّدة، وأنها تكون مُدرّجة إلى غزّة المحروسة، حتى أنّ الخبر يصل إن شاء الله تعالى في يومه من غزّة، لا بل من الشام، وكذلك حمام بطايق الثغور وغيرها.

<u>**فصل**</u>

يتقدم الولد بالاحتراز على الجُند والمتأخرين المجرّدين عن العسكر المنصور، وأيّ من حضر ممن كان متأخراً بسبب مرضٍ أو عاقةٍ، أو كان في إقطاعه، يُعرض في ديوان الجيوش المنصورة، ويُكتب له ورقة طريق تحليته وحلية غلمانه، ويعلّم الولد عليها، ويؤمر بسرعة لحاقه للعسكر المنصور، وأن لا يتاجر بالجملة الكافية. ويجد في سيْره.

<u>**فصل**</u>

يؤكد الولد على الوالي بالشرقية وعلى والي العرب (وعلى العربان) في ترتيب خيل البريد بعد توجُّه العسكر المنصور، وأن لا يحضر إلا خيل جيّدة، ولا يحضرون فرساً عجفاء ولا عاجزة. ويأمر بأن لا يُفارق صاحب النوْبة مكان نوبته حتى يحضر صاحب النوبة الأخرى ويتسلمها. ومن ترك نوبته شاغرةً يُنكر عليه ويؤدب ويُغرّم.

ويتقدم الولد – نصره الله – بأنّ فرس بريدٍ لا يتعدّى بها أحد (مكاناً دون) مكانها، ولا منزلة إلى أخرى.

<u>**فصل**</u>

ويؤكد على والي الشرقيّة، وعلى والي الغرب في حفظ المحارض والمياه من جهة البريّة، الكرك وغزة من تلك الجهة، ويوصي مُقدمي العائد وغيرهم على حفظ نوبتهم، بحيث لا يفوتهم الطائر إذا طار إلى تلك الجهات بالجملة الكافية، ويحفظ جهة السُويس، وماء العنبج، والطريق البدرية، ومن وجد على غير الطريق الجادة رائحاً أو واصلاً أمسك، ويُطالع به. ويوصي والي الشرقية في إنفاذ الحمام إلى برج السويس صحبة من جرت العادة بتجريدهم فيه، ويزيد عدتهم في هذا الوقت به. ويؤكد عليهم في الحفظ

التام والاحتراز. ويؤكد على والي الشرقية، وعلى والي الخيرية في إقامة الخفراء في الأماكن المعروفة بهم خلف قلعة الجبل المحروسة، وخلف الجبل إلى (جهة) السويس، وإلى جهة إطفيح، ومن جهة شرونة من الأعمال البهنسائية، بحيث أنّ هذه الجهات لا يسكنها إحد، وتكون محفوظة محروسة، مُحترزاً عليها، محفوفة بالخفراء. ويدرك مقدّموها أمرها حتى إنه إن حصل خلل – والعياذ بالله – كان دركها لازماً لهم وكانت أرواحهم قُبالة ذلك.

فصل

يستطلع الولد – أعزه الله تعالى – الأخبار من جهة الثغور، وما يتجدّد بها من حهة البحر من أمور. ويكون الولد عينُه إلى ما يتجدّد من خبرهم من جهة الروم. أو جهة العرب، أو بلاد الفرنج، ويُعرّفنا بالمهم من ذلك في وقته وساعته. ويعمل بحسب ما يتجدد من الاهتمام بالمداركة. وانتهاز الفرصة، وتلافي الأمور من غير إهمالٍ ولا إغفالٍ، حسبما يقتضيه الحزم التام.

ويؤكد الولد على والي الإسكندرية في أخذ الرجال من الجند الذين بها، والقبائل، وأهل الثغر بما جرت عادتهم به من لبس عددهم، والعرض بها، والمرابطة على العادة.

ويؤكد عليه في حفظ فنادق الفرنج، وحفظ مفاتيحها في الليل، وفي وقت صلاة الجمعة، وفي حفظ الأمكنة المجاورة لها، وفي حفظ المواني من جهة المير ومن كل جهة. وأنه يكون مستظهراً في أموره كلها.

ويتقدم الولد إلى والي دمياط ووالي الغربية، وإلى نستروه وإلى رشيد بحفظ السواحل والبرور، وكل من جرت له عادة من العُربان بحفظ مكان يرتب فيه ويلزم بحفظه. وكذلك جهة الطينة وتنيس. ويؤكد على والي دمياط، ووالي قطيا في حفظها والاحتراز عليها وضبطها وحفظ من يدخل منها أو من يخرج. ويؤكد في ذلك. ويوصي وُلاة الثغرين في إطابة قلوب التجار واستمالة خواطرهم ومعاملتهم بالعدل والإحسان والرفْق والإنصاف ليتوجّهوا شاكرين حامدين مستجلبين خواطر من يحضر بعدهم من التجار، مع اعتماد مصلحة الديوان المعمور. وتتقدم إلى والي البُحيرة بحفظ الطرقات وحفظ المنازل من جهة برقا، وتلك الجهات، وضبطها من متسلك، أو متسحّب، أو نازح.

ويؤكد الولد على والي البُحيرة في مباشرة خليج الاسكندرية، وإزالة ما هو في طريق الماء من بلعات. وكذلك تتقدم إلى والي الاسكندرية بحفر ما يلزمه من ذلك. ويؤكد على والي البحيرة في ملازمة البحر المنصوري المعروف بالطيرية، والمطالعة بما يتجدد فيه من منفعةٍ وبركةٍ ونمو.

ويؤكد الولد – نصره الله تعالى – على والي البهنساية وعلى والي الفيّوم في حفظ جهة ألواح من الجند المتسللين، أو الأكراد، أو الشهرزورية، ويحذر من اجتماعهم في مكان واحد.

ويؤكد الولد على والي الجيزية في أنه لا يُخلى أحد ممن ينكر مثل شهرزورية وأكراد بطالين، أو من يكون من هذه النسبة أنهم يعدون بيوتهم وأولادهم مجتمعين، ويوصيه بالاحتراز من هذا الأمر. وأنه يتيقظ لهذه المصلحة ويلاحظها، ويكون على تحفظ من هذا الأمر. وكذلك يتقدم بالوصية على جهة ألواح من جهة ولاية سيوط. ويتقدم إلى ولاة البلاد بأن يفسحوا للعُربان في حمل شيء من السيوف والرماح، وتؤخذ منهم وتسير إلى خزائن السلاح المنصورة على العادة.

فصل

وقد علم مهمات الأمراء والجند، وأنهم في بيكار ويحتاجون إلى الملاحظة في غيبتهم، وحسن العناية بنوابهم. والشد منهم في خلاص حقوقهم من جهاتهم، ومن إقطاعاتهم، وإكرام مخلفيهم. مع المكاتبات إلى ولاة الأعمال بقضاء أشغالهم، وتقوية أيدي نوابعهم ومراعاة أسبابهم، والإعانة لهم في التقدم بتلافي أمورهم جميعها لتكون أحوالهم ماشية في غيبتهم أكثر من حضورهم، والاعتناء بهم أوفى، والملاحظة أكثر، وتقوية اليد أتم.

فصل

وإذا أتم الله نعمته، وأسبغ رحمته بزيادة النيل المبارك وعموم رحمته، وشمول بركته، ويلاحظ الولدج أمور الجسور والتراع، ويكتب إلى الولاة بحفظها وضبطها ومبيت الرجال عليها وتحصيل الأصناف بحيث لا يختل جسر إلا وتكون الاصناف والآلات التي تدعوا الحاجة إليها حاصلة لإعاقة لها، خصوصاً جسور الخيرية فإن أمرها مهم لا ينبغي الغفلة عنه طرفة عين. ويرتب الحمام الرسايلي عند مباشرتها لاحتمال أن يتجدد فيها خلل، فيستدرك سريعاً بأمير كبير يسيّره للوقوف على ذلك وتلافيه وتداركه. ويجعل هذا الأمر نصب عينيه. ويتقدم بأن لا يُفتح جسر، ولا يُنفّس عنه، ولا تُفتح قنطرة، ولا تُكسر ترعة، إلاّ عند استحقاقها وفي وقتها على حكم مصلحة الوقت ومقدار النيل وكثرته من غيرها. والشهادة على الخولة والمهندسين بذلك.

ويحذر الولاة والنوّاب من أنّ أحداً من نائب أمير أو غيره يكسر جسراً بيده لمصلحة إقطاع مخدومه، وتشريق ما عداها، ولا يُكسر جسر إلاّ بأمر الوالي في تلك الجهة، واتفاق منه بحضور أكابر البلاد ومشايخها وخولتها، والإشهاد عليهم.

فصل

يتقدم الولد إلى الولاة بالاجتهاد في ريّ البلاد، ويحذّرهم من أن يبور منعها قعر قصبة، أو أن تُهْمل أمور قوانين الريّ ونُظمها، وإنفاذها. ويحذّر الولاة من أن يحضر أحدٌ شاكياً منهم بسبب تشريق إقطاع مخدومه لإهمالٍ أو تفريطٍ، أو مُحاباة جهةٍ دون جهة، أو تغلّب قوي على ضعيف، أو أميرٍ على جندي، وتكون المساواة شاملة، والمعونة تامة.

فصل

وإذا عمّت بركاتُ الله تعالى، وشملت رحمته بتغليق الاراضي بالريّ، يصرف الولد – نصره الله تعالى – عنايته ويُوالي مراسمه، مؤكداً فيها على الولادة بإخراج التقاوي المرصدة لتخضير البلاد وتغليقها بالزراعة، بحيث لا يبور منها الشبر الواحد بغير زراعة. ويدبر أحوال البلاد بكل ممكن، ولا يحتج بحجة، ولا بحضور وكيل مقطع، ولا غيبته. ويتوعّد الولاة، ويُغلظ الإنكار عليهم بهذا السبب، ويُفهمهم أنّه إن بار شيء كانوا مواخذين به. وأن ذلك لازمهم، وتكون أرواحهم وأموالهنم قبالة ذلك. ويؤكد في المكاتبات إليهم بذلك في جميع الاوقات ويأمرهم بردّ الفلاحين إلى أماكنهخم ليحصر آثارهم.

هذه جملٌ وراها جمل، وفصولٌ وراها فصول، وأصولٌ وراها أصول.

وفي الولد – أعزّ الله (سلطانه) من الألمعية ما يفرّع أصولها، ويُوصل فُرُوعها، وينتزع من مطاوي مفهومها، ما يحسن إلى المصلحة نزوعها، فيتأمل ما تضمنته، وينسج على منواله، وينتج منه مقدماتته ما يناسب معنى تفصيله وإجماله.

والله تعالى يمتع ببقائه، ويؤكد أسباب عز سلطانه واستعلائه، بمنه وكرمه.



ملحق رقم (١٦)

نص تذكرة

نسخة تذكرة لنائب السلطنة للأمير زين الدين كتبغا والتي صدرت على لسان السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٦٧٩هـ/١٢٨١م)

نقلاً عن: ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، مج٧، ص١٩٦-٢٠٠

تذكرة نافعة للخيرات جامعة يعتمد عليها المجلس العالي الأميري الزيني كتبغا المنصوري نايب السلطنة الشريفة أدام الله عزه في مهمات الديار المصرية وأحوالها ومصالحها وما يرتب بها وما يبت ويفصل في القاهرة ومصر المحروستين وساير أعمال الديار المصرية صانها الله تعالى وما تستخرج به المراسم الشريفة المولوية السلطانية الملكية الصالحية العلاية انفذها الله تعالى في أمورها وقضاياها وولاياتها وولاتها وحمولها وخفرها وحفظها ومتجدداتها على ما نشرح فيها (فصل) الشرع الشريف يشد من حكامه وقضاته في تنفيذ قضاياها وتصريف أحكامه والشد منه في نقضه وإبرامه (فصل) العدل والانصاف والحق يعتمد ذلك في جميع المملكة الشريفة مدتها وقراها وأعمالها وولاياتها بحيث يشمل جميع الرعايا من خاص وعام وبعيد وقريب وغايب وحاضر ووارد وصادر ويستجلب الادعية الصالحة من جميع الناس لهذه الايام الزاهرة ويستنطق الالسنة بذلك فإن العدل حجة الله ومحجة الخير فيدفع كل ضرر ويرفع كل ضير (فصل) الدماء يعتمد فيها حكم الشرع الشريف ومن وجب عليه قصاص يسلم لغريمه ليقتص منه بالشرع الشريف ومن وجب عليه القطع بالشرع الشريف (فصل) الامور المختصة بالقاهرة ومصر المحروستين حرسهما الله تعالى لا يتجوه أحد على أحد ولا يقوى قوي على ضعيف ولا يتعدى أحد على أحد جملة كافية (فصل) يتقدم بأن لا يمشي أحد بالمدينة ولا ضواحيها في الحسينية والاحكار في الليل إلا لضرورة ولا يخرج من بيته لغير ضرورة ماسة والنساء لا يتصرفن في الليل ولا يخرجن ولا يمشين جملة كافية (فصل) الحبوس تحرس وتحفظ بالليل والنار وتحلق لها الاسارى كلهم من فرنج وانطاكيين وغيرهم ويعتمد ذلك فيهم على كل ما نبتت ويحترز في أمر الداخل إلى الحبوس ويحترز على الاسارى الذين يستعملون والرجال الذي يخرجون معهم ويقام الضمان الثقات على الجاندارية الذين معهم ولا يستخدم في ذلك غريب ولا من فيه ريبة ولا يبيت الاسارى الذين يستعملون إلا في الحبوس ولا يخرج أحد منهم لحاجة تختص به ولا لحمام ولا كنيسة ولا فرجة وتفتقد قيودهم وتوثق في كل وقت ويضاعف الحرس في الليل على خزانة البنود باطنها وظاهرها وعلوها وحولها وكذلك خزانة شمايل وغيرها من الحبوس (فصل) يرتب جماعة من الجند مع الطوف في المدينة لكشف الازقة وغلق الدروب وتفقد أصحاب الارباع وتأديب من خيل بمركزه من أصحاب الارباع وقصوه وتكون الدروب مغلقة وكذلك يجرد جماعة بالحسينية والاحكار وجميع المراكز ويعتمد فيها هذا الاعتماد ومن وجد في الليل قد خالف المرسوم وتمشى لغير عذر يمسك ويؤدب (فصل) يحترز على الابواب غاية الاحتراز وتفتقد في الليل خارجها وباطنها وعند فتحها وغلقها (فصل) الاماكن التي تجتمع فيها الشباب وأولو الدعارة ومن يتعالى العبث والزنطرة لا يفسح لأحد في الاجتماع بها في ليل ولا نهار ويكفون الكف التام بحيث تقوم المهابة وتعظم الحرمة وينزجر أهل البغي والعبث والعيث (فصل) يرتب المجردون حول المدينتين بالقاهرة ومصر المحروستين على العادة وكذلك

جهة القرافة وخلف القلعة وجهة البحر وخارج الحسينية ولا يهمل ذلك ليلة واحدة ولا يفارق المجردون مراكزهم إلا عند السفور وتكامل الضوء (فصل) يتقدم بأن لا يجتمع الرجال والنساء في ليالي الجمع بالقرافتين وتمنع النساء من ذلك (فصل) مهمات الغايبين في البيكار المنصور يلظ ويشد من يوليهم في أمورهم ومصالحهم ويستخلص حقوقهم لنوابهم وغلمانهم ووكلايهم ومن كانت له جهة يستخلص حقه منها ولا يتعرض إلى جهاتهم المستقرة فيما يستحقونه وتقوى أيديهم وتؤخذ الحجج على وكلايهم بما يقبضونه حتى لا يقول موكلوهم في البيكار أن كتب وكلاينا وردت بأنهم لهم يقبضوا لنا شيئاً فيكون ذلك سبباً لرد شكاويهم (فصل) خليج القاهرة ومصر المحروستين يهتم بعمله وحفره واتقانه في وقته بحيث يكون عملاً جيداً متقناً من غير حيف على أحد بل كل احد يعمل ما يلزمه عملاً جيداً (فصل) جسور ضواحي القاهرة يسرع في اتقانها وتعريضها ويجتهد في حسن رصها وفتح مساربها وحفظها من الطارق عليها وتبقى متقنة مكملة إلى وقت النيل المبارك ولا تخرج في أمرتنا عن العادة ولا يحتمي أحد عن العمل فيها عما يلزمه ويحمل الأمر في جراريفها ومقلقلاتها على ما تقدمت به المراسم الشريفة في أمر الجسور القريبة والبعيدة (فصل في الأعمال والولايات) يتنجز الامثلة الشريفة السلطانية المولوية الملكية الصالحية العلايية شرفها الله تعالى باتقان عمل الجسور وجودتها وتعريضها وتفقد القناطر والتراع وعمل ما تهدم منها وترميم ما وهي وإصلاح ما تشعث من أبوابها وتحصيل أصنافها التي تدعوا الحاجة إليها في وقت النيل وتعتمد المراسم الشريفة فيها من غير حماية ويحمل الأمر فيها وفي الجراريف والمقلقلات على ما تقدمت به المراسم الشريفة من أن أحداً لا يعمل بالجاه ومن وجب عليه فيها العمل يعمل على العادة في الايام الصالحية ويؤكد على الولاة في مباشرتها بنفوسهم ولا يتكلوا على المشدين وأي جهة حصل فيها نقص أو خلل كان قبالة ذلك روح والي ذلك العمل وماله ويشدد على الولاة في ذلك غاية التشديد ويحذر اتم التحذير ويؤخذ خطوط الولاة بأن الجسور قد اتقن عملها على الوضع المرسوم به وإنها اتقنت ولم يبق فيها خلل ولا ما يخشون عاقبته ولا ما يخافون دركه وأنها عملت على ما رسم (فضل) يتقدم إلى الولاة ويستخرج الامثلة الشريفة السلطانية بترتيب الخفراء على ما كان الحال رتب عليه في الايام الظاهرية أن يرتب من البلد إلى البلد خفراء ينزلون بيوت شعر على الطرقات على البلدين يخفرون الرايح والغادي وأي من عدم له شيء يلزمه دركه وينادي في البلاد أن لا يسافر أحد في الليل ولا يغور ولا يسافر الناس إلا من طلوع الشمس إلى غروبها ويؤكد في ذلك التأكيد التام (فصل) الثغور المحروسة يلاحظ أمورها ومهماتها ويستخرج الامثلة الشريفة السلطانية في مهامتها وأحوالها وحفظها والاحتراز على المعتقلين بها والاستظهار في حفظهم والتيقظ لمهمات الثغر واستجلاب قلوب التجار واستمالة خواطرهم ومعاملتهم بالرفق والعدل حتى يتواصل التجار ويعمر الثغور ويؤكد عليهم في المستخرج وتحصيل الأموال وأصناف الذخاير وأصناف الخزاين المعمورة والحوايج خاناه ويوعز اليهم بأن هذا وقت انفتاح البحر وحضور التجار وترجية الأموال وصلاح الاحوال والنهضة في تكثير الحمول ويؤكد عليهم في المواصلة بها وأن يكون حمولاً متوفرة وأنه لا يفرط في مستخرج حقوق المراكب الواصلة ولا ينذلك متحصلها ولا ينقض حملها ويسير بجملتها حملاً إلى بيت المال المعمور على العادة ويؤكد عليهم في الاستعمالات وتحصيل الاقمشة والامتعة على اختلاف أصنافها وإزالة الاعذار فيها بحيث لا يتوقف أمر الاستعمالات ولا يؤخر مهما عن وقته ومهما وصل من

المماليك والجواري والحرير والعين والاطلس والفضة الحجر واقصاب الذهب المغزول يعتمد في تحصيله للعادة (فصل) يؤكد على ولاة الأعمال في استخلاص الحقوق الديوانية من جهاتها والمواصلة بالحمول في أوقاتها ومباشرة أحوال الاقصاب ومعاصرها في أوقاتها واعتماد مصلحة كل عمل على ما يناسبه وتقضيه مصلحته من مستخرج ومستغل ومحمول ومزدرع ومستعمل ومنفق ويحذرهم من حصول خلل أو ظهور عجز أو فتور عزم أو تقصير رأي أو ما يقتضي الانكار ويوجب المؤاخذة ويشدد في ذلك وفيما يقتضيه فرص الاوقات التي ينبغي انتهازها على ما يطالعون به (فصل) الخراج الديوانية يحترز عليها وتربى وتنمى ولا يطلق منها شيء إلا بمرسوم شريف منا ويطالع بأن المرسوم ورد بكذا ويعود الجواب بما يعتمد في ذلك (فصل) حقوق الامراء والبحرية والحلقة المنصورة والجند وجهاتهم تستخلص لنوابهم ووكلايهم وتؤخذ الشهادات بها عليم من غلة ودراهم وغير ذلك ولا يحوج الوكلاء إلى شكوى منهم يتصل بمن هو في البيكار ويحسم هذه المادة ويسد باب المماطلة عليهم (فصل) يتقدم إلى الولاة والنظار والمستخدمين بعمل أوراق بما حصل للمقطعين الاصلية في كل بلد ولمقطع الجهة ولمن أفرد له طين بجهة ولمن جهته على المرسوم ليعلم حال المقطعين في هذه السنة الجيشية والجهاتية وما يحصل لكل منهم ولا يحصل من أحد من الولاة مكاسرة ولا إهمال ولا يطمع في الوكلاء لأجل غيبة الامراء أو المقطعين في البيكار ولا يحوج أحد من المقطعين إلى شكوى بسبب متأخر ولا ظليمة ولا اجحاف (فصل) العربان في البلاد تحسم موادهم وتؤخذ رهاينهم ويحترز عليهم ويكتب إلى النواب والولاة في الأعمال بالمناداة بأن أحداً لا يحمل منهم سيفاً ولا رمحاً ولا سلاحاً ولا يفسح لأحد منهم في ابتياع ذلك من القاهرة ومن خالف ذلك وحمله في سفر من بلد إلى بلد تستهلك تلك العدة ويؤدب (فصل) الوكلاء بلغنا أنهم يتجرون في أموال المقطعين ويتصرفون فيها تصرف الملاك في املاكهم فيكشف عن كل وكيل يتجر في مال مخدومه أو يتصرف فيه ويعمل به ورقة ويسيرها إلى الباب الشريف (فصل) الحقوق الخالصة للديوان المعمور في كل ضيعة وكل بلد وكل قرية يحقق امرها ويطلب مشايخ تلك البلد ويشهد عليهم بأن للديوان في هذه خالصاً كذا وكذا دورهما وكذا وكذا اردباً يقومون بها في الاقساط المعلومة والاوقات المعينة المعتادة ولا يحوجوا إلى تردد الرسل ولا خروج المشدين لاستخراج ذلك حملاً عن الرعية وتخفيفاً عنهم لئلا تتضاعف عليهم الكلفة ويصير الدرهم اثنين والقصد بذلك إنما هو تخفيف الوطأة عن الرعية وأن الحق يصل إلى الديوان المعمور من غير اجحاف (فصل) إذا خرج جاندار من مصر إلى الأعمال لا يعطى في العمل أكثر من درهمين نقرة ويوصل الحق الذي جاء فيه لمستحقه وان حصل منه قال وقيل أو حيف أو تعنت يرسم عليه ويسير ويسير الحق مع صاحبه معه ويطالع بان فلاناً الجندار حضر وجرى منه كذا وكذا وتشرح الصورة لتنحسم المواد بذلك (فصل) إذا سير أحد من الولاة رسولاً بسبب خلاص حق من بعض قرى اعماله فيكون ما يعطى الجندار عن مسافة سفر يوم نصف نقرة وعن يومين درهم واحد لا غير وأي جاندار تعدى وأخذ غير ذلك يؤدب ويصرف من تلك الولاية (فصل) يكتب الحجج على كل وكيل يقبض لمخدومه شيئاً من فعله أو جهته من الديوان أو الفلاحين ولا يسلم له شيء إلا بشهادة بحجج مكتتبة عليه يخلد منها حجة للديوان المعمور بما يقبضه من جهته أو اقطاعه ويبقى الحج حاصلة حتى أنا إذا شكى أحد إلينا وسرنا عرفناهم بمن يشكوا من متأخر حقه يطالعونا بأمر وكيله وما قبض من حقه ويسير الشهادة عليه طي مطالعته ويحرر أمر

الشهادات بما وصل لكل مقطع حتى أنا نعلم من مضمون الحجج والشهادات متحصل المقطعين من البلاد والجهات مفصلاً وجملة ما حصل لكل منهم من عين وغلة وما تأخر لكل منهم ونعلم بذلك صورة أمور البلاد والمقطعين وأحوالهم ونزيل شكوى من يجب إزالة شكواه ونعلم أحوالهم **(فصل)** تقرأ هذه التذاكر على المنابر فصلاً فصلاً ليسمعها القريب والبعيد ويبلغها الحاضر والغايب ويعمل بمضمونها كل أحد ومن خرج عنها أو يعمل بخلافها فهو أخبر بما يلقاه من سطوتنا وشدة بأسنا والسلام.

وفي ذي الحجة من هذه السنة وصل الامير شرف الدين عيسى بن مهنا من العراق إلى خدمة الملك المنصور سيف الدين قلاون صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية وعاود الخدمة وسأل الصفح عما فرط من ذنبه من اعانة شمس الدين سنقر الاشقر وما كان عزم عليه من الانضمام إلى التتار وكان اجتماعه بالملك المنصور بمنزلة الروحا ولما وصل إلى الخدمة ركب السلطان إليه وتلقاه وإكرامه وبالغ في إكرامه وأحسن إليه.



ملحق رقم (١٧)

نص بشارة

نسخة بشارة بفتح قلعة الروم (قلعة المسلمين) موجهة من الاشرف خليل بن قلاوون إلى قاضي قضاة دمشق شهاب الدين الخوبي وذلك سنة (٦٩١هـ/١٢٩١م)

نقلاً عن: النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص ٢٢٧- ٢٣٩

بسم الله الرحيم، أخوه خليل بن قلاوون، صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي، القاضي الأجل، وذكر ألقابه ونعوته. خصه الله بأنواع التهاني، وأتحفه بالمسرات التي تعوذ بالسبع المثاني. وأورد على سمعه، من بشائر نصرنا وظفرنا، ما يستوعب في وصفه ومدحه الألفاظ والمعاني.

نبشره بفتح ما سطرت الأقلام إلى الأقاليم أعظم من بشائره، ولا نشرت برد المسرات، بأحسن من إشارته وأشاره. ولا تفوهت ألسنة خطباء هذا العصر على المنابر، بأفصح من معانيه، في سالف الدهر وغابره، وهو البشرى بفتح قلعة الروم، والهنا لكل من رام بالإسلام نصر ببلوغ ما رام وما يروم. ونقصّ أحسن قصص هذا الفتح المبين، والمنح الذي تباشر به سائر المؤمنين، واوى في الإعلان والإعلام به، كل من فرعينا من الأبعدين والاقربين، ونخصّ بمسرى مبشراته الحكام ليّعموا عامة الناس. ونفرض لكل ذي مرتبة عليه منه نصيبا يجمع من الابتهاج والانواع والاجناس. وذلك أنا ركبنا لغزوها، من مصر، وقد كان من قبلنا من الملوك، يستبعد مداها، ويناديها فلا يجب إلا بالصدر والإعراض صداها، ويسائل عن جبالها فتحيل في الجواب على النسور المهومة، ويستشير أولى الرأي في حصرها، فلا يسمع إلى الأقوال المنلوبة والآراء المتلومة. وما زلنا نصل السرى، ونرسل الأعنة إلى نحوها، فتمدّ الجياد أعناقها، إليها مدا، ينقطع بين قوتها وقوته السير. واستقبلنا من جبالها كل صعب المرتقى، وعر المنتقى، شاهق لا يلقى به مسلك ولا يلتقى. فما زالت العزائم الشريفة تسهل حزونه، والشكائم تفجر بوقع السنابك على حجارته عيونه، والجياد المطهمة ترتقي، مع امتطاء متونها بدروع الحديد متونه. فلما أشرف عليها منا أشرف سلطان، جعل جبلها دكا، وحاصرناها حصاراً ألحقها بعكا وأخواتها، وإن كانت أحصن من عكا، ونصبنا عليها عدة مجانيق تنقض حجارتها انقضاض النسور، وتقبض الأرواح من الاجسام وإن ضرب بينها وبينهم بسور، وتفترس أبراجها بصقور افتراس الأسد الهصور. هذا والقوب تسري في بدناتها سريان الخيال، وإن كانت جفونها الممهدة، وعمدها الممددة وحفظتها المجندة، ورواسيها على جبل الفرات موطدة. وقد خندقوا عليها خندقاً جرت فيه الفرات من جانب ونهر مرزبان من جانب، ووضعها واضعها على رأس جبل يزاحم الجوزاء بالمناكب، وسفح صرحها الممدد فكأنه عرش لها على الماء وإذا رمقها طرف رائيها اشتبهت عليه بأنجم السماء. وما زالت المضايقة نقص من حبلها أطرافه، وتستدر بحلبها أخلافه، وتقطع بمسائل جلاد معاولها وجدالها خلافه. وتورد عليها من مهامها كل إيراد لا يجاوب إلا بالتسليم، وتقضى عليها بكل حكم لا نقابل توبته إلا بالتحكيم.

ولما أذن الله الفتح الذي أغلق على الأرمن والتتار أبواب الصواب، والمنح الذي أضفى على أهل الإيمان من المجاهدين أثواب الثواب. فتحت هذه القلعة بقوة الله ونصره، في يوم السبت حادي عشر شهر رجب الفرد. فسبحان من سهل صعبها، وعجل كسبها، وأمكن منها ومن أهلها، وجمع شمل الممالك

الإسلامية بشملها. فالمجلس السامي يأخذ خطه من هذه البشرى، التي بشرت بها ملائكة السماء، ملك البسيطة وسلطان الأرض، وتكاثر على شكرها كل من أرضى الله طاعة وأغضب من لم يرض، من ذوي الإلحاد، وممن حاد الله وحاد، وممن ينتظر من هذا الإيعاز إنجاز الايعاد، فلا ينجيه الإمضاء هربا ولا لإبعاد، فإنه بفتح هذه القلعة وتوقلها، وحيازة ثغرها ومعقلها، تحقق من بسيحون وجيحون، أنهم بعد باب الفرات، بكسر أقفال لا يرجون أنهم ينجون.

وما يكون بعد هذا الفتح، إن شاء الله فتح المشرق والروم والعراق، وملك البلاد من مغرب الشمس إلى مطلع الإشراق، والله تعالى يمدنا من دعواته الصالحة، بما تعدو به عقود الآمال حسنة الاتساق، إن شاء الله.

كتب يوم الفتح المبارك سنة إحدى وتسعين وستمائة، حسب المرسوم الشريف.

